

المجلد السابع من كتاب أضواء البيان

تفسير سورة ص

{ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مَن قَرُنٍ فَنَادُوا بِوَلَدَاتِهِمْ قِرَانَاتٍ ذَاتِ حَيْبٍ مَّنَاصٍ * وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَّارُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ * أَجْعَلِ لِلَّهِ إِلَهَةً آخَرَ وَجِدَا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمِسُوا وَأُصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِمَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خِتْلَاقٌ * أءَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَّحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدًا مَّا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِّنَ الْأَحْرَابِ {

قوله تعالى: {ص وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ}. قرأه الجمهور بالساكنين منهم القراء السبعة، والتحقيق أن ص من الحروف المقطعة في أوائل السور كص في قوله تعالى {لَقَدْ}، وقوله تعالى: {لَقَدْ}.

وقد قدمنا الكلام مستوفى على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة هود، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وبذلك التحقيق المذكور، تعلم أن قراءة من قرأ حَرَ بكسر الدال غير منونة، ومن قرأها بكسر الدال منونة، ومن قرأها بفتح الدال، ومن قرأها بضمها غير منونة، كلها قراءات شاذة لا يعول عليها.

وكذلك تفاسير بعض العلماء المبنية على تلك القراءات، فإنها لا يعول عليها أيضاً.

كما روي عن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: إن صاد بكسر الدال فعل أمر من صادي يصادي مصاداة إذا عارض، ومنه الصدى. وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الصلبة الخالية من الأجسام، أي عارض بعملك القرآن وقابله به، يعني امتثل أوامره واجتنب نواهيه واعتقد عقائده واعتبر بأمثاله واتعظ بمواعظه.

وعن الحسن أيضاً: أن ص بمعنى حادث وهو قريب من الأول.

وقراءة ص بكسر الدال غير منونة: مروية عن أبي بن كعب، والحسن وابن أبي إسحاق وأبي السمال وابن أبي عيطة ونصر بن عاصم.

والأظهر في هذه القراءة الشاذة، أن كسر الدال سببه التخفيف لالتقاء الساكنين وهو حرف هجاء لا فعل أمر من صادي.

وفي رواية عن ابن أبي إسحاق، أنه قرأ {ص} بكسر الدال مع التنوين على أنه مجرور بحرف قسم محذوف، وهو كما ترى، فسقوطه ظاهر.

وكذلك قراءة من قرأ {ص} بفتح الدال من غير تنوين، فهي قراءة شاذة والتفاسير المبنية إليها ساقطة.

كقول من قال: صاد محمد قلوب الناس واستمالهم حتى آمنوا به.

وقول من قال: هو منصوب على الإغراء.

أي الزموا صاد، أي هذه السورة، وقول من قال معناه اتل، وقول من قال: إنه منصوب بنزع الخافض، الذي هو حرف القسم المحذوف. وأقرب الأقوال على هذه القراءات الشاذة، أن الدال فتحت تخفيفاً لالتقاء الساكنين، واختير فيها الفتح إتباعاً للصاد، ولأن الفتح أخف الحركات، وهذه القراءة المذكورة قراءة عيسى بن عمر، وتروى عن محبوب عن أبي عمرو. وكذلك قراءة من قرأ صاد بضم الدال من غير تنوين، على أنه علم للسورة، وأنه خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هذه صاد وأنه منع من الصرف للعلمية والتأنيث لأن السورة مؤنثة لفظاً.

وهذه القراءة مروية عن الحسن البصري وابن السميعة وهارون الأعور. ومن قرأ صاد بفتح الدال قرأ: ق، ون كذلك، وكذلك من قرأها {ص} بضم الدال فإنه قرأ {ص} و {ص} بضم الفاء والنون. والحاصل أن جميع هذه القراءات، وجميع هذه التفاسير المبنية عليها، كلها ساقطة، لا معول عليها.

وإنما ذكرناها لأجل التنبيه على ذلك. ولا شك أن التحقيق هو ما قدمنا من أن {ص} من الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن القراءة التي لا يجوز العدول عنها هي قراءة الجمهور التي ذكرناها.

وقد قال بعض العلماء: إن ص مفتاح بعض أسماء الله تعالى كالصبور والصد.

وقال بعضهم معناه: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغ عن الله، إلى غير ذلك من الأقوال.

وقد ذكرنا أننا قدمنا الكلام على ذلك مستوفى في أول سورة هود. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَ لَقُرْءَانَ ذِي [الدُّكْرِ]، قد قدمنا أن أصل القرآن مصدر، زيد فيه الألف والنون. كما زيدتا في الطغيان، والرجحان، والكفران، والخسران، وأن هذا المصدر أريد به الوصف. وأكثر أهل العلم، يقولون: إن هذا الوصف المعبر عنه بالمصدر هو اسم المفعول.

وعليه فالقرآن بمعنى المقروء من قول العرب: قرأت الشيء إذا أظهرته وأبرزته، ومنه قرأت الناقة السلا والجنين إذا أظهرته وأبرزته من بطنها، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته: تريك إذا دخلت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحين

ذراعي عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

على إحدى الروايتين في البيت.

ومعنى القرآن على هذا المقروء الذي يظهره القارئ، ويبرزه من فيه، بعبارته الواضحة.

وقال بعض أهل العلم: إن الوصف المعبر عنه بالمصدر، هو اسم الفاعل. وعليه فالقرآن بمعنى القارئ، وهو اسم فاعل قرأت، بمعنى جمعت. ومنه قول العرب: قرأت الماء في الحوض أي جمعته فيه.

وعلى هذا فالقرآن بمعنى القارىء أي الجامع لأن الله جمع فيه جميع ما في الكتب المنزلة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {ذِي الذِّكْرِ} فيه وجهان من التفسير معروفان عند العلماء.

أحدهما: أن الذكر بمعنى الشرف، والعرب تقول فلان مذكور يعنون له ذكر أي شرف.

ومنه قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} أي شرف لكم على أحد القولين. الوجه الثاني: أن الذكر اسم مصدر بمعنى التذكير، لأن القرآن العظيم فيه التذكير والمواعظ، وهذا قول الجمهور واختاره ابن جرير.

تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في تعيين الشيء الذي أقسم الله عليه في قوله تعالى: {وَ لِقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ}، فقال بعضهم: إن المقسم عليه مذكور، والذين قالوا إنه مذكور، اختلفوا في تعيينه وأقوالهم في ذلك كلها ظاهرة السقوط.

فمنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله تعالى {إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُّمِ أَهْلِ النَّارِ}.

ومنهم من قال هو قوله: {إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّبَآئِرٍ}.

ومنهم من قال هو قوله تعالى: {إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابُ} كقوله {تَأْتِيهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} وقوله: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}.

ومنهم من قال هو قوله: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم}، ومن قال هذا قال: إن الأصل لكم أهلكتنا ولما طال الكلام، حذفت لام القسم، فقال: كم أهلكتنا بدون لام.

قالوا: ونظير ذلك قوله تعالى: {وَالنَّيْمِ وَصُحَّاهَا} لما طال الكلام بين القسم والمقسم عليه، الذي هو قد أفلح من زكاهها، حذفت منه لام القسم. ومنهم من قال: إن المقسم عليه هو قوله: ص قالوا معنى ص صدق رسول الله والقرآن ذي الذكر. وعلى هذا فالمقسم عليه هو صدقه صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من قال المعنى: هذه ص أي السورة التي أعجزت العرب، {وَ لِقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ}، إلى غير ذلك من الأقوال التي لا يخفى سقوطها.

وقال بعض العلماء إن المقسم عليه محذوف، واختلفوا في تقديره، فقال الزمخشري في الكشاف، التقدير {وَ لِقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ}. إنه لمعجز، وقدره ابن عطية وغيره فقال: {وَ لِقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ} ما الأمر كما يقوله الكفار، إلى غير ذلك من الأقوال.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر صوابه دليل استقرار القرآن: أن جواب القسم محذوف وأن تقديره {وَ لِقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ} ما الأمر كما يقوله الكفار، وأن قولهم المقسم على نفيه شامل لثلاثة أشياء متلازمة.

الأول: منها أن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً وأن الأمر ليس كما يقال الكفار في قوله تعالى عنهم: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا}.

والثاني: أن الإله المعبود جل وعلا واحد، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: {أَجْعَلِ آلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}.

والثالث: أن الله جل وعلا يبعث من يموت، وأن الأمر ليس كما يقوله الكفار في قوله تعالى عنهم: {وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ} وقوله: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا} وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ}.

أما الدليل من القرآن على أن المقسم عليه محذوف فهو قوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}، لأن الإضراب بقوله بل، دليل واضح على المقسم عليه المحذوف. أي ما الأمر كما يقوله الذين كفروا، بل الذين كفروا في عزة، أي في حمية وأنفة واستكبار عن الحق، وشقاق، أي مخالفة ومعادنة.

وأما دلالة استقراء القرآن على أن المنفي المحذوف شامل للأمر الثلاثة المذكورة، فلدلالة آيات كثيرة: أما صحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكون الإله المعبود واحداً لا شريك له فقد أشار لهما هنا.

أما كون الرسول مرسلًا حقاً ففي قوله تعالى هنا: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ} يعني أي لا وجه للعجب المذكور. لأن يجيء المنذر الكائن منهم.

لا شك في أنه بإرسال من الله حقاً. وقولهم {هَذَا سِحْرٌ كَذٰبٌ} إنما ذكره تعالى إنكاراً عليهم وتكذيباً لهم. فعرف بذلك أن في ضمن المعنى والقرآن ذي الذكر إنك مرسل حقاً ولو عجبوا من مجيئك منذراً لهم، وزعموا أنك ساحر كذاب، أي فهم الذين عجبوا من الحق الذي لا شك فيه، وزعموا أن خاتم الرسل، وأكرمهم على الله، ساحر كذاب.

وأما كون الإله المعبود واحداً لا شريك له، ففي قوله هنا: {أَجْعَلِ آلِهَةً إِلَهًا وَجِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، لأن الهمزة في قوله: أجعل للإنكار المشتمل على معنى النفي، فهي تدل على نفي سبب تعجبهم من قوله صلى الله عليه وسلم: إن الإله المعبود واحد.

وهذان الأمران قد دلت آيات أخر من القرآن العظيم، على أن الله أقسم على تكذيبهم فيها وإثباتها بالقسم صريحاً كقوله تعالى مقسماً على أن الرسول مرسل حقاً {يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا * وَ لَقُرْءَانٍ لِّحَكِيمٍ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} فهي توضح معنى ص والقرآن ذي الذكر إنك لمن المرسلين.

وقد جاء تأكيد صحة تلك الرسالة في آيات كثيرة كقوله تعالى {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْكَ بِرُحْمَتِهِ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}، وأما كونه تعالى هو المعبود الحق لا شريك له، فقد أقسم تعالى عليه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى {وَالصَّفَاتِ صَفًا * فَالرَّجْرَجَاتِ رَجْرًا * فَالتَّلَاتِاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ}

ونحو ذلك من الآيات فدل ذلك على أن المعنى تضمن ما ذكر أي والقرآن ذي الذكر، إن إلهكم لواحد كما أشار إليه بقوله {أَجْعَلْ آلَإِلهةَ}.

وأما كون البعث حقاً، فقد أقسم عليه إقساماً صحيحاً صريحاً، في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: {قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} أي الساعة. وقوله: {قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ}.

وأقسم على اثنين من الثلاثة المذكورة وحذف المقسم عليه الذي هو الاثنان المذكوران، وهي كون الرسول مرسلًا، والبعث حقاً، وأشار إلي ذلك إشارة واضحة، وذلك في قوله تعالى {وَ لَقُرْءَانٍ لِّمَجِيدٍ * بَلِّ عَجْوًا أَن جَاءَهُمْ مِّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ لِكُفْرُوْنَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} فاتضح بذلك أن المعنى في القرآن المجيد، إن المنذر الكائن منكم الذي عجبتم من مجيئه لكم منذراً رسول منذر لكم من الله حقاً، وإن البعث الذي أنكرتموه واستبعدتموه غاية الإنكار، والاستبعاد، في قوله تعالى عنكم {أَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} أي ذلك الرجوع الذي هو البعث.

رجع بعيد في زعمكم واقع لا محالة وإنه حق لا شك فيه، كما أشار له في قوله تعالى: {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} إذ المعنى أن ما أكلته الأرض، من لحومهم، ومزقته من أجسامهم، وعظامهم، يعلمه جل وعلا، لا يخفى عليه منه شيء فهو قادر على رده كما كان.

وأحياء تلك الأجساد البالية، والشعور المتمزقة، والعظام النخرة كما قدمنا موضحاً بالآيات القرآنية، في سورة يس في الكلام على قوله تعالى {وَوَفِّحْ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ} وكونه صلى الله عليه وسلم مرسل من الله حقاً، يستلزم استلزماً لا شك فيه، أن القرآن العظيم منزل من الله حقاً وأنه ليس بسحر ولا شعر ولا كهانة ولا أساطير الأولين. ولذلك أقسم تعالى، في مواضع كثيرة، على أن القرآن أيضاً منزل من الله كقوله تعالى في أول سورة الدخان {حَرِّ * وَ لِكِتَابٍ لِّمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ}، وقوله تعالى في أول سورة الزخرف {حَرِّ * وَ لِكِتَابٍ لِّمُؤْمِنِينَ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ بِأَمْرِ لِكِتَابٍ لِّدِينِنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ}.

قوله تعالى: {بَلِّ لِّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ}. قد قدمنا الكلام قريباً على الإضراب ببل في هذه الآية.

وقوله تعالى هنا في عزة أي حمية واستكبار عند قبول الحق، وقد بين جل وعلا في سورة البقرة أن من أسباب أخذ العزة المذكورة بالإثم للكفار أمرهم بتقوى الله، وبين أن تلك العزة التي هي الحمية والاستكبار عن قبول الحق من أسباب دخولهم جهنم، وذلك في قوله عن بعض الكفار الذين يظهرون غير ما يبطنون {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ لِمَهَادُ}.

والظاهر أن وجه إطلاق العزة على الحمية والاستكبار: أن من اتصف بذلك كأنه ينزل نفسه منزلة الغالب، القاهر، وإن كان الأمر ليس كذلك، لأن أصل العزة في لغة العرب الغلبة والقهر، ومنه قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ}

وَالْمُؤْمِنِينَ}، والعرب يقولون: من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء:
كأن لم يكونوا حمى يحتشى إذ الناس إذ ذاك من عز بزا

وقوله تعالى عن الخصم الذين تسوروا على داود: وعزني في الخطاب أي غلبني، وقهرني في الخصومة.
والدليل من القرآن على أن العزة التي أثبتها الله للكفار في قوله: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ}. وقوله: {أَحَدْتُهُ لِعِزَّةِ الْإِيمَانِ}، ليست هي العزة التي يراد بها القهر والغلبة بالفعل، أن الله خص بهذه العزة المؤمنين دون الكافرين والمنافقين، وذلك في قوله تعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}.
ولذلك فسرها علماء التفسير، بأنها هي الحمية والاستكبار، عن قبول الحق. والشقاق: هي المخالفة، والمعاندة كما قال تعالى: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ}. قال بعض العلماء: وأصله من الشق الذي هو الجانب، لأن المخالف المعاند، يكون في الشق أي في الجانب الذي ليس فيه من هو مخالف له ومعاند.

وقال بعض أهل العلم: أصل الشقاق من المشقة لأن المخالف المعاند يجتهد في إيصال المشقة إلى من هو مخالف معاند.

وقال بعضهم: أصل الشقاق من شق العصا وهو الخلاف والتفرق. قوله تعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ}. كم هنا هي الخبرية، ومعناها الإخبار عن عدد كثير، وهي في محل نصب، على أنها مفعول به لأهلكتنا وصيغة الجمع في أهلكتنا للتعظيم، ومن في قوله: من قرن، مميزة لكم، والقرن يطلق على الأمة وعلى بعض من الزمن، أشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة، والمعنى أهلكتنا كثيراً من الأمم السالفة من أجل الكفر، وتكذيب الرسل فعليكم أن تحذروا يا كفار مكة من تكذيب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكفر بما جاء به لئلا نهلككم بسبب ذلك كما أهلكتنا به القرون الكثيرة الماضية.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:
الأولى: أنه أهلك كثيراً من القرون الماضية، يهدد كفار مكة بذلك.
الثانية: أنهم نادوا أي عند معاناة أوائل الهلاك.
الثالثة: أن ذلك الوقت الذي هو وقت معاناة العذاب ليس وقت نداء، أي فهو وقت لا ملجأ فيه، ولا مفر من الهلاك بعد معانيته.
وقد ذكر جل وعلا هذه المسائل الثلاث المذكورة هنا موضحة في آيات كثيرة من كتابه.

أما المسألة الأولى وهي كونه أهلك كثيراً من الأمم، فقد ذكرها في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قُرُونٍ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ} وقوله تعالى: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}. وقوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد ذكر جل وعلا في آيات كثيرة أن سبب إهلاك تلك الأمم الكفر بالله وتكذيب رسوله كقوله في هذه الآية الأخيرة مبيناً سبب إهلاك تلك الأمم التي صرح بأنها (لا يعلمها إلا الله) {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَأَوْا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}.

وقد قدمنا في الكلام على هذه الآية من سورة إبراهيم، أقوال أهل العلم في قوله تعالى: {فَرَأَوْا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} وبيننا دلالة القرآن على بعضها، وكقوله تعالى {وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تُّكْرًا فَمَا أَتَتْهَا وَأَمَّا أَمْرُهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا} وقوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً} إلى قوله: {وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَهُمْ كَثِيرًا وَكُلًّا صَبَّأً لَّهُ الْأَمْثَالُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا} وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ} وقوله تعالى {كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بين تعالى أن المراد بذكر إهلاك الأمم الماضية بسبب الكفر وتكذيب الرسل تهديد كفار مكة، وتخويفهم من أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك إن تمادوا على الكفر وتكذيبه صلى الله عليه وسلم.

ذكر تعالى ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: {أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا} لأن قوله تعالى: {وَاللَّكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا} تهديد عظيم بذلك.

وقوله تعالى: {جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مِّنْ صُورٍ مُّسَوَّمَةٍ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ} فقوله: وما هي من الظالمين ببعيد فيه تهديد عظيم لمن يعمل عمل قوم لوط من الكفر وتكذيب نبيهم، وفواحشهم المعروفة، وقد وبخ تعالى من لم يعتبر بهم، ولم يحذر أن ينزل به مثل ما نزل بهم، كقوله في قوم لوط: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وَ لَيْلٍ أَقْلًا تَعْقِلُونَ} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى لِقْرِيَةِ آلِ لُوطٍ أَمْطَرْنَا مَطَرًا السُّوءِ أَقْلَمَ يَكُونُوا يَرُوتَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَزُجُونُ نُسُورًا}. وقوله فيهم: {وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وقوله فيهم: {وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٌ}. وقوله فيهم وفي قوم شعيب {وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما المسألة الثانية: وهي نداؤهم إذا أحسوا بأوائل العذاب فقد ذكر تعالى في آيات من كتابه نوعين من أنواع ذلك النداء.

أحدهما: نداؤهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين، وذلك في قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَلِيمَةً وَأَنْبِيَاءًا بَعْدَهَا قَوْمًا ؕ آخِرِينَ قَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ} إلى قوله {قَالُوا يُؤْتِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ قَلَمَّا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ} وقوله تعالى: {وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ قَلَمَّا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}.

الثاني: من نوعي النداء المذكور ندأؤهم بالإيمان بالله مستغِيثِينَ من ذلك العذاب الذي أحسوا أوائله، كقوله تعالى: {قَلَمًا رَأَوُا بَاسِنًا قَالُوا وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَجَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ قَلَمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوُا بَاسِنًا سُنَّةَ اللَّهِ لِيَتَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ لِكُفْرُونِ} وهذا النوع الأخير هو الأنسب والأليق بالمقام، لدلالة قوله: {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} الذي هو المسألة الثالثة، معناه: ليس الحين الذي نادوا فيه، وهو وقت معاينة العذاب، حين مناص، أي ليس حين فرار ولا ملجأ من ذلك العذاب الذي عاينوه. فقوله: ولات هي لا النافية زيدت بعدها تاء التانيث اللفظية كما زيدت في ثم، ف قيل فيها تمت، وفي رب، ف قيل فيها ربت. وأشهر أقوال النحويين فيها، أنها تعمل عمل ليس وأنها لا تعمل إلا في الحين خاصة، أو في لفظ الحين ونحوه من الأزمنة، كالساعة والأوان، وأنها لا بد أن يحذف اسمها أو خبرها والأكثر حذف المرفوع منهما وإثبات المنصوب، وربما عكس، وهذا قول سيويه وأشار إليه ابن مالك في الخلاصة بقوله: في النكرات أعملت كليس «لا» وقد تلى «لات» و«إن» ذا العملا وما للات في سوى حين عمل وحذف ذي الرفع فشا والعكس قل

والمناص مفعل من النوص، والعرب تقول: ناصه ينوصه إذا فاته وعجز عن إدراكه، ويطلق المناص على التأخر لأن من تأخر ومال إلى ملجأ ينقذه مما كان يخافه فقد وجد المناص. والمناص والملجأ والمفر والموئل معناها واحد، والعرب تقول: استناص إذا طلب المناص، أي السلامة والمفر مما يخافه، ومنه قول حارثة بن بدر: غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل

والأظهر أن إطلاق النوص على الفوت والتقدم، وإطلاقه على التأخر والروغان كلاهما راجع إلى شيء واحد. لأن المناص مصدر ميمي معناه المنطبق على جزئياته، أن يكون صاحبه في كرب وضيق، فيعمل عملاً، يكون به خلاصه ونجاته من ذلك. فتارة يكون ذلك العمل بالجري والإسراع أمام من يريد بالسوء، وتارة يكون بالتأخر والروغان حتى ينجو من ذلك. والعرب تطلق النوص على التأخر. والبوص بالباء الموحدة التحية على التقدم، ومنه قول امرئ القيس: أمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة وتبوص

وأصوب الأقوال في لات أن التاء منفصلة عن حين وأنها تعمل عمل ليس خلافاً لمن قال: إنها تعمل عمل إن، ولمن قال: إن التاء متصلة بحين وأنه رآها في الإمام، وهو مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه متصلة بها.

وعلى قول الجمهور منهم القراء السبعة، أن التاء ليست موصولة بحين، فالوقف على لات بالتاء عند جميعهم، إلا الكسائي فإنه يقف عليها بالهاء. أما قراءة كسر التاء وضمها فكلتاها شاذة لا تجوز القراءة بها، وكذلك قراءة كسر النون من حين، فهي شاذة لا تجوز، مع أن تخريج المعنى عليها مشكل. وتعسف له الزمخشري وجهاً لا يخفى سقوطه، ورده عليه أبو حيان في البحر المحيط، واختار أبو حيان أن تخريج قراءة الكسر أن حين مجرورة بمن محذوفة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَتَادُوا} أصل النداء: رفع الصوت، والعرب تقول: فلان أندى صوتاً من فلان، أي أرفع، ومنه قوله: فقلت ادعى وأدعوا إن أندا لصوت أن ينادي داعيان

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الأمم الماضية المهلكة ينادون عند معاناة العذاب، وأن ذلك الوقت ليس وقت نداء إذ لا ملجأ فيه ولا مفر ولا مناص. ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ قَلَّمَ بِكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}. وقوله تعالى: {فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}. مَا أَتْرَفْتُمْ فِيهِ وَمَسَّاكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ قَالُوا يُؤْتِلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَمِدين} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بين تعالى وقوع مثل ذلك في يوم القيامة في آيات من كتابه كقوله تعالى: {سُبْحِيئُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّالٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن تَكْبِيرٍ}. وقوله تعالى: {فَإِذَا بَرِقَ لِبَصْرٍ وَخَسَفَ لِقَمَرٌ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ لِمَفْرُكٍ لَا وَرَرَ} والوزر: الملجأ، ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

والناس إلب علينا فيك ليس لنا إلا الرماح وأطراف القنا وزر

وكقوله تعالى: {بَل لَّهُمْ مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً} والموئل اسم مكان من وأل يئل إذا وجد ملجأ يعتصم به، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس:

وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر مني ثم مائيل

أي ثم ما ينجو.

قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن كفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من عجبهم المذكور، ذكره في غير هذا الموضع وأنكره عليهم وأوضح تعالى سببه ورده عليهم في آيات أخر، فقال في عجبهم المذكور {وَ لَقَدْ آتَيْنَا لَمَجِيداً} عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ}. وقال تعالى في إنكاره عليهم في أول سورة يونس {لَر تِلْكَ آيَاتُ لِكِتَابٍ لِّحَكِيمٍ كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ} وذكر مثل عجبهم المذكور في سورة الأعراف عن قوم نوح وقوم هود، فقال عن نوح

مخاطباً لقومه { أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } .

وقال عن هود مخاطباً لعاده: { أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَ ذِكْرًا إِذْ جَعَلْنَا خُلُقَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } ، وبين أن سبب عجبهم من كون المنذر منهم أنه بشر مثلهم زاعمين أن الله لا يرسل إليهم أحداً من جنسهم. وأنه لو أراد أن يرسل إليهم أحداً ل أرسل إليهم ملكاً لأنه ليس بشراً مثلهم وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يمشي في الأسواق. والآيات في ذلك كثيرة كقوله تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلِ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّن السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا } وقوله تعالى: { أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ } وقوله تعالى: { وَقَالَ لِمَآ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا يَشْرَبُونَ لَئِن أُطِغْتُمْ بِبَشَرًا مِّثْلِكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ } . وقوله تعالى: { وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ } . وقوله تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَنبَشِرُ يَهُدُونَنَا } . وقوله تعالى: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُ إِذِ انبَشَرَ مِنَّا وَجِدًا تَّبِعَهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } وقوله تعالى: { قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلِنَا } . وقوله تعالى: { وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًَا لَفِضَى الْأَمْرِ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًَا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ } وقوله تعالى: { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا اللَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } وقوله تعالى: { فَقَالَ لِمَلُؤُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُبِيدُ أَنْ يَتَفَصَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى } وقوله تعالى: { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ نَزَّلَ لِمَلَائِكَةٍ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ } . وقوله تعالى: { لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا } وقوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا لِمَلَائِكَةٍ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ لِمَلَائِكَةٍ لَا يُشْرِي يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ } . وقوله تعالى عن فرعون مع موسى: { قُلُوبًا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ لِمَلَائِكَةٍ مُّقْتَرِنِينَ } .

وقد رد الله تعالى على الكفار عجبهم من إرسال الرسل من البشر في آيات من كتابه.

كقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ لِّمُرْسَلِينَ إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ } وقوله تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً } وقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُّوحٍ إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ قُرَيْشٍ } وقوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُّوحٍ إِلَيْهِمْ فَاسْتَظَّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ } وقوله تعالى: { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ { أي بالرسالة والوحي ولو كان بشراً مثلكم إلي غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { وَأَنْتَلِقَ لَمَلًا مِنْهُمْ أَنْ مُشُورًا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آيَاتِنَا } . قد قدمنا الكلام عليه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: { إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آيَاتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا } . قوله تعالى: { أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن كفار مكة، أنكروا أن الله خص نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه وحده، ولم ينزله على أحد آخر منهم، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء في آيات أخر، مع الرد على الكفار في إنكارهم خصوصه صلى الله عليه وسلم بالوحي، كقوله تعالى عنهم: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } يعنون بالقريتين مكة والطائف، وبالرجلين من القريتين الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود في الطائف زاعمين أنهما أحق بالنبوة منه.

وقد رد جل وعلا ذلك عليهم في قوله تعالى: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ } لأن الهمزة في قوله: أنهم يقسمون، للإنكار المشتمل على معنى النفي، وكقوله تعالى: { قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُؤْتِيَنَا مِن لَّدُنكَ آيَةً وَتَكُونَ مِنَ الْمُنذَرِينَ } .

وقد رد الله تعالى ذلك عليهم في قوله: { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } وأشار إلي رد ذلك عليهم في آية حر هذه في قوله: { بَلَىٰ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلَىٰ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابًا مِّنْ عَذَابِنَا رَأَوْا كَرَّةً لَهُمْ } . لأنه لا يجعل الرسالة حيث يشاء، وبخص بها من يشاء، إلا من عنده خزائن الرحمة. وله ملك السموات والأرض.

وقوله تعالى: { أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا } قد بين في موضع آخر أن ثمود قالوا مثله لنبى الله صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وذلك في قوله تعالى عنهم: { أَعْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلَىٰ هُوَ كَذَابٌ أَشْرِبُ } وقد رد الله تعالى عليهم ذلك في قوله: { سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ كَذَابِ الْأَشْرِبِ } . قوله تعالى: { أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } . قد قدمنا بعض الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: { وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ } .

{ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأُوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْرَابُ * } إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب * وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواج * وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب * طير على ما يقولون وكر عبدنا داوود بن آلينا أنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بلعشيب والإشراق * والطير محشورة كل له أواب * وسددنا ملكه وءاتيناه الحكمة وفصل الخطاب * وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوروا لمخراب * إذ دخلوا على داوود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض و حكم بيننا بالحق ولا نشطط و هدينا إلى صراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك التي نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغ بعضهم على بعض إلا الذين ءآمنوا وعملوا

الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَازْفَقًا وَحُسْنَ مَآبٍ * يَدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَحَكْمًا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ

قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأُوْتَارِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَأَيَكَةَ أُولَئِكَ الْأَخْرَائِينَ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ}. وفي سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: {أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَأَمْتُمْ بِهِ} وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}. وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}. وقد قدمنا أن القط، النصيب من الشيء، أي عجل لنا نصيبنا من العذاب الذي توعدنا به.

وأن أصل القط كتاب الجائزة لأن الملك يكتب فيه النصيب الذي يعطيه لذلك الإنسان، وجمعه قطوط، ومنه قول الأعشى: ولا الملك النعمان حين لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقوله: ويأفق أي يفضل بعضهم على بعض في العطاء المكتوب في القطوط. قوله تعالى: {إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ} إلى قوله {أَوَّابٌ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ}. قوله تعالى: {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ} وقد قدمنا الكلام على مثل هذه الآية، من الآيات القرآنية التي يفهم منها صدور بعض الشيء، من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وبيننا كلام أهل الأصول في ذلك في سورة طه، في الكلام على قوله تعالى: {وَوَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}. واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح منه شيء. قوله تعالى: {يَدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَحَكْمًا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ}. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}، قد بينا الحكم الذي دل عليه، في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَحَكْمًا بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ}

قد أمر نبيه داود فيه، بالحكم بين الناس بالحق ونهاه فيه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى، علة للضلال عن سبيل الله، لأن الفاء في قوله فيضلك عن سبيل الله تدل على العلية.

وقد تقرر في الأصول، في مسلك الإيماء والتنبيه، أن الفاء من حروف التعليل كقوله: سهى فسجد، وسرق فقطعت يده، أو لعله السهو في الأول، ولعله السرقة في الثاني، وأتبع ذلك بالتهديد لمن اتبع الهوى، فأضله ربنا عن سبيل الله، في قوله تعالى بعده يليه: {إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا تَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

ومعلوم أن نبي الله داود، لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى، فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى، يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم، ليشرع لأممهم.

ولذلك أمر نبينا صلى الله عليه وسلم، بمثل ما أمر به داود، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك، في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَإِنْ جَحِمْتُمْ وَحَكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}، وقوله تعالى: {وَأِنْ حُكِمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَحُدْرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} وكقوله تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَفِيقِينَ} وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا} وقوله تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ تَتَّبِعْ أَهْوَاهُ}.

وقد قدمنا الكلام على هذا، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَّحْدُولًا}.

وبينا أن من أصرح الأدلة القرآنية الدالة على أن النبي يخاطب بخطاب، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً قوله تعالى: {وَقَصَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُؤُوا إِلَّا إِلَهَ وَ لَوْلَدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا}، ومن المعلوم أن أباه صلى الله عليه وسلم توفي قبل ولادته، وأن أمه ماتت وهو صغير، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما، ولا كلاهما لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان.

فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له في قوله {فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} فُضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}؛ إنما يراد به التشريع على لسانه لأُمَّته، ولا يراد به هو نفسه صلى الله عليه وسلم، وقد قدمنا هناك أن من أمثال العرب. إياك أعني واسمعي يا جارة، وذكرنا في ذلك رجز سهل بن مالك الفزاري الذي خاطب به امرأة، وهو يقصد أخرى وهي أخت حارثة بن أم الطائي وهو قوله:

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره

وذكرنا هناك الرجز الذي أجابته به المرأة، وقول بعض أهل العلم إن الخطاب في قوله: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا}، هو الخطاب بصيغة المفرد، الذي يراد به عموم كل من يصح خطابه. كقول طرفة بن العبد في معلقته:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أي ستبدي لك ويأتيك أيها الإنسان الذي يصح خطابك، وعلى هذا فلا دليل في الآية، غير صحيح، وفي سياق الآيات قرينة قرآنية واضحة دالة على أن المخاطب بذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم وعليه. فالاستدلال بالآية، استدلال قرآني صحيح، والقرينة القرآنية المذكورة، هي أنه تعالى قال في تلك الأوامر والنواهي التي خاطب بها رسوله صلى الله عليه وسلم، التي أولها {وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَا بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ وَمَا كُنَّا إِلَّا نَذِيرًا}، ما هو صريح، في أن المخاطب بذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم، لا عموم كل من يصح منه الخطاب، وذلك في قوله تعالى: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا}. قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى:

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} وفي آخر سورة قد أفلح المؤمنون. في الكلام على قوله: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا}. قوله تعالى: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}. الإشارة في قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي، ذلك أي خلقنا السماوات والأرض باطلاً هو ظن الذين كفروا بنا، والنفي في قوله ما خلقنا، منصب على الحال لا على عاملها الذي هو خلقنا، لأن المنفي بأداة النفي التي هي ما: ليس خلقه للسماوات والأرض، بل هو ثابت، وإنما المنفي بها، هو كونه باطلاً، فهي حال شبه العمدة وليست فضلة صريحة، لأن النفي منصب عليها هي خاصة، والكلام لا يصح دونها. والكلام في هذا معلوم في محله، ونفي كون خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلاً نزه عنه نفسه ونزاه عنه عباده الصالحون، لأنه لا يليق بكماله وجلاله تعالى. أما تنزيهه نفسه عنه ففي قوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}.

ثم نزه نفسه، عن كونه خلقهم عبثاً، بقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} أي تعالى وتقدس وتنزه عن كونه خلقهم عبثاً.

وأما تنزيه عباده الصالحين له عن ذلك، ففي قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فقوله تعالى عنهم سبحانه أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت السماوات والأرض باطلاً. فقولهم سبحانه تنزيه له، كما نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ}. وقوله تعالى في هذه الآية: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} يدل على أن من ظن بالله ما لا يليق به جل وعلا، فله النار.

وقد بين تعالى في موضع آخر أن من ظن بالله ما لا يليق به أرادته وجعله من الخاسرين، وجعل النار مثواه. وذلك في قوله تعالى: {وَلَكِنَّ ظَنَّتُمْ أَنَّ اللَّهَ

لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ تَوَدَّلِكُمْ ظَنُّكُمْ لِيَذَى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ
لِّخَسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالَ نَارٌ مَّنْوَى لَهُمْ}. وقولنا في أول هذا المبحث
الإشارة في قوله ذلك راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي قد
قدمنا إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا
لَقُرْءَانٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، وبيننا هناك أن الفعل نوعان، أحدهما الفعل
الحقيقي، والثاني الفعل الصناعي، أما الفعل الحقيقي، فهو الحدث المتجدد
المعروف عند النحويين بالمصدر.
وأما الفعل الصناعي، فهو المعروف في صناعة علم النحو بالفعل الماضي،
والفعل المضارع، وفعل الأمر على القول بأنه مستقل عن المضارع.
ومعلوم أن الفعل الصناعي ينحل عند النحويين، عن مصدر وزمن، كما أشار
له في الخلاصة بقوله:
المصدر اسم ما سوى الزمان من مدلولي الفعل كامن من أمن

وعند جماعات من البلاغيين، أنه ينحل عن مصدر، وزمن ونسبة، وهو الأقرب،
كما حرره بعض علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية، وبذلك تعلم أنه لا
خلاف بينهم في أن المصدر، والزمن كامنان في الفعل الصناعي فيصح رجوع
الإشارة والضمير إلى كل من المصدر والزمن الكامنين في الفعل الصناعي.
فمثال رجوع الإشارة إلى المصدر الكامن في الفعل، قوله هنا {ذَلِكَ ظَنُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا}، فإن المصدر الذي هو الخلق، كامن في الفعل الصناعي، الذي
هو الفعل الماضي في قوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا
ذَلِكَ} أي خلق السماوات المذكور الكامن في مفهوم خلقنا ظن الذين
كفروا.

ومثال رجوع الإشارة إلى الزمن الكامن في مفهوم الفعل الصناعي، قوله
تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ لُوعِيدٍ} أي ذلك الزمن الكامن في الفعل
هو يوم الوعيد.

ومثال رجوع الضمير للمصدر الكامن في مفهوم الفعل قوله تعالى: {عُدُّوْا
هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} فقوله: هو، أي العدل الكامن في مفهوم عدلوا، كما تقدم
إيضاحه.

{أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ
الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ * وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ
الصَّفِيفَتُ الْحَيَّادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ لَحْيِرَ عَنِّي ذَكَرَ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ
بِالْحِجَابِ * رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ * وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ عَفِّرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا
يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِ إِنَّكَ أَنْتَ لَوَهَّابٌ * فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً
حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَّاصٍ * وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ *
هَذَا عَطَاؤُنَا فَظُنُّ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَلْزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ
* وَ لُكُرْ عِبْدَتَا أَيُّوبَ إِذْ تَادَىٰ رَبُّهُ أَنِّي مَسْنِيَّ الشَّيْطَانِ يُضْبَبُ وَعَذَابٌ * رُكُضٌ
بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا

وَذَكَرِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا وَاصْرًا بَّهٍ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ
صَابِرًا نَعْمَ لَعَبْدٌ إِنَّهُ أَوَّابٌ * وَذَكَرَ عِبَادَنَا ابْنَهُمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي
الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ
الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ * وَذَكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِيْسَى وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ *
هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ * جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ *
مُتَّكِنِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ
أَثْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمٍ لِّحِسَابِ {

قوله تعالى: { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } . أم في قوله: أم نجعل الذين، وقوله، أم
نجعل المتقين، كلاهما، منقطعة وأم المنقطعة، فيها لعلماء العربية ثلاثة
مذاهب:

الأول: أنها بمعنى همزة استفهام الإنكار.

الثاني: أنها بمعنى بل الإضرابية.

والثالث: أنها تشمل معنى الإنكار والإضراب معاً، وهو الذي اختاره بعض
المحققين.

وعليه فالإضراب بها هنا انتقالي لا إبطالي ووجه الإنكار بها عليهم واضح، لأن
من ظن بالله الحكيم الخبير، أنه يساوي بين الصالح المصلح، والمفسد
الفاجر، فقد ظن ظناً قبيحاً جديراً بالإنكار.

وقد بين جل وعلا هذا المعنى، في غير هذا الموضوع، وضم حكم من يحكم به،
وذلك في قوله تعالى الجاثية: { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جُنَّخُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ
كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } .
قوله تعالى: { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } .
قوله تعالى: كتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب، وقد ذكر جل وعلا، في
هذه الآية الكريمة، أنه أنزل هذا الكتاب، معظماً نفسه جل وعلا، بصيغة
الجمع، وأنه كتاب مبارك وأن من حكم إنزاله، أن يتدبر الناس آياته، أي
يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى،
وأن يتذكر أولوا الأبواب، أي يتعظ أصحاب العقول السليمة، من شوائب
الاختلال.

وكل ما ذكره في هذه الآية الكريمة جاء واضحاً في آيات أخر.
أما كونه جل وعلا، هو الذي أنزل هذا القرآن، فقد ذكره في آيات كثيرة كقوله
تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } وقوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
الْمُبْرَكَةِ } وقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ
أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.
وأما كون هذا الكتاب مباركاً، فقد ذكره في آيات من كتابه كقوله تعالى:
{ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } . وقوله تعالى: { وَهَذَا
كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ وَتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } . والمبارك كثير البركات،
من خير الدنيا والآخرة.

ونرجو الله القريب المجيب، إذ وفقنا لخدمة هذا الكتاب المبارك، أن يجعلنا
مباركين أينما كنا، وأن يبارك لنا وعلينا، وأن يشملنا ببركاته العظيمة في الدنيا

والآخرة، وأن يعم جميع إخواننا المسلمين، الذين يأتمرون بأوامره بالبركات والخيرات، في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب.

وأما كون تدبر آياته، من حكم إنزاله: فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتحضيض على تدبره، وتوبيخ من لم يتدبره، كقوله تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالٍ أَقَالُهَا}. وقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ غُتْلِفًا كَثِيرًا} وقوله تعالى: {أَقْلَمَ يَدَبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ}.

وأما كون تذكر أولي الأبواب، من حكم إنزاله، فقد ذكره في غير هذا الموضع، مقترناً ببعض الحكم الأخرى، التي لم تذكر في آية ح هذه كقوله تعالى في سورة إبراهيم {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} فقد بين في هذه الآية الكريمة، أن تذكر أولي الأبواب، من حكم إنزاله مبيناً منها حكمتين أخريين، من حكم إنزاله، وهما إنذار الناس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله، وكون إنذار الناس وتذكر أولي الأبواب، من حكم إنزاله، ذكره في قوله تعالى: {إِن كُنتُمْ لَا تَحِبُّونَ أَنْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ فَالْأَلْبَابُ} من حرج منه لئلا ينذر به وذكرى للمؤمنين {لأن اللام في قوله لتنذر، متعلقة بقوله: أنزل، والذكرى اسم مصدر بمعنى التذكير، والمؤمنون في الآية لا يخفى أنهم هم أولوا الأبواب.

وذكر حكمة الإنذار في آيات كثيرة كقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}.

وقوله تعالى: {وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لَنُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ}. وقوله تعالى: {تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا آبَاؤُهُمْ}. وقوله تعالى: {لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا}.

وذكر في آيات أخر، أن من حكم إنزاله، الإنذار والتبشير معاً، كقوله تعالى: {فَاتِمَّا يَسِّرَنَّهُ يَلْهِنَاكَ يُبَشِّرُ بِهٖ لِمُتَّقِينَ وَيُنذِرُ بِهٖ قَوْمًا لِّدَاءٍ}. وقوله تعالى: {لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله أن يبين صلى الله عليه وسلم للناس ما أنزل إليهم ولأجل أن يتفكروا، وذلك قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}.

وقد قدما مراراً كون لعل من حروف التعليل، وذكر حكمة التبيين المذكورة مع حكمة الهدى والرحمة، في قوله تعالى: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

وبين أن من حكم إنزاله، تثبيت المؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين في قوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ}.

وبين أن من حكم إنزاله، إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أن يحكم بين الناس بما أراه الله، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}.

والظاهر أن معنى قوله: {يَمَّا أَرَاكَ اللَّهُ} أي بما علمك من العلوم في هذا القرآن العظيم، بدليل قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِإِيمَانٍ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}. وقوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ لِقَاصِصٍ يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ}.

وبين جل وعلا أن من حكم إنزاله إخراج الناس من الظلمات إلى النور وذلك في قوله تعالى: {لَرِ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ}.

وبين أن من حكم إنزاله التذكرة لمن يخشى في قوله تعالى: {طَهَّمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقِيَ لَا تَذَكَّرَ لَمَن يَخْشَى} أي ما أنزلناه إلا تذكرة لمن يخشى.

وهذا القصر على التذكرة إضافي، وكذلك القصر في قوله تعالى الذي ذكرناه قبل هذا {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ}، بدليل الحكم الأخرى التي ذكرناها.

وبين أن من حكم إنزاله قرآناً عربياً وتصريف الله فيه من أنواع الوعيد أن يتقي الناس الله، أو يحدث لهم هذا الكتاب ذكراً، أي موعظة وتذكراً، يهديهم إلى الحق، وذلك في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ}، ذكر في هذه الآية الكريمة، أنه وهب سليمان لداود، وقد بين في سورة النمل أن الموهوب ورث الموهوب له، وذلك في قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ}.

وقد بينا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى عن زكريا {قَهَبَ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِنِي وَيَرِثُ مِنِّي آلٌ يَعْقُوبُ} أنها وراثه علم ودين لا وراثه مال. قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً}. قد قدمنا الكلام على هذه الآية، وعلى ما يذكره المفسرون فيها، من الروايات التي لا يخفى سقوطها، وأنها لا تليق بمنصب النبوة، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكِ عَدَايَا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}. وما روي عنه من السلف من جملة تلك الروايات، أن الشيطان أخذ خاتم سليمان، وجلس على كرسيه وطرد سليمان إلى آخره يوضح بطلانه، قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَن يَبْعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ} واعتراف الشيطان بذلك في قوله: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ لِمُخْلِصِينَ}. قوله

تعالى: {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ}. قد قدمنا الكلام عليه موضحاً بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ}.

وفسرنا هناك قوله هنا حيث أصاب وذكرنا هناك أوجه الجمع، بين قوله هنا: {رُحَاءً}، وقوله هناك: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً} ووجه الجمع أيضاً بين عموم الجهات المفهوم من قوله هنا {حَيْثُ أَصَابَ} أي حيث أراد وبين خصوص الأرض المباركة المذكورة هناك في قوله {تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}. قوله تعالى: {وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ}. قد قدمنا

أيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: {وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوِيكَ لهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}. قوله تعالى: {وَ لُكُرْ عَبْدًا أَيُّوبَ إِذْ تَادَى رَبُّهُ أَتَى مَسْنَى الشَّيْطَانِ يَنْصُبُ وَعَدَابٍ} إلى قوله {لأولى اللَّبِّ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع التعرض لإزالة ما فيه من الإشكال في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: {وَ أَيُّوبَ إِذْ تَادَى رَبُّهُ} إلى قوله: {وَ ذَكَرَى لِلْعَبِيدِينَ}. قوله تعالى: {وَ لُكُرْ عَبْدَاتَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ}. أمر الله جل وعلا، نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، أن يذكر عبده إبراهيم ولم يقيد ذلك الذكر بكونه في الكتاب، مع أنه قيده بذلك في سورة مريم، في قوله تعالى: {وَ لُكُرْ فِي لِكْتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا}. قوله تعالى: {وَ لُكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ لَيْسَعَ}. أطلق هنا أيضاً الأمر بذكر إسماعيل وقيده في سورة مريم بكونه في الكتاب في قوله تعالى: {وَ لُكُرْ فِي لِكْتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ لُوعْدٍ}، وفي ذلك إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور أيضاً بذكر جميع المذكورين في الكتاب. ولذلك جاء ذكرهم كلهم في القرآن العظيم كما لا يخفى. قوله تعالى: {وَ عِنْدَهُمْ قَصِيْرُ الطَّرْفِ أُنْرَابٌ}. قد قدمنا الكلام عليه، في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {وَ عِنْدَهُمْ قَصِيْرُ الطَّرْفِ عِيْنٌ}.

{إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ * هَذَا وَإِنَّ لِلطَّالِعِينَ لِشَرِّ مَا اب * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفْنَهَا لِمَهَادٍ * هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَعَسَاقٍ * وَعَآخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ * هَذَا فَوْجٌ مُّفْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنْسِفْنَاهُ لِقَارِئِ رَبِّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَوَيْدُهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَخَذَتْهُمُ بِيخْرِيًّا أَمْ رَآعَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ لَوْ جِدَّ لِقَهَّارٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَزِيْرٍ لِعَقَّارٍ * قُلْ هُوَ تَبَّآ عَظِيْمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيْرٌ مُّبِيْنٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ * فَإِذَا يَتُوبُهُ وَتَفَحَّتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَفَعُّوا لَهُ بِسَجْدِيْنَ * فَسَجَدَ لِمَلَأِكَةِ كُلُّهُمُ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ سَبَّحْتَهُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِيْنَ * قَالَ يَا أَيْسَاسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ * قَالَ فَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجيْمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِيْنَ * إِلَى يَوْمِ لُوقَاتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَيُعَذِّبُكَ لِأَعْوِيْتِهِمْ أَجْمَعِيْنَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِيْنَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ * لِأَمْلَآنِ جَهَنَّمَ هُنَاكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِيْنَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِيْنَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِيْنَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن نعيم الجنة، لا نفاذ له، أي لا انقطاع له ولا زوال، ذكره جل وعلا في آيات آخر كقوله تعالى فيه: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوْدٍ}. وقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ}. قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}. قد

قدمنا ما يوضحه، من الآيات القرآنية في مواضع متعددة، من هذا الكتاب المبارك، ذكرنا بعضها في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}، وذكرنا بعضه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا لَارِكُوا فِيهَا جَمِيعًا} وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}.

قد تقدم إيضاحه، مع بعض المباحث في سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَبُتِّكِبَرٍ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ}. قوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة هود، وذكرنا الأحكام المتعلقة بالآيات، في الكلام على قوله تعالى عن نبيه نوح {وَيَقُومِ لِأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ ٱللَّهِ}. قوله تعالى: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}. الحين المذكور هنا، قال بعض العلماء: المراد به بعد الموت، وبديل له ما قدمنا في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: {وَ عُبُدُوا رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ لِيَقِينُ}.

وقال بعض العلماء: الحين المذكور هنا، هو يوم القيامة ولا منافاة بين القولين، لأن الإنسان بعد الموت تتبين له حقائق الهدى والضلال. واللام في لتعلمن موطنه للقسم، وقد أكد في هذه الآية الكريمة أنهم سيعلمون نبا القرآن أي صدقه، وصحة جميع ما فيه بعد حين بالقسم، ونون التوكيد.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بأنهم سيعلمون نبا بعد حين، قد أشار إليه تعالى، في سورة الأنعام، في قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ لِحَقِّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبِيٍّ مَّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}. قال غير واحد من العلماء: لكل نبي مستقر، أي لكل خبر حقيقة ووقوع، فإن كان حقاً تبين صدقه ولو بعد حين، وإن كان كذباً تبين كذبه، وستعلمون صدق هذا القرآن ولو بعد حين.

تم بحمد الله تفسير سورة ص

تفسير سورة الزمر

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ لِكِتَابٍ يُلْحَقُ بِهِ عِبْدُ ٱللَّهِ مُخْلِصًا لَهُ ٱلَّذِينَ * أَلَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱلْخَالِصُ وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ إِن ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِن ٱللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُضْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ ٱللَّهُ لَوْجِدُ لِقَهَّارٌ * خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِ ٱلْحَقِّ يَكُوِّرُ لَيْلٌ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيَكُوِّرُ ٱلنَّهَارُ عَلَى لَيْلٍ وَسَخَّرَ مِّن ٱلسَّمْسِ وَ ٱلْقَمَرِ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ٱلأ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّن ٱلْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ

فِي يُطُونَ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ إِلَهُ رَبُّكُمْ لَهُ
مُلْكٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِلٌ نُّصْرَفُونَ}

قوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}. قد دل استقراء القرآن العظيم، على أن الله جل وعلا، إذا ذكر تنزيله لكتابه، أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، المتضمنة صفاته العليا.

ففي أول هذه السورة الكريمة، لما ذكر تنزيله كتابه، بين أن مبدأ تنزيله كائن منه جل وعلا، وذكر اسمه الله، واسمه العزيز، والحكيم، وذكر مثل ذلك في أول سورة الجاثية، في قوله تعالى: {حَمِّ تَنْزِيلٍ لِّكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} وفي أول سورة الأحقاف في قوله تعالى: {حَمِّ تَنْزِيلٍ لِّكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}.

وقد تكرر كثيراً في القرآن، ذكره بعض أسمائه وصفاته، بعد ذكر تنزيل القرآن العظيم، كقوله في أول سورة {حَمِّ تَنْزِيلٍ لِّكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ} وقوله تعالى في أول فصلت {حَمِّ تَنْزِيلٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. وقوله تعالى في أول هود {لَرِ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ حَبِيرٍ} وقوله في فصلت {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ لِبَطْلٍ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وقوله تعالى في صدر يس {تَنْزِيلٍ لِّعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ} وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ لَعَلِّمِينَ تَنَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}. وقوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ لَعَلِّمِينَ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ}.

ولا يخفى أن ذكره جل وعلا هذه الأسماء الحسنى العظيمة، بعد ذكره تنزيل هذا القرآن العظيم، يدل بإيضاح، على عظمة القرآن العظيم، وجلالة شأنه وأهمية نزوله، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَ عِبْدُ اللَّهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} أمر الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم. في هذه الآية الكريمة، أن يعبد في حال كونه، مخلصاً له الدين، أي مخلصاً له في عبادته، من جميع أنواع الشرك صغيرها وكبيرها، كما هو واضح من لفظ الآية.

والإخلاص، إفراد المعبود بالقصد، في كل ما أمر بالتقرب به إليه، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الإخلاص في العبادة لله وحده، لا بد منه، جاء في آيات متعددة، وقد بين جل وعلا، أنه ما أمر بعبادة، إلا عبادة يخلص له العابد فيها.

أما غير المخلص فكل ما أتى به من ذلك، جاء به من تلقاء نفسه، لا بأمر ربه، قال تعالى: {وَمَا أَمْؤًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، وقال جل وعلا {قُلْ لِيُؤْمِرُوا أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَمْرٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ لِمُسْلِمِينَ} إلى قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ عِبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ}.

وقد قدمنا الكلام على العمل الصالح، وأنه لا بد فيه من الإخلاص، في أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}. وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} أي التوحيد الصافي من شوائب الشرك، أي هو المستحق لذلك وحده، وهو الذي أمر به. وقول من قال من العلماء: إن المراد بالدين الخالص كلمة لا إله إلا الله موافق لما ذكرناه. والعلم عند الله تعالى.

ثم لما ذكر جل وعلا إخلاص العبادة له وحده، بين شبهة الكفار التي احتجوا بها، للإشراك به تعالى، في قوله تعالى هنا: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}. فبين أنهم يزعمون أنهم ما عبدوا الأصنام، إلا لأجل أن تقربهم من الله زلفى، والزلفى القرابة. فقوله: زلفى، ما ناب عن المطلق من قوله ليقربونا، أي ليقربونا إليه قرابة تنفعنا بشفاعتهم في زعمهم.

ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.

وقد قدمنا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: {وَ اتَّبِعُوا إِلَيْهِ لَوْ سَيْلَةً} أن هذا النوع من ادعاء الشفعاء، واتخاذ المعبودات من دون الله وسائط من أصول كفر الكفار.

وقد صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله جل وعلا {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ هُمْ يُشْرِكُونَ} وأشار إلى ذلك في آية الزمر هذه، لأنه جل وعلا لما قال عنهم: {مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يخْتَلِفُونَ} أتبع ذلك بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}.

وقوله: كفار، صيغة مبالغة، فدل ذلك على أن الذين قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى جامعون بذلك، بين الكذب والمبالغة في الكفر بقولهم ذلك، وسيأتي إن شاء الله لهذا زيادة إيضاح في سورة الناس. قوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ لَوْحِدٌ لِقَهَّارٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة، بكثرة في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ لِبَنَاتٍ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه خلق بني آدم من نفس واحدة هي أبوهم آدم، ثم جعل من تلك النفس، زوجها يعني حواء. أي وبث جميع بني آدم منهما، وأوضح هذا في مواضع آخر من كتابه، كقوله تعالى في أول سورة النساء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} وقوله في الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}، وتأنيث الوصف، بقوله واحدة، مع أن

الموصوف به مذكر، وهو آدم نظراً إلى تأنيث لفظ النفس، وإن كان المراد بها مذكراً، ونظير ذلك من كلام العرب قوله: أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَخًا وَمِن تَحْتِهَا أَنْجَاءً لِّقَوْمٍ كَفَرُوا} قد قدمنا إيضاح هذه الأزواج الثمانية بنص القرآن العظيم، في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: {وَالْحَيْلِ لِمُسْوَءَةٍ وَالْأَنْعَمِ وَ الْحَزْتِ}. قوله تعالى: {يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ} قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى: {يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لَّبِثٍ قَلِيلًا خَلَقْتُمْ مِّن تُرَابٍ} وبيننا هناك المراد بالظلمات الثلاث المذكورة هنا.

{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ * أَمْنَ هُوَ قَائِمٌ عَائِنًا لَّيْلِ سَجْدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَتْرُجُوهَا رَحْمَةً رَّبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * قُلْ يَعْبَادُ الَّذِينَ آمَنُوا أَلْفَوْا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * قُلْ إِن أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأَمِرتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِن أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * وَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِّن دُونِهِ قُلْ إِن لِّخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ لُخْسِرَانٌ لِّمَنِينَ * لَهُمْ مِّن قَوْفِهِمْ ظِلٌّ مِّن النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ وَتَقُونَ * وَ الَّذِينَ جُتِبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَيُّوا إِلَى اللَّهِ لَهُمْ لِبَشَرِي فَيُبَشِّرُ عِبَادَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ لِقَوْلٍ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ * أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأنت تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ * لَكِن الَّذِينَ آتَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرْفٌ مِّن قَوْفِهَا عُرْفٌ مُّبِينَةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ لِمِيعَادَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَيَّ نُورٍ مِّن رَّبِّي قَوْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّتَابِيهِ يَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ * أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ مِنَ جَهَنَّمَ لَا يَسْعُرُونَ قَادَاقَهُمْ اللَّهُ الْخَزِيءُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعْنَةُ الَّذِينَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَزَآنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شِرْكَاءُ

مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لَرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِحَمْدِ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَنُورَى لِلْكَافِرِينَ * وَ لِيذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمْ لِمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ {

قوله تعالى: { إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ } . قد بين جل وعلا، في هذه الآية الكريمة، أنه غني عن خلقه الغني المطلق، وأنه لا يضره كفرهم به، والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى { وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنِي حَمِيدٌ } وقوله تعالى: { فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ } ، وقوله تعالى: { قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ لَعَنِي } . وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنْتُمْ أَلْفِقْرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ لَعَنِي حَمِيدٌ } وقوله تعالى: { تَفْسِيهِ وَاللَّهُ لَعَنِي وَأَنْتُمْ } ، وقد أوضحنا هذا بالآيات في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ } . قد قدمنا إيضاحه مع إزالة الإشكال، والجواب عن الأسئلة الواردة، على تلك الآيات في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا } ، وأوضحنا ذلك، مع إزالة الإشكال في بعض الآيات، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بغير علم } . قوله تعالى: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا } . قوله تعالى: { قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له مع الإشارة إلى بحث أصوله في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى { ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ اللَّامِلُ فَيَسْوَفَ يَعْلَمُونَ } . قوله تعالى: { وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ } . الظاهر أن معنى الآية، أن الإنسان إذا كان في محل لا يتمكن فيه من إقامة دينه على الوجه المطلوب، فعليه أن يهاجر منه، في مناكب أرض الله الواسعة، حتى يجد محلاً تمكنه فيه إقامة دينه.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ لَمَلَائِكَةً ظَلَمُوا أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا } . وقوله تعالى: { يُعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ قَائِيَاتٍ وَ عِبْدُونَ } ، ولا يخفى أن الترتيب بالفاء في قوله: { قَائِيَاتٍ وَ عِبْدُونَ } على قوله: { إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ } دليل واضح على ذلك. قوله تعالى: { قُلْ إِنَّ الْخُسْرَانَ لِيُزِينُكُمْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } .

قد قدمنا الآيات الموضحة له، من أوجه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ } . قوله

تعالى: {لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة الأنبياء، في الكلام على قوله تعالى: {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهُمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ}، وذكرنا طرفاً من ذلك، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}. قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جُنَّبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من تحقيق معنى لا إله إلا الله، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفاتحة، في الكلام على قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}. قوله تعالى: {لَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}. أظهر الأقوال في الآية الكريمة، أن المراد بالقول، ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، من وحي الكتاب والسنة، ومن إطلاق القول على القرآن قوله تعالى: {أَقْلَمَ يَدَبَرُوا لِقَوْلَ}. وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلُومًا هُوَ بِهِ لَهْزَلٌ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} أي يقدمون الأحسن، الذي هو أشد حسناً، على الأحسن الذي هو دونه في الحسن، ويقدمون الأحسن مطلقاً على الحسن. ويدل لهذا آيات من كتاب الله.

أما الدليل على أن القول الأحسن المتبع. ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحي، فهو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} وقوله تعالى لموسى يأمره بالأخذ بأحسن ما في التوراة {فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا}. وأما كون القرآن فيه الأحسن والحسن، فقد دلت عليه آيات من كتابه. واعلم أولاً أنه لا شك في أن الواجب أحسن من المندوب، وأن المندوب أحسن من مطلق الحسن، فإذا سمعوا مثلاً قوله تعالى: {وَ فَعَلُوا لِحَيْرٍ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} قدموا فعل الخير الواجب، على فعل الخير المندوب، وقدموا هذا الأخير، على مطلق الحسن الذي هو الجائر، ولذا كان الجزاء بخصوص الأحسن الذي هو الواجب والمندوب، لا على مطلق الحسن، كما قال تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وقال تعالى {وَبَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} كما قدمنا إيضاحه في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وبيننا هناك دلالة الآيات على أن المباح حسن، كما قال صاحب المراقي: ما ربنا لم ينه عنه حسن وغيره القبيح والمستهجن

ومن أمثلة الترغيب في الأخذ بالأحسن وأفضليته مع جواز الأخذ بالحسن قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} فالأمر في قوله: {فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} للجواز، والله لا يأمر إلا بحسن. فدل ذلك على أن الانتقام حسن، ولكن الله بين أن العفو والصبر، خير منه وأحسن في قوله: {وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، كقوله تعالى في إباحة الانتقام، {وَلَمَنْ أُنْتَصَرَ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ}، مع أنه بين أن الصبر والغفران خير

منه، في قوله بعده: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، وكقوله في جواز الانتقام {لَا يُحِبُّ اللَّهُ لِحَثَرَ بِأَلْسِنَةٍ مِنْ لِقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ} مع أنه أشار إلى أن العفو خير منه، وأنه من صفاته جل وعلا مع كمال قدرته وذلك في قوله بعده: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}. وكقوله جل وعلا مثنيًا على من تصدق، فأبدى صدقته {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ} ثم بين أن إخفاءها وإيتاءها الفقراء، خير من إبدائها الذي مدحه بالفعل الجامد، الذي هو لإنشاء المدح الذي هو نعم، في قوله {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوهُا وَتُؤْتُوهُا لِفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}.

وكقوله في نصف الصداق اللازم، للزوجة بالطلاق، قبل الدخول، فنصف ما فرضتم، ولا شك أن أخذ كل واحد من الزوجين النصف حسن، لأن الله شرعه في كتابه في قوله {فَنِصْفُ مَا قَرَضْتُمْ} مع أنه رغب كل واحد منهما، أن يعفو للآخر عن نصفه، وبين أن ذلك أقرب للتقوى وذلك في قوله بعده {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا لِقَوْلِ لِقَضَلِ بَيْنَكُمْ}.

وقد قال تعالى: {وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا} ثم أرشد إلى الأحسن بقوله {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ} وقال تعالى: {وَلِجُجْرُوحِ قِصَاصٌ} ثم أرشد إلى الأحسن، في قوله: {فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ}.

واعلم أن في هذه الآية الكريمة أقوالاً غير الذي اخترنا.

منها ما روي عن ابن عباس، في معنى {فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} قال «هو الرجل يسمع الحسن والقبیح فيتحدث بالحسن، وينكف عن القبیح، فلا يتحدث به». وقيل يستمعون القرآن وغيره، فيتبعون القرآن.

وقيل: إن المراد بأحسن القول لا إله إلا الله، وبعض من يقول بهذا يقول: إن الآية نزلت فيمن كان يؤمن بالله قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم، كزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وأبي ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، إلى غير ذلك من الأقوال. قوله تعالى: {أَقَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَقَانَتْ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}. أظهر القولين في الآية الكريمة، أنهما جملتان مستقلتان، فقوله أقمن حق عليه كلمة العذاب جملة مستقلة، لكن فيها حذفاً، وحذف ما دل المقام عليه واضح، لا إشكال فيه.

والتقدير: أقمن حق عليه كلمة العذاب، تخلصه أنت منه، والاستفهام مضمن معنى النفي، أي لا تخلص أنت يا نبي الله أحداً سبق في علم الله أنه يعذبه من ذلك العذاب، وهذا المحذوف دل عليه قوله بعده {أَقَانَتْ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ}.

وقد قدمنا مراراً قولي المفسرين في أداة الاستفهام المقترنة بأداة عطف كالفاء والواو وثم كقوله:

هنا: {أَقَمَنْ حَقَّ} وقوله: {أَقَانَتْ تُنْقِذُ}.

أما القول بأن الكلام جملة واحدة شرطية، كما قال الزمخشري: أصل الكلام: أقمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه جملة شرطية، دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب، تقديره: أنت مالك أمرهم، فمن حق عليه

العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى كررت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة، فإنه لا يظهر كل الظهور.

وأعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة يس في الكلام على قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلُ عَلِيِّ أَكْثَرِهِمْ}، وبيننا دلالة الآيات على المراد بكلمة العذاب. قوله تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَةٌ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وعد أهل الجنة بالغرف المبنية، ذكره جل وعلا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة سبأ {إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ أَصْغَفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ}. وقوله تعالى في سورة التوبة: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ}. وقوله تعالى في سورة الصف: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ لِقَافُورٌ لِعَظِيمٍ}، لأن المساكن الطيبة المذكورة في التوبة والصف صادقة بالغرف المذكورة في الزمر وسبأ، وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا}. قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ}. الينابيع: جمع ينبوع، وهو الماء الكثير.

وقوله: فسلكه أي أدخله، كما قدمنا إيضاحه بشواهد العربية، والآيات القرآنية في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: {قُلْنَا حُمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من سورة الزمر، قد أوضحناه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}. قوله تعالى: {ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}. قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى: {وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُقِ السَّيِّئَاتِ وَالْأَوْثَانِ} وأحلنا عليه في سورة فاطر، في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا}.

قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ}. قوله ثم يهيج: أي ثم بعد نضارة ذلك الزرع وخضرته ييبس، ويتم جفافه ويثور من منابته فتراه أيها الناظر مصفراً يابساً، قد زالت خضرته ونضارته. ثم يجعله حطاماً أي فتاتاً، متكسراً، هشيماً، تذروه الرياح، إن في ذلك المذكور من حالات ذلك الزرع، المختلف الألوان، لذكري أي عبرة وموعظة وتذكيراً لأولي الألباب، أي لأصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، فقد ذكر جل وعلا مصير هذا الزرع على سبيل الموعظة والتذكير، وبين في موضع آخر، أن ما وعظ به خلقه هنا من حالات هذا الزرع شبيه أيضاً بالدنيا. فوعظ به في موضع وشبه به حالة الدنيا في موضع آخر، وذلك في قوله تعالى في سورة الحديد {أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُمْ وَقَاخِرُ بَيْنِكُمْ وَتَكَثُرٌ فِي الْأُمُودِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ لِكَفَارٍ تَبَاتُهُ ثُمَّ

يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصَفَّرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}. وبين في سورة الروم أن من أسباب
 أصفراره المذكور إرسال الريح عليه، وذلك في قوله: {وَلَيْنُ أَرْسَلْنَا رِيحًا
 قَرَأُوهُ مُصَفَّرًا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ}. قوله تعالى: {أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ
 صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ}. قد تقدم الكلام عليه في سورة
 الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
 لِلْإِسْلَامِ}. قوله تعالى: {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}. قد قدمنا الآيات
 الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {إِنْ تَخْرُصْ عَلَى
 هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ}، وفي غير ذلك من الموضوع. قوله تعالى:
 {قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة
 الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا}. وقوله في
 هذه الآية الكريمة: قرآنًا انتصب على الحال وهي حال مؤكدة، والحال في
 الحقيقة هو عربيًا، وقرآنًا توطئة له وقيل انتصب على المدح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: عربيًا، أي لأنه بلسان عربي كما قال
 تعالى: {لِسَانٌ لِّدِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}. وقال
 تعالى في أول سورة يوسف {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. وقال
 في أول الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. وقال في طه
 {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ
 لَهُمْ ذِكْرًا} وقال تعالى في فصلت: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا
 فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} وقال تعالى في الشعراء {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ
 لَعَلِّمِينَ تَنْزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ لِسَانًا عَرَبِيًّا مُّبِينًا}.
 وقال تعالى في سورة شوري {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ
 لُقَيْرٍ وَمَنْ حَوْلَهَا}.

وقال تعالى في الرعد {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعَدَ
 مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} إلى غير ذلك من الآيات.
 وهذه الآيات القرآنية تدل على شرف اللغة العربية وعظمتها، دلالة لا ينكرها
 إلا مكابر. قوله تعالى: {وَإِذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ}. أوضح جل وعلا، أن الذي في
 هذه الآية بمعنى الذين، بدليل قوله بعده {أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ مَا يَشَاءُونَ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}.

وقد ذكرنا في غير هذا الموضوع أن الذي تأتي بمعنى الذين، في القرآن وفي
 كلام العرب، فمن أمثلة ذلك في القرآن، قوله تعالى في آية الزمر هذه:
 {وَإِذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ}. وقوله تعالى في سورة البقرة {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ إِذِي
 سَبُّوْقَد تَارًا} أي الذين استوقدوا بدليل قوله بعده: {ذَهَبَ اللَّهُ يَنْوَرِهِمْ
 وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ} وقوله فيها أيضًا {كَأَلِذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ
 النَّاسِ} أي كالذين ينفقون بدليل قوله بعده {لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا
 كَسَبُوا}. وقوله تعالى في التوبة {وَحُصِّنْ كَأَلِذِي خَاصُوا} على القول بأن
 الذي موصولة لا مصدرية، ونظيره من كلام العرب قول أشهب بن رميلة:
 وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عدیل بن الفرخ العجلی: فبت أساقی القوم إخوتی الذی غوابتهم غی
ورشدہم رشد

وقول الراجز: یا رب عبس لا تبارک فی أحد فی قائم منها ولا فیمن قعد

إلا الذی قاموا بأطراف المسد قوله تعالی: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ
جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له فی سورة النحل، فی الکلام
علی قوله تعالی {جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا
يَشَاءُونَ}. قوله تعالی: {وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ لِيذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}. قد
قدمنا الآيات الموضحة له، فی هذه السورة الكريمة، فی الکلام علی قوله
تعالی: {فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} وفي سورة
النحل فی الکلام علی قوله تعالی: {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ}

{الَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ الَّذِي يَعْزِيزُ ذِي انتِقَامٍ * وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ
مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ * قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا
عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَمَلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ
عَذَابٌ مُقِيمٌ * إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكَيِّلٍ * اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ
مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا لِمَوْتٍ وَيُرْسِلُ
الْآخَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * أَمْ لِحَدُّوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ شَفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ
الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ
وَحْدَهُ شَتَّمَاتٌ قُلُوبٌ لِذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا
هُمْ يَسْتَشِيرُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ
اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ قَالَ إِنَّمَا
أُوْتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصْبَحُومُ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوَلَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ
يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ
أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ
مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثْنَا وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي

عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي حَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ
 هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ
 الْكٰفِرِينَ * وَيَوْمَ لَقِيْمَةَ تَرَىٰ لٰذِيْنَ كَذَبُوْا عَلٰى اللّٰهِ وُجُوْهُهُمْ مُّسْوَدَّةٌ اَلَيْسَ
 فِي جَهَنَّمَ مَثْوٰى لِّلْمُتَكَبِّرِيْنَ * وَيُنَجِّى اللّٰهُ لٰذِيْنَ تَقُوْا بِمَقَارِيْهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ
 اَلْسُوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ * اَللّٰهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيْلٌ * لَهُ
 مَقَالِيْدُ السَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضِ وَاَلَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيٰتِ اللّٰهِ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ *
 قُلْ اَفَعَيَّرَ اللّٰهُ تٰمُرُوْا اَعْبُدُ اَيُّهَا الْجٰهِلُوْنَ * وَلَقَدْ اَوْحٰى اِلَيْكَ وَاِلٰى لٰذِيْنَ مِنْ
 قَبْلِكَ لِيْنُ اَشْرَكَتْ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُوْنَنَّ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ * بَلِ اللّٰهُ وَاعْبُدُ
 وَكُنْ مِنَ الشّٰكِرِيْنَ * وَمَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَاَلْاَرْضُ جَمِيْعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ
 لَقِيْمَةَ وَاَلسَّمٰوٰتُ مَطْوِيٰتٌ بِيَمِيْنِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ * وَنُفِخَ فِي
 الصُّوْرِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْاَرْضِ اِلَّا مَنْ شَاءَ اللّٰهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيْهِ
 اٰخَرٰى فَاِذَا هُمْ قِيٰمٌ يَنْظُرُوْنَ * وَاَشْرَقَتِ الْاَرْضُ بِنُوْرِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتٰبُ
 وَجِيءَ بِالنَّبِيِّْنَ وَاَلشّٰهَدٰآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ
 نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ وَهُوَ اَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُوْنَ }

قوله تعالى: { اَلَيْسَ اَللّٰهُ بِكَافٍ عَبْدَهٗ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في
 سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اَللّٰهُ وَمَنْ
 اَتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِيْنَ } وعلى قراءة الجمهور بكاف عبده، بفتح العين وسكون
 الباء، بإفراد العبد، والمراد به، النبي صلى الله عليه وسلم. كقوله:
 { فَسَيَكْفِيْكَهُمُ اَللّٰهُ } وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اَللّٰهُ } .
 وأما على قراءة حمزة والكسائي عباده بكسر العين وفتح الباء بعدها ألف
 على أنه جمع عبد، فالظاهر أنه يشمل عباده الصالحين من الأنبياء وأتباعهم.
 قوله تعالى: { وَيَخَوِّفُوْكَ بِالَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية
 الكريمة، أن الكفار عبدة الأوثان، يخوفون النبي صلى الله عليه وسلم،
 بالأوثان التي يعبدونها من دون الله، لأنهم يقولون له: إنها ستضره وتخبله،
 وهذه عادة عبدة الأوثان لعنهم الله، يخوفون الرسل بالأوثان ويزعمون أنها
 ستضرهم وتصل إليهم بالسوء.

ومعلوم أن أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه، لا يخافون غير الله ولا سيما
 الأوثان، التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، ولذا قال تعالى عن نبيه
 إبراهيم لما خوفوه بها { وَكَيْفَ اَخَافُ مٰا اَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُوْنَ اَنْتُمْ اَشْرَكْتُمْ
 بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا قٰآءٌ لِّقَرِيْبِيْنَ اَحَقُّ بِالْاٰمِيْنَ } .
 وقال عن نبيه هود وما ذكره له قومه من ذلك { اِنْ تَقُوْلُ اِلَّا عُتْرٰكَ بَعْضُ
 ءَاَلِهَتِنَا بِسُوْءٍ قٰآلٍ اَشْهَدُ اللّٰهَ وَ اَلْبِيْهٰوُ اَتٰى بِرَدٍّ مِّمَّا تُشْرِكُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ
 فَكَيْدُوْنِي جَمِيْعًا اِنَّمَا لَنْظُرُوْنَ اِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلٰى اللّٰهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دٰآبَةٍ اِلَّا
 هُوَ اٰخِذٌ بِنٰصِيَّتِهَا اِنَّ رَبِّي عَلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ } .

وقال تعالى في هذه السورة الكريمة، مخاطباً نبينا صلى الله عليه وسلم،
 بعد أن ذكر تخويفهم له بأصنامهم { وَلٰئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضَ
 لَيَقُوْلَنَّ اللّٰهُ قُلْ اَفَرَايْتُمْ مٰا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ اَرَادَنِيَ اللّٰهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ

كَشِفَتْ صُورَهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِكَتٌ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

ومعلوم أن الخوف من تلك الأصنام من أشنع أنواع الكفر والإشراك بالله. وقد بين جل وعلا في موضع آخر، أن الشيطان يخوف المؤمنين أيضاً، الذين هم أتباع الرسل من أتباعه وأوليائه من الكفار، كما قال تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}. والأظهر أن قوله {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} حذف فيه المفعول الأول، أي يخوفكم أوليائه، بدليل قوله بعده: {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا}. قوله تعالى: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ صُرَّتِهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِكَتٌ رَحْمَتِهِ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن المعبودات

من دونه، لا تقدر أن تكشف ضرراً أراد الله به أحداً، أو تمسك رحمة أراد بها أحداً، جاء موضعاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ بَنِيَّائِهِ} وقوله تعالى: {قَالَ هَلْ يُسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُوهُمْ وَنَادُوا يُنْفَعُونَكَ أَوْ يُصَرُّونَ وَقَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}. وقوله تعالى: {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقوله تعالى {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ شُكِّرْتُمْ فُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ لِدِينٍ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الصافات، في الكلام علي قوله تعالى {إِنَّا كَذَلِكَ نَفَعُ الْمُجْرِمِينَ أَن يَكْفُرُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ}. قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين ظلموا وهم الكفار، ولو كان لهم في الآخرة ما في الأرض جميعاً ومثله معه، لهدوا أنفسهم به من سوء العذاب الذي عاينوه يوم القيامة، وبين هذا المعنى في مواضع أخر وصرح فيها بأنه لا فداء ألبتة يوم القيامة كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرًا قَلَنْ يُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ الْأَرْضَ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}. وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} وقوله تعالى {فَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ لِمَصِيرٍ}. وقوله تعالى: {وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}. فقوله {وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ} أي وإن تعدد كل فداء، وقوله تعالى {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}. وقوله {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}، والعدل الفداء وقوله تعالى {وَإِنَّ الَّذِينَ لَمْ يُسْتَجِيبُوا لَهُمْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِمَهَادٍ}.

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة آل عمران، في الكلام على قوله تعالى {قَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ فُتْدَىٰ بِهِ}. قوله تعالى: {وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا}. قوله وبدأ لهم أي ظهر لهم سيئات ما كسبوا، أي جزاء سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، فالظاهر أنه أطلق السيئات هنا مراداً بها جزاؤها.

ونظيره من القرآن قوله تعالى {وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}. ونظير ذلك أيضاً إطلاق العقاب، على جزاء العقاب، في قوله تعالى {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ}. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنهم يبدوا لهم يوم القيامة، حقيقة ما كانوا يعملونه في الدنيا جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى {هَتَالِكِ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ} وقوله تعالى {يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} وقوله تعالى {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}. وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ يَوْمَلَّنَا مَا لِهَذَا لِكِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}. وقوله تعالى {وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْرَّمْتَهُ طَيْرُهُ فِي عُقْبِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا فَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا تُمَّ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا تُلْحِينِهِ}. قوله تعالى: {وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة في قوله تعالى {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} وقدما طرفاً منه في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. قوله تعالى: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له من جهات في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ لِذِي نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}. قوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَىٰ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى ما يماثله من الآيات في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌُ}. قوله تعالى: {الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ}.

تقدم أيضاً بالآيات القرآنية، مع بيان جملة من آثار الكبر السيئة، في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى {قَالَ وَ هَبْطُ مِنْهَا قَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا وَ تَكْبُرَ مِنْهَا} قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}. قد تقدم الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وقد ذكرنا في سورة المائدة الآية المتضمنة للقيد الذي لم يذكر في هذه الآيات على قوله تعالى {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ}. قوله تعالى: {ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة سُر، في الكلام على قوله تعالى { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ }. قوله تعالى: { وَوُضِعَ الْكِتَابُ }. قد قدمنا إيضاحه، بالآيات القرآنية، في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى { وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَىٰ لِمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ } وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى { وَنُخْرِجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا }. قوله تعالى: { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَقِيَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ }. اختلف العلماء في المراد بالشهداء في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: هم الحفظة من الملائكة الذين كانوا يحصون أعمالهم في الدنيا، واستدل من قال هذا بقوله تعالى { وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ }.

وقال بعض العلماء: الشهداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون على الأمم، كما قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }. وقيل: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، وأظهر الأقوال في الآية عندي، أن الشهداء هم الرسل من البشر، الذين أرسلوا إلى الأمم، لأنه لا يقضي بين الأمة حتى يأتي رسولها، كما صرح تعالى بذلك في سورة يونس في قوله تعالى: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } فصرح جل وعلا بأنه يسأل الرسل عما أجابتهم به أممهم، كما قال تعالى: { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ } وقال تعالى { فَلْتَسْأَلَنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلْتَسْأَلَنَ لِمُرْسَلِينَ } وقد يشير إلى ذلك قوله تعالى: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا } لأن كونه صلى الله عليه وسلم هو الشهيد على هؤلاء الذين هم أمته، يدل على أن الشهيد على كل أمة هو رسولها.

وقد بين تعالى أن الشهيد على كل أمة من أنفس الأمة، فدل على أنه ليس من الملائكة، وذلك في قوله تعالى { وَيَوْمَ تَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } والرسل من أنفس الأمم كما قال تعالى في نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

{ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ } وقال تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ }.

والمسوغ للإيجاز بحذف الفاعل في قوله تعالى: { وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ } هو أنه من المعلوم الذي لا نزاع فيه، أنه لا يقدر على المجيء بهم إلا الله وحده جل وعلا.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير الكسائي وهشام عن ابن عامر، ووجيء بكسر الجيم كسرة خالصة.

وقراه الكسائي وهشام عن ابن عامر بإشمام الكسرة الضم. وإنما كان الإشمام هنا جائزاً، والكسر جائزاً، لأنه لا يحصل في الآية البتة، لبس بين المبني للفاعل، والمبني للمفعول، إذ من المعلوم أن قوله هنا: وجيء مبني للمفعول ولا يحتمل البناء للفاعل بوجه، وما كان كذلك جاز فيه الكسر الخالص وإشمام الكسرة الضم كما أشار له في الخلاصة بقوله: واكسر أو أشمم فا ثلاثي أعل عيناً وضم حاء كبوع فاحتمل

أما إذا أسند ذلك الفعل إلى ضمير الرفع المتصل، فإن ذلك قد يؤدي إلى اللبس، فيشتبه المبني للمفعول، بالمبني للفاعل، فيجب حينئذ اجتناب الشكل الذي يوجب اللبس، والإتيان بما يزيل اللبس من شكل أو إشمام كما أشار له في الخلاصة بقوله: وإن بشكل خيف لبس يجتنب ومن أمثلة ذلك قول الشاعر، وقد أنشده صاحب اللسان: وإني على المولى وإن قل نفعه دفعه إذا ما صمت غير صبور

فقوله صمت أصله صيمت بالبناء للمفعول فيجب الإشمام أو الضم لأن الكسر الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل كبعث وسرت. وقول جرير يرثي المرار بن عبد الرحمن بن أبي بكر: وأقول من جزع وقد فتنا به ودموع عيني في الرداء غزار للدافنين أبا المكارم والندا لله ما ضمننت بك الأحجار

أصله فوتنا بالبناء للمفعول فيجب الكسر أو الإشمام لأن الضم الخالص يجعله محتملاً للبناء للفاعل، كقلنا وقمنا.

{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَىٰ لِمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ صَلَاتُكُمْ وَخَلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَىٰ لِمَلَائِكَةِ حَاقِقِينَ مِنْ جُودِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ لِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا}. الزمر الأفواج المتفرقة، واحده زمرة، وقد عبر تعالى عنها هنا بالزمر، وعبر عنها في الملك بالأفواج في قوله تعالى: {كَلِمَاتٍ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ}، وعبر عنها في الأعراف بالأمم في قوله تعالى: {قَالَ لُجُلُوا بِرَأْسِهِمْ فَأَمَّا قَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِكُمْ مِّنْ لَّجِنٍّ وَاللَّيْسَ فِي النَّارِ كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ آخَتَهَا حَتَّىٰ إِذَا لَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ}.

وقال في فصلت {وَحَقَّ عَلَيْهِمْ يَقُولُ بِرَأْسِهِمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِهِمْ مِّنْ لَّجِنٍّ وَاللَّيْسَ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} وقال تعالى: {هَٰذَا فَوْجٌ مُّفْتَحٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ}.

ومن إطلاق الزمر على ما ذكرنا قوله: وترى الناس إلى منزله زمراً تتنابه بعد زمر

وقول الراجز: إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزالت زمراً بعد زمر

قوله تعالى: { حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا }. لم يبين جل وعلا هنا عدد أبوابها المذكورة، ولكنه بين ذلك، في سورة الحجر في قوله { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّفْسُومٌ }. وقوله تعالى { وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا } قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: (فُتِحَتْ) يالتاء. قوله تعالى: { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا }. قوله تعالى: { وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ وَ لَأُخْلُوها خَالِدِينَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: { لِيَذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ لِمَلَائِكَةٍ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَأُخْلُوا لِحَبَّةٍ بِمَا كَانْتُمْ تَعْمَلُونَ }. قوله تعالى: { وَقَالُوا لِحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ تَتَّبَعُوا مِنَ لِحَبَّةٍ حَيْثُ نَشَاءُ }. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة إذا دخلوها وعابنوا ما فيها من النعيم، حمدوا ربهم وأثنوا عليه، ونوهوا بصدق وعده لهم، وذكر هذا المعنى في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: { وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لِحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُؤْتُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }. وقوله تعالى: { وَتَلَوَّأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا }. وقوله تعالى: { جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُخَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا لِحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا لِحْرَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ لَئِنْ أَحَلَّنَا دَارَ لِمُقَامَةٍ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ }.

تم بحمد الله تفسير سورة الزمر

J P

{ حَرْ * تَنْزِيلٌ لِكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ لِعَزِيزٍ لَعَلِيمٌ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّلُوعِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِي لِمَصِيرٍ * مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرْكَ تَقْلِبُهُمْ فِي لِبَابِهِ * كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِلَبَطٍ لِيُذِخُوا بِهِ لِحَقِّ فَآخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * لِيَذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ

وَذَلِكَ هُوَ لَقُورٌ لِعَظِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادَوْنَ لَمَقَتِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ {

قوله تعالى: {عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُولِ}. جمع جل وعلا في هذه الآية الكريمة، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {تَبٰىءَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا لَعَفُورٌ الرَّحِيمُونَ} عَدَابِي هُوَ لَعْدَابُ {الْأَلِيمِ} وقوله تعالى: {قَالَ عَذَابٌ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}. وقوله تعالى في آخر الأنعام: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ}. وقوله في الأعراف: {إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معروفة. قوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه لا يجادل في آيات الله، أي لا يخاصم فيها محاولاً ردها، وإبطال ما جاء فيها، إلا الكفار.

وقد بين تعالى في غير هذا الموضع الغرضي الحامل لهم على الجدل فيها مع بعض صفاتهم، وذلك في قوله {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبَطِّلَ لِيُذْهِبُوا بِهِ لِحَقِّ وَ اتَّخَوْا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوا} وأوضح ذلك الغرضي، في هذه السورة الكريمة، في قوله {وَجَادِلُوا لِيُبَطِّلَ لِيُذْهِبُوا بِهِ لِحَقِّ}. وقد قدمنا في سورة الحج أن الذين يجادلون في الله منهم، أتباع يتبعون رؤساءهم المضلين، من شياطين الإنس والجن، وهم المذكورون في قوله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآتَهُ قَاتَهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلْسَعِيرٍ}. وإن منهم قادة هم رؤساؤهم المتبوعون وهم المذكورون في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئَتَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}.

وبين تعالى في موضع آخر أن من أنواع جدال الكفار، جدالهم للمؤمنين الذين استجابوا لله وأمنوا به وبرسوله، ليردوهم إلى الكفر بعد الإيمان، وبين بطلان حجة هؤلاء، وتوعدهم بغضبه عليهم، وعذابه الشديد وذلك في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا سُلِّجِبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}. قوله تعالى: {فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي بِلَادٍ}.

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، ليشرع لأمته عن أن يغره تقلب الذين كفروا في بلاد الله، بالتجارات والأرباح، والعافية وسعة الرزق، كما كانت قريش تفيض عليها الأموال من أرباح التجارات، وغيرها من رحلة الشتاء والصيف المذكورة في قوله تعالى: {إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ} أي إلى اليمن والشام وهم مع ذلك كفرة فجرة، يكذبون نبي الله ويعادونه.

والمعنى: لا تغتر بإنعام الله عليهم تقلبهم في بلاده، في إنعام وعافية فإن الله جل وعلا يستدرجهم بذلك الإنعام، فيمتعهم به قليلاً، ثم يهلكهم فيجعل مصيرهم إلى النار.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات من كتابه كقوله تعالى: {لَا يَعْزَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي لَبَدِمَتَعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُنْسَى لِمَهَادُ}. وقوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ { وقوله تعالى: {قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتُّهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُنْسَى لِمَصِيرٍ} وقوله تعالى {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} وَمَتَّعُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ { إلى غير ذلك من الآيات.

والفاء في قوله: فلا يغررك، سببية أي لا يمكن تقلبهم في بلاد الله. متنعمين بالأموال والأرزاق، سبباً لاغترارك بهم، فتظن بهم طناً حسناً لأن ذلك التنعم، تنعم استدراج، وهو زائل عن قريب، وهم صائرون إلى الهلاك والعذاب الدائم. قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}. قرأ هذا الحرف نافع وابن عامر (كلمات) بصيغة الجمع المؤنث السالم وقرأه الباقون (كلمة ربك) بالإنفراد.

وقد أوضحنا معنى الكلمة والكلمات فيما يماثل هذه الآية في سورة بقره في الكلام على قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. قوله تعالى: {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ لِيَتِي وَعَدَّتْهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ}. لم يبين هنا الآية المتضمنة لوعدهم بالجنات، هم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

ولكنه جل وعلا أوضح وعده إياهم بذلك في سورة الرعد في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنقَضُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سُبْرًا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ}.

{قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا فِئْتَيْنِ وَأَخِيَّتَيْنِ وَغُتْرَفْنَا بِدُثُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ * ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا وَلِحُكْمِ اللَّهِ الْعَلِيِّ لِكَبِيرٍ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ * وَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَن لِّمَلَكُ لِيَوْمَ لِلَّهِ لُجُودٌ لِّقَهَارٍ * لِيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ لِيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْقَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَىٰ لِحَنَاجِرٍ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاتَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ

اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ
 رَابِئَاتٍ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ لِعِقَابِ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى
 بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَيْسِرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ *
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
 نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ دَرُوزٌ أَقْتُلْ مُوسَى
 وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ
 مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ {
 قوله تعالى: { قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا لِئَتَيْنِ وَأُخَيَّبَتْنَا لِئَتَيْنِ } . التحقيق الذي لا ينبغي
 العدول عنه، أن المراد بالإماتتين في هذه الآية الكريمة، الإمامة الأولى، التي
 هي كونهم في بطون أمهاتهم نطفاً وعلقاً، ومضغاً. قبل نفخ الروح فيهم،
 فهل قبل نفخ الروح فيهم لا حياة لهم، فأطلق عليهم بذلك الاعتبار اسم
 الموت.

والإمامة الثانية هي إماتتهم وصوروتهم إلى قبورهم عند انقضاء آجالهم في
 دار الدنيا.

وأن المراد بالإحياءتين، الإحياءة الأولى في دار الدنيا، والإحياءة الثانية، التي
 هي البعث من القبور إلى الحساب، والجزاء والخلود الأبدي، الذي لا موت
 فيه، إما في الجنة وإما في النار.

والدليل من القرآن على أن هذا القول في الآية هو التحقيق، أن الله صرح به
 واضحاً في قوله جل وعلا { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ
 يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } وبذلك تعلم أن ما سواه من الأقوال الآية
 لا معول عليه.

والأظهر عندي أن المسوغ الذي سوغ إطلاق اسم الموت على العلقه،
 والمضغة مثلاً، في بطون الأمهات، أن عين ذلك الشيء، الذي هو نفس
 العلقه والمضغة، له أطوار كما قال تعالى: { وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا } { يَخْلُقُكُمْ
 فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ }، ولما كان ذلك الشيء، تكون فيه
 الحياة في بعض تلك الأطوار، وفي بعضها لا حياة له، صح إطلاق الموت
 والحياة عليه من حيث إنه شيء واحد، ترتفع عنه الحياة تارة وتكون فيه
 أخرى، وقد ذكر له الزمخشري مسوغاً غير هذا، فانظره إن شئت. قوله
 تعالى: { وَوَعَدْنَا فِرْعَوْنَ بِدُؤُنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ } . قد بين جل وعلا في
 غير هذا الموضع، أن الاعتراف بالذنب في ذلك الوقت لا ينفع، كما قال تعالى:
 { وَوَعَدْنَا فِرْعَوْنَ بِدُؤُنَا فَسُخَّرْنَا لِصَاحِبِ السَّعِيرِ } وقال تعالى { رَبَّنَا أَبْصَرْنَا
 وَسَمِعْنَا وَرَجَعْنَا نَعْمَلُ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ } إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: فهل إلى خروج من سبيل، قد قدمنا
 إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى
 { يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ لِذِي نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ
 لَنَا مِن شِيفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ } . قوله تعالى:
 { ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا } . قد تقدم
 الكلام عليه في سورة الصافات، في الكلام على قوله تعالى { إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ
 بِالْمُجْرِمِينَ } كَلَّا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } . قوله تعالى:

{ وَلِحُكْمِ اللَّهِ لِعَلِيِّ كَبِيرٍ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: { وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا }. قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ }. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه جل وعلا هو الذي يري خلقه آياته، أي الكونية القدرية ليجعلها علامات لهم على ربوبيته، واستحقاقه العبادة وحده ومن تلك الآيات الليل والنهار والشمس والقمر كما قال تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }. ومنها السماوات والأرضون، وما فيهما والنجوم، والرياح والسحاب، والبحار والأنهار، والعيون والجبال والأشجار وأثار قوم هلكوا، كما قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ } إلى قوله { لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }. وقال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ }. وقال تعالى: { إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْتَدِئُ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } خَلْقِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وقال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ }. وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه، من أنه هو الذي يري خلقه آياته، بينه وزاده إيضاحاً في غير هذا الموضوع، فبين أنه يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وأن مراده بذلك البيان أن يتبين لهم أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق، كما قال تعالى: { سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَوَأَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ }.

والآفاق جمع أفق وهو الناحية، والله جل وعلا قد بين من غرائب صنعه، وعجائبه، في نواحي سماواته وأرضه، ما يتبين به لكل عاقل أنه هو الرب المعبود وحده. كما أشرنا إليه، من الشمس والقمر والنجوم والأشجار والجبال، والدواب والبحار، إلى غير ذلك. وبين أيضاً أن من آياته التي يريهم ولا يمكنهم أن ينكروا شيئاً منها تسخيرها لهم الأنعام ليركبوها ويأكلوا من لحومها، وينتفعوا بألبانها، وزبدها وسمونها، وأقطها ويلبسوا من جلودها، وأصوافها وأوبارها وأشعارها، كما قال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ لُفْلُكٍ تَحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ قَائِلًا آيَاتٍ لِلَّهِ تُنَكِّرُونَ }.

وبين في بعض المواضع، أن من آياته التي يريها بعض خلقه، معجزات رسله، لأن المعجزات آيات، أي دلالات، وعلامات على صدق الرسل، كما قال تعالى في فرعون { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا لَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ } وبين في موضع آخر، أن من آياته التي يريها خلقه، عقوبته المكذبين رسله، كما قال تعالى في قصة إهلاكه قوم لوط { وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

وقال في عقوبته فرعون وقومه بالطوفان والجراد والقمل إلخ: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالْبَصْفَارَ وَالدمَّ آيَاتٍ مَّفَصَّلَاتٍ }. قوله تعالى: { وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا }. أطلق جل وعلا في هذه الآية الكريمة، الرزق وأراد المطر، لأن المطر سبب الرزق، وإطلاق المسبب

وإرادة سببه لشدة الملازمة بينهما، أسلوب عربي معروف، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق السبب وإرادة المسبب كقوله: أكنت دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فأطلق الدم وأراد الدية، لأنه سببها.

وقد أوضحنا في رسالتنا المسماة: منع جواز المجاز، في المنزل للتعبد والإعجاز، أن أمثال هذا أساليب عربية، نطقت بها العرب في لغتها، ونزل بها القرآن، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية، لا داعي إليه، ولا دليل عليه، يجب الرجوع إليه.

وإطلاق الرزق في آية المؤمن هذه على المطر جاء مثله في غير هذا الموضوع كقوله تعالى في أول سورة الجاثية {وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فأوضح بقوله {فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} أن مراده بالرزق المطر، لأن المطر هو الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها. وقد أوضح جل وعلا، أنه إنما سمي المطر رزقاً، لأن المطر سبب الرزق، في آيات كثيرة من كتابه، كقوله تعالى في سورة البقرة {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}، والياء في قوله فأخرج به سببية كما ترى. وكقوله تعالى في سورة إبراهيم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ}. وقوله تعالى في سورة وَ: {وَتَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ}.

وبين في آيات أخر أن الرزق المذكور، شامل لما يأكله الناس، وما تأكله الأنعام، لأن ما تأكله الأنعام، يحصل بسببه للناس الانتفاع بلحومها، وجلودها وألبانها، وأصوافها وأوبارها، وأشعارها، كما تقدم كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} وقوله تعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}.

فقوله: فيه تسيمون، أي تتركون أنعامكم سائمة فيه تأكل منه من غير أن تتكلفوا لها مؤونة العلف كما تقدم أيضاً بشواهد العربية، في سورة النحل وكقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّكُلُوا وَرَعَوًا أَنْعَمَكُمْ}. وقوله تعالى: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءًهَا وَمَرَعًاهَا وَجِبَالَ أُزْبَيْهَا مَيْعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الناس ما يتذكر منهم، أي ما يتعظ بهذه الآيات المشير إليها في قوله: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ} أي من رزقه الله الإنابة إليه.

والإنابة: الرجوع عن الكفر والمعاصي، إلى الإيمان والطاعة.

وهؤلاء المنيبون، المتذكرون، المتعظون، هم أصحاب العقول السليمة من شوائب الإختلال، المذكورون في قوله تعالى في أول سورة آل عمران { وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } وفي قوله تعالى في سورة إبراهيم { وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } إلى غير ذلك من الآيات. وقد دلت آية المؤمن هذه، وما في معناها من الآيات، على أن غير أولي الأبواب المتذكرين المذكورين آنفاً، لا يتذكر ولا يتعظ بالآيات، بل يعرض عنها أشد الإعراض.

وقد جاء هذا المعنى موضحاً، في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: { وَكَانَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } وقوله تعالى: { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ } وقوله { وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ }.

وقوله تعالى: { قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ } وقوله { وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ } في الأنعام. هو، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { وَذُكِّرُوا لِلَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } قد قدمنا الكلام على نحوه من الآيات في أول سورة الزمر، في الكلام على قوله { وَاعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } قوله تعالى: { قُلْ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ } قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في أول سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى { يُتْرَلُ لِمَلَكَةٍ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَالْقُفُونَ } وقوله تعالى في آية المؤمن هذه { يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ } جاء مثله في آيات كثيرة، كقوله في بروجهم ذلك اليوم { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ لِيُوَاجِدَ الظَّالِمِينَ هُمْ وَأَسْوَابُهُمْ جَمِيعًا قَالَ أَلَصُّعَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا }.

وكقوله في كونهم لا يخفى على الله منهم شيء ذلك اليوم { يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ } وقوله تعالى: { إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ } وقوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقد بناها في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى { أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ } وذكرنا طرفاً من ذلك، في أول سورة سبأ، في الكلام على قوله تعالى { عَلِمَ لَعَيْبٍ لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } وقوله تعالى: { وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ لِقُلُوبٍ لَدَى لِحَاجِرٍ كَظْمِينَ } الإنذار، والإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

وقد أوضحنا معنى الإنذار وأنواعه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { كَتَبْنَا نُزُلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ } والظاهر أن قوله هنا { يَوْمَ الْأَرْزَاقِ } هو المفعول الثاني للإنذار لا ظرف له لأن الإنذار والتخويف من يوم القيامة، واقع في دار الدنيا. والأرزاق القيامة. أي أنذرهم يوم القيامة، بمعنى خوفهم إياه وهددهم بما فيه من الأهوال العظام ليستعدوا لذلك في الدنيا بالإيمان والطاعة.

وإنما عبر عن القيامة بالآزفة لأجل أزوفها أي قربها، والعرب تقول: أزف الترحل بكسر الزاي، يَأزِفُ بفتحها، أزفا بفتحتين، على القياس، وأزوفا فهو أزف، على غير قياس، في المصدر الأخير، والوصف بمعنى قرب وقته وحن وقوعه، ومنه قول نابغة ذبيان: أزف الترحل غير أن ركبنا لما نزل برحالنا وكان قد

ويروى أفد الترحل، ومعناهما واحد. والمعنى {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ} أي يوم القيامة القريب مجيؤها ووقوعها. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من اقتراب قيام الساعة، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى {أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} وقوله تعالى {فُتِّرَتِ السَّاعَةُ}. وقوله تعالى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} وقوله تعالى في الشورى {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}.

وقد قدمنا هذا في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {أَتَى أُمَّرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {إِذْ لُقُوبٌ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ} الظاهر فيه، أن إذ، بدل من يوم، وعليه فهو من قبيل المفعول به، لا المفعول فيه، كما بينا آنفاً.

والقلوب: جمع قلب وهو معروف.

ولدى: ظرف بمعنى عند.

والحناجر: جمع حنجرة وهي معروفة.

ومعنى كون القلوب لدى الحناجر، في ذلك الوقت فيه لعلماء التفسير وجهان معروفان.

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره، من أن قلوبهم يومئذ، ترتفع من أماكنها في الصدور، حتى تلتصق بالحلوق، فتكون لدى الحناجر، فلا هي تخرج من أفواههم فيموتوا، ولا هي ترجع إلى أماكنها في الصدور فيتنفسوا. وهذا القول هو ظاهر القرآن.

والوجه الثاني: هو أن المراد بكون القلوب، لدى الحناجر، بيان شدة الهول، وفضاعة الأمر، وعليه فالآية كقوله تعالى: {وَإِذْ رَاعَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا هُنَالِكَ لِيُثَبِّتَ الْمُؤْمِنُونَ وَرُزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} وهو زلزال خوف وفزع لا زلزال حركة الأرض.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {كَظِيمِينَ} معناه مكرويين ممثلين خوفاً وغماً وحنناً.

والكظم: تردد الخوف والغيط والحزن في القلب حتى يمتلئ منه، ويضيق به.

والعرب تقول: كظمت السقاء إذا ملأته ماء، وشددته عليه. وقول بعضهم كاظمين، أي ساكتين، لا ينافي ما ذكرنا، لأن الخوف والغم الذي ملأ قلوبهم يمنعهم من الكلام، فلا يقدرّون عليه، ومن إطلاق الكظم على السكوت قول العجاج: وربّ أسراب حجيح كظم عن اللغا ورمث التكلم

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: **كَاطِمِينَ** أي لا يتكلمون إلا من أذن له الله، وقال الصواب، كما قال تعالى: **{ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا }**.

وقوله: **{ كَاطِمِينَ }** حال من أصحاب القلوب على المعنى. والتقدير إذ القلوب لدى الحناجر أي إذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كونهم كاظمين، أي ممتلئين خوفاً وغماً وحزناً، ولا يبعد أن يكون حالاً من نفس القلوب، لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة أصحابها. ونظير ذلك في القرآن: **{ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }** فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى: **{ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }**، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود. ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى **{ إِنْ تَشَاءُ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ }** وقوله تعالى: **{ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }**. قوله تعالى: **{ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ }**. قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة وسورة الأعراف، وأحلنا عليه مراراً. قوله تعالى: **{ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }**. قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود، وفي غيرها وأحلنا عليه أيضاً مراراً. قوله تعالى: **{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَزٍ وَقَشْرُونَ فَقَالُوا سَجِرٌ كَذَّابٌ }**. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه، وزعموا أنه ساحر.

وأوضح هذا المعنى، في آيات كثيرة كقوله تعالى عن فرعون وقومه: **{ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا }**، وقوله تعالى عن فرعون **{ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ }**. وقوله تعالى: **{ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ }** والآيات بمثل ذلك كثيرة. وقد بينها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: **{ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ }**. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عاذ بربه، أي اعتصم به، وتمنع من كل متكبر، أي متصف بالكبر، لا يؤمن بيوم الحساب، أي لا يصدق بالبعث والجزاء. وسبب عياد موسى بربه المذكور، أن فرعون قال لقومه: **{ تَرَوْا فَقِيلُوا مَوْسَى وَلَيْدُعُ رَبِّهِ } وَهُوَ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }**. فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون، لأن فرعون لا شك أنه متكبر، لا يؤمن بيوم الحساب فهو داخل في الكلام دخولاً أولياً، وهو المقصود بالكلام.

وما ذكره جل وعلا في آية المؤمن هذه، من عياد موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون، وعتاة قومه، ذكر نحوه في سورة الدخان في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه: **{ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ }**.

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ لِيذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَقَوْمَ لَكُمْ لِمَلِكٍ لَيْوَمَ ظَهْرِي فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَا قَوْمِ إِنَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ الْيَوْمِ الْأَخِيرِ * مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَقَوْمِ إِنَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رِيسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْهُ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ بْنُ لِي صَرْحًا لَعَنَّا أَلْبَعُ الْأَسْبَابِ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَقَوْمِ إِنَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَقَوْمِ مَا تَرَىٰ أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَيَدْعُونِي إِلَى التَّيَارِ * تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ لِعَزِيْزٍ لِّعَقَابٍ * لَا جَرَمَ لَنَا إِنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَإِن مَّرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَإِن لِّمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْوَصُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَخَاقٍ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ }

قوله تعالى: { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ }. {

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتُم إيمانه، أي يخفي عنهم أنه مؤمن، أنكر على فرعون وقومه إرادتهم قتل نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، حين قال فرعون { دَرُوزِ أَقْتُلُ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ }. مع أنه لا ذنب له، يستحق به القتل، إلا أنه يقول: ربي الله.

وقد بين في آيات أخر أن من عادة المشركين قتل المسلمين، والتنكيل بهم، وإخراجهم من ديارهم من غير ذنب، إلا أنهم يؤمنون بالله ويقولون: ربنا الله، كقوله تعالى في أصحاب الأعداء، الذين حرقوا المؤمنين { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُوِّ النَّارِ ذَاتِ الْوُجُوهِ هُمْ عَلَيْهَا فُعُوذُوا هُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودًا وَمَا يَتَّقُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ لِعَزِيْزٍ لِّحَمِيدٍ } وقوله تعالى { أَدِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ لِلَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنَ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ }. وقوله تعالى: عن الذين كانوا

سَجْرَةَ لَفْرَعُونَ، وصاروا من خيار المؤمنين، لما هديهم فرعون قائلاً: {لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} أنهم أجابوه، بما ذكره الله عنهم، في قوله: {قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ مَا نَنقُمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ نَأْمُرًا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا} إلى غير ذلك من الآيات.

والتحقيق أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية من جماعة فرعون كما هو ظاهر قوله تعالى: «من آل فرعون».

فدعوى أنه إسرائيلي، وأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا. وأن من آل فرعون متعلق ببيكتم، أي وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون أي يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خلاف التحقيق كما لا يخفى.

وقيل: إن هذا الرجل المؤمن هو الذي قال لموسى {إِنَّ لِمَلَأَ يَأْتَمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ} وقيل غيره.

واختلف العلماء في اسمه اختلافاً كثيراً ف قيل: اسمه حبيب، وقيل اسمه شمعان، وقيل اسمه حزقيل، وقيل غير ذلك ولا دليل على شيء من ذلك. والظاهر في إعراب المصدر المنسب من أن وصلتها في قوله تعالى، في هذه الآية الكريمة، أن يقول ربي الله، أنه مفعول من أجله.

وقال البخاري رحمه الله في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي قال حدثني يحيى بن أبي كثير قال حدثني محمد بن إبراهيم التيمي حدثني عروة بن الزبير قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله قد جاءكم بالبينات من ربكم». قوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}. الظاهر أن أرى في هذه الآية الكريمة علمية، عرفانية، تتعدى لمفعول واحد، كما أشار له في الخلاصة بقوله: لعلم عرفان وظنُّ تهمة تعدية لواحد ملتزمة

وعليه فالمعنى: قال فرعون ما أعلمكم وأعرفكم، من حقيقة موسى وأنه ينبغي أن يقتل، خوف أن يبدل دينكم، ويظهر الفساد في أرضكم، إلا ما أرى أي أعلم وأعرف أنه الحق والصواب فما أخفى عنكم خلاف ما أظهره لكم، وما أهديكُم بهذا إلا سبيل الرشاد، أي طريق السداد والصواب.

وهذان الأمران اللذان ذكر تعالى عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة، قد بين في آيات أخر أن فرعون كاذب في كل واحد منهما.

أما الأول منهما وهو قوله: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ} فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاءه بها

موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا الله، وأنه جحدها هو ومن استيقنها معه من قومه ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم كقوله تعالى في سورة النمل

{وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتِ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ}

وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ}.

فقوله تعالى: في هذه الآية {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى}. وكقوله تعالى في سورة بني إسرائيل: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعُونَ مَثُورًا} فقول نبي الله موسى لفرعون {لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} مؤكداً إخباره بأن فرعون عالم بذلك بالقسم، وقد دل أيضاً على أنه كاذب في قوله: ما أريكُم إلا ما أرى.

وكان غرض فرعون بهذا الكذب، التدليس والتمويه ليظن جهلة قومه، أن معه الحق، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: {وَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

وأما الأمر الثاني وهو قوله: {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه كقوله تعالى: {وَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمُرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}. وقوله تعالى: {وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}.

وقال بعض العلماء في قوله: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى} أي ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، من قتل موسى، وأعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا}. هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآيات الدالة عن أن السيئات لا تضاعف، ولا تجزي إلا بمثلها بينها وبين الآيات الأخرى الدالة على أن السيئات ربما ضوعفت في بعض الأحوال، كقوله تعالى في نبينا صلى الله عليه وسلم {إِذَا لَادَقْتِكَ ضِعْفَ لِحْيَوَةٍ وَضِعْفَ لِمَمَاتٍ} وقوله تعالى في نبيائه رضي الله عنهم {يُنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُ بِفَحِشَةٍ مَبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ} إشكال معروف.

وقد قدمنا الجواب عنه موضعاً في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. قوله تعالى: {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْرُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}. قد أوضحنا معنى هذه الآية الكريمة، وبيننا العمل الصالح بالآيات القرآنية، وأوضحنا الآيات المبينة لمفهوم المخالفة، في قوله: {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً}. وفي أول سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا}. قوله تعالى: {وَتَدْعُونَ إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}. الظاهر أن جملة قوله تدعونني لأكفر بالله، بدل من قوله: وتدعونني إلى النار، لأن الدعوة إلى الكفر بالله والإشراك به دعوة إلى النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفر والإشراك بالله مستوجب لدخول النار، بينه تعالى في آياته كثيرة من كتابه كقوله: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ}، وقد قدمنا ما فيه كفاية من ذلك، في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ}، وقوله تعالى: {فَيَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أُمْرًا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِالْأَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}. التحقيق الذي لا شك فيه، أن هذا الكلام، من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه، وليس لموسى فيه دخل.

وقوله {فَيَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ}، يعني أنهم يوم القيامة، يعلمون صحة ما كان يقول لهم، ويذكرون نصيحته، فيندمون حيث لا ينفع الندم، والآيات الدالة على مثل هذا من أن الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة، كقوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ كُلُّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ}. وقوله تعالى: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}. وقوله تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لَيَوْمٍ حَدِيدٍ} إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَأَفَؤُصُّ أُمْرًا إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوْقَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا} دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله،

وتفويض الأمور إليه، سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، كقولهم سها فسجد، أي سجد لعله سهوه، وسرق فقطعت يده، أي لعله سرقته، كما قدمناه مراراً.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون التوكل على الله سبباً للحفظ، والوقاية من السوء، جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله تعالى {وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}. وقوله تعالى: {لِذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ لَوْ كَيْلًا لُقَلْبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمُ سُوءٌ}.

وقد ذكرنا الآيات الدالة على ذلك بكثرة، في أول سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى {أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا}.

والظاهر أن ما في قوله {سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا} مصدرية، أي فواقاه الله سيئات مكرهم، أي أضرار مكرهم وشدائده، والمكر: الكيد.

فقد دلت هذه الآية الكريمة، على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه، أي حفظه ونجاه، من أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على الله، وتفويضه أمره إليه.

وبعض العلماء يقول: نجاه الله منهم مع موسى وقومه وبعضهم يقول: سعد جبلاً فأعجزهم الله عنه ونجاه منهم، وكل هذا لا دليل عليه، وغاية ما دل عليه القرآن أن الله وقاه سيئات مكرهم، أي حفظه ونجاه منها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَحَاقَ بِالْأَالِ فِرْعَوْنَ بُؤُءُ الْعَذَابِ} معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن، وقاه الله مكرهم، ورد العاقبة السيئة

عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجياً، في الدنيا والآخرة وكان فرعون وقومه هالكين، في الدنيا والآخرة والبرزخ. فقال في هلاكهم في الدنيا: {وَأَعْرِفْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ}، وأمثالها من الآيات. وقال في مصيرهم في البرزخ {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}. وقال في عذابهم في الآخرة: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من حيق المكر السييء، بالماكر أوضحه تعالى في قوله {وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرِ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ}. والعرب تقول حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً، إذا نزل به وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة.

يقال حاق به السوء والمكروه، ولا يقال حاق به الخير، فمادة الحيق من الأجوف الذي هو يائي العين، والوصف منه حائق على القياس، ومنه قول الشاعر: فأوطأ جُرد الخيل عقر ديارهم وحاق بهم من يأس ضبة حائق

وقد قدمنا أن وزن السيئة بالميزان الصرفي، فيعلة من السوء فأدغمت ياء الفيعلة الزائدة في الواو، التي هي عين الكلمة، بعد إبدال الواو ياء على القاعدة التصريفية المشار إليها، في الخلاصة بقوله:

إن يسكن السابق من واو ويا واتصلا ومن عروض عريا
فياء الواو فليين مدغما وشد معطي غير ما قد رسما

{وَإِذِ يَتَخَاوُونَ فِي النَّارِ قِيْلُ الصَّعْقَاءَ لِلَّذِينَ لَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ لَّذِينَ لَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدِ احْكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ لَّذِينَ فِي النَّارِ لِحَزْتِهِمْ جَهَنَّمَ لُعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قُلْ أُولَئِكَ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَاذْعَبُوا وَمَا دُعَاءُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ لَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الشَّهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُؤُ الدَّارِ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ الْكِتٰبَ * هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبٰبِ * وَ طَبَّرْنَا إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ سَتَغْفِرَ لَذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأَبْكَارِ * إِنَّ لَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطٰنٍ أَنَّهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبٰلِغِيهِ وَ سَتَعِدُّ بِاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَخَلْقُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَ لْبَصِيرُ وَ لَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحٰتِ وَلَا أَلْمِيذٌ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّيِّئَةَ لَأَنِيَّةٌ لَا رَبَّ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوا رَبَّكُمْ لَكُمْ إِن لَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دُخْرِينَ * اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ لِيَلًا لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيفُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُؤَفِّكُونَ * كَذٰلِكَ يُؤَفِّكُ لَّذِينَ كَانُوا بِآيٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبٰتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَرَّكْ اللَّهُ رَبَّ الْعٰلَمِينَ * هُوَ لِحَى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

فَ دَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ
 لِذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَا جَاءَنِي لُبِّيْتُ مِنْ رَبِّي وَأَمَرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ
 الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَاطِقَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ
 طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِيَتَّكِفُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَّوَفَى مِنْ قَبْلِ
 وَلِيَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا
 فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى
 يُصَرَّفُونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا وَلِكَيْتَبُ وَيَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ
 الْأَعْلَىٰ فِي أَغْيَابِهِمُ وَالسَّلْسِلِ يُسْحَبُونَ * فِي لَحْمِيمٍ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْحَرُونَ *
 * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ
 تَكُنْ تَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ
 فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * أَدْخَلْنَا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
 فَبِئْسَ مَثْوًى لِمُتَكَبِّرِينَ * وَ طَبَّرْنَا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ قَائِمًا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي
 نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْتِكَ قَائِلِينَ يُرْجَعُونَ }

قوله تعالى:

{ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ قَيِّقُولُ الصُّعْقَاءُ لِلَّذِينَ لَسْتِكِبُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
 فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْنُونَ عَنَّا نَصِيْبًا مِّنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ لَسْتِكِبُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ
 قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ } . قوله تعالى { يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ } أصله يتفاعدون من
 الحجة أي يختصمون، ويحتج بعضهم على بعض، وما تضمنته هذه الآية
 الكريمة، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى { إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ
 تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ } وقوله تعالى { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ لِّقَوْلٍ يَقُولُ الَّذِينَ لَسْتِكِبُوا لِلَّذِينَ لَسْتِكِبُوا لَوْلَا
 أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ لَسْتِكِبُوا لِلَّذِينَ لَسْتِكِبُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنَّا
 لِهَدْيِ بَعْدِ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ قَالَ الَّذِينَ لَسْتِكِبُوا لِلَّذِينَ لَسْتِكِبُوا
 بَلْ مَكْرٌ لِّبَلٍ وَ النَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَ أَنْ تَكْفُرَ بِاللَّهِ وَتَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا } . وقوله
 تعالى: { كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أَخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا لَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ
 لَأُولِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا قَاتِلْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ
 لَا تَعْلَمُونَ قَالَتْ أُولَهُمْ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ } وقوله تعالى، { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ يُبْعَثُونَ مِنَ الَّذِينَ يُبْعَثُونَ وَرَأَوْا
 الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ يُبْعَثُونَ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ
 كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنْهُمْ } وقوله تعالى: { وَتَبَرَّأُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الصُّعْقَاءُ لِلَّذِينَ
 لَسْتِكِبُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا
 لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ يَسْوَءَ عَلَيْنَا أَجْرُ عَلَيْنَا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ وَقَالَ
 الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَىٰ الْإِمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لِحَقِّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا
 كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ كُنَّا
 أَنْفُسَكُمْ مَا آتَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِنْ
 قَبْلُ } والآيات بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا للكلام عليها في مواضع متعددة من
 هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا
 رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن

أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار.

وقد بين في سورة الزخرف أنهم نادوا مالكا خاصة، من خزنة أهل النار، ليقتضي الله عليهم، أي ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار. وقد أوضح جل وعلا في آيات من كتابه، أنهم لا يحابون في واحد من الأمرين. فلا يخفف عنهم العذاب، الذي سألوا تخفيفه، في سورة المؤمن هذه.

ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة الزخرف، فقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية. {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا وَ لَأَعُوذُ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} وقال تعالى {وَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ} وقال تعالى: {فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا}: وقال تعالى: {لَا يَفْقَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}: وقال تعالى:

{إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} وقال تعالى: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا} وقال تعالى {لَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}. وقال تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}.

وقال تعالى في عدم موتهم في النار: {لَا يُفْصَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا}. وقال تعالى: {وَيَأْتِيهِ لَمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}. وقال تعالى: {كَلِمًا تَصْحَبُ جُلُودَهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}. وقال تعالى: {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ}. وقال تعالى:

{وَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكَبْرَىٰ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَلِيُمَكِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا آيَاتِهِمْ لِيَخْرُجُنَّ وَأَلَّا يَمَسُّنَّ أَحَدًا وَلَا يُسْمِعُ بَعْدَ الْمَوْتِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَلَّمُوا الْقَوَامَ الْمَنَّانِينَ}

ولما قالوا {لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ} أجابهم بقوله: {قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ}. قوله تعالى: {قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}. قد قدمنا الكلام عليه مع

الآيات التي بمعناه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا} قوله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: {وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَاتِلٍ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ}. وذكرنا طرفاً من ذلك في الصفات، في الكلام على قوله

تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} وستأتي له زيادة إيضاح إن شاء الله في سورة المجادلة. قوله تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا

مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَذَكَرْنَا لَأُولَى الْأَلْبَابِ}. اللام في قوله: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ} موطئة للقسم وصيغة الجمع في آتينا وأورثنا للتعظيم.

والمراد بالهدى ما تضمنه التوراة من الهدى في العقائد والأعمال: وأورثنا بني إسرائيل الكتاب وهو التوراة، وقوله: هدى وذكرى لأولي الألباب مفعول من أجله أي لأجل الهدى والتذكير.

وقال بعضهم: هدى حال، وورود المصدر المنكر حالاً معروف، كما أشار له في الخلاصة بقوله: ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

وقال القرطبي: هدى بدل من الكتاب، أو خبر مبتدأ محذوف، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الله أنزل التوراة على موسى وأنزل فيها الهدى لبني إسرائيل جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: {وَأَتَيْنَا مُوسَى

لِكُتِّبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَنخَضُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا}. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى لِكُتِّبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}. وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى لِكُتِّبَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا لُقُورَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} وقوله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى لِكُتِّبَ تَمَامًا عَلَىٰ لِذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى: {وَكُتِّبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} الآية. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ يَبْلُغِيهِ}. قد قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: {قَالَ وَهَبْ مِنْهَا قَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا}، وذكرنا هناك بعض النتائج السيئة الناشئة عن الكبر. قوله تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}. قد قدمنا أن هذه الآية من البراهين الدالة على البعث، وأوضحنا كل البراهين الدالة على البعث بالآيات القرآنية بكثرة في سورة البقرة، وسورة النحل، وأحلنا على مواضع ذلك مراراً. قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الِّمُشْرِكُونَ}. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، وما يستوي الأعمى والبصير، قد قدمنا الكلام عليه في سورة هود، في الكلام على قوله تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الِّمُشْرِكُونَ} قد قدمنا إيضاح معناه بالآيات القرآنية، في سورة حر في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ تَجْعَلُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ لِمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}. قوله تعالى: {إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}.

قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُوا أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دُخْرِينَ}. قال بعض العلماء { ادْعُوا أَسْتَجِبْ لَكُمْ}: اعبدوني أثبكم من عبادتكم، ويدل لهذا قوله بعده: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دُخْرِينَ}.

وقال بعض العلماء: { ادْعُوا أَسْتَجِبْ لَكُمْ} أي اسألوني أعطكم. ولا منافاة بين القولين، لأن دعاء الله من أنواع عبادته.

وقد أوضحنا هذا المعنى، وبيننا وجه الجمع بين قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} مع قوله تعالى: {فَيَكْتَفِي مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِمْ إِنْ سَاءَ} فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: {اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِيَأْسَأَ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على

قوله تعالى: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ}. قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرُجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ مِن قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مَّسْمُومًا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبَعْثِ فَنَانَا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نُّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. وبيننا أوجه القراءة في قوله: فيكون هناك. قوله تعالى: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَىٰ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ}. لم يبين هنا جل وعلا عدد أبواب جهنم، ولكنه بين ذلك في سورة الحجر، في قوله تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّفْسُومٌ}.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ بِحَقِّ وَحْسِرٍ هُنَالِكَ لَمُبْطِلُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ لُفْلُكٍ تُحْمَلُونَ * وَبُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ * أَقَلَّمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا عَلِمْنَا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * قَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْضُصْ عَلَيْكَ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الله تبارك وتعالى قص على نبيه صلى الله عليه وسلم، أنباء بعض الرسل، أي كنوح وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، وأنه لم يقصص عليه أنباء رسل آخرين، بينه في غير هذا الموضع، كقوله في سورة النساء: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا}، وأشار إلى ذلك في سورة إبراهيم في قوله: {الَّذِينَ يَأْتِيكُمُ النَّبِيُّ إِذِ يَنبَأُكُمْ بِالَّذِينَ يَنبَأُكُمْ قُلُوا إِنَّ بَرَاءةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَخْسَرُ الْأَعْيُنِ وَمَا يَشَاءُ اللَّهُ يَفْعَلْهُم مَّا يَشَاءُ وَإِنَّهُ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ}، وفي سورة الفرقان في قوله تعالى: {وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ آلِ رَسٍّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ بِحَقِّ وَحْسِرٍ هُنَالِكَ لَمُبْطِلُونَ}. قوله هنا: فإذا جاء أمر الله أي قامت القيامة، كما قدمنا إيضاحه في قوله تعالى: {أَتَىٰ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ} أي فإذا قامت القيامة، قضى بين الناس بالحق الذي لا يخالطه حيف ولا جور، كما قال تعالى: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ}.

وقال تعالى: {وَتَرَى لِمَلَائِكَةَ خَافِينَ مِنْ حَوْلِ عُرْشٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ}.

والحق المذكور في هذه الآيات: هو المراد بالقسط المذكور في سورة يونس في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه إذا قامت القيامة يخسر المبتطلون، أوضحه جل وعلا في سورة الجاثية في قوله تعالى: {وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُدُّ يَخْسِرُ لِمُبْطِلُونَ}.

والمبتطل هو: من مات مصراً على الباطل. وخسران المبتطلين المذكور هنا، قد قدمنا بيانه في سورة يونس، في الكلام على قوله تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}. قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلِكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى أُنْقُلِكُمْ تُحْمَلُونَ}. قد قدمنا أن لفظة جعل، تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها في القرآن.

الأول: إتيان جعل بمعنى اعتقد، ومنه قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ اتِّثًا} أي اعتقدوهم إناثاً، ومعلوم أن هذه تنصب المبتدأ والخبر.

الثاني: جعل بمعنى صير، كقوله: {حَتَّى جَعَلْتُهُمْ حَصِيداً حَمِيدِينَ} وهذه تنصب المبتدأ والخبر أيضاً.

الثالث: جعل بمعنى خلق، كقوله تعالى: {لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} أي خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور.

والظاهر، أن منه قوله هنا: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ} أي خلق لكم الأنعام، ويؤيد ذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَهَا لَكُمْ}، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً}.

الرابع: وهو الذي ليس في القرآن جعل بمعنى شرع، ومنه قوله: وقد جعلت إذا ما قمت يثقلني ثوبي فانهض نهض الشارب السكر

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من الامتنان بهذه النعم الكثيرة، التي أنعم عليهم بها، بسبب خلقه لهم الأنعام وهي الذكور والإناث، من الإبل والبقر والضأن والمعز، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله: {وَاللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ بَيْنَهُ أَيْضاً فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى، كقوله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلِكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ}. والدفء ما يتدفؤون به في الثياب المصنوعة من جلود الأنعام وأوبارها وأشعارها وأصوافها.

وقوله تعالى: {جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقْمَاتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ}. وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا

أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. { وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشْرَبٌ }، وقوله تعالى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَسِقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْتٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ }، وقوله تعالى: { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَسِقِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَىٰ لِفْلِكٍ لَّجُمَلُونَ }، وقوله تعالى: { وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ أَرْجُحَ مِنَ الصَّانِئِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْجُحًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْجُحًا }، وقوله تعالى: { وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَرْجُحًا }، وقوله تعالى: { وَ لِي ذِي خَلْقٍ الْأَرْجُحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ لِفْلِكٍ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكِبُونَ }، إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { أَقْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، قد ذكرنا الآيات الموضحة له في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، وبيننا مواضعها في سورة الروم، في الكلام على قوله تعالى: { أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، قوله تعالى: { قَلَمَ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا سَنَّةَ اللَّهِ لِيَتَى قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ }، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: { أَلَمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامِنْتُمْ بِهِ ءَأَأَرَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ }، وفي سورة حر في الكلام على قوله تعالى { فَتَادُوا وَوَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ }.

تم بحمد الله تفسير سورة غافر

تفسير سورة قلمت

{ حَرْ } * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ فُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا رُءُوءٌ أَكْبَتْهُ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنَ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ وَ عَمَلْنَا إِنَّا عَمِلُونَ * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشِيرٌ مُّثْلِكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَ اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ سَتَعْفَرُوهُ وَيُؤْتِي لِّلْمُشْرِكِينَ * لَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنْ لَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرٌ مَّمْنُون * قُلْ ءَأَعْيَبْتُمْ لِكُفْرَانِكُمْ لِيُذِي خَلْقِ الْأَرْضِ فِي يَوْمِينَ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ءَأَدَادًا ذَلِكِ رَبِّ لَعَلَمِينَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا رِءَاسِيَةً مِنْ قُوءِهَا وَبَرَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَفْءُتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِّلسَّبَائِلِينَ * ثُمَّ سَبَّءُوا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُءَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِي طِوَعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمُوءَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءُ الَذِّيَا بِمَصِيبِحِ وَحِفْظَا ذَلِكِ تَفْدِيرٌ لِّعَزِيزٍ لِّعَلِيم * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَعِقَةً مِّثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ءَأَلَّا تَعْبُوهَا إِلَّا ءَأَلَّهُ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَمَا ءَأَادُ

فَسَلِّتْكُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ {

قوله تعالى: {حَم تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى
نظائره من الآيات، في أول سورة الزمر. قوله تعالى: {كَتَبْتُ فَصَّلْتُ
ءَايَاتَهُ}. كتاب خبر مبتدأ محذوف، أي هذا كتاب، والكتاب، فعال بمعنى
مفعول، أي مكتوب.

وإنما قيل له كتاب، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى {بَلْ هُوَ
قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}.

ومكتوب أيضاً في صحف عند الملائكة كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذِكْرَةٌ فَمَنْ
شَاءَ ذَكَرْهُفَى صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ}.
وقال تعالى في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، لما تضمنته الصحف
المكتوب فيها القرآن: {رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ}.
وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: {فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ}.

التفصيل ضد الإجمال، أي فصل الله آيات هذا القرآن، أي بينها وأوضح فيها ما
يحتاج إليه الخلق، من أمور دينهم ودنياهم.

والمسوغ لحذف الفاعل في قوله تعالى: {فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ} هو العلم بأن
تفصيل آيات هذا القرآن، لا يكون إلا من الله وحده.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تفصيل آيات هذا الكتاب، جاء موضحاً في
آيات أخر، مبيناً فيها أن الله فصله على علم منه وأن الذي فصله حكيم خبير،
وأنه فصله ليهدي به الناس ويرحمهم، وأن تفصيله شامل لكل شيء، وأنه لا
شك أنه منزل من الله كقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى: {كِتَابٌ أَحْكَمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ
مِن لَّدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ}. وقوله تعالى {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلٌ لِّكِتَابٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {مَا كَانَ جَدِينَا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى: {أَفَعَيَّرَ اللَّهُ
أَبْتَعَىٰ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا} والآيات بمثل ذلك كثيرة.
قوله تعالى: {قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} وتذكيراً فأعرض أكثرهم فهم لا
يسمعون}. قوله: قرأنا عربياً قد تكلمنا عليه وعلى الآيات التي بمعناه في
القرآن في سورة الزمر، في الكلام على قوله تعالى: {قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي
عَوَجٍ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، أي فصلت آياته، في
حال كونه قرأنا عربياً لقوم يعلمون.

وإنما خصهم بذلك، لأنهم هم المنتفعون بتفصيله، كما خصهم بتفصيل الآيات
في سورة يونس في قوله تعالى: {مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، وفي سورة الأنعام في قوله تعالى {قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَجِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا وجه تخصيص المنتفعين بالأمر المشترك دون غيرهم في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى {إِنَّمَا تُنذِرُ لَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} وبيننا هناك أن تخصيصهم بالإنذار دون غيرهم، في آية فاطر هذه، وفي قوله تعالى في سورة {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ} وقوله في النازعات: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا} وقوله في الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَوْا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ}. مع أن أصل الإنذار عام شامل للمذكورين وغيرهم كما يدل عليه قوله تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}. وإنما خص المذكورين بالإنذار، لأنهم هم المنتفعون به، لأن من لم ينتفع بالإنذار، ومن لم ينذر أصلاً سواء في عدم الانتفاع، كما قال الله تعالى {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}.

وقوله تعالى، في هذه الآية الكريمة {بَشِيرًا وَنَذِيرًا} حال بعد حال. وقد قدمنا الكلام عليه وبعض مشاهاهده العربية، في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ} وبسطنا الكلام عليه في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى {كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنذِرَ بِهِ وَذِكْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة سورة في الكلام على قوله تعالى {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} وفي سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {وَإِنْ تُطْعَمُوا أَكْثَرَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} أي لا يسمعون سماع قبول وانتفاع.

وقد أوضحنا ذلك بالآيات القرآنية في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ لِمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْأَعْمَىٰ}. قوله تعالى: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ}. ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن الكفار صرحوا للنبي صلى الله عليه وسلم، بأنهم لا يستجيبون له ولا يؤمنون به، ولا يقبلون منه ما جاءهم به فقالوا له قلوبنا التي نعقل بها، ونفهم في أكنة، أي أغطية. والأكنة، جمع كنان، وهو الغطاء والغلاف الذي يغطي الشيء ويمنعه من الوصول إليه.

ويعنون أن تلك الأغطية، مانعة لهم من فهم ما يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم، وقالوا إن في آذانهم التي يسمعون بها وقراً أي: ثقلاً وهو الصمم. وأن ذلك الصمم مانع لهم من أن يسمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم بشيئاً، ومما يقول، كما قال تعالى عنهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ}.

وأن من بينهم وبينه حجاباً، مانعاً لهم من الاتصال والاتفاق، لأن ذلك الحجاب يحجب كلا منهما عن الآخر، ويحول بينهم وبين رؤية ما يديه صلى الله عليه وسلم من الحق.

والله جل وعلا، ذكر عنهم هذا الكلام في معرض الذم، مع أنه تعالى صرح بأنه جعل على قلوبهم الأكنة، وفي آذانهم الوقر، وجعل بينهم وبين رسوله حجاباً، عند قراءته القرآن، قال تعالى في سورة بني إسرائيل: {وَإِذَا قَرَأْتَ لِقْرَاءَنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}. وقال تعالى في الأنعام {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا}، وقال تعالى في الكهف: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا}. وهذا الإشكال الذي أشرنا إليه في هذه الآيات قوي، ووجه كونه مشكلاً ظاهراً، لأنه تعالى ذمهم على دعواهم الأكنة والوقر والحجاب في هذه الآية الكريمة من فصلت، وبين في الآيات الأخرى أن ما ذمهم على ادعائه واقع بهم فعلاً، وأنه تعالى هو الذي جعله فيهم.

فيقال: فكيف يذمون على قول شيء، هو حق في نفس الأمر. والتحقيق في الجواب عن هذا الإشكال، هو ما ذكرناه مراراً، من أن الله إنما جعل على قلوبهم الأكنة، وطبع عليها وختم عليها، وجعل الوقر في آذانهم، ونحو ذلك من الموانع من الهدى، بسبب أنهم بادروا إلى الكفر، وتكذيب الرسل طائعين مختارين، فجزاهم الله على ذلك الذنب الأعظم، طمس البصيرة، والعمى عن الهدى، جزاء وفاقاً. فالأكنة والوقر والحجاب المذكورة إنما جعلها الله عليهم، مجازاة لكفرهم الأول.

ومن جزاء السيئة، تمادي صاحبها في الضلال، ولله الحكمة البالغة في ذلك. والآيات المصرحة بمعنى هذا كثيرة في القرآن، كقوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}. فقول اليهود في هذه الآية {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} كقول كفار مكة: {قُلُوبُنَا} {فَوْفُ أَكِنَّةٍ} لأن الغلف، جمع أغلف وهو الذي عليه غلاف، والأكنة جمع كنان، والغلاف والكنان كلاهما بمعنى الغطاء الساتر.

وقد رد الله على اليهود دعواهم ببل التي هي للإضراب الإبطالي، في قوله {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}.

فالباء في قوله: بكفرهم سببية، وهي دالة على أن سبب الطبع على قلوبهم هو كفرهم، والأكنة والوقر والطبع كلها من باب واحد.

وكقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}، والفاء في قوله: فطبع سببية أي ثم كفروا، فطبع على قلوبهم بسبب ذلك الكفر.

وقد قدمنا مراراً أنه تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل، ومن المعلوم أن العلة الشرعية سبب شرعي.

وكذلك الفاء في قوله: {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} فهي سببية أيضاً، أي فطبع على قلوبهم، فهم بسبب ذلك الطبع لا يفقهون أي لا يفهمون من براهين الله وحججه شيئاً.

وذلك مما يبين أن الطبع والأكنة يؤول معناهما إلى شيء واحد، وهو ما ينشأ عن كل منهما من عدم الفهم.

لأنه قال في الطبع { فَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ } .
وقال في الأكنة: { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ } أي كراهة أن يفقهوه، أو لأجل ألا يفقهوه، كما قدمنا إيضاحه.

وكقوله تعالى: { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } فبين أن زيغهم الأول، كان سبباً لإزاعة الله قلوبهم، وتلك الإزاعة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب.

وكقوله تعالى: { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } وقوله تعالى: { وَتَقَلَّبُ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } . وقوله تعالى: { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } .

وإيضاح هذا الجواب: أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم { قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } يقصدون بذلك إخباره صلى الله عليه وسلم بأنهم لا يؤمنون به بوجه، ولا يتبعونه بحال، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة، والذنب الذي كان سبباً في الأكنة، والوقر والحجاب.

فدعواهم كاذبة، لأن الله جعل لهم قلوباً يفهمون بها، وآذاناً يسمعون بها، خلافاً لما زعموا، ولكنه، سبب لهم الأكنة، والوقر والحجاب، بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهذا المعنى أوضحه رده تعالى على اليهود في قوله عنهم: { وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ } .

وقد حاول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة، الجواب على الإشكال المذكور فقال: فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فقال في معرض الِّذم، وذكر أيضاً ما يقرب منه في معرض الِّذم، فقال: { وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ } ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معنى التقدير والإثبات في سورة الأنعام، فقال: { وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ } وفي آذَانِهِمْ وَقْرًا { فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: إنه لم يقل ها هنا إنهم كذبوا في ذلك، إنما الذي ذمهم عليه، أنهم قالوا إذا إنا كنا كذلك، لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا، وهذا الثاني باطل. أما الأول: فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه. اهـ منه. والأظهر: هو ما ذكرنا.

قال صاحب الكشاف في تفسير قوله تعالى: { وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } .
فإن قلت: هل لزيادة: من في قوله: ومن بيننا وبينك حجاب فائدة؟ قلت: نعم.

لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب، لكان المعنى أن حجاباً حاصل وسط الجهتين.

وأما بزيادة «مِنْ» فالمعنى: أن حجاباً ابتدأ منا وابتدأ منك. فالمسافة المتوسطة لجهتنا، وجهتك مستوعبة بالحجاب، لا فراغ فيها. انتهى منه.

واستحسن كلامه هذا الفخر الرازي وتعقبه ابن المنير على الزمخشري، فأوضح سقوطه والحق معه في تعقبه عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}، وقد قدمنا تفسيره وإيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا}. قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَحْدٌ}. أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يقول للناس: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَحْدٌ}.

والقصر في قوله: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ} إضافي أي لا أقول لكم إني ملك، وإنما أنا رجل من البشر. وقوله: {مِثْلُكُمْ} في الصفات البشرية، ولكن الله فضلني بما أوحى إلي من توحيده.

كما قال تعالى عن الرسل في سورة إبراهيم: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} أي كان من علينا بالوحي والرسالة.

وما ذكره الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة ذكره في آخر سورة الكهف في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}.

وقد أوضحنا وجه حصر ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم، في مضمون لا إله إلا الله، في قوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى {إِنْ هَذَا لِقُرْآنٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ}.

وبينا في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك إنكار المشركين كون الرسل من البشر، وأنهم ينبغي أن يكونوا من الملائكة، وما رد الله عليهم به ذلك من الآيات القرآنية، أوضحنا ذلك في سورة حر، في الكلام على قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ} وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا} إلى قوله: {لَتَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا}. قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ لَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}. قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة، على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة، لأنه تعالى صرح في هذه الآية الكريمة، بأنهم مشركون، وأنهم كافرون بالآخرة، وقد توعدهم بالويل على شركهم وكفرهم بالآخرة، وعدم إيتائهم الزكاة، سواء قلنا إن الزكاة في الآية هي زكاة المال المعروفة، أو زكاة الأبدان بفعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ورجح بعضهم القول الأخير لأن سورة فصلت هذه، من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة، وزكاة المال المعروفة إنما فرضت بعد الهجرة سنة اثنتين، كما قدمناه في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى: {وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}.

وعلى كل حال، فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام. أعني امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة، من كونهم مخاطبين بذلك وأنهم يعذبون على الكفر، ويعذبون على المعاصي، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى عنهم مقررأ له: { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا تَخَوِّصُ مَا نَحْنُ بِكَاذِبِينَ } .

فصرح تعالى عنهم، مقررأ له أن من الأسباب التي سلكتهم في سقر، أي أدخلتهم النار، عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، وعد ذلك مع الكفر بسبب التكذيب بيوم الدين.

ونظير ذلك قوله تعالى: { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ لِجِيمٍ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ } ثم بين سبب ذلك فقال: { إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ } . قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } . الأجر جزاء العمل، وجزاء عمل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، هو نعيم الجنة وذلك الجزاء غير ممنون، أي غير مقطوع، فالممنون اسم مفعول منه بمعنى قطعه، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته: لمعفر فهدي تنازع شلوّة عُبس كواسب ما يمن طعامها

فقوله: ما يمن طعامها أي ما يقطع، وقول ذي الأصبع: إني لعمرك ما بابي بذي غلق على الصديق ولا خيري بممنون

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن أجرهم غير ممنون، نص الله تعالى عليه في آيات أخر من كتابه، كقوله تعالى في آخر سورة الانشقاق {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} . وقوله تعالى في سورة التين {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} وقوله تعالى في سورة هود {وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ خَلَدُوا فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ} .

فقوله: غير مجذود أي غير مقطوع، وبه تعلم أن غير مجذود وغير ممنون، معناهما واحد.

وقوله تعالى في حر {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} أي ماله من انتهاء ولا انقطاع. وقوله في النحل {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} .

وهذا الذي ذكرنا هو الذي عليه الجمهور خلافاً لمن قال: إن معنى غير ممنون، غير ممنون عليهم به.

وعليه، فالمن في الآية من جنس المن المذكور، في قوله تعالى: { لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَى } .

ومن قال: إن معنى غير ممنون، غير منقوص، محتجاً بأن العرب تطلق الممنون على المنقوص، قالوا: ومنه قول زهير: فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطي بذلك ممنوناً ولا ترَقاً

فقوله ممنوناً أي منقوصاً.

وهذا وإن صح لغة، فالأظهر أنه ليس معنى الآية.

بل معناها: هو ما قدمنا. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ قَوِّهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}. الظاهر أن معنى قوله هنا في أربعة أيام: أي في تتمة أربعة أيام.

وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط، لأنه تعالى قال: {قُلْ أَتَنْكُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} ثم قال في أربعة أيام، أي في تتمة أربعة أيام. ثم قال: {فَقَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما، ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال، لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله في الفرقان: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى الْعَرْشِ الْقَائِلُ قَائِلًا بِهِ خَيْرًا}. وقوله تعالى في السجدة {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ}.

وقوله تعالى في و. {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} وقوله تعالى في الأعراف {إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى الْعَرْشِ}. إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} بأن معناه في تتمة أربعة أيام، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام، لأن قوله تعالى: {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} إذا فسر بأنها أربعة كاملة ثم جمعت مع اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض المذكورين في قوله {قُلْ أَتَنْكُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}، واليومين اللذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في قوله تعالى: {فَقَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} لكان المجموع ثمانية أيام.

وذلك لم يقل به أحد من المسلمين.

والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ قَوِّهَا} قد قدمنا الكلام على أمثاله من الآيات، في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}، وقوله تعالى: {وَبَارَكَ فِيهَا} أي أكثر فيها البركات، والبركة الخير، وقوله تعالى {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}.

التقدير والخلق في لغة العرب معناهما واحد.

والأقوات جمع قوت، والمراد بالأقوات أرزاق أهل الأرض ومعايشهم وما يصلحهم.

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب:

إن آية فصلت هذه، أعني قوله تعالى: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} يفهم منها الجمع بين الآيات الدالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كقوله هنا {قُلْ أَتَنكفرونَ لِذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} ثم رتب على ذلك بتم، قوله {ثُمَّ سُبَّوْا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} إلى قوله {فَقَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} مع بعض الآيات الدالة على أن السماء خلقت قبل الأرض، كقوله تعالى في النازعات: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا} إلى قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}.

فقلنا في كتابنا المذكور ما نصه: قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ سُبَّوْا إِلَى السَّمَاءِ}، هذه الآية تدل على أن خلق الأرض قبل خلق السماء، بدليل لفظة التي هي للترتيب والانفصال.

وكذلك آية يم السجدة، تدل أيضاً على خلق الأرض قبل السماء، لأنه قال فيها: {قُلْ أَتَنكفرونَ لِذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} إلى أن قال {ثُمَّ سُبَّوْا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}.

مع أن آية النازعات تدل على أن دحا الأرض بعد خلق السماء، لأنه قال فيها {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا}، ثم قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}.

اعلم أولاً أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات، فأجاب بأن الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبعا في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك.

فأصل خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك، بعد خلق السماء.

ويدل لهذا أنه قال: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} ولم يقل خلقها ثم فسر دحوه إياها بقوله: {أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا} وهذا الجمع الذي جمع به ابن عباس بين هاتين الآيتين واضح لا إشكال فيه. مفهوم من ظاهر القرآن العظيم إلا أنه يرد عليه إشكال من آية البقرة هذه.

وإيضاحه أن ابن عباس جمع بأن خلق الأرض قبل خلق السماء، ودحوها بما فيها بعد خلق السماء.

وفي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوق قبل خلق السماء لأنه قال فيها {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ سُبَّوْا إِلَى السَّمَاءِ}.

وقد مكثت زمناً طويلاً أفكر في حل هذا الإشكال حتى هداني الله إليه ذات يوم ففهمته من القرآن العظيم.

وإيضاحه: أن هذا الإشكال مرفوع من وجهين، كل منهما تدل عليه آية من القرآن.

الأول: أن المراد بخلق ما في الأرض جميعاً قبل خلق السماء: الخلق اللغوي الذي هو التقدير لا الخلق بالفعل، الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقاً. ومنه قول زهير: ولأنت تفرى ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

والدليل على أن المراد بهذا الخلق التقدير، أنه تعالى نص على ذلك في سورة فصلت. حيث قال: {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا} ثم قال: {ثُمَّ سَوَّيْنَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ}.

الوجه الثاني: أنه لما خلق الأرض غير مدحوة وهي أصل لكل، ما فيها كان كل ما فيها كأنه خلق بالفعل لوجود أصله فعلاً.

والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به إطلاق الخلق على الفرع، وإن لم يكن موجوداً بالفعل، قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ { خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } أي بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذي هو أصلكم.

وجمع بعض العلماء بأن معنى قوله {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} أي مع ذلك، فلفظة بعد، بمعنى مع.

ونظيره قوله تعالى: {عُنْتُ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ} وعليه فلا إشكال في الآية. ويستأنس لهذا القول بالقراءة الشاذة وبها قرأ مجاهد، والأرض مع لك دحاهما. وجمع بعضهم بأوجه ضعيفة. لأنها مبينة على أن خلق السماء قبل الأرض وهو خلاف التحقيق.

منها أن ثم: بمعنى الواو.

ومنها: أنها للترتيب الذكري كقوله تعالى {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا}. قوله تعالى: {وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بَمَصِيحٍ وَحِفْظًا}. المصاييح: النجوم.

وما تضمنته هذه الآية من تزيين السماء الدنيا بالنجوم، قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية، في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَحِفْظًا} قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة الحجر، في الكلام على قوله تعالى: {وَحَفِظْتَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}. قوله تعالى: {قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}. قد قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية في سورة حر، في الكلام على قوله تعالى: {وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ}.

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الِخْزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَجْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا لِعَمَى عَلَى لَهْدَى فَاخَذْتَهُمْ صَِعْقَةً لَعْنَةً لِهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَتَجَنَّبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَلْبًا أَنْطَقْنَا اللَّهُ لِيذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِيُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوَى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْجِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ * وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْبَاءَ قَرَّبُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أِهِمْ قَدْ خَلَبْتُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَاعْبُدُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَعْلِبُونَ * فَلْتَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَتَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَأْتِيَانَا يَجْعَدُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ لَدُنِّكَ وَالْإِنْسِ تَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ {

قوله تعالى: { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ }. الصرصر: وزنه بالميزان الصرفي فعفل، وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان.

أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب، التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا فالصرصر من الصرة، التي هي الصيحة المزعجة.

ومنه قوله تعالى { فَأَقْبَلَتِ مَرْأَتُهُ فِي صَرَّةٍ } أي في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي صوتهما.

الوجه الثاني: أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: { كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ }. أي فيها برد شديد محرق، ومنه قول حاتم الطائي: أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا واقد ریح

صِرٌّ
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

فقوله: ریح صر، أي باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة. جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد.

وما ذكره جل وعلا من إهلاكه عاداً بهذه الريح الصرصر، في تلك الأيام النحسات، أي المشؤومات النكدات، لأن النحس ضد السعد، وهو الشؤم جاء موضحاً في آيات من كتاب الله.

وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: { وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى لِقَوْمٍ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ قَهْلٌ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ } وقوله تعالى: { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَةَ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ }: وقوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَارٌ نَحْلٌ مُنْقَعِرٌ } وقوله تعالى: { هُوَ مَا سَتَعَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا }.

وهذه الريح الصرصر هي المراد بصاعقة عاد في قوله تعالى: { فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ }.

وقرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وأبو عمر، نحسات، بسكون الحاء، وعليه فالنحس، وصف أو مصدر، نزل منزلة الوصف.

وقراه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، نحسات بكسر الحاء ووجهه ظاهر.

قد قدمنا أن معنى النحسات: المشؤومات النكدات.

وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج الطلستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل: {فِي يَوْمٍ نَحْسٍ}. قال: النحس، البلاء والشدة، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول: سواء عليه أي يوم أتته أساعة نحس تتقي أم بأسعد

وتفسير النحس بالبلاء والشدة تفسير بالمعنى، لأن الشؤم بلاء وشدة. ومقابلة زهير النحس بالأسعد في بيته يوضح ذلك، وهو معلوم. ويزعم بعض أهل العلم، أنها من آخر شوال، وأن أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء، ولا دليل على شيء من ذلك. وما يذكره بعض أهل العلم من أن يوم النحس المستمر، هو يوم الأربعاء الأخير من الشهر، أو يوم الأربعاء مطلقاً، حتى إن بعض المنتسبين لطلب العلم وكثيراً من العوام صاروا يتشاءمون بيوم الأربعاء الأخير من كل شهر، حتى إنهم لا يقدمون على السفر، والتزويج ونحو ذلك فيه، ظانين أنه يوم نحس وشؤم، وأن نحسه مستمر على جميع الخلق في جميع الزمن، لا أصل له ولا معول عليه، ولا يلتفت إليه، من عنده علم، لأن نحس ذلك اليوم مستمر على عاد فقط الذين أهلكهم الله فيه، فاتصل لهم عذاب البرزخ والآخرة، بعذاب الدنيا، فصار ذلك الشؤم مستمراً عليهم استمراراً لا انقطاع له. أما غير عاد فليس مؤاخذاً بذنب عاد، لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. وقد أردنا هنا أن نذكر بعض الروايات التي اغتر بها، من ظن استمرار نحس ذلك اليوم، لنبين أنها لا معول عليها. قال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم عن زر بن حبيش {فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} «قال: يوم الأربعاء». وأخرج ابن المنذر وابن مردويه، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال لي جبريل أقض باليمين مع الشاهد. وقال: يوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن علي قال: «نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم باليمين مع الشاهد والحجامة ويوم الأربعاء يوم نحس مستمر». وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يوم نحس يوم الأربعاء». وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأيام، وسئل عن يوم الأربعاء قال: يوم نحس، قالوا كيف ذاك يا رسول الله؟ قال: أغرق فيه الله فرعون وقومه، وأهلك عاداً وثمود». وأخرج وكيع في الغرر وابن مردويه والخطيب بسند ضعيف عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر».

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه لأن أغلبها ضعيف وما صح معناه منها، فالمراد بنحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم.

فالحاصل أن النجس والشؤم إنما منشأة وسببه الكفر والمعاصي. أما من كان متقياً لله مطيعاً له، في يوم الأربعاء المذكور فلا نجس، ولا شؤم فيه عليه. فمن أراد أن يعرف النجس والشؤم والنكد، والبلاء والشقاء على الحقيقة، فليتحقق أن ذلك كله في معصية الله وعدم امتثال أمره، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى}. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَهَدَيْنَاهُمْ} المراد بالهدى فيه هدى الدلالة والبيان، والإرشاد، لا هدى التوفيق والاصطفاء. والدليل على ذلك قوله تعالى بعده {وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى}، لأنها لو كانت هداية توفيق لما انتقل صاحبها عن الهدى إلى العمى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى} أي اختاروا الكفر على الإيمان، وأثروه عليه، وتعوضوه منه. وهذا المعنى الذي ذكرنا يوضحه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَتَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا لِكُفْرٍ عَلَىٰ لِإِيمَانٍ} فقوله في آية التوبة هذه: {إِنِ اسْتَحَبُّوا لِكُفْرٍ عَلَىٰ لِإِيمَانٍ} موافق في المعنى لقوله هنا: فاستحبوا العمى على الهدى. ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: {لَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَىٰ لِلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}. فلفظة استحب في القرآن كثيراً ما تتعدى بعلى، لأنها في معني اختار وأثر. وقد قدمنا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {مَثَلُ لِقَرِيْقَيْنِ كَاللَّاعْمَىٰ}. أن العمى الكفر، وأن المراد بالأعمى في آيات عديدة الكافر. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الهدى يأتي في القرآن بمعناه العام، الذي هو البيان، والدلالة، والإرشاد، لا ينافي أن الهدى قد يطلق في القرآن في بعض المواضع، على الهدى الخاص الذي هو التوفيق، والاصطفاء، كقوله تعالى: {أُولَئِكَ لَئِذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدَاهُمُ قُتِلُوا}. فمن إطلاق القرآن الهدى على معناه العام قوله هنا: {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} أي بينا لهم طريق الحق وأمرناهم بسلوكها، وطرق الشر ونهيناهم عن سلوكها على لسان نبينا صالح، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام {وَاسْتَحَبُّوا لِعَمَىٰ عَلَىٰ هُدًى} أي اختاروا الكفر على الإيمان بعد إيضاح الحق لهم. ومن إطلاقه على معناه العام قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} بدليل قوله بعده {إِنَّمَا شَاكَرْنَا وَإِنَّمَا كَفُورًا}، لأنه لو كان هدى توفيق لما قال: {وَإِنَّمَا كَفُورًا}. ومن إطلاقه على معناه الخاص قوله تعالى: {فَبِهَدَاهُمُ قُتِلُوا}. وقوله تعالى: {وَ لَئِذِينَ هَدَيْنَاهُمْ رَادَّهُمْ هُدًى}. وقوله: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ لِمُهْتَدٍ}. وبمعرفة هذين الإطلاقين تتيسر إزالة إشكال قرآني: وهو أنه تعالى: أثبت الهدى لنبينا صلى الله عليه وسلم في آية، وهي قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} ونفاه عنه في آية أخرى وهي قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}.

فيعلم مما ذكرنا: أن الهدى المثبت له صلى الله عليه وسلم، هو الهدى العام الذي هو البيان، والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم فبين لمحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها هالك. والهدى المنفي عنه في آية: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} هو الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق، لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ}. وقوله تعالى: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وكذلك قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ}، لا منافاة فيه بين عموم الناس في هذه الآية. وخصوص المتقين في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} لأن الهدى العام للناس هو الهدى العام، والهدى الخاص بالمتقين، هو الهدى الخاص كما لا يخفى. وقد بينا هذا في غير هذا الموضوع، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لِّعَذَابِ لَّهُونٍ}. الفاء في قوله: فأخذتهم سببية، أي فاستحبوا العمى على الهدى، وبسبب ذلك، أخذتهم صاعقة العذاب الهون. واعلم أن الله جل وعلا عبر عن الهلاك الذي به ثمود، بعبارات مختلفة، فذكره هنا باسم الصاعقة في قوله: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لِّعَذَابِ لَّهُونٍ} وقوله: {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}. وعبر عنه أيضاً كالصاعقة في سورة الذاريات في قوله تعالى: {وَوَفَى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}.

وعبر عنه بالصيحة في آيات من كتابه، كقوله تعالى في سورة هود، في إهلاكه ثمود: {وَإِذْ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ كَانُوا يَعْتَبُونَ فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعِدًا لِّثَمُودَ} وقوله تعالى في الحجر: {وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ} وقوله تعالى في القمر: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ لِّمُحْتَظِرٍ}. وقوله تعالى في العنكبوت {وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ} يعني به ثمودا المذكورين في قوله قبله: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ}. وعبر عنه بالرجفة، في سورة الأعراف في قوله تعالى: {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَاحُ اتِّبْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ}.

وعبر عنه بالتدمير في سورة النمل، في قوله تعالى: {فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}. وعبر عنه بالطاغية في الحاقة في قوله تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّبَعُوا أَمْرًا غَايِبًا}

وعبر عنه بالدمدمة في الشمس في قوله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا}.

وعبر عنه بالعذاب، في سورة الشعراء، في قوله تعالى: {فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَدْمِيئًا فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً}.

ومعنى هذه العبارات كلها راجع إلى شيء واحد، وهو أن الله أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، والصيحة الصوت المزعج المهلك. والصاعقة تطلق أيضاً على الصوت المزعج المهلك، وعلى النار المحرقة، وعليهما معاً، ولشدة عظم الصيحة وهو لها من فوقهم، رجفت بهم الأرض من تحتهم، أي تحركت حركة قوية، فاجتمع فيها أنها صيحة وصاعقة ورجفة، وكون ذلك تدميراً واضح. وقيل لها طاغية، لأنها واقعة مجاوزة للحد في القوة وشدة الإهلاك.

والطغيان في لغة العرب: مجاوزة الحد. ومنه قوله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَعْنَا لَمَاءَهُ} أي جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

واعلم أن التحقيق، أن المراد بالطاغية في قوله تعالى: {فَأَمَّا تَمُودُ فَأَهْلِكُوهَا بِالطَّغْيَةِ} أنها الصيحة التي أهلكتهم الله بها، كما يوضحه قوله بعده: {وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}.

خلافاً لمن زعم أن الطاغية، مصدر كالعاقبة، والعافية، وأن المعنى أنهم أهلكوا بطغيانهم، أي بكفرهم، وتكذيبهم نبينهم، كقوله: {كَذَّبَتْ تَمُودُ بِطَغْوَاهَا}.

وخلافاً لمن زعم أن الطاغية هي أشقاهم، الذي انبعث فعقر الناقة، وأنهم أهلكوا بسبب فعله وهو عقره الناقة، وكل هذا خلاف التحقيق. والصواب إن شاء الله هو ما ذكرنا، والسياق يدل عليه واختاره غير واحد. وأما قوله تعالى: {قَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ} فإنه لا يخالف ما ذكرنا، لأن معنى دمدم عليهم ربهم بذنبهم، أي أطلق عليهم العذاب وألبسهم إياه، بسبب ذنبهم.

قال الزمخشري في معنى دمدم: وهو من تكرير قولهم ناقة مدمومة، إذا ألبسها الشحم.

وأما إطلاق العذاب عليه في سورة الشعراء فواضح، فاتضح رجوع معنى الآيات المذكورة إلى شيء واحد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {صَعِقَهُ لُعْدَابُ لُهُونٍ} من النعت بالمصدر،

لأن الهون مصدر بمعنى الهوان، والنعت بالمصدر أسلوب عربي معروف، أشار إليه في الخلاصة بقوله: ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الأفراد والتذكيرا

وهو موجه بأحد أمرين:

أحدهما: أن يكون على حذف مضاف. أي العذاب ذي الهون.

والثاني: أنه على سبيل المبالغة، فكأن العذاب لشدة اتصافه بالهوان اللاحق بمن وقع عليه، صار كأنه نفيس الهوان، كما هو معروف في محله.

وقوله تعالى: {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} كالتوكيد في المعنى لقوله {وَسَلَّتْ حُبُوهَا لِعَمَى عَلَى هُدًى} لأن كلا منهما سبب لأخذ الصاعقة إياهم، فالفاء في

قوله: فأخذتهم سببية، والباء في قوله بما كانوا سببية، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَتَجِيئًا لِّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية

الكريمة، أنه أهلك ثمود بالصاعقة، ونجى من ذلك إهلاك الذين آمنوا وكانوا يتقون الله، والمراد بهم صالح ومن آمن معه من قومه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في سورة هود { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ لَقَوِيٌّ لِّعَزِيزُواخَذَ لِّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ }، وقوله تعالى في النمل: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عُبِّدُوا إِلَهَ فَإِذَا هُمْ قَرِيفَانِ يَخْتَصِمُونَ } إلى قوله تعالى في ثمود { قَتَلِكُمْ بِيَوْمِهِمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } نَجَّيْنَا لِّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } أي وهم صالح ومن آمن معه. قوله تعالى: { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ }. قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع (يحشر) بضم الياء وفتح الشين مبنياً للمفعول (أعداء الله) بالرفع على أنه نائب الفاعل.

وقرأه نافع وحمزة، من السبعة (نحشر أعداء الله) بالنون المفتوحة الدالة على العظمة، وضم الشين مبنياً للفاعل، (أعداء الله) بالنصب على أنه مفعول به، أي واذكر { وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ } أي يجمعون إلى النار. وما دلت عليه هذه الآية، من أن لله أعداء، وأنهم يحشرون يوم القيامة إلى النار. جاء مذكوراً في آيات أخر.

فبين في بعضها أن له أعداء وأن أعداءه هم أعداء المؤمنين وأن جزاءهم النار كقوله تعالى { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } وقوله تعالى: { وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ } وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ } وقوله تعالى: { قَلِيلٌ عَلَيْهِ لَيْمٌ بِالسَّاجِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ } وقوله تعالى: { ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ }. إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فَهُمْ يُوزَعُونَ } أي يرد أولهم إلى آخرهم،

ويلحق آخرهم بأولهم، حتى يجتمعوا جميعاً، ثم يدفعون في النار، وهو من قول العرب: وزعت الجيش، إذا حبست أوله على آخره حتى يجتمع. وأصل الوزع الكف، تقول العرب وزعه، يزرعه وزعاً، فهو وزاع له، إذا كفه عن الأمر، ومنه قول نابغة ذبيان: على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت ألماً أصح والشيب وزاع

وقول الآخر: ولن يزرع النفس اللجوج عن الهوى من الناس إلا وافر العقل كامله

وبما ذكرنا تعلم أن أصل معنى يوزعون. أي يكف أولهم عن التقدم وآخرهم عن التأخر حتى يجتمعوا جميعاً.

وذلك يدل على أنهم يساقون سوقاً عنيفاً، يجمع به أولهم مع آخرهم. وقد بين تعالى أنهم يساقون إلى النار في حال كونهم عطاشاً في قوله تعالى: { وَتَسْؤِقُ لِمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا }، ولعل الوزع المذكور في الآية

يكون في الزمرة الواحدة من زمر أهل النار، لأنهم يساقون إلى النار زمراً
 زمراً كما قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزمر في الكلام على قوله
 تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا} . قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا مَا
 جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} . قد
 قدمنا الآيات الموضحة له في سورة س في الكلام على قوله تعالى: {لِيَوْمَ
 نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ} ، وفي سورة النساء في الكلام على قوله
 تعالى: {وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا} .

وبينا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى: {وَلَا يَكْتُمُونَ لِلَّهِ حَدِيثًا} مع قوله
 {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} . قوله تعالى:
 {وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ تَوَدَّ لَكُمْ ظَنِّكُمْ لِيَذَىٰ ظَنَنْتُمْ
 بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الْخَاسِرِينَ} قَالُوا يَا قَوْمِ لَغْوِي لَهُمْ} . قد
 قدمنا الكلام عليه في سورة حر في الكلام على قوله تعالى: {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} . قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَعْجِبُوا فَمَا لَهُمْ مِّنَ
 الْمُعْتَبِينَ} . قد بينا معناه مع شواهد العربية في سورة النحل في الكلام
 على قوله تعالى: {ثُمَّ لَا يُؤَدِّنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} . قوله تعالى:
 {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} . لعلماء التفسير
 في تفسير قوله: {وَقَيَّضْنَا} عبارات يرجع بعضها، في المعنى إلى بعض.
 كقول بعضهم: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ} أي جنناهم بهم: وأتحناهم لهم.
 وكقوله بعضهم: {وَقَيَّضْنَا} أي هيأنا.
 وقول بعضهم: {وَقَيَّضْنَا} أي سلطنا.
 وقول بعضهم: أي بعثنا ووكلنا.
 وقول بعضهم: {وَقَيَّضْنَا} أي سببنا.

وقول بعضهم: قدرنا ونحو ذلك من العبارات، فإن جميع تلك العبارات راجع
 إلى شيء واحد، وهو أن الله تبارك وتعالى هيأ للكافرين قرناء من الشياطين
 يضلونهم عن الهدى ويزينون لهم الكفر والمعاصي وقدرهم عليهم.
 والقرناء: جمع قرين وهم قرناؤهم من الشياطين على التحقيق.
 وقوله {فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} أي من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة:
 {وَمَا خَلَفَهُمْ} أي من أمر الآخرة، فدعوهم إلى التكذيب به، وإنكار البعث.
 وما تضمنته هذه الآية الكريمة، أنه تعالى قيض للكفار قرناء من الشياطين،
 يضلونهم عن الهدى، بينه في مواضع آخر من كتابه.

وزاد في بعضها سبب تقييضهم لهم، وأنهم مع إضلالهم لهم، يظنون أنهم
 مهتدون، وأن الكافر يوم القيامة يتمنى أن يكون بينه وبين قرينه من
 الشياطين بعد عظيم، وأنه يذمه ذلك اليوم كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعِشْ عَنِ
 ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
 وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ} إِذَا جَاءَتْكَ قَالَ يَلِيَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ
 فَبِئْسَ لِقْرَيْنٌ} .

فترتيبه قوله: نقيض له شيطاناً، على قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن،
 ترتيب الجزاء على الشرط يدل على أن سبب تقييضه له، هو غفلته عن ذكر
 الرحمن.

ونظير ذلك قوله تعالى: { مِنْ شَرِّ لُوسُوسٍ اُخْتَّاسٍ } لأن الوسواس هو كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس هو كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس، من قولهم: خنس بالفتح يخنس بالضم إذا تأخر.

فهو وسواس عند الغفلة عن ذكر الرحمن، خناس عند ذكر الرحمن، كما دلت عليه آية الزخرف المذكورة، ودل عليه قوله تعالى: { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } لأن الذين يتولونه، والذين هم به مشركون، غافلون عن ذكر الرحمن، وبسبب ذلك قيضه الله لهم فاضلهم.

ومن الآيات الدالة على تقييض الشياطين للكفار ليضلوهم، قوله تعالى { أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوْرَهُمْ أَرَا }، وقد أوضحنا آيات الدالة على ذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: { أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَلَى الْكٰفِرِينَ } . وبيننا هناك أقوال أهل العلم في معنى { تَوْرَهُمْ أَرَا } .

وبينا أيضاً هناك أن من الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ لِحْنٍ قَدْ سَتَّكَرْتُمْ مِّنَ الْإِنْسِ } أي استكثرتم من إضلال الإنس في دار الدنيا، وقوله: { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي لَعْنَةٍ تَمَّ لَا يُفَصِّرُونَ } . ومنها أيضاً قوله تعالى: { أَلَمْ اَعٰهَدُ إِلَيْكُمْ بِيَدِ اَدَمَ اَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } إلى قوله: { وَلَقَدْ اَصَلَّ مِنْكُمْ جِيلاً كَثِيْرًا } إلى غير ذلك من الآيات.

وقد دل قوله في آية الزخرف: { فَبَيْسَ لِقَرِيْنٍ } على أن قرناء الشياطين المذكورين في آية فصلت، وآية الزخرف وغيرهما، جديرين بالذم الشديد، وقد صرح تعالى بذلك في سورة النساء في قوله: { وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطٰنُ لَهُ قَرِيْنًا فَسَآءَ قَرِيْنًا } لأن قوله: { فَسَآءَ قَرِيْنًا } بمعنى { فَبَيْسَ لِقَرِيْنٍ }، لأن كلا من ساء وبئس فعل جامد لإنشاء الذم كما ذكره في الخلاصة بقوله: واجعل كبئس ساء واجعل فعلا من ذي ثلاثة كنعم مسجلا

واعلم أن الله تعالى بين أن الكفار الذي أضلهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال، أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: { وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ وَيَخْسِبُوْنَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ } وقال تعالى: { إِنَّهُمْ لَخَدَوٰا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ } .

وبين تعالى أنهم بسبب ذلك الظن الفاسد بهم أخسر الناس أعمالاً في قوله تعالى: { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْاٰخْسَرِيْنَ اَعْمَالًا لِذِيْنَ صَلَّ سَعِيْهُمْ فِيْ حَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُوْنَ صُنْعًا } .

وقوله تعالى في سورة الزخرف: { وَمَنْ يَعِشْ عَنِ الذِّكْرِ اَلرَّحْمٰنِ } من قولهم عشا بالفتح عن الشيء، يعيش بالضم إذا ضعف بصره عن إدراكه، لأن الكافر أعمى القلب.

فبصيرته تضعف عن الاستنارة بذكر الرحمن، وبسبب ذلك يقيض الله له قرناء الشياطين.

قوله تعالى: { وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يس، في الكلام على قوله تعالى: { لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ } . قوله تعالى:

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا لِقُرْآنٍ } . وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا } .

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نَزَّلًا مِّنْ عَفْوٍ رَّحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي لِحَسَنَةٍ وَلَا لِسَيِّئَةٍ لَّأَفْعَىٰ لِيَّ هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا لِيذَىٰ بَيْنِكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُفْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُفْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَبَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمِنْ آيَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً فَهَتَّابَتْ أَبْوَابُهَا الْأَخْيَارُ لِأَخِيَّتِهَا لَمْخِي لَمَوْتِي إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْهَا إِنَّمَا يَفْقَهُ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ لِيُطَّلَعَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَشِيرٌ * وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آدَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ لِكِتَابٍ وَخُلُوفٍ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِي بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٌ * مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ تَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنَ شُرَكَائِي قَالُوا آدَانَاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ * وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدَّعُونَ مِن قَبْلِ وَطَنُوا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ * لَا يَسْأَمُ إِلَّا لَنَسْنُ مِنْ دُعَاءٍ لِّخَيْرٍ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَنْبُوسٍ قَنُوطٌ * وَلَئِن آذَنَتْهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ صَرَءَاءَ مَسِّهِ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلْيُنَبِّئَنِّي الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَتَأَيَّبَ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِّنْ أَصْلٍ مِّمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَتِيرُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّهُمْ أَنَّهُ لَحَقٌّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِلَّا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ }

قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نَزَّلًا مِّنْ عَفْوٍ رَّحِيمٍ } . ما تضمنته هذه الآية الكريمة مما أعده الله في الآخرة للذين

قالوا ربنا الله ثم استقاموا، ذكره الله تعالى في الجملة، في قوله في الأحقاف { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } لأن انتفاء الخوف والحزن والوعد الصادق، بالخلود في الجنة المذكور في آية الأحقاف هذه، يستلزم جميع ما ذكر في هذه الآية الكريمة، من سورة فصلت. قوله تعالى: { لَقَدْ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرًا فَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا كَثِيرًا وَلَقَدْ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرًا فَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا كَثِيرًا وَلَقَدْ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرًا فَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا كَثِيرًا } قد أوضحنا مع الآيات التي بمعناه في آخر سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ } إلى قوله { إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }. قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ }. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا لَيْلٌ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ }. قد قدمنا الكلام عليه في سورة النمل، في الكلام على قوله تعالى: { أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }. قوله تعالى: { فَإِن سَأَلْتَهُمْ لَئِن رَّبُّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ }. قوله تعالى { فَإِن سَأَلْتَهُمْ لَئِن رَّبُّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { وَإِسْبَاحُ الرَّعْدِ بِحَمْدِهِ وَ لَمَلِكُهُ مِنْ خِيفَتِهِ }. وقد دلت هذه الآية الكريمة من سورة فصلت على أمرين.

أحدهما: أن الله جل وعلا إن كفر به بعض خلقه، فإن بعضاً آخر من خلقه يؤمنون به، ويطيعونه كما ينبغي، ويلزمون طاعته دائماً بالليل والنهار. والثاني منهما: أن الملائكة يسبحون الله ويطيعونه دائماً لا يفترون عن ذلك. وهذان الأمران اللذان دلت عليهما هذه الآية الكريمة، قد جاء كل منهما موضعاً في غير هذا الموضع.

أما الأول منهما: فقد ذكره جل وعلا في قوله: { فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ }. وأما الثاني منهما: فقد أوضحه تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأنبياء: { وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ وَيُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ } وقوله تعالى في آخر الأعراف { إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ } إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ } أي لا يملون.

والسامة الملل ومنه قول زهير: سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسام
قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ هُتِرَتْ وَرَبَّتْ }. هذه الآية الكريمة قد أوضحنا الكلام عليها، مع ما في معناها

من الآيات، وبيننا أن تلك الآيات فيها البرهان القاطع على البعث بعد الموت، وذكرنا معها الآيات التي يكثر الاستدلال بها في القرآن، على البعث بعد الموت، وهي أربعة براهين قرآنية.

ذكرنا ذلك في سورة البقرة وفي سورة النحل وغيرهما وأحلنا عليه مراراً. قوله تعالى: {أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}. قد قدمنا الكلام عليه، مع ما يماثله من الآيات، في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى {قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ}. قوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة البقرة، في الكلام على قوله تعالى: {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، وفي سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {وَوَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}. قد قدمنا الآيات

الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} وفي سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}. قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونه ليس بظلام للعبيد، ذكره في مواضع آخر، كقوله تعالى في سورة آل عمران {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ لَّذِينَ قَلُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا} وقوله في الأنفال {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ كَذَابٍ} وقوله في الحج: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ يَدَاكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ}.

وقوله في سورة وَ: {مَا يُبَدِّلُ لِقَوْلٍ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ}.

وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن لفظة ظلام فيها صيغة مبالغة، ومعلوم أن نفي المبالغة، لا يستلزم نفي الفعل من أصله.

فقولك مثلاً: زيد ليس بقاتل للرجال لا ينفي إلا مبالغته في قتلهم، فلا ينافي أنه ربما قتل بعض الرجال.

ومعلوم أن المراد بنفي المبالغة، في الآيات المذكورة هو نفي الظلم من أصله.

والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه:

الأول: أن نفي صيغة المبالغة في الآيات المذكورة، قد بينت آيات كثيرة، أن المراد به نفي الظلم من أصله.

ونفي صيغة المبالغة، إذا دلت أدلة منفصلة على أن يراد به نفي أصل الفعل، فلا إشكال لقيام الدليل على المراد.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ}. وقوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}. وقوله تعالى: {وَوَضَعُ لِمُؤْزِرِينَ لِقِسْطٍ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}. إلى غير ذلك من الآيات كما قدمنا إيضاحه في سورة الكهف والأنبياء. الوجه الثاني: أن الله جل وعلا نفي ظلمه للعبيد، والعبيد في غاية الكثرة.

والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم كثرته، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي التابعة لكثرة العبيد، المنفي عنهم الظلم، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلاً، كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة، كما ترى.

وبذلك تعلم اتجاه التعبير بصيغة المبالغة، وأن المراد بذلك نفي أصل الظلم، عن كل عبد من أولئك العبيد، الذين هم في غاية الكثرة، سبحانه وتعالى عن أن يظلم أحداً شيئاً، كما بينته الآيات القرآنية المذكورة.

وفي الحديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» الحديث. الوجه الثالث: أن المسوغ لصيغة المبالغة، أن عذابه تعالى بالغ من العظم والشدة، أنه لولا استحقاق المعذبين لذلك العذاب بكفرهم، ومعاصيهم لكان معذبهم به ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. وهذا الوجه والذي قبله أشار لهما الزمخشري في سورة الأنفال. الوجه الرابع: ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين، من أن المراد بالنفي في قوله {وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ} نفي نسبة الظلم إليه، لأن صيغة فعال تستعمل مراداً بها النسبة فتغني عن ياء النسب كما أشار له في الخلاصة بقوله:

ومع فاعل وفعَّال فعل في تَسَبَّأَغْنَى عَنِ الْيَا فَعِيلُ

ومعنى البيت المذكور، أن الصيغ الثلاثة المذكورة فيه التي هي فاعل كظالم وفعَّال كظالم، وفعل كفرح، كل منها قد تستعمل مراداً بها النسبة، فيستغني بها عن ياء النسب، ومثاله في فاعل قول الخطيئة في هجوه الزبرقان بن بدر التميمي:

دع المكارم لا ترحل لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فالمراد بقوله الطاعم الكاسي النسبة، أي ذو طعام وكسوة، وقول الآخر وهو من شواهد سيبويه:

وغررتني وزعمت أنك لابن في الصيف تامر

أي ذو لبن وذو تمر، وقول نابغة ذبيان:
كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكبي

فقوله: ناصب أي ذو نصب، ومثاله في فعال قول امرئ القيس:
وليس بذى رمح فيطعنني به وليس بذى سيف وليس بنبال

فقوله: وليس بنبال أي ليس بذى نبل، ويدل عليه قوله قبله:
وليس بذى رمح وليس بذى سيف.

وقال الأشموني بعد الاستشهاد بالبيت المذكور: قال المصنف يعني ابن مالك: وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ} أي بذى ظلم اهـ.

وما عزاه لابن مالك جزم به غير واحد من النحويين والمفسرين، ومثاله في فعل قول الراجز وهو من شواهد سيبويه:
ليس بليلى ولكني نهر لا أدلج الليل ولكن أبتكر

فقوله نهر بمعنى نهاري، وقد قدمنا إيضاحه معنى الظلم بشواهد العربية، في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ}. تقدم الكلام على نحوه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ} وفي الأنعام عند قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}. قوله تعالى: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {إِلِلَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ}. قوله تعالى: {وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ}. الظن هنا بمعنى اليقين، لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ.
والظاهر أن المحيص مصدر ميمي، من حاص يحيص بمعنى حاد وعدل وهرب.

وما ذكرنا من أن الظن في هذه الآية الكريمة بمعنى اليقين والعلم، هو التحقيق إن شاء الله، لأن يوم القيامة تنكشف فيه الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك، كما قال تعالى عنهم، إنهم يقولون يوم القيامة {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}. وقال تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا}. وقال تعالى: {فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لِيَوْمٍ حَدِيدٍ}. وقال تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا} وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ لُرِكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ}.

ومعلوم أن الظن يطلق في لغة العرب، التي نزل بها القرآن على معنىين: أحدهما: الشك كقوله {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، وقوله تعالى عن الكفار: {إِنْ تَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا يَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ}. والثاني: هو إطلاق الظن مراداً به العلم واليقين، ومنه قوله تعالى هنا: {وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ} أي أيقنوا، أنهم ليس لهم يوم القيامة محيص، أي لا مفر ولا مهرب لهم من عذاب ربهم، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا} أي أيقنوا ذلك وعلموه، وقوله تعالى: {لِذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رُجْعُونَ} وقوله تعالى: {قَالَ لِّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُمْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذَنُ اللَّهُ} وقوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ قَرُوبًا كَتَبْتُهَا بِي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلِقٌ حِسَابِيهِ}، فالظن في الآيات المذكورة كلها بمعنى اليقين. ونظير ذلك من كلام العرب قول دريد بن الصمة: فقلت لهم ظنوا بالفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد

وقول عميرة بن طارق: بأن تغتزوا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن
غيباً مرجماً

والظن في البيتين المذكورين بمعنى اليقين، والفعل القلبي في الآية
المذكورة التي هي قوله: { وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ } معلق عن العمل في
المفعولين بسبب النفي بلفظة ما في قوله: { مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ } كما أشار
له في الخلاصة بقوله: * والتزم التعليق قبل نفي «ما» * قوله تعالى: { وَلَئِن
أَدْفَنُوهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ صَرَاءٍ مَّسِيئَةٍ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى }. قد قدمنا الآيات الموضحة له
في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: { وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا }. قوله تعالى: { وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ
وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وبعض
الأحاديث الصحيحة، الموافقة لها في سورة يونس في الكلام على قوله
تعالى: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ }. قوله تعالى: { سَتْرِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي
الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ }. قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام
على قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا }. قوله
تعالى: { أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ }. المرية: الشك.
وما تضمنته هذه الآية الكريمة من شك الكفار في البعث والجزاء، قد قدمنا
الآيات الموضحة له، ولما يترتب عليه من الخلود في النار، في سورة الفرقان
في الكلام على قوله تعالى: { بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
سَعِيرًا }.

تم بحمد الله تفسير سورة فصلت

تفسير سورة الشورى

{ هَجْرًا * مَسْئَةً * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ لِعَزِيزٍ لَّحِيمٍ *
لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمٰوٰتُ
يَتَّقَطْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ لِمَلٰئِكَةٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي
الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَلَّ اللَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ
حَفِيظًا عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ
أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي لَجَّةٍ وَفَرِيقٌ
فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَن يَشَاءُ فِي
رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِّن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
قَالَ اللَّهُ هُوَ لَوْلِيُّهُ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا خُتِلِفْتُمْ فِيهِ
مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ }
قوله تعالى: { هَجْرًا مَسْئَةً كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ لِعَزِيزٍ
لَّحِيمٍ }. قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة هود.

وقول الزمخشري في تفسير هذه الآية {كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ} أي مثل ذلك الوحي، أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل من قبلك الله. يعني أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني، قد أوحى الله إليك مثله، في غيرها من السور، وأوجاه من قبلك إلى رسله، على معنى أن الله تعالى كرر هذه المعاني، في القرآن وفي جميع الكتب السماوية، لما فيها من التنبيه البليغ، واللطف العظيم، لعباده من الأولين والآخرين. اهـ منه. وظاهر كلامه، أن التشبيه في قوله: كذلك يوحى بالنسبة إلى الموحى باسم المفعول.

والأظهر أن التشبيه في المعنى المصدري الذي هو الإيحاء. وقوله في هذه الآية الكريمة {وَأَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ} لم يصرح هنا بشيء من أسماء الذين في قبله الذين أوحى إليهم، كما أوحى إليه، ولكنه قد بين أسماء جماعة منهم في سورة النساء، وبين فيها أن بعضهم لم يقصص خبرهم عليه، وأنه أوحى إليهم وأرسلهم لقطع حجج الخلق، في دار الدنيا وذلك في قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مَّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

وقوله تعالى: {اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ذكر جل وعلا فيه الثناء على نفسه، باسمه العزيز واسمه الحكيم بعد ذكره إنزاله وحيه على أنبيائه، كما قال في آية النساء المذكورة {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} بعد ذكره إيحاؤه إلى رسله. وقد قدمنا في أول سورة الزمر أن استقراء القرآن. قد دل على أن الله جل وعلا إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك بعض أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وذكرنا كثيراً من أمثلة ذلك.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير (يوحي) بكسر الحاء بالبناء للفاعل، وعلى قراءة الجمهور هذه فقوله: الله العزيز الحكيم فاعل يوحى. وقرأه ابن كثير (يُوحى إليك) بفتح الحاء بالبناء للمفعول، وعلى هذه القراءة، فقوله: الله العزيز الحكيم، فاعل فعل محذوف تقديره يوحى كما قدمنا إيضاحه في سورة النور في الكلام على قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رَجَالٌ}.

وقد قدمنا معاني الوحي مع الشواهد العربية في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ} وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}. وصف نفسه جل وعلا في هذه الآية الكريمة، بالعلو والعظمة، وهما من الصفات الجامعة كما قدمناه في سورة الأعراف، في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ سَنُوتِي عَلَىٰ لِعَرْشٍ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من وصفه تعالى نفسه بهاتين الصفتين الجامعتين المتضمنتين لكل كمال وجلال، جاء مثله في آيات أخر كقوله تعالى: {وَلَا يَأُوذُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيًّا كَبِيرًا}. وقوله تعالى {عَلِمُ لَعِينٍ وَالشَّهَادَةَ لِكَبِيرٍ لِمَتَّعَالٍ} وقوله تعالى {وَلَهُ لِكَبْرِيَاءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ لِمَلَائِكَةٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ}. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير نافع والكسائي (تكاد) بالتاء الفوقية، لأن السماوات مؤنثة وقرأه نافع والكسائي (يكاد) بالياء التحتية لأن تأنيث السماوات غير حقيقي.

وقرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، وشعبة عن عاصم (يَتَفَطَّرْنَ) بتاء مثناة فوقية مفتوحة بعد الياء وفتح الطاء المشددة مضارع. تفتطري أي تشققي. وقرأه أبو عمرو وشعبة عن عاصم (ينفطرن) بنون ساكنة بعد الياء وكسر الطاء، المخففة مضارع انفطرت كقوله: {إِذَا السَّمَاءُ أَنْقَطَرَتْ} أي انشقت. وقوله: تكاد مضارع كاد، التي هي فعل مقاربة، ومعلوم أنها تعمل في المبتدأ والخبر معنى كونها فعل مقاربة، أنها تدل على قرب اتصاف المبتدأ والخبر. وإذا، فمعنى الآية أن السماوات قاربت أن تتصف بالتفطر على القراءة الأولى، والانفطار على القراءة الثانية.

واعلم أن سبب مقاربة السماوات للتفطر، في هذه الآية الكريمة، فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له قرآن.

الوجه الأول: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن خوفاً من الله، وهيبة وإجلالاً، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله {وَهُوَ عَلِيُّ الْعَظِيمِ} لأن علوه وعظمته سبب للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر. وعلى هذا الوجه فقوله بعده: {وَلِمَلَائِكَةٍ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} مناسبتة لما قبله واضحة.

لأن المعنى: أن السماوات في غاية الخوف منه تعالى والهيبة والإجلال له، وكذلك سكانها من الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم أي ينزهونه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، مع إثباتهم له كل كمال وجلال، خوفاً منه وهيبة وإجلالاً، كما قال تعالى {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ لِمَلَائِكَةٍ مِنْ خِيْفَتِهِ} وقال تعالى {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ لِمَلَائِكَةٍ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَيَخْفُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.

فهم لشدة خوفهم من الله، وإجلالهم له يسبحون بحمد ربهم، وبخافون على أهل الأرض، ولذا يستغفرون لهم خوفاً عليهم من سخط الله، وعقابه، ويستأنس لهذا الوجه بقوله تعالى {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} إلى قوله: {وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا} لأن الإشفاق الخوف.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} يعني لخصوص الذين آمنوا منهم وتابوا إلى الله واتبعوا سبيله، كما أوضحه تعالى بقوله: {لِذِينَ يَحْمِلُونَ إِعْرَاشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا}.

فقوله: {لِلَّذِينَ آمَنُوا} يوضح المراد من قوله: {لِمَنْ فِي الْأَرْضِ}. ويزيد ذلك إيضاحاً قوله تعالى عنهم إنهم يقولون في استغفارهم للمؤمنين {وَأَعْفُوا لِلَّذِينَ تَابُوا وَ اتَّبِعُوا سَبِيلَكَ} لأن ذلك يدل دلالة واضحة على عدم استغفارهم للكفار.

الوجه الثاني: أن المعنى {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ} من شدة عظم الفرية التي افتراها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا، من كونه اتخذ ولداً، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وهذا الوجه جاء موضحاً في سورة مريم، في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنَحْذَرُ الرَّحْمَنَ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْسُقُ الْأَرْضُ وَيَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا} كما قدمنا إيضاحه.

وغاية ما في هذا الوجه أن آية شوري هذه فيها إجمال في سبب تفطر السماوات، وقد جاء ذلك موضحاً في آية مريم المذكورة. وكلا الوجهين حق. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ} فيه للعلماء أوجه. قيل: يتفطرن، أي السماوات من فوقهن أي الأرضين، ولا يخفى بعد هذا القول كما ترى.

وقال بعضهم: من فوقهن أي كل سماء تتفطر فوق التي تليها. وقال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت لم قال: {مِنْ فَوْقِهِنَّ} قلت: لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة فوق السماوات، وهي العرش والكرسي، وصفوف الملائكة، المرتجة بالتسيح والتقدیس حول العرش، وما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى من آثار ملكوته العظمى، فلذلك قال: {يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ} أي يبتدىء الانفطار من جهتهن الفوقانية. أو لأن كلمة الكفر جاءت من الذي تحت السموات، فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة. ولكنه بولغ في ذلك فجعلت مؤثرة في وجهة الفوق. كأنه قيل: يكدن يتفطرن من الجهة التي فوقهن، دع الجهة التي تحتهن. ونظيره في المبالغة قوله عز وجل {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لَحْمِمْضُهُرُّ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ} فجعل الحميم مؤثراً في أجزائهم الباطنة آه. محل الغرض منه.

وهذا إنما يتمشى على القول بأن سبب التفطر المذكور هو افتراؤهم على الله في قولهم {لَنَحْذَرُ الرَّحْمَنَ وَلَدًا}. وقد قدمنا أنفاً أنه دلت عليه آية مريم المذكورة وعليه فمناسبة قوله: {وَأَسْنَعُهُ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} لما قبله أن الكفار وإن قالوا أعظم الكفر وأشنع، فإن الملائكة بخلافهم فإنهم يداومون ذكر الله وطاعته. ويوضح ذلك قوله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} وقوله تعالى: {قَالُوا يَكْفُرُ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكْفِيرِينَ}، كما قدمنا إيضاحه في آخر سورة فصلت. قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. أكد جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه هو الغفور الرحيم، وبين فيها أنه هو وحده المختص بذلك. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد جاءا موضحين في غير هذا الموضع.

أما اختصاصه هو جل وعلا بغفران الذنوب، فقد ذكره في قوله تعالى: {وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ}، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا الله، وفي الحديث «رب

إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت» الحديث. وفي حديث سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني» الحديث. وفيه «وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ووجه دلالة هذه الآية على أن الله وحده هو الذي يغفر الذنوب، هو أن ضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: {أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} يدل على ذلك كما هو معلوم في محله، وأما الأمر الثاني، هو توكيده تعالى أنه هو الغفور الرحيم فإنه أكد ذلك هنا بحرف الاستفتاح الذي هو أَلَا، وحرف التوكيد الذي هو إِنْ.

وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} وقوله تعالى: {وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ}. وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ لِمَغْفِرَةٍ} وقوله في الكفار: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ}. وقوله في الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة {أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة. فنرجو الله جل وعلا الكريم الرؤوف الغفور الرحيم، أن يغفر لنا جميع ذنوبنا ويتجاوز عن جميع سيئاتنا ويدخلنا جنته على ما كان منا، ويغفر لإخواننا المسلمين. إنه غفور رحيم. قوله تعالى: {وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}.

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، {اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} أي أشركوا معه شركاء يعبدونهم من دونه، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: {وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} وقوله تعالى: {وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ} وقوله تعالى: {إِنَّمَا ذُكِرَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ} أي يخوفكم أوليائه. وقوله تعالى: {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}.

وقد وبخهم تعالى على اتخاذهم الشيطان وذريته أولياء من دونه تعالى في قوله: {أَفْتَحِدُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

وقد أمر جل وعلا باتباع هذا القرآن العظيم، ناهياً عن اتباع الأولياء المبتغين من دونه تعالى، في أول سورة الأعراف في قوله تعالى {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}. وقد علمت من الآيات المذكورة أن أولياء الكفار الذين اتخذوهم وعبدوهم من دون الله نوعان: الأول منهما: الشياطين، ومعنى عبادتهم للشيطان طاعتهم له فيما يزين لهم، من الكفر والمعاصي، فشركهم به شرك طاعة، والآيات الدالة على عبادتهم للشياطين بالمعنى المذكور كثيرة كقوله تعالى: {الْمُ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ بِبَيْتِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}. وقوله تعالى عن إبراهيم {الشَّيْطَانُ إِنَّهُ الشَّيْطَانُ كَانَ}. وقوله تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا} أي وما يعبدون إلا شيطاناً مريداً. وقوله تعالى

{قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِحُجْنٍ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى {إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} وقوله تعالى {وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. والنوع الثاني: هو الأوثان، كما بين ذلك تعالى بقوله: {مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ}. أي رقيب عليهم حافظ عليهم كل ما يعملونه من الكفر والمعاصي، وفي أوله اتخاذهم الأولياء، يعبدونهم من دون الله.

وفي الآية تهديد عظيم لكل مشرك. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}. أي لست يا محمد، بموكل عليهم تهدي من شئت هدايته منهم، بل إنما أنت نذير فحسب، وقد بلغت ونصحت.

والوكيل عليهم هو الذي يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}. وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} وقال تعالى: {وَإِنْ كَانَ كَبِيرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ سَلَّطَعْتَ أَنْ تَبْتَغَىٰ تَفَقَّأَ فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَّمَا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ لِهْدَىٰ فَلَا تُكُونُ مِنْ لَجَاهِلِينَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق في قوله تعالى: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}، وما جرى مجراه من الآيات ليس منسوخاً بآية السيف والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: {لِتَكُونَ مِنَ لِمُنذِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَرَبِيًّا مُبِينٌ}، وفي الزمر في الكلام على قوله تعالى: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا عَرَبِيًّا ذِي عِوَجٍ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا}. خص الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة إنذاره، صلى الله عليه وسلم بأم القرى ومن حولها، والمراد بأم القرى مكة حرسها الله.

ولكنه أوضح في آيات آخر أن إنذاره عام لجميع الثقليين كقوله تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ}، كما أوضحنا ذلك مراراً في هذا الكتاب المبارك.

وقد ذكرنا الجواب عن تخصيص أم القرى ومن حولها هنا وفي سورة الأنعام في قوله تعالى: {وَلَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ}، في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، فقلنا فيه: والجواب من وجهين.

الأول: أن المراد بقوله: {وَمَنْ حَوْلَهَا} شامل لجميع الأرض، كما رواه ابن جرير وغيره، عن ابن عباس.

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً، أن قوله {وَمَنْ حَوَّلَهَا} لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة حرسها الله، كجزيرة العرب مثلاً، فإن الآيات الأخر، نصت على العموم كقوله {لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ تَذِيراً} وذكر بعض أفراد العام بحكم العام، لا يخصه عند عامة العلماء، ولم يخالف فيه إلا أبو ثور. وقد قدمنا ذلك واضحاً بأدلته في سورة المائدة، فالآية على هذا القول كقوله {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم، كما هو واضح. والعلم عند الله تعالى اه منه. قوله تعالى: {وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ}. تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين:

أحدهما: أن من حكم إيحائه تعالى، إلى نبينا صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العربي، إنذار يوم الجمع، فقوله تعالى: {وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ} معطوف على قوله: {لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى} أي لا بد أن تنذر أم القرى وأن تنذر يوم الجمع فحذف في الأول، أحد المفعولين وحذف في الثاني أحدهما، فكان ما أثبت في كل منهما، دليلاً على ما حذف في الثاني، ففي الأول حذف المفعول الثاني، والتقدير «لتنذر أم القرى» أي أهل مكة ومن حولها، عذاباً شديداً إن لم يؤمنوا، وفي الثاني حذف المفعول الأول، أي وتنذر الناس يوم الجمع وهو يوم القيامة أي تخوفهم مما فيه من الأهوال، والأوجال ليستعدوا لذلك في دار الدنيا.

والثاني: أن يوم الجمع المذكور لا ريب فيه، أي لا شك في وقوعه، وهذا الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، جاءا موضحين في آيات أخر. أما تخوفه الناس يوم القيامة، فقد ذكر في مواضع من كتاب الله كقوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفةِ}. وقوله تعالى: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ لَوْلَدَنَ شِيبًا السَّمَاءَ مُنْفِطِرًا بِهِ}: وقوله تعالى: {أَلَا يَطُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَلَمِينَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأما الثاني منهما: وهو كون يوم القيامة لا ريب فيه فقد جاء في مواضع أخر كقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} وقوله {فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ} وقوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا}. وقوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلْتُمَّ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ}. إلى غير ذلك من الآيات.

وإنما سمي يوم القيامة يوم الجمع، لأن الله يجمع فيه جميع الخلائق. والآيات الموضحة لهذا المعنى، كثيرة كقوله تعالى: {قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} وقوله تعالى: {هَذَا يَوْمٌ لِفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ}. وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ}. وقوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِينَ} وقوله تعالى {ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} وقوله تعالى: {وَحَسْرَتُهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}.

وقد بين تعالى شمول ذلك الجمع لجميع الدواب والطيير في قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أُمَّتْكُمْ مَّا قَرَّرْنَا

فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآيات الدالة على الجمع المذكورة كثيرة. قوله تعالى: {قَرِيقٌ فِي لَجَنَّةٍ وَقَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله خلق الخلق، وجعل منهم فريقاً سعداء، وهم أهل الجنة، وفريقاً أشقياء وهم أصحاب السعير، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ} وقوله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} أي ولذلك الاختلاف، إلى مؤمن وكافر وشقي وسعيد، خلقهم على الصحيح، ونصوص الوحي الدالة على ذلك كثيرة جداً.

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وجه الجمع بين قوله: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} على التفسير المذكور، وبين قوله {وَمَا خَلَقْتُ لِجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وسنذكر ذلك إن شاء الله في سورة الذاريات. وقد قدمنا معنى السعير بشواهد العربية في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ}، والجنة في لغة العرب البستان.

ومنه قول زهير بن أبي سلمى: كأن عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقا

فقوله: جنة سحقا، يعني بستاناً طويل النخل، وفي اصطلاح الشرع هي دار الكرامة التي أعد الله لأولياؤه يوم القيامة. والفريق: الطائفة من الناس، ويجوز تعدده إلى أكثر من اثنين، ومنه قول نصيب: فقال فريق القوم لا، وفريقهم نعم وفريق قال ويحك ما ندري والمسوغ للابتداء بالنكرة في قوله: فريق في الجنة، أنه في معرض التفصيل.

ونظيره من كلام العرب قول امرئ القيس: فلما دنوت تسديتها فثوب نسيت وثوب أجر

قوله تعالى: {وَمَا خُلِقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَىٰ اللَّهِ}. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده، لا إلى غيره، جاء موضحاً في آيات كثيرة. فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته قال في حكمه {وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، وفي قراءة ابن عامر من السبعة {وَلَا تُشْرِكُوا فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} بصيغة النهي.

وقال في الإشراك به في عبادته: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، فالأمران سواء كما ترى إيضاحه إن شاء الله.

وبذلك تعلم أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله، فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خير منه، كفر بواح لانزاع فيه.

وقد دل القرآن في آيات كثيرة، على أنه لا حكم لغير الله، وأن اتباع تشريع غيره كفر به، فمن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده قوله تعالى {إِنْ

لِحُكْمِ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، وقوله تعالى: {إِن لِّحُكْمِ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}. وقوله تعالى: {إِن لِّحُكْمِ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرٌ لِّفَصِّلِينَ} وقوله: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، وقوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، وقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ لِحُكْمِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وقوله تعالى {لَهُ لِحَمْدٌ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ لِحُكْمِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد قدمنا إيضاحها في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}.

وأما الآيات الدالة على أن اتباع تشريع غير الله المذكور كفر فهي كثيرة جداً، كقوله تعالى: {إِنَّمَا يُسَلِّطُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ لَذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}، وقوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، وقوله تعالى: {الْمُ أَغْهَدُ إِلَيْكُمْ بَيْنَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاحه في الكهف.

مسألة

اعلم أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة، صفات من يستحق أن يكون الحكم له، فعلى كل عاقل أن يتأمل الصفات المذكورة، التي سنوضحها الآن إن شاء الله، ويقابلها مع صفات البشر المشرعين للقوانين الوضعية، فينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع.

سبحان الله وتعالى عن ذلك.

فإن كانت تنطبق عليهم ولن تكون، فليتبع تشريعهم.

وإن ظهر يقيناً أنهم أحقر وأخس وأذل وأصغر من ذلك، فليقف بهم عند حدهم، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية.

سبحانه وتعالى أن يكون له شريك في عبادته، أو حكمه أو ملكه.

فمن الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله هنا: {وَمَا خُلِّفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}، ثم قال مبيناً صفات من له الحكم {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين للنظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوض إليه الأمور، ويتوكل عليه، وأنه فاطر السماوات والأرض أي خالقهما ومخترعهما، على غير مثال سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجاً، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة في قوله تعالى: {تَمَنِّيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الْأَنْعَامِ تُنَيِّنُ}، وأنه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وأنا {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وأنه {هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي يضيقه على من يشاء {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرع ويحلل ويحرم، ولا تقبلوا تشريعاً من كافر خسيس حقير جاهل.

ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى { قَانَ تَتَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ قَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولَ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }، فقوله فيها: { قَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ } كقوله في هذه { فَحَكْمُهُ إِلَيَّ اللَّهُ } .
وقد عجب نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قوله: { قَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ } من الذين يدعون الإيمان مع أنهم يريدون المحاكمة، إلى من لم يتصف بصفات من له الحكم، المعبر عنه في الآية بالطاغوت، وكل تجاكم إلى غير شرع الله فهو تحاكم إلى الطاغوت، وذلك في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ صَلًّا بِعِيدِهِ } .
فالكفر بالطاغوت، الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية، شريط في الإيمان كما بينه تعالى في قوله: { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } .

فيفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يتمسك بها فهو مترد مع الهالكين .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { لَهُ عَيْبٌ لِّلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأن له غيب السماوات والأرض؟ وأن يباليغ في سماعه وبصره لإحاطة سماعه بكل المسموعات وبصره بكل المبصرات؟
وأنه ليس لأحد دونه من ولي؟

سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً؟

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين من يستحق أن يوصف بأنه الإله الواحد؟
وأن كل شيء هالك إلا وجهه؟ وأن الخلائق يرجعون إليه؟
تبارك ربنا وتعظيم وتقديس أن يوصف أحس خلقه بصفاته .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا وَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } .

فهل في الكفرة الفجرة المشرعين النظم الشيطانية، من يستحق أن يوصف في أعظم كتاب سماوي، بأنه العلي الكبير؟

سبحانك ربنا وتعاليت عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قُلْ لِرَبِّئِنَّمَ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ

أَلِيلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَلَيْسَ إِنَّ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا وَالنَّهَارَ

لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .

فهل في مشرعي القوانين الوضعية، من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولى والآخرة، وأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبيناً بذلك كمال قدرته، وعظمة إنعامه على خلقه.

سبحان خالق السماوات والأرض، جل وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته، أو ملكه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {إِنْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِلَّا لَلَّهِ أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُؤُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

فهل في أولئك من يستحق أن يوصف بأنه هو الإله المعبود وحده، وأن عبادته وحده هي الدين القيم؟

سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
ومنها قوله تعالى: {إِنْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِلَّا لَلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}.

فهل فيهم من يستحق أن يتوكل عليه، وتفوض الأمور إليه؟
ومنها قوله تعالى: {وَإِنْ حُكْمَ يَتَّبِعُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَحُذِرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا وَ عَلِمْنَا مَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ لِحَهْلِيَّةٍ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}.

فهل في أولئك المشرعين من يستحق أن يوصف بأن حكمه بما أنزل الله وأنه مخالف لاتباع الهوى؟ وأن من تولى عنه أصابه الله ببعض ذنوبه؟ لأن الذنوب لا يؤاخذ بجمعها إلا في الآخرة؟ وأنه لا حكم أحسن من حكمه لقوم يوقنون؟

سبحان ربنا وتعالى عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.
ومنها قوله تعالى: {إِنْ لِحُكْمِ اللَّهِ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ لِفَاصِلِينَ}.
فهل فيهم من يستحق أن يوصف بأنه يقص الحق، وأنه خير الفاصلين؟
ومنها قوله تعالى: {أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ لِكِتَابٍ مُّفَصَّلًا وَ لِدِينٍ ءَاتَيْنَهُمْ لِكِتَابٍ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِّنَ لِّمُتَرَبِّتُونَ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}.

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي أنزل هذا الكتاب مفصلاً، الذي يشهد أهل الكتاب أنه منزل من ربك بالحق، وبأنه تمت كلماته صدقاً وعدلاً أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، وأنه لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم؟

سبحان ربنا ما أعظمه وما أجل شأنه.
ومنها قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَأَلَّهُ اذِنَّ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}.

فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي ينزل الرزق للخلائق، وأنه لا يمكن أن يكون تحليل ولا تحريم إلا بإذنه؟ لأن من الضروري أن من خلق الرزق وأنزله هو الذي له التصرف فيه بالتحليل والتحريم؟
سبحانه جل وعلا أن يكون له شريك في التحليل والتحريم.
ومنها قوله تعالى: {وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ لِكَافِرُونَ}.

فهل فيهم من يستحق الوصف بذلك؟

سبحان ربنا وتعالى عن ذلك. ومنها قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا يَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ لِكَذِبٍ هَذَا خَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ لِكَذِبٍ إِنْ لَدَيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ لِكَذِبٍ لَا يَفْلِحُونَ مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فقد أوضحت الآية أن المشرعين غير ما شرعه الله إنما تصف ألسنتهم الكذب، لأجل أن يفتروه على الله، وأنهم لا يفلحون وأنهم يمتعون قليلاً ثم يعذبون العذاب الأليم، وذلك واضح في بعد صفاتهم من صفات من له أن يحلل ويحرم.

ومنها قوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ لِمَا تَشْهَدُونَ أَنْ اللَّهُ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُوا مَعَهُمْ}.

فقوله: {هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ} صيغة تعجيز، فهم عاجزون عن بيان مستند التحريم. وذلك واضح في أن غير الله لا يتصف بصفات التحليل ولا التحريم. ولما كان التشريع وجميع الأحكام، شرعية كانت أو كونية قدرية، من خصائص الربوبية. كما دلت عليه الآيات المذكورة كان كل من اتبع تشريعاً غير تشريع الله قد اتخذ ذلك المشرع ربا، وأشركه مع الله.

والآيات الدالة على هذا كثيرة، وقد قدمناها مراراً وسنعيد منها ما فيه كفاية، فمن ذلك وهو من أوضحه وأصرحه، أنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقعت مناظرة بين حزب الرحمن، وحزب الشيطان، في حكم من أحكام التحريم والتحليل وحزب الرحمن يتبعون تشريع الرحمن، في وحيه في تحريمه، وحزب الشيطان يتبعون وحي الشيطان في تحليله. وقد حكم الله بينهما وأفتى فيما تنازعا فيه فتوى سماوية قرآنية تتلى في سورة الأنعام.

وذلك أن الشيطان لما أوحى إلى أوليائه فقال لهم في وحيه: سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فأجابوهم أن الله هو الذي قتلها. فقالوا: الميتة إذا ذبحة الله، وما ذبحه الله كيف تقولون إنه حرام؟ مع أنكم تقولون إنما ذبحتموه بأيديكم حلال، فأنتم إذا أحسن من الله وأجل ذبيحة. فأنزل الله بإجماع من يعتد به من أهل العلم قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ} يعني الميتة أي وإن زعم الكفار أن الله ذكأها بيده الكريمة بسكين من ذهب: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} والضمير عائد إلى الأكل المفهوم من قوله: {وَلَا تَأْكُلُوا} وقوله: {لَفِسْقٌ} أي خروج عن طاعة الله، واتباع لتشريع الشيطان: {وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّلُوكُمْ}. أي بقولهم: ما ذبحتموه حلال وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذا أحسن من الله، وأحل تذكية، ثم بين الفتوى السماوية من رب العالمين، في الحكم بين الفريقين في قوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} فهي فتوى سماوية من الخالق جل وعلا صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله.

وهذه الآية الكريمة مثل بها بعض علماء العربية لحذف اللام الموطئة للقسم، والدليل على اللام الموطئة المحذوفة عدم اقتران جملة إنكم لمشركون

بالفاء، لأنه لو كان شرطاً لم يسبقه قسم لقليل: فإنكم لمشركون على حد قوله في الخلاصة: واقرن بفا حتماً جواباً لو جعل شرطاً لأن أو غيرها لم يجعل

وهو مذهب سيبويه، وهو الصحيح، وحذف الفاء في مثل ذلك من ضرورة الشعر.

وما زعمه بعضهم من أنه يجوز مطلقاً، وأن ذلك دلت عليه آيتان من كتاب الله.

إحداهما قوله تعالى: { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } .
والثانية قوله تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } بحذف الفاء في قراءة نافع وابن عامر من السبعة خلاف التحقيق.
بل المسوغ لحذف الفاء في آية: { إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } تقدير القسم المحذوف قبل الشرط المدلول عليه بحذف الفاء على حد قوله في الخلاصة: واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أحرقت فهو ملتزم

وعليه: فجملة إنكم لمشركون جواب القسم المقدر، وجواب الشرط محذوف فلا دليل في الآية لحذف الفاء المذكور.

والمسوغ له في آية { يَمَا كَسَبَتْ * أَيْدِيكُمْ } أن ما في قراءة نافع وابن عامر موصولة كما جزم به غير واحد من المحققين، أي والذي أصابكم من مصيبة كائن وواقع بسبب ما كسبت أيديكم.

وأما على قراءة الجمهور: فما موصولة أيضاً، ودخول الفاء في خبر الموصول جائز كما أن عدمه جائز فكلتا القراءتين جارية على أمر جائز.

ومثال دخول الفاء في خبر الموصول قوله تعالى: { لِّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لَيْلًا وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } وهو كثير في القرآن وقال بعضهم: إن ما في قراءة الجمهور

شرطية، وعليه فاقتران الجزاء بالفاء واجب أما على قراءة نافع وابن عامر، فهي موصولة ليس إلا كما هو التحقيق إن شاء الله.

وكون ما شرطية على قراءة وموصولة على قراءة لا إشكال فيه. لما قدمنا من أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين.

ومن الآيات الدالة على نحو ما دلت عليه آية الأنعام المذكورة قوله تعالى: { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ }، فصرح بتوليهم

للشيطان أي باتباع ما يزين لهم من الكفر والمعاصي مخالفاً لما جاءت به الرسل، ثم صرح بأن ذلك إشراك به في قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } وصرح أن الطاعة في ذلك الذي يشرعه الشيطان لهم ويزينه عبادة للشيطان.

ومعلوم أن من عبد للشيطان فقد أشرك بالرحمن قال تعالى: { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا آدَمُ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ عُبِدُونِي هَذَا صِرْطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا }، ويدخل فيهم متبعوا نظام الشيطان دخولاً أولياء { أَقْلَمُ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ }.

ثم بين المصير الأخير لمن كان يعبد الشيطان في دار الدنيا، في قوله تعالى: { هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ صَلَّوْهَا لِيَوْمَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ لِيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } وقال تعالى: عن نبيه إبراهيم { يَا بَتَّ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } فقوله: لا تعبد الشيطان: أي باتباع ما يشرعه من الكفر والمعاصي، مخالفاً لما شرعه الله.

وقال تعالى: { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا } فقوله: { وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا } يعني ما يعبدون إلا شيطانا مريدا. وقوله تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ وَقَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِحُجْنٍ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ }.

فقوله تعالى: { بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ لِحُجْنٍ } أي يتبعون الشياطين ويطيعونهم فيما يشرعون ويزينون لهم، من الكفر والمعاصي على أصح التفسيرين. والشيطان عالم بأن طاعتهم له المذكورة إشراك به كما صرح بذلك وتبرأ منهم في الآخرة، كما نص الله عليه في سورة إبراهيم في قوله تعالى: { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لِْحَقٍّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخَلَقْتُمْ } إلى قوله: { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ } فقد اعترف بأنهم كانوا مشركين به من قبل أي في دار الدنيا، ولم يكفر بشركهم ذلك إلا يوم القيامة.

وقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى الذي بيننا في الحديث لما سألته عدي بن حاتم رضي الله عنه عن قوله: { اتَّخَوْا أَحْبَرَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا } كيف اتخذوهم أرباباً؟ وأجابه صلى الله عليه وسلم «أنهم أحلوا لهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحل الله فاتبعوهم، وبذلك الاتباع اتخذوهم أرباباً».

ومن أصرح الأدلة في هذا أن الكفار إذا أحلوا شيئاً، يعلمون أن الله حرمه وحرموه شيئاً يعلمون أن الله أحله، فإنهم يزدادون كفراً جديداً بذلك، مع كفرهم الأول، وذلك في قوله تعالى: { إِنَّمَا لِنَسِيرِ زِيَادَةٍ فِي الْكُفْرِ } إلى قوله: { وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }.

وعلى كل حال فلا شك أن كل من أطاع غير الله، في تشريع مخالف لما شرعه الله، فقد أشرك به مع الله كما يدل لذلك قوله: { وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ } فسماهم شركاء لما أطاعوهم في قتل الأولاد.

وقوله تعالى: { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } فقد سمى تعالى الذين يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله شركاء، ومما يزيد ذلك إيضاحاً، أن ما ذكره الله عن الشيطان يوم القيامة، من أنه يقول للذين كانوا يشركون به في دار الدنيا، إني كفرت بما أشركتمون من قبل، أن ذلك الإشراك المذكور ليس فيه شيء زائد على أنه دعاهم إلى طاعته فاستجابوا له كما صرح بذلك في قوله تعالى عنه: { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي }، وهو واضح كما ترى.

{ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ اللَّائِمِ أَزْوَاجًا
يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقْلِدُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ
الَّذِينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَاللَّذِ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا يَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْعِلُ إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُبِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا
جَاءَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَغْلِبُ بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ * فَلِذَلِكَ وَادَّعَى
وَسُئْتُمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ
وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا
سَلَّحْنَا لَهُمُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * اللَّهُ
الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ
بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا لِحَقِّ الْآلِ
أَنَّ الَّذِينَ يُعَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن
يَشَاءُ وَهُوَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * مَن كَانَ يُرِيدُ حَزْبًا لِّلْآخِرَةِ تَزِدْ لَهُ فِي حَزْبِهِ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَزْبًا لِّلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ
شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ لَّفُضِّلَ لِقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ
بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحٍ لَّحِيحٍ لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُهُمْ لِكَبِيرٍ * ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمُودَّةٍ فِي قُرْبَىٰ وَمَن
يَفْزِرْ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ * أَمْ يَقُولُونَ قُتِرْنَا عَلَىٰ
اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ لِبَطْلٍ وَيُحِقُّ لِحَقِّ
بِكَلِمَتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ
السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِمْ وَلِكُفْرُونَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ
لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يَنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ
الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ لَوْلِيٌّ لِّحَمِيدٍ * وَمِنَ
ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا
يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِّن مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ

قوله تعالى:

{ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ اللَّائِمِ أَزْوَاجًا
يَذُرُّكُمْ فِيهِ } . قوله تعالى: { فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ } تقدم تفسيره في

أول سورة فاطر.

وقوله { جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } .

أي خلق لكم أزواجاً من أنفسكم كما قدمنا الكلام عليه في سورة النحل في
الكلام على قوله تعالى: { وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً } وبيننا أن المراد بالأزواج الإناث كما يوضحه قوله تعالى:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً }. وقوله تعالى: { وَأَنْتُمْ خَلَقَ الرَّجُلَ مِنَ الرَّجُلِ وَالْأُنثَى مِنَ الْأُنثَى إِذَا تَمَتَّتْ } وقوله: { فَجَعَلَ مِنْهُمُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالنَّافِلِينَ } وقوله تعالى: { وَإِذَا يَغْشَى السَّحَابُ الْغَمَامَ إِذَا تَجَلَّىٰ لَكُمْ خَلَاقًا سُدِّيًّا } وقوله في آدم: { يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْغَالِبِينَ } وقوله تعالى فيه أيضاً: { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا }. وقوله تعالى فيه أيضاً: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا }.

وقوله تعالى: { وَمِنْ الْآيَاتِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } هي الثمانية المذكورة في قوله تعالى: { تَمَتَّتْ أَنْثَىٰ مِنْ نَسَاءٍ } وفي قوله: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } وأنزل لكم من الأنعام تمينة أزواج { وهي ذكور الضأن والمعز والإبل والبقر وإناثها، كما قدمنا إيضاحه في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: { وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ } الظاهر أن ضمير الخطاب في قوله { يَذْرُؤُكُمْ } شامل للآدميين والأنعام، وتغليب الآدميين على الأنعام في ضمير المخاطبين في قوله: يذروكم واضح لا إشكال فيه. والتحقيق إن شاء الله أن الضمير في قوله: «فيه» راجع إلى ما ذكر من الذكور والإناث، من بني آدم والأنعام في قوله تعالى: { جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْآيَاتِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا } سواء قلنا إن المعنى: أنه جعل للآدميين إناثاً من أنفسهم أي من جنسهم، وجعل للأنعام أيضاً إناثاً كذلك، أو قلنا إن المراد بالأزواج الذكور والإناث منهنما معاً.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الآية الكريمة يذروكم أي يخلقكم ويبتكم وينشركم فيه، أي فيما ذكر من الذكور والإناث، أي في ضمنه، عن طريق التناسل كما هو معروف.

ويوضح ذلك في قوله تعالى: { تَقْوَىٰ رَبِّكُمْ لِيَذْرِبَ لَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً } فقوله تعالى: { وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً } يوضح معنى قوله: { يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ }.

فإن قيل: ما وجه إفراد الضمير المجرور في قوله يذروكم فيه، مع أنه على ما ذكرتم، عائد إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام؟ فالجواب: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، رجوع الضمير أو الإشارة بصيغة الإفراد إلى مثنى أو مجموع باعتبار ما ذكر مثلاً.

ومثاله في الضمير: { قُلْ إِيَّاكُمْ إِنِ احْتَدَىٰ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّتْ عَلَيْكُمْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ آلِهِ عَيْرٌ أَلَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ }، فالضمير في قوله: به مفرد مع أنه راجع إلى السمع والأبصار والقلوب.

فقوله: { يَأْتِيكُمْ بِهِ } أي بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم، ومن هذا المعنى قول رؤبة بن العجاج: فيها خطوط من سواد وبلق كان في الجلد توليع البهق

فقوله: كأنه أي ما ذكر من خطوط من سواد وبلق.

ومثاله في الإشارة {لَا قَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} أي بين ذلك المذكور، من فارض وبكر، وقول عبد الله بن الزبيري السهمي: إن للخير وللشر مدى وكلا ذلك وجه وقبل

أي كلا ذلك المذكور من الخير والشر. وقول من قال، إن الضمير في قوله فيه راجع إلى الرحم، وقول من قال راجع إلى البطن، ومن قال راجع إلى الجعل المفهوم من جعل وقول من قال: راجع إلى التدبير، ونحو ذلك من الأقوال خلاف الصواب. والتحقيق إن شاء الله هو ما ذكرنا والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. وقد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ سَنُوتِي عَلَى الْعَرْشِ}. قوله تعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}. مقاليد السموات والأرض هي مفاتيحهما.

وهو جمع لا واحد له من لفظه، فمفردتها إقليد، وجمعها مقاليد على غير قياس.

والإقليد المفتاح. وقيل: واحدها مقليد، وهو قول غير معروف في اللغة. وكونه جل وعلا {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي مفاتيحهما كناية عن كونه جل وعلا هو وحده المالك لخزائن السماوات والأرض لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها.

وقد ذكر جل وعلا مثل هذا في سورة الزمر في قوله تعالى: {اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

وما دلت عليه آية الشورى هذه وآية الزمر المذكورتان من أنه جل وعلا هو مالك خزائن السماوات والأرض، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى:

{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} وقوله تعالى: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}.

وبين في مواضع أخر أن خزائن رحمته لا يمكن أن تكون لغيره، كقوله تعالى:

{أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ لَعَزِيزٌ لَوْهَابٌ} وقوله تعالى {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ لِمُسَيِّطِرُونَ} وقوله تعالى {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا}.

وقوله في هذه الآية الكريمة {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} جاء معناه

موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ}. وقوله تعالى {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} وقوله تعالى {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ

وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

فِي الرِّزْقِ}. وقوله تعالى: {نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

وقوله تعالى {إِن يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا قَالَ اللَّهُ أُولَىٰ بِهِمَا}. وقوله تعالى {لِيُنْفِقْ

ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ}. وقوله تعالى:

{وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} أي ضيق عليه رزقه لقلته. وكذلك قوله {يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} في الآيات المذكورة.

أي يبسط الرزق لمن يشاء بسطه له ويقدر، أي يضيق الرزق على من يشاء تضيقه عليه كما أوضحناه في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى { فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ }.

وقد بين جل وعلا في بعض الآيات حكمة تضيقه للرزق على من ضيقه عليه. وذكر أن من حكم ذلك أن بسط الرزق للإنسان، قد يحمله على البغي والطغيان كقوله تعالى { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُتْرَلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ }، وقوله تعالى: { كَلَّا إِنَّ لِلنَّاسِ لَبَطْغَانًا رِئَاءَهُ سَتِغْتَبَى }، قوله تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ }، قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ }، قوله تعالى: { وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }، الضمير في قوله: فيه، راجع إلى الدين في قوله: أن أقيموا الدين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن الافتراق في الدين، جاء مبيناً في غير هذا الموضع، وقد بين تعالى أنه وصي خلقه بذلك، فمن الآيات الدالة على ذلك، قوله تعالى { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا }، وقوله تعالى: { وَإِنَّ هَذَا صِرْطِي الْمُسْتَقِيمَ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } وقد بين تعالى في بعض المواضع أن بعض الناس لا يجتنبون هذا النهي، وعددهم على ذلك كقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ قَفَرُوا رَبَّهُمْ وَاكْأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ آلِهَةً غَيْرَ اللَّهِ فَأَلْتَمِسْ إِيَّاهُمْ }، قوله { لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ }، قوله { لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } إلى قوله { يَفْعَلُونَ } فيه تهديد عظيم لهم.

وقوله تعالى في سورة { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ وَاتَّقُونِ فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُوا تَفَذَّرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ }.

فقوله { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } أي إن هذه شريعتكم شريعة واحدة ودينكم دين واحد، وربكم واحد فلا تتفرقوا في الدين.

وقوله جل وعلا: { فَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا } دليل على أنهم لم يجتنبوا ما نهوا عنه من ذلك.

وقوله تعالى: { قَدْ زَرَّهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ } فيه تهديد لهم ووعد عظيم على ذلك. ونظير ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء: { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ وَاعْبُدُونِي وَتَقَطُّوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلِيمَا رُجْعُونَ } فقوله تعالى: { كُلُّ إِلِيمَا رُجْعُونَ } فيه أيضاً تهديد لهم ووعد على ذلك وقد أوضحنا تفسير هذه الآيات في آخر سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً }.

وقد جاء في الحديث المشهور «افتراق اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتراق النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وافتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأن الناحية منها واحدة، وهي التي كانت على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه». قوله تعالى: { كَبُرَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ }، بين جل وعلا أنه كبر على المشركين أي شق عليهم وعظم ما

يدعوهم إليه صلى الله عليه وسلم من عبادة الله تعالى وحده، وطاعته بامثال أمره واجتناب نهيه، ولعظم ذلك ومشقته عليهم، كانوا يكرهون ما أنزل الله ويجهدون في عدم سماعه لشدة كراهتهم له، بل يكادون يبطلشون بمن يتلو عليهم آيات ربهم لشدة بغضهم وكراهتهم لها. والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة في كتاب الله، وفيها بيان أن ذلك هو عادة الكافرين مع جميع الرسل من عهد نوح إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد بين تعالى مشقة ذلك على قوم ونوح وكبره عليهم في مواضع من كتابه كقوله تعالى: { وَ أَيْلُ عَلَيْهِمْ تَبَا نُوحِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ } . وقوله تعالى عن نوح { وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ سَتَعَسَوْا تِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَ سَتَكْبَرُوا سَتَكْبَرُونَ } .

فقوله تعالى { جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ سَتَعَسَوْا تِيَابَهُمْ } يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه نوح، فهو واضح في أنهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه من توحيد الله والإيمان به.

وقد بين الله تعالى مثل ذلك في الكفار الذين كذبوا نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم في آيات من كتابه كقوله تعالى { وَإِذَا بُتِلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُنْكَرٍ يَكْفُونِ يَسْطُورُونَ الَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا } فقوله تعالى: { تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِمُنْكَرٍ } الآية. يدل دلالة واضحة، على شدة بغضهم وكراهيتهم لسماع تلك الآيات.

وكقوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا لِقُرْآنٍ وَ لَعَوْا فِيهِ } .

وقوله تعالى في الزخرف. { لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } ، وقوله تعالى في قد أفلح المؤمنون { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } وقوله تعالى في القتال { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَلُهُمْ } ، وقوله تعالى: { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ قِبَائِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَ آيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيَلْ كَلَّ أَفَّاكَ أَيْمِسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَانِ لَمْ يَسْمَعْهَا فَيَشْهَرُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ } وقوله تعالى { وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَلِي مُسْتَكْبِرًا كَانِ لَمْ يَسْمَعْهَا كَانِ فِي آذَانِهِ وَقُرْآءِ فَشَرُّهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ } ، وقوله تعالى: { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَ فِي آذَانِنَا وَقُرْآنٍ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } . والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأعلم أن هؤلاء الذين يكرهون ما أنزل الله، يجب على كل مسلم أن يحذر كل الحذر من أن يطيعهم في بعض أمرهم، لأن ذلك يستلزم نتائج سيئة متناهية في السوء، كما أوضح تعالى ذلك في قوله: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْآنٍ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهِمْ أَنْ لِيذِينَ رُتِدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ لِهْدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَآمَلُوا لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ لِمَلِكَةٍ يَصْرِفُونَ وَ جُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَبَّغُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَلُهُمْ } فعلى كل مسلم أن يحذر ثم يحذر كل الحذر، من أن يقول للذين كفروا، الذين يكرهون ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر،

لأن ذلك يسبب له ما ذكره الله في الآيات المذكورة، ويكفيه زجراً وردعاً عن ذلك قوله ربه تعالى { فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمْ لَمَلَكِكُ يَصْرُبُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ } إلى قوله { فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ }. قوله تعالى: { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ }. الاجتباء في اللغة العربية معناه الاختيار والاصطفاء. وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه. وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَفَعَلُوا لِحَيْرٍ } إلى قوله: { هُوَ جَتَّبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ }. وقوله تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا لِكِتَابِ الَّذِينَ صُطِفِينَا مِنْ عِبَادِنَا }.
 وبين في موضع آخر أن منهم آدم وهو قوله تعالى: { ثُمَّ جَتَّبِيَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى }. وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } إلى قوله { شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ جَتَّبَهُ }. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين.

وقوله تعالى: { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } أي من سبق في علمه أنه ينيب إلى الله أي يرجع إلى ما يرضيه، من الإيمان والطاعة، ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الرعد { قُلْ إِنْ أَلَلَّةَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أْتَابَ }. قوله تعالى: { وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ }.
 تقدمت الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى { وَمَا أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } قوله تعالى: { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ لِكِتَابِ بِالْحَقِّ وَ لِمِيزَانَ }. بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي أنزل الكتاب في حال كونه متلبساً بالحق الذي هو ضد الباطل، وقوله: { لِكِتَابٍ } اسم جنس مراد به جميع الكتب السماوية.

وقد أوضحنا في سورة الحج أن المفرد الذي هو اسم الجنس يطلق مراداً به الجمع، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك مع الشواهد العربية. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَ لِمِيزَانَ } يعني أن الله جل وعلا هو الذي أنزل الميزان، والمراد به العدل والإنصاف.
 وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة. وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه، لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الحديد { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ لِكِتَابًا وَ لِمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }. فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله بالكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانًا لَّا تَطْغَوْا فِي لِمِيزَانِهِمْ وَأَقَامُوا لَوْزَنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ }.
 وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة. وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه، لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الحديد { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ لِكِتَابًا وَ لِمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }. فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله بالكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانًا لَّا تَطْغَوْا فِي لِمِيزَانِهِمْ وَأَقَامُوا لَوْزَنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ }.
 وقال بعض أهل العلم: الميزان في الآية: هو آلة الوزن المعروفة. ومما يؤيد ذلك أن الميزان مفعال، والمفعال قياسي في اسم الآلة. وعلى التفسير الأول وهو أن الميزان العدل والإنصاف، فالميزان الذي هو آلة الوزن المعروفة داخل فيه، لأن إقامة الوزن بالقسط من العدل والإنصاف. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب والميزان أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الحديد { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ لِكِتَابًا وَ لِمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }. فصرح تعالى بأنه أنزل مع رسله بالكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل والإنصاف. وكقوله تعالى في سورة الرحمن { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانًا لَّا تَطْغَوْا فِي لِمِيزَانِهِمْ وَأَقَامُوا لَوْزَنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ }.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي والله تعالى أعلم: أن الميزان في سورة الشورى وسورة الحديد هو العدل والإنصاف، كما قاله غير واحد من المفسرين.

وأن الميزان في سورة الرحمن هو الميزان المعروف أعني آلة الوزن التي يوزن بها بعض المبيعات.

ومما يدل على ذلك أنه في سورة الشورى وسورة الحديد عبر بإنزال الميزان لا بوضعه، وقال في سورة الشورى {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ وَ لِمِيزَانٍ}.

وقال في الحديد: {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ لِكِتَابَ وَ لِمِيزَانَ}.

وأما في سورة الرحمن فقد عبر بالوضع لا الإنزال، قال {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانَ} ثم أتبع ذلك بما يدل على أن المراد به آلة الوزن المعروفة، وذلك في قوله: {وَأَقِيمُوا لُوزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ} لأن الميزان الذي نهوا عن إخساره هو أخو المكيال، كما قال تعالى {أَوْفُوا لِكَيْلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِينَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ} وقال تعالى {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا كَتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}. وقال تعالى عن نبيه شعيب: {وَلَا تَنْفُسُوا لِمِكْيَالِ وَ لِمِيزَانَ}. وقال تعالى عنه أيضاً {قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا لِكَيْلِ وَ لِمِيزَانَ} وقال تعالى في سورة الأنعام: {وَأَوْفُوا لِكَيْلِ وَ لِمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} وقال تعالى في سورة بني إسرائيل {وَأَوْفُوا لِكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}.

فإن قيل: قد اخترتم أن المراد بالميزان في سورة الشورى وسورة الحديد، هو العدل والإنصاف، وأن المراد بالميزان في سورة الرحمن هو آلة الوزن المعروفة، وذكرتم نظائر ذلك من الآيات القرآنية، وعلى هذا الذي اخترتم يشكل الفرق بين الكتاب والميزان، لأن الكتب السماوية كلها عدل وإنصاف. فالجواب من وجهين:

الأول منهما هو ما قدمنا مراراً من أن الشيء الواحد إذا عبر عنه بصفيتين مختلفتين جاز عطفه على نفسه تنزيلاً للتغاير بين الصفات منزلة التغاير في الذوات، ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى {سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أَلْعَلَى * لِيذِي خَلْقٍ فَسْوَى * وَ لِيذِي قَدَرٍ فَهَدَى * وَ لِيذِي أَرْحَ لِمَرْعَى} فالموصوف واحد والصفات مختلفة، وقد ساغ العطف لتغاير الصفات. ونظير ذلك من كلام العرب قول الشاعر: إلى الملك القرم وابن الهما م وليث الكتبية في المزدحم

وأما الوجه الثاني:

فهو ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين، من المغايرة في الجملة بين الكتاب والميزان. وإيضاح ذلك: أن المراد بالكتاب هو العدل والإنصاف المصرح به في الكتب السماوية.

وأما الميزان: فيصدق بالعدل والإنصاف الذي لم يصرح به في الكتب السماوية، ولكنه معلوم مما صرح به فيها. فالتأفيف في قوله تعالى {قَلَّا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ}، من الكتاب لأنه مصرح به في الكتاب، ومنع ضرب الوالدين مثلاً المدلول عليه بالنهي على التأفيف من الميزان، أي من العدل والإنصاف الذي أنزله الله مع رسوله. وقبول شهادة العدلين في الرجعة والطلاق المنصوص في قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنكُمْ} من الكتاب الذي أنزله الله، لأنه مصرح به فيه. وقبول شهادة أربعة عدول في ذلك من الميزان الذي أنزله الله مع رسوله. وتحريم أكل مال اليتيم المذكور في قوله {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ تَارًا} من الكتاب. وتحريم إغراق مال اليتيم وإحراقه، المعروف من ذلك من الميزان، الذي أنزله الله مع رسوله.

وجلد القاذف الذكر للمحصنة الأنثى ثمانين جلدة ورد شهادته، والحكيم بفسقه المنصوص في قوله تعالى {وَالَّذِينَ يَزْمُونَ لِمُحْصَنَاتٍ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَجُلِدُوهُنَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً} إلى قوله {إِلَّا لَّذِينَ تَابُوا} الآية من الكتاب الذي أنزله الله.

وعقوبة القاذف الذكر لذكر مثله، والأنثى القاذفة للذكر أو لأنثى بمثل تلك العقوبة المنصوصة في القرآن من الميزان المذكور.

وحلية المرأة التي كانت مبتوتة، بسبب نكاح زوج ثان وطلاقه لها بعد الدخول المنصوص في قوله تعالى {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا} أي فإن طلقها الزوج الثاني، بعد الدخول وذوق العسيلة فلا جناح عليهما أي لا جناح على المرأة التي كانت مبتوتة والزوج الذي كانت حراماً عليه، أن يتراجعا بعد نكاح الثاني وطلاقه لها، من الكتاب الذي أنزل الله.

وأما إن مات الزوج الثاني بعد أن دخل بها وكان موته قبل أن يطلقها، فحليتها للأول الذي كانت حراماً عليه، من الميزان الذي أنزل الله مع رسوله.

وقد أشرنا إلى كلام ابن القيم المذكور، وأكثرنا من الأمثلة لذلك في سورة الأنبياء في كلامنا الطويل على قوله تعالى {وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ}. قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {أَتَىٰ أَمْرٌ آلَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}. وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} وفي سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْقَةِ}. قوله تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ}. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الكفار الذين لا يؤمنون بالساعة، يستعجلون بها أي يطلبون تعجيلها عليهم، لشدة إنكارهم لها.

والثانية: أن المؤمنين مشفقون منها، أي خائفون منها.

والثالثة: أنهم يعلمون أنها الحق، أي أن قيامها ووقوعها حق لا شك فيه.

وكل هذه المسائل الثلاث المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في غير هذا الموضع.

أما استعجالهم لها فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ لِحْسَنِتِهِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَنْلَتْ} وفي غير ذلك من المواضع. وأما المسألة الثانية: التي هي إشفاق المؤمنين وخوفهم من الساعة، فقد ذكره في مواضع أخر كقوله تعالى {لَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} وقوله تعالى {يَخْفَوْنَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} وقوله تعالى {يُوقُونَ بِالَّذِرِّ وَيَخْفَوْنَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}. وأما المسألة الثالثة: وهي علمهم أن الساعة حق، فقد دلت عليه الآيات المصرحة بأنها لا ريب فيها، لأنها تتضمن نفي الريب فيها من المؤمنين.

والريب: الشك كقوله تعالى عن الراسخين في العلم: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}. وقوله تعالى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}: وقوله تعالى {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}. وقوله تعالى: {وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ}. وقوله تعالى {ذَلِكَ يَوْمَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَآيَاتُهُ تُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لِفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {يُمَارُونَ}، مضارع ماري، يماري، مرأ ومماراة، إذا خاصم وجادل.

ومنه قوله تعالى {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا}.

وقوله {لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} أي بعيد عن الحق والصواب.

وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن واللغة العربية، مع الشواهد في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى {قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا أَنَا مِنَ الْبَالِغِينَ} وفي مواضع أخر من هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي قُرْبَىٰ}. قد بينا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا}. أن جميع الرسل عليهم الصلوات والسلام، لا يأخذون أجراً على التبليغ، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، وجه الجمع بين تلك الآيات، وأية شوري هذه فقلنا فيه:

اعلم أولاً أن في قوله تعالى {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي قُرْبَىٰ} أربعة أقوال:

الأول: ورواه الشعبي وغيره عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وعكرمة

وأبو مالك والسدي والضحاك وابن زيد وغيرهم كما نقله عنهم ابن جرير

وغيره، أن معنى الآية {قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي قُرْبَىٰ} أي

إلا أن تودوني في قرابتي التي بيني وبينكم، فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من

أذى الناس، كما تمنعون كل من بينكم وبينه مثل قرابتي منكم، وكان صلى

الله عليه وسلم له في كل بطن من قريش رحم، فهذا الذي سألهم ليس بأجر

على التبليغ لأنه مبذول لكل أحد، لأن كل أحد يوده أهل قرابته وينتصرون له من أذى الناس.

وقد فعل له ذلك أبو طالب ولم يكن أجراً على التبليغ لأنه لم يؤمن. وإذا كان لا يسأل أجراً إلا هذا الذي ليس بأجر تحقق أنه لا يسأل أجراً كقول النابغة: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ومثل هذا يسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وهذا القول هو الصحيح في الآية، واختاره ابن جرير، وعليه فلا إشكال. الثاني: أن معنى الآية {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي} أي لا تؤذوا قرابتي وعترتي واحفظوني فيهم، ويروى هذا القول عن سعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعلي بن الحسين، وعليه فلا إشكال أيضاً.

لأن المودة بين المسلمين واجبة فيما بينهم، وأحرى قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} وفي الحديث «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وقال صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» والأحاديث في مثل هذا كثيرة جداً.

وإذا كان نفس الدين يوجب هذا بين المسلمين، تبين أنه غير عوض عن التبليغ.

وقال بعض العلماء: الاستثناء منقطع على كلا القولين، وعليه فلا إشكال. فمعناه على القول الأول {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} لكن أذكركم قرابتي فيكم. وعلى الثاني: لكن أذكركم الله في قرابتي فاحفظوني فيهم. القول الثالث: وبه قال الحسن إلا المودة في القربى أي إلا أن تتوددوا إلى الله وتتقربوا إليه بالطاعة والعمل الصالح، وعليه فلا إشكال. لأن التقرب إلى الله ليس أجراً على التبليغ. القول الرابع: إلا المودة في القربى، أي إلا أن تتوددوا إلى قراباتكم وتصلوا أرحامكم، ذكر ابن جرير هذا القول عن عبد الله بن قاسم، وعليه أيضاً فلا إشكال.

لأن صلة الإنسان رحمه ليست أجراً على التبليغ، فقد علمت الصحيح في تفسير الآية وظهر لك رفع الإشكال على جميع الأقوال. وأما القول بأن قوله تعالى: {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي} منسوخ بقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ} فهو ضعيف، والعلم عند الله تعالى. انتهى منه.

وقد علمت مما ذكرنا فيه أن القول الأول هو الصحيح في معنى الآية. مع أن كثيراً من الناس يظنون أن القول الثاني هو معنى الآية، فيحسبون أن معنى {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي} إلا أن تودوني في أهل قرابتي. وممن ظن ذلك محمد السجّاد حيث قال لقاتله يوم الجمل: أذكرك بحج يعني سورة الشورى هذه، ومراده أنه من أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم حفظه فيهم، لأن الله تعالى قال في هذه {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي

لُقْرَبَىٰ} فهو يريد المعنى المذكور، يظنه هو المراد بالآية، ولذا قال قاتله في ذلك: يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاحِرٌ قَهْلٌ لَا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

وقد ذكرنا هذا البيت والأبيات التي قبله في أول سورة هود، وذكرنا أن البخاري ذكر البيت المذكور في سورة المؤمن، وذكرنا الخلاف في قائل الأبيات الذي قتل محمداً السجاد بن طلحة بن عبيد الله يوم الجمل، هل هو شريح بن أبي أوفى العبسي كما قال البخاري، أو الأشتر النخعي، أو عصام بن مقشعر، أو مدلج بن كعب السعدي، أو كعب بن مدلج. وممن ظن أن معنى الآية هو ما ظنه محمد السجاد المذكور الكمي في قوله في أهل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها مناتقي ومعرب

والتحقيق إن شاء الله أن معنى الآية هو القول الأول {إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لُقْرَبَىٰ} أي إلا أن تودوني في قرابتي فيكم وتحفظوني فيها، فتكفوا عني إذاكم وتمنعوني من أذى الناس، كما هو شأن أهل القرابات. قوله تعالى: {وَمَنْ يَفْتَرِ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا}. الاقتراف معنياً لاكتساب، أي من يعمل حسنة من الحسنات، ويكتسبها نزد له فيها حسناً، أي نضاعفها له. فمضاعفة الحسنات هي الزيادة في حسناتها، وهذا المعنى توضحه آيات من كتاب الله تعالى كقوله تعالى {وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} وقوله تعالى: {مَنْ جَاءَ بِلِحَسَنَةٍ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} وقوله تعالى: {مَنْ دَا لِيذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} وقوله تعالى {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا} فكونه خيراً وأعظم أجراً زيادة في حسنه، كما لا يخفى إلى غير ذلك من الآيات: قوله تعالى: {وَهُوَ لِيذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو وحده الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات. وقد جاء ذلك موضحاً في مواضع أخر كقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}. وقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا معنى التوبة وأركانها وإزالة ما في أركانها من الإشكال، في سورة النور في الكلام على قوله تعالى {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا آيَةً لِمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه ينزل ما يشاء تنزيله من الأرزاق وغيرها بقدر، أي بمقدار معلوم عنده جل وعلا، وهو جل وعلا أعلم بالحكمة والمصلحة في مقدار كل ما ينزله. وقد أوضح هذا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} وقوله تعالى: {وَكَلَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} إلى غير ذلك من الآيات.

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يَصِيرُ * وَمِنْ آيَاتِهِ لَجَوَارٍ فِي لَيْلٍ كَالْأَعْلَامِ * }
 { وَإِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالِي ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * }
 { أَوْ يُوقِفُهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَأَيُّهَا لَئِنْ يَشَاءْ يُجْعَلْنَهُنَّ جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لِيُؤْتِيَنَّهُنَّ مِنَ الرِّيحِ وَالشَّيْءِ الْمَغْمُوقِ فَمَا تَسْفِكْنَ العُيُونَ * }
 { وَيُعَلِّمُ الَّذِينَ يُجِدَلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ * }
 { فَمَا أوتَيْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ لِحَيَاتِهِمُ الْأَثَرُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * }
 { وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرًا مِّنَ الزَّكَاةِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * }
 { وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ * }
 { وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * }
 { وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِعَدْوٍ ظَلَمَهُ فَأُولَئِكَ مَالُهُمْ مِّنْ سَبِيلٍ * }
 { إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * }
 { وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمٍ الْأُمُورِ * }
 { وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَادٍ مِّنْ بَعْدِهِ }
 { وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ * }
 { وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَةً مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ * }
 { وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ * }
 { سَتَجِدُنَا لِرَبِّكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ * }
 { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَدْقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ * }
 { لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكُورَ * }
 { أَوْ يُرْوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * }
 { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآدَانِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * }
 { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * }
 { صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ }

قوله تعالى:

{ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النور في الكلام على قوله تعالى: { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُمْ } . قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ لَجَوَارٍ فِي لَيْلٍ كَالْأَعْلَامِ } . قوله: ومن آياته أي من علاماته الدالة على قدرته واستحقاقه للعبادة ووجهه، الجوّاري وهي السفن واحداً جارية، ومنه قوله تعالى: { إِنَّا لَمَّا طَغَا لَمَاءٌ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } يعني سفينة نوح، وسميت جارية لأنها تجري في البحر.

وقوله { كَالْأَعْلَامِ } أي كالجبال، شبه السفن بالجبال لعظمتها. وعن مجاهد أن الأعلام القصور، وعن الخليل: أن كل مرتفع تسميه العرب علماً، وجمع العلم أعلام.

وهذا الذي ذكره الخليل معروف في اللغة، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها
صخراً: وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن جريان السفن في البحر، من آياته
تعالى الدالة على كمال قدرته، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله
تعالى {وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي لُفْلُكٍ لِمَشْخُونِمْ وَأَخْلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا
يَرْكَبُونَ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ إِنَّا رَحْمَةٌ مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَىٰ
حِينٍ} {فَأُخْبِنُهُ وَأَصْحَابَ الْمَسْجِدِ وَجَعَلْنَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} وقوله تعالى: {إِن فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ لُفْلُكِ لَيْلِي تَجْرِي
فِي لَبْحَرٍ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} إلى قوله: {لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وقوله تعالى
في سورة النحل: {وَوَتَرَىٰ لُفْلُكًا مَّوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن قَاصِلِهِ}. وقوله في
فاطر: {وَوَتَرَىٰ لُفْلُكًا فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن قَاصِلِهِ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة
معلومة.

وقرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو «الجواري» بياء ساكنة بعد الراء في الوصل
فقط، دون الوقف وقرأه ابن كثير بالياء المذكور في الوصل والوقف معاً،
وقرأه الباقر الجوار بحذف الياء في الوصل والوقف معاً. قوله تعالى:
{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ}. قرأ هذا الحرف الحمزة والكسائي
(كبير الإثم)، بكسر الباء بعدها بياء ساكنة وراء على صيغة الإفراد.
وقرأه الباقر بفتح الباء بعدها ألف فهمزة مكسورة قبل الراء على صيغة
الجمع.

وقوله {وَالَّذِينَ}: في محل جر عطفاً على قوله: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} أي وخير وأبقى أيضاً للذين يجتنبون كبائر
الإثم والفواحش.

والفواحش جمع فاحشة. والتحقيق إن شاء الله أن الفواحش من جملة
الكبائر.

والأظهر أنها من أشنعها، لأن الفاحشة في اللغة: وهي الخصلة المتناهية في
القبح، وكل متشدد في شيء مبالغ فيه فهو فاحش فيه.

ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته:
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

فقوله: الفاحش أي المبالغ في البخل المتناهي فيه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من وعده تعالى الصادق للذين يجتنبون كبائر
الإثم والفواحش بما عنده لهم من الثواب الذي هو خير وأبقى، جاء موضحاً
في غير هذا الموضع، فبين تعالى في سورة النساء أن من ذلك تكفيره تعالى
عنهم بسيئاتهم، وإدخالهم المدخل الكريم وهو الجنة في قوله تعالى {إِن
تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}، وبين
في سورة النجم أنهم باجتنابهم كبائر الإثم والفواحش، يصدق عليهم اسم
المحسنين ووعدهم على ذلك بالحسنى.

والأظهر أنها الجنة، ويدل له حديث «الجِئِنَى الْجَنَّةُ وَالزِّيَادَةُ النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ» في تفسير قوله تعالى: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} كما قدمناه.

وآية النجم المذكورة هي قوله تعالى {وَيَجْزَىٰ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ} ثم بين المراد بالذين أحسنوا في قوله {لِّلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَ لَفَوَّحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَغْفِرَةِ}.

وأظهر الأقوال في قوله: إلا اللمم، أن المراد باللمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى: {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ} . فدللت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يفسر به القرآن، القرآن.

ويدل لهذا حديث ابن عباس الثابت في الصحيح: قال ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان المنطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يُصَدِّقُ ذلك أو يكذبه».

وعلى هذا القول فالاستثناء في قوله إلا اللمم منقطع، لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش، وقد قدمنا تحقيق المقام في الاستثناء المنقطع. في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا}.

وقالت جماعة من أهل العلم: الاستثناء متصل فالواو وعليه، فمعنى إلا اللمم: إلا أن يلم بفاحشة مرة ثم يجتنبها ولا يعود لها بعد ذلك. واستدلوا لذلك بقول الراجز: إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

وروى هذا البيت ابن جرير والترمذي وغيرهما مرفوعاً. وفي صحته مرفوعاً نظراً.

وقال بعض العلماء. المراد باللمم ما سلف منهم من الكفر والمعاصي، قبل الدخول في الإسلام ولا يخفى بعده.

وأظهر الأقوال هو ما قدمنا لدلالة آية النساء المذكورة عليه، وحديث ابن عباس المتفق عليه.

واعلم أن كبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين، وقد جاء تعيين بعضها كالسبع الموبقات أي المهكات لعظمتها، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة «أنها الإشراك بالله وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد جاءت روايات كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في تعيين بعض الكبائر «كعقوق الوالدين واستحلال حرمة بيت الله الحرام والرجوع إلى البادية بعد الهجرة وشرب الخمر واليمين الغموس والسرقة ومنع فضل الماء ومنع فضل الكلا وشهادة الزور».

وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح عن ابن مسعود «أن أكبر الكبائر الإشراك بالله الذي خلق الخلق ثم قتل الرجل ولده خشية أن يطعم معه، ثم زناه بحليلة جاره». وفي بعضها أيضاً «أن من الكبائر تسبب الرجل في سبب

والديه»، وفي بعضها أيضاً «أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفرًا» وذلك يدل على أنهما من الكبائر.

وفي بعض الروايات «أن من كبائر الوقوع في عرض المسلم، والسبب بالسب».

وفي بعض الروايات «أن منها جمع الصلاتين من غير عذر».

وفي بعضها «أن منها اليأس من روح الله، والأمن من مكر الله» ويدل عليهما قوله تعالى: {إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا لِقَوْمٍ لَكُفْرُونَ}. وقوله {قَلَّا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا لِقَوْمٍ لِحَسْرُونَ}.

وفي بعضها «أن منها سوء الظن بالله» ويدل له قوله تعالى {وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَ الْمُتَفَقِتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}.

وفي بعضها «أن منها الإضرار في الوصية».

وفي بعضها أن منها الغلول، ويدل له قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}. وقد معنا معنى الغلول في سورة الأنفال، وذكرنا حكم الغال.

وفي بعضها «أن من أهل الكبائر الذين يشتركون بعهد الله وأبھانهم ثمناً قليلاً». ويدل له قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ولم نذكر أسانيد هذه الروايات ونصوص متونها خوف الإطالة، وأسانيد بعضها لا تخلو من نظر لكنها لا يكاد يخلو شيء منها عن بعض الشواهد الصحيحة، من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة.

فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حداً من حدود الله.

وقال بعضهم: هي كل ذنب جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين.

وعن ابن عباس: أن الكبائر أقرب إلى السبعين منها إلى السبع. وعنه أيضاً أنها أقرب إلى سبعمئة منها إلى سبع.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق أنها لا تنحصر في سبع، وأن ما دل عليه من الأحاديث على أنها سبع لا يقتضى انحصارها في ذلك العدد، لأنه إنما دل على نفي غير السبع بالمفهوم، وهو مفهوم لقب، والحق عدم اعتباره. ولو قلنا إنه مفهوم عدد لكان غير معتبر أيضاً، لأن زيادة الكبائر على السبع مدلول عليها بالمنطوق.

وقد جاء منها في الصحيح عدد أكثر من سبع، والمنطوق مقدم على المفهوم، مع أن مفهوم العدد ليس من أقوى المفاهيم.

والأظهر عندي في ضابط الكبيرة أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده.

مع أن بعض أهل العلم قال: إن كل ذنب كبيرة. وقوله تعالى: {إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ}. وقوله: {إِلَّا أَلَمَّ} يدل على عدم المساواة، وأن بعض المعاصي كبائر. وبعضها صغائر، والمعروف عند أهل العلم: أنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}. وفي سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: {فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}. قوله تعالى: {وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في الكلام على آية النحل وآية الزمر المذكورتين آنفاً. قوله تعالى: {وَوَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى {فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}. قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {يُنزِّلُ لِمَلَأِكَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}. قوله تعالى: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}. قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ}. يبين الله جل وعلا فيه منتهى على هذا النبي الكريم، بأنه علمه هذا القرآن العظيم ولم يكن يعلمه قبل ذلك، وعلمه تفاصيل دين الإسلام ولم يكن يعلمها قبل ذلك.

فقوله: ما كنت تدري ما الكتاب: أي ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم، حتى علمته، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي، حتى علمته.

ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد.

وذلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها: حديث وفد عبد القيس المشهور، ومنها حديث: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً» الحديث، فسمى فيه قيام رمضان إيماناً، وحديث «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وفي بعض رواياته «بضع وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق».

والأحاديث بمثل ذلك كثيرة ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في شعب الإيمان فهو صلوات الله وسلامه عليه ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان، وما يجوز فيه وما لا يجوز ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: {وَلَا الْإِيمَانُ}.

وما ذكره هنا من أنه لم يكن يعلم هذه الأمور حتى علمه إياها بأن أوحى إليه هذا النور العظيم الذي هو كتاب الله، جاء في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَحِكْمَةً وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ}. وقوله جل

وَعَلَا { تَحْرُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ لِقْصَصٍ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا لِقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ }.

فقوله في آية يوسف هذه: { وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } كقوله هنا { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا لِإِيمَانٍ } وقوله تعالى: { وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى } على أصح التفسيرات كما قدمناه في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: { قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ } إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ }، الضمير في قوله: جعلناه راجع إلى القرآن العظيم المذكور في قوله: { رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا } وقوله: { مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ } أي ولكن جعلنا هذا القرآن العظيم نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا.

وسمي القرآن نوراً، لأنه يضيء الحق ويزيل ظلمات الجهل والشك والشرك. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن نور، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا } وقوله تعالى { وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ } وقوله تعالى: { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } وقوله تعالى: { فَأَمِينُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا }.

وما دلت عليه هذه الآيات الكريمة من كون هذا القرآن نوراً يدل على أنه هو الذي يكشف ظلمات الجهل، ويظهر في ضوئه الحق، ويتميز عن الباطل ويميز به بين الهدى والضلال والحسن والقيح.

فيجب على كل مسلم أن يستضيء بنوره، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه ويمتثل أوامره ويجتنب ما نهى عنه ويعتبر بقصصه وأمثاله. والسنة كلها داخله في العمل به، لقوله تعالى: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } . قوله تعالى: { وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } . الصراط المستقيم، قد بينه تعالى في قوله: { هُدًى إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ * صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } .

وقوله في هذه الآية الكريمة { وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي }، قد بينا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: { وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ }، وبيننا هناك وجه الجمع بين قوله تعالى: { وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } مع قوله { وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } .

والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح، والمستقيم. الذي لا اعوجاج فيه، ومنه قول جرير: أمير المؤمنين علي صراط إذا اعوج الموارد مستقيم قوله تعالى: { أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ } . ما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الأمور كلها تصير إلى الله، أي ترجع إليه وحده لا إلى غيره. جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا } وقوله تعالى: { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } إلى غير ذلك من الآيات.

تم بحمد الله تفسير سورة الشورى

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، بأن الله أهلك من هم أقوى منهم، ليحذروا أن يفعل بهم مثل ما فعل بأولئك، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا}. وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَثُرُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَعَآثَرَا فِي الْأَرْضِ}. وقوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا} إلى قوله {فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبُهُمْ}. وقوله تعالى: {وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ تَكْوِيرُ}. وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكُنَّا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَمَصَىٰ مَثَلُ الْأُولِينَ} ما تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد كفار مكة الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، بصفته إهلاكهم وسنته فيهم التي هي العقوبة وعذاب الاستئصال، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {قَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا رَادَهُمُ إِلَّا نُفُورًا سُلُوكِبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولِينَ قَلَن تَجَدَّ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} وقوله تعالى: {قَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ وَقَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَوَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَك تَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَجَسِرَ هُنَالِكَ الْكُفْرُونَ} وقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولِينَ}. وقوله تعالى: {قَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ}.

وقد قدمنا بعض الآيات الدالة على هذا في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ} قوله تعالى: {وَلَيْن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقْنَاهُنَّ لِعَزِيرٍ لَّعَلِيْمٌ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة بني إسرائيل، في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَقُرْءَانٌ يَّهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}. قوله تعالى: {لِيَذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}. قرأ هذا الحرف، عاصم وحمزة والكسائي {مَهْدًا} بفتح الميم وسكون الهاء وقرأه باقي السبعة {مِهْدًا} بكسر الميم وفتح الهاء بعدها ألف ومعناها واحد وهو الفراش.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه جعل الأرض لبني آدم مهدياً أي فراشاً وأنه جعل لهم فيها سبلاً أي طرقاً ليمشوا فيها ويسلكوها، فيصلوا بها من قطر إلى قطر. وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، من كونه تعالى جعل الأرض فراشاً لبني آدم وجعل لهم فيها الطرق، لينفذوا من

قطر إلى قطر، جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}، وكقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}. وذكر كون الأرض فراشاً لبني آدم في آيات كثيرة كقوله تعالى: {وَالأَرْضَ فَرَشْنَا لَكُمْ أَرْضًا مَهْدُونَ} وقوله تعالى: {لِذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ}. وقوله تعالى: {اللَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}. قوله تعالى: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالة إحياء الأرض بعد موتها على خروج الناس من قبورهم أحياء بعد الموت، في قوله تعالى: {كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} جاء موضحاً في آيات كثيرة قد قدمناها في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} مع بقية براهين البعث في القرآن. وأوضحنا ذلك أيضاً في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}، وفي غير ذلك من المواضع، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك.

وقد قدمنا في سورة الفرقان معنى الإنشاء والنشور وما في ذلك من اللغات مع الشواهد العربية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {بِقَدَرٍ}.

قال بعض العلماء: أي بقدر سابق وقضاء.

وقال بعض العلماء: أي بمقدار يكون به إصلاح البشر فلم يكثر الماء جداً فيكون طوفاناً فيهلكهم، ولم يجعله قليلاً دون قدر الكفاية، بل نزله بقدر الكفاية من غير مضرة، كما قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}.

وقال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} إلى قوله {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}. قوله تعالى: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}. الأزواج الأصناف، والزوج تطلقه العرب على الصنف.

وقد بين تعالى أن الأزواج المذكورة هنا تشمل أصناف النبات وبني آدم وما لا يعلمه إلا الله.

قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}.

وقال تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}

وقال تعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ هُمَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بَهيجٍ} أي من كل صنف حسن من أصناف النبات.

وقال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ}. ومن

إطلاق الأزواج على الأصناف في القرآن قوله تعالى: {وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا}. وقوله تعالى: {وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}.

وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى { هَشُرُوا لِذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ } قوله تعالى: { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَلْفِكَ وَالْأَنْعَمَ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة المؤمن، في الكلام على قوله تعالى { أَلَلَّهُ لِيذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا }. وضمير المفرد المذكر الغائب في قوله: { لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ }، وقوله: { إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ } راجع إلى لفظ ما في قوله: { وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَلْفِكَ وَالْأَنْعَمَ مَا تَرْكَبُونَ }. قوله تعالى: { وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ }. يعني جل وعلا أنه جعل لبي آدم ما يركبونه من الفلك التي هي السفن، ومن الأنعام ليستووا أي يرتفعوا معتدلين على ظهوره ثم يذكروا في قلوبهم نعمة ربهم عليهم بتلك المركوبات ثم يقولوا بالسنتهم مع تفهم معنى ما يقولون { سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ }. وقوله: «سبحان» قد قدمنا في أول سورة بني إسرائيل معناه، بإيضاح وأنه يدل على تنزيه الله جل وعلا أكمل التنزيه وأتمه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله والإشارة في قوله { هَذَا } راجعة إلى لفظ { مَا } من قوله: { مَا تَرْكَبُونَ } وجمع الظهور نظراً إلى معنى { مَا }، لأن معناها عام شامل لكل ما تشمله صلتها ولفظها مفرد، فالجمع في الآية باعتبار معناها، والإفراد باعتبار لفظها.

وقوله: { الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا } أي الذي ذلل لنا هذا الذي هو ما نركبه من الأنعام والسفن لأن الأنعام لو لم يذلها الله لهم لما قدروا عليها ولا يخفى أن الجمل أقوى من الرجل، وكذلك البحر لو لم يذللهم ويسخر لهم إجراء السفن فيه لما قدروا على شيء من ذلك. وقوله تعالى: { وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } والعرب تقول: أقرن الرجل للأمر وأقرنه إذا كان مطيقاً له كفوفاً للقيام به من قولهم: أقرنت الدابة للدابة، بمعنى أنك إذا قرنتهما في حبل قدرت على مقاومتها، ولم تكن أضعف منها، فتجرها لأن الضعيف إذا لز في القرن أي الحبل، مع القوي جره ولم يقدر على مقاومته، كما قال جرير: وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب وقد أنشده قطرب لهذا المعنى: لقد علم القبائل ما عقيل لنا في النائبات بمقرنينا

وقول ابن هرمة: وأقرنت ما حملتني ولقلما يطاق احتمال الصدياد عدو الهجر

وقول الآخر: ركبتم صعبي أشراً وحيفا ولستم للصعاب بمقرنينا

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن ما ذكر من السفن والأنعام لو لم يذله الله لهم لما أقرنوا له ولما أطاقوه جاء مبيناً في آيات أخر. قال تعالى في ركوب الفلك: {وَأَيُّ لُحْمٍ أُنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي لُفْلُكٍ لَمَسُجُونًا وَخَلْقًا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}. وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}. وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}. وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَارَ}. وقال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ}. وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقال تعالى في تسخير الأنعام: {وَدَلَّلْنَا بِهَدْيَانَا لَهَا لَهْمًا فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} وقال تعالى: {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا لِقَنِيعٍ وَ لَمُعْتَرَ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} يَتَالِ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَتَالِهُ الْيَتَقَوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبُرُوا اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمْ لِحَدٍّ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَن يُنْسَأُ فِي لِحْلِيَةٍ وَهُوَ فِي لِحْصَامٍ غَيْرٌ مُّبِينٌ * وَجَعَلُوا لِمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَوَّكُتًا شَاهِدْتُهُمْ وَيُسَائِلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}. قال بعض العلماء {جُزْءًا} أي عدلاً ونظيراً، يعني الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله. وقال بعض العلماء: {جُزْءًا} أي ولداً. وقال بعض العلماء: {جُزْءًا} يعني البنات.

وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: أن الجزء النصيب، واستشهد على ذلك بآية الأنعام. أعني قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا}.

قال مقيد عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر أن قول ابن كثير هذا رحمه الله غير صواب في الآية.

لأن المجعول لله في آية الأنعام، هو النصيب مما ذرأ من الحرث والأنعام، والمجعول له في آية الزخرف هذه، جزء من عباده لا مما ذرأ من الحرث والأنعام.

وبين الأمرين فرق واضح كما ترى.

وأن قول قتادة ومن وافقه: إن المراد بالجزء العدل والنظير الذي هو الشريك غير صواب أيضاً.

لأن إطلاق الجزء على النظير ليس بمعروف في كلام العرب.

أما كون المراد بالجزاء في الآية الولد، وكون المراد بالولد خصوص الإناث، فهذا هو التحقيق في الآية.

وإطلاق الجزء على الولد يوجه بأمرين:

أحدهما: ما ذكره بعض علماء العربية من أن العرب تطلق الجزء مراداً به البنات، ويقولون: أجزاء المرأة إذا ولدت البنات، وامرأة مجزئة أي تلد البنات، قالوا ومنه قول الشاعر: إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب قد تجزىء الحرة المذكر أحياناً

وقول الآخر: زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبياتها زجل

وأنكر الزمخشري هذه اللغة قائلاً إنها كذب وافتراء على العرب.

قال في الكشف في الكلام على هذه الآية الكريمة: ومن بدع التفاسير، تفسير الجزء بالإناث وادعاء أن الجزء في لغة العرب اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب ووضع مستحدث منحول ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه أجزاء المرأة ثم صنعوا بيتاً وبيتاً: * إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب * زوجتها من بنات الأوس مجزئة اهـ. منه بلفظه.

وقال ابن منظور في اللسان: وفي التنزيل العزيز: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا}. قال أبو إسحاق يعني به الذين جعلوا الملائكة بنات الله تعالى وتقدس عما افتروا، قال: وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى جزءاً معنى الإناث قال: ولا أدري البيت هو قديم أو مصنوع؟ * إن أجزاء حرة يوماً فلا عجب * البيت والمعنى في قوله: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا} أي جعلوا نصيب الله من الولد الإناث، قال ولم أجده في شعر قديم ولا رواه عن العرب الثقات، وأجزاء المرأة ولدت الإناث، وأنشد أبو حنيفة: * زوجتها من بنات الأوس مجزئة * البيت انتهى الغرض من كلام صاحب اللسان.

وظاهر كلامه هذا الذي نقله عن الزجاج أن قولهم: أجزاء المرأة إذا ولدت الإناث معروف، ولذا ذكره وذكر البيت الذي أنشده له أبو حنيفة كالمسلم له. والوجه الثاني: وهو التحقيق إن شاء الله أن المراد بالجزء في الآية الولد، وأنه أطلق عليه اسم الجزء، لأن الفرع كأنه جزء من أصله والولد كأنه بضعة من الوالد كما لا يخفى.

وأما كون المراد بالولد المعبر عنه بالجزء في الآية خصوص الإناث فقرينة السياق دالة عليه دلالة واضحة، لأن جعل الجزء المذكور لله من عباده هو بعينه الذي أنكره الله إنكاراً شديداً وقرع مرتكبه تقريباً شديداً في قوله تعالى بعده {أَمْ لِيُخَلِّدَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنَاتِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُمْ مِمَّا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلًّا وَجْهُهُ مُسْوَدًّا} إلى قوله: {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ}.

وقرأ هذا الحرف شعبة عن عاصم {جُزْءًا} بضم الزاي وباقي السبعة بإسكانها وحمزة عند الوقف يسقط الهمزة، بنقل حركتها إلى الزاي مع حذف التنوين للوقف. قوله تعالى: {أَمْ لِيُخَلِّدَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنَاتِ}. أم

مضمومة مسهلة بين بين وقالوا يجعل بين الهمزتين ألف الإدخال على إحدى الروايتين.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أربع مسائل:

الأولى: أن الكفار افتروا على الملائكة أنهم إناث زاعمين أنهم بنات الله.

الثانية: أنه وبخهم على ذلك توبيخاً شديداً وأنكر عليهم ذلك في قوله:

{أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ} يعني هل حضروا خلق الله لهم فعابوهم إناثاً.

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة بذلك ستكتب عليهم.

الرابعة: أنهم يسألون عنها يوم القيامة.

وهذه المسائل الأربع التي تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت موضحة في غير هذا الموضوع.

أما الأولى منها. وهي كونهم اعتقدوا الملائكة إناثاً، فقد ذكرها تعالى في

مواضع من كتابه كقوله تعالى {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِإِنثِينَ وَتَّخَذَ مِنْ لِمَلَكَةٍ

إِنثِيَا إِنكُمْ تَتَّقُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}. وكقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً لَأَنثَى}، وقوله تعالى {وَ سَلَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ

لِبَنَاتٍ وَلَهُمْ لِبَنَاتُهُمْ خَلْفًا لِمَلَائِكَةٍ إِنثًا}. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الثانية، وهي سؤاله تعالى لهم على وجه الإنكار والتوبيخ

والتقريع هل شهدوا خلق الملائكة وحضروه، حتى علموا أنهم خلقوا إناثاً فقد

ذكرها في قوله تعالى: {أَمْ خَلَقْنَا لِمَلَائِكَةٍ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ} وبين تعالى

أنه لم يشهد الكفار خلق شيء في قوله: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ}.

وأما المسألة الثالثة التي هي كون شهادتهم بذلك الكفر ستكتب عليهم، فقد

ذكرها تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا

كَتَبْتُمْ لَكُمْ مَا تَفْعَلُونَ}، وقوله تعالى: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ

كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، وقوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ

سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}، وقوله تعالى: {إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ

مَا تَمْكُرُونَ} وقوله تعالى: {وَكَلَّ إِنْسَانَ الزَّمَنُ طَوِيرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا فَرَأَىٰ كِتَابَهُ}، وقوله تعالى: {سَتَكْتُبُ مَا يَقُولُ

وَتَمُدُّ لَهُ مِنْ لَعْدَابٍ مَدًّا}.

وأما المسألة الرابعة: وهي كونهم يسألون عن ذلك الإفتاء والكفر، فقد

ذكرها تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ

أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ} وقوله تعالى: {قَوَّارِكُكَ

لِنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ

وَسِيْرٌ يُسْأَلُونَ} وقوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ

تَأْلِفًا لِيُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى:

{وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَخْرُصُونَ}. في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار

الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا

عَبَدْتَهُمْ}، هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح، لأن الله لو شاء أن يعبدوهم ما

عبدوهم، كما قال تعالى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا}، وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ

اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ لِهْدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، وقال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا}. وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}.

وهذا الإشكال المذكور في آية الزخرف هو بعينه واقع في آية الأنعام، وآية النحل.

أما آية الأنعام فهي قوله: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِّنْ شَيْءٍ}.
 وأما آية النحل، فهي قوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِّنْ شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا}.

فإذا عرفت أن ظاهر آية الزخرف وآية الأنعام، وآية النحل: أن ما قاله الكفار حق، وأن الله لو شاء ما عبدوا من دونه من شيء ولا أشركوا به شيئاً، كما ذكرنا في الآيات الموضحة قريباً.

فاعلم أن وجه الإشكال، أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال في آية الزخرف: {مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} أي يكذبون، وقال في آية الأنعام {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَن تَبِيعُوا إِلَّا لَظَنَّوْا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}، وقال في آية النحل {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا لِيُبْلَغَ لُْمِينٌ}.

ومعلوم أن الذي فعله الذين من قبلهم، هو الكفر بالله والكذب على الله، في جعل الشركاء له وأنه حرم ما لم يحرمه.

والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم {لَوْ شَاءَ لَرَّحْمَنُ مَا عَبَدْتَهُمْ} وقولهم {لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا} مرادهم به أن الله لما كان قادراً على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان ولم يمنعهم من الشرك. دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم.

قالوا لأنه لو لم يكن راضياً به، لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة فنصب على دعواهم أنه راض به، والله جل وعلا يكذب هذه الدعوى في الآيات المذكورة وفي قوله {وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ لُكْفَرًا}. فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية، تستلزم الرضى وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه من الآيات المذكورة.

وقد أشار تعالى إلى هذه الآيات المذكورة، حيث قال في آية الزخرف: {أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا رضوان منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراباً مبيناً أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى، وذلك في قوله {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} أي شريعة وملة وهي الكفر وعبادة الأوثان {وَأِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ}.

فقوله عنهم مهتدون هو مصب التكذيب، لأن الله إنما يرضى بالاهتداء لا بالضلال.

فالاhtداء المزعوم أساسه تقليد الآباء الأعمى، وسيأتي إيضاح رده عليهم قريباً إن شاء الله.

وقال تعالى في آية النحل بعد ذكره دعوهم المذكورة: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ}.

فأوضح في هذه الآية الكريمة أنه لم يكن راضياً بكفرهم، وأنه بعث في كل أمة رسولا، وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده، ويجتنبوا الطاغوت أي يتبعوا عن عبادة كل معبود سواه.

وأن الله هدى بعضهم إلى عبادته وحده، وأن بعضهم حقت عليه الضلالة أي ثبت عليه الكفر والشقاء.

وقال تعالى في آية الأنعام {قُلْ قَلِيلٌ لِّلَّهِ لِحُجَّةٌ لِّبَلَاغَةِ قَلْوِ شَاءَ لِهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ}.

فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية، هو الحجة البالغة على خلقه، يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق، فهو فضل منا ورحمة.

ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة، لأنه لم يكن له ذلك ديناً علينا ولا واجباً مستحقاً يستحقه علينا، بل إن أعطينا ذلك ففضل، وإن لم نعطه فعدل.

وحاصل هذا: أن الله تبارك وتعالى قدر مقادير الخلق، قبل أن يخلق الخلق، وعلم أن قوماً صائرون إلى الشقاء وقوماً صائرون إلى السعادة، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وأقام الحجة على الجميع، بعث الرسل وتأييدهم بالمعجزات التي لا تترك في الحق لبساً فقامت عليهم حجة الله في أرضه بذلك.

ثم إنه تعالى وفق من شاء توفيقه، ولم يوفق من سبق لهم في علمه الشقاء الأزلي، وخلق لكل واحد منهم قدرة وإرادة يقدر بها على تحصيل الخير والشر، وصرف قدرهم وإراداتهم بقدرته وإرادته إلى ما سبق لهم في علمه، من أعمال الخير المستوجبة للسعادة وأعمال الشر المستوجبة للشقاء.

فاتوا كل ما أتوا وفعلوا كل ما فعلوا، طائعين مختارين، غير مجبورين، ولا مقهورين {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}. {قُلْ قَلِيلٌ لِّلَّهِ لِحُجَّةٌ لِّبَلَاغَةِ قَلْوِ شَاءَ لِهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ}.

وادعاء أن العبد مجبور لا إرادة له ضروري السقوط عند عامة العقلاء. ومن أعظم الضروريات الدالة عليه أن كل عاقل يعلم أن بين الحركة الاختيارية والحركة الاضطرارية، كحركة المرتعش فرقا ضرورياً، لا ينكره عاقل.

وأنك لو ضربت من يدعي أن الخلق مجبورون، وفقات عينه مثلاً، وقتلت ولده واعتذرت له بالجبر، فقلت له: أنا مجبور ولا إرادة لي في هذا السوء الذي فعلته بك، بل هو فعل الله، وأنا لا دخل فيه فإنه لا يقبل منك هذه الدعوى بلا شك.

بل يبالغ في إرادة الانتقام منك قائلاً:
إن هذا بإرادتك ومشيتك.

ومن أعظم الأدلة القطعية الدالة على بطلان مذهب القدرية، وأن العبد لا يستقل بأفعاله دون قدرة الله ومشيئته، أنه لا يمكن أحداً أن ينكر علم الله بكل شيء، قبل وقوعه والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا ينكرها إلا مكابر. وسبق علم الله بما يقع من العبد قبل وقوعه، برهان قاطع على بطلان تلك الدعوى.

وإيضاح ذلك أنك لو قلت للقدري: إذا كان علم الله في سابق أزله تعلق بأنك تقع منك السرقة أو الزنا في محل كذا في وقت كذا، وأردت أنت بإرادتك المستقلة في زعمك دون إرادة الله ألا تفعل تلك السرقة أو الزنا الذي سبق بعلم الله وقوعه، فهل يمكنك أن تستقل بذلك؟ وتُصير علم الله جهلاً، بحيث لا يقع ما سبق في علمه ووقوعه في وقته المحدد له؟

والجواب بلا شك: هو أن ذلك لا يمكن بحال كما قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، وقال الله تعالى: {قُلْ قَلِيلٌ لِّهِ لِحُجَّةٍ لِّبَلَاغَةِ قَلْوٍ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}.

ولا إشكال البتة في أن الله يخلق للعبد قدرة وإرادة يقدر بها على الفعل والترك، ثم يصرف الله بقدرته وإرادته قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به علمه فيأتيه العبد طائعاً مختاراً غير مقهور ولا يجور، وغير مستقل به دون قدرة الله وإرادته كما قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}. والمناظرة التي ذكرها بعضهم، بين أبي إسحاق الإسفراييني وعبد الجبار المعتزلي توضح هذا.

وهي أن عبد الجبار قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء يعني أن السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله، لأنه في زعمه أنزه من أن تكون هذه الرذائل بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل.

ثم قال: سبحان من لم يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبد الجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه، أنت الرب وهو العبد؟

فقال عبد الجبار: أرايت إن دعاني إلى الهدى، وقضى علي بالردى، دعاني وسد الباب دوني؟ أتراه أحسن أم أساء؟

فقال أبو إسحاق: أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبهت عبد الجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب.

ومضمون جواب أبي إسحاق هذا الذي أفحم به عبد الجبار، هو معنى قوله تعالى: {قُلْ قَلِيلٌ لِّهِ لِحُجَّةٍ لِّبَلَاغَةِ قَلْوٍ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}.

وذكر بعضهم أن عمرو بن عبيد جاءه أعرابي فشكا إليه أن دابته سرقت وطلب منه أن يدعو الله ليردها إليه.

فقال عمرو ما معناه: اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها، لأنك أنزه وأجل من أن تدبر هذا الخنا.

فقال الأعرابي: ناشدتك الله يا هذا، إلا ما كفت عني من دعائك هذا الخبيث، إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد، ولا ثقة لي برب، يقع في ملكه ما لا يشاؤه فألقمه حجراً.

وقد ذكرنا هذه المسألة في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في الكلام عن آية الأنعام المذكورة في هذا البحث، وفي سورة الشمس في الكلام عن قوله تعالى: {قَالَهُمْهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}.

{أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهَم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأْتِرِهِمْ مُّهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَأْتِرِهِمْ مُّقْتَدُونَ * قُلْ أَوْلُو حُنُوكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَلِيلًا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا لِيذِي قَطرَني فَإِنَّهُ سَيهَدين * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّبِعْتِ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ لِحَقٌّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ لِحَقٌّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ}

قوله تعالى: {أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهَم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}. أم هنا تتضمن معنى استفهام الإنكار، يعني جل وعلا أن هذا الذي يزعم الكفار من أنهم على حق في عبادتهم الأوثان، وجعلهم الملائكة بنات الله، لا دليل لهم عليه. ولذا أنكر أن يكون آتاهم كتاباً يحل فيه ذلك وأن يكونوا مستمسكين في ذلك بكتاب من الله، فأنكر عليهم هذا هنا إنكاراً دالاً على النفي للتمسك بالكتاب المذكور، مع التوبيخ والتقريع.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن كفرهم المذكور لم يكن عن هدى من الله، ولا كتاب أنزله الله بذلك، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة فاطر: {قُلْ إِرَءَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَا دَاخَلُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهَم عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ}.

وقوله تعالى في الأحقاف: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَا دَاخَلُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أُنثُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقوله تعالى في الروم: {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}.

وقوله تعالى في الصافات: {أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقوله تعالى في النمل: {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقوله تعالى في الحج ولقمان: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ}.

وقوله تعالى في الأنعام: {قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَّا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}. قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي

قَرِيَّةٍ مِّنْ تَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُنْتَرِفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ يَأْهُدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة قد أفلح المؤمنون، في الكلام على قوله تعالى {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ}.

وفي سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرِيَّةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا}، وقوله تعالى: {قُلْ أَوْلُو جِنَّتِكُمْ يَأْهُدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}.

قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وشعبة عن عاصم: قُلْ أَوْ لَوْ جِنَّتِكُمْ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ اللَّامِ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ. وقرأه ابن عامر وحفص عن عاصم، قَالَ أَوْ لَوْ جِنَّتِكُمْ بِفَتْحِ الْقَافِ وَاللَّامِ بَيْنَهُمَا أَلْفَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي.

فعلى قراءة الجمهور فالمعنى قل لهم يا نبي الله أتقتدون بأبائكم في الكفر والضلال، ولو جنتكم بأهدى، أي بدين أهدى مما وجدتم عليه آبائكم، وصيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف لأن آبائهم لا شيء عندهم من الهداية أصلاً. وعلى قراءة ابن عامر وحفص: فالمعنى قال هو: أي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أوضحنا هذا المعنى بشواهد العربية مراراً في هذا الكتاب المبارك. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تسفيه رأي الكفار وبيان شدة ضلالهم في تقليدهم آبائهم هذا التقليد الأعمى، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَبِئْسَ مَا آتَوْكُم مِّنَ اللَّهِ قَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ آيَاتٍ كَثِيرًا مِّنَ السَّمَاءِ لَنُبْذِلَنَّكُمْ إِن كُنتُمْ تآمِنُونَ}، وكقوله تعالى في المائدة: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا كَانُوا آبَائِهِمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}.

وأوضح تعالى في آية لقمان أن ما وجدوا عليه آبائهم من الكفر والضلال طريق من طرق الشيطان يدعوهم بسلوكها إلى عذاب السعير، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَبِئْسَ مَا آتَوْكُم مِّنَ اللَّهِ قَالُوا لَوْلَا نُنزِّلُ آيَاتٍ كَثِيرًا مِّنَ السَّمَاءِ لَنُبْذِلَنَّكُمْ إِن كُنتُمْ تآمِنُونَ}، وكقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلِنَا وَكُنَّا بِعَلِيمِيَّادٍ قَال لَابِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَثِيلُ أَلَيْسَ لَكُمْ أَن تَعْبُدُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلِنَا وَكُنَّا بِعَلِيمِيَّادٍ قَال لَابِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَثِيلُ أَلَيْسَ لَكُمْ أَن تَعْبُدُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ}.

والآيات بمثل ذلك كثيرة. قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيذِي قَطْرِنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِين}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال لأبيه وقومه: إنه براء أي بريء، من جميع معبوداتهم التي يعبدونها، من دون الله أي يعني أنه بريء من عبادة كل معبود، إلا المعبود الذي خلقه وأوجده فهو وحده معبوده.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى الذي ذكره عن إبراهيم في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: {قَالَ أَقْرَبَئِيكُمْ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَن تَكُونُوا مِمَّنْ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تآمِنُونَ}، وكقوله تعالى: {قَلِّمُوا

رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَتْ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَتْ يَقَوْمِ إِنِّي بَعِيْتُ
مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّي قَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا
مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

وزاد جل وعلا في سورة الممتحنة براءته أيضاً من العابدين ووعداوته لهم
وبغضه لهم في الله، وذلك في قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَ لُذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرءَاؤُا مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
وَ حُدَّهُ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} ذكر نحوه في قوله:
{ لِيذِي خَلَقْنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } وقوله تعالى: { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي
سَيَهْدِينِ } وقوله تعالى: { فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ لِيْن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الضَّالِّينَ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ } { إِلَّا لِيذِي
قَطَرْنِي } أي خلقتني. يدل على أنه لا يستحق العبادة، إلا الخالق وحده جل
وعلا.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، دلت عليه آيات أخر من كتاب
الله كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُبِدُوا رَبَّكُمْ لِيذِي خَلَقَكُمْ وَ لُذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ }، وقوله تعالى: { وَ اتَّقُوا لِيذِي خَلَقَكُمْ وَ لِجِيلَةَ الْأُولِينَ } وقوله تعالى:
{ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ لَخَلْقِ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ
شَيْءٍ وَهُوَ لَوَّاحِدٌ لِقَهْرٍ } وقوله تعالى: { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ }، وقوله
تعالى: { أَيُشْرِكُونَ مَا لَّا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ } وقوله تعالى: { لِيذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا وَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ
يُخْلِقُونَ } إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ ءَابَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُّبِينٌ
وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } . الضمير المنصوب في
جعلها على التحقيق راجع إلى كلمة الإيمان المشتملة على معنى لا إله إلا
الله، المذكورة في قوله { إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيذِي قَطَرْنِي } لأن لا إله
إلا الله نفي وإثبات، فمعنى النفي منها هو البراءة من جميع المعبودات غير
الله في جميع أنواع العبادات.

وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله { إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ } .
ومعنى الإثبات منها هو أفراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي
شرعه على السنة رسله.

وهذا المعنى جاء موضحاً في قوله: { إِلَّا لِيذِي قَطَرْنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } .
وضمير الفاعل المستتر في قوله { وَ جَعَلَهَا } .

قال بعضهم: هو راجع إلى إبراهيم وهو ظاهر السياق.

وقال بعضهم: هو راجع إلى الله تعالى.

فعلى القول الأول فالمعنى صير إبراهيم تلك الكلمة باقية في عقبه أي ولده
وولد ولده.

وقد بين تعالى في الحديد أن غير المهتدين منهم كثيرون وذلك في قوله
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَ لِكِتَابٍ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ قَاسِقُونَ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} أي جعل الكلمة باقية
فيهم لعل الزائغين الضالين منهم يرجعون إلى الحق بإرشاد المؤمنين
لمهتدين منهم، لأن الحق ما دام قائماً في جملتهم فرجوع الزائغين عنه إليه
مرجو مأمول كما دل عليه قوله {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

والرجاء المذكور بالنسبة إلى بني آدم، لأنهم لا يعرفون من يصير إلى الهدى،
ومن يصير إلى الضلال.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة، وفي الكلام تقديم وتأخير.
والمعنى فإنه سيهدين لعلمهم يرجعون، وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلمهم
يرجعون، أي قال لهم، يتوبون عن عبادة غير الله. اهـ منه.

وإيضاح كلامه، أن المعنى أن إبراهيم، قال لأبيه وقومه: إنني براء مما تعبدون
لأجل أن يرجعوا عن الكفر إلى الحق.

والضمير في قوله لعلمهم يرجعوا على هذا راجع إلى أبيه وقومه.
وعلى ما ذكرناه أولاً فالضمير راجع إلى من ضل من عقبه، لأن الضالين منهم
داخلون في لفظ العقب.

فرجوع ضميرهم إلى العقب لا إشكال فيه وهذا القول هو ظاهر السياق،
والعلم عند الله تعالى.

مسألة

ظاهر هذه الآيات الكريمة التي ذكرنا يدل على اتحاد معنى العقب والذرية
والبنين، لأنه قال في بعضها عن إبراهيم {وَجُنُبِيَّ وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ إِلَّا ضَمَامَ}.
وقال عنه في بعضها {رَبِّ جُعَلِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} وفي بعضها
{رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ}، وفي بعضها {قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} وفي بعضها {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ
النَّبُوَّةَ وَ لِكِتَابٍ} وفي بعضها {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ}.

فالظاهر المتبادر من الآيات أن المراد بالبنين والذرية والعقب شيء واحد،
لأن جميعها في شيء واحد. وبذلك تعلم أن ظاهر القرآن، يدل على أن من
وقف وقفاً أو تصدق صدقة على بنه أو ذريته أو عقبه، أن حكم ذلك واحد.
وقد دل بعض الآيات القرآنية على أن أولاد البنات يدخلون في اسم الذرية
واسم البنين.

وإذا دل القرآن على دخول ولد البنت، في اسم الذرية والبنين والفرس أن
العقب بمعناها، دل ذلك على دخول أولاد البنات في العقب أيضاً، فمن
الآيات الدالة على دخول ولد البنت في اسم الذرية قوله تعالى {وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ
دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ} إلى قوله {وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ} وهذا نص قرآني صريح في
دخول ولد البنت في اسم الذرية، لأن عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام
ولد بنت إذ لا أب له.

ومن الآيات الدالة على دخول ولد البنت في اسم البنين قوله تعالى {حُرِّمَتْ
عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} وقوله تعالى {وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ} لأن لفظ

البنات في الألفاظ الثلاثة، شامل لبنات البنات وبنات بناتهن وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص قرآني صحيح في استواء بنات بنين وبنات بناتهن. فتحصل أن دخول أولاد البنات في الوقف على الذرية والبنين والعقب، هو ظاهر القرآن ولا ينبغي العدول عنه.

وكلام فقهاء الأمصار من الأئمة الأربعة وغيرهم في الألفاظ المذكورة معروف، ومن أراد الاطلاع عليه فلينظر كتب فروع المذاهب ولم نبسط على ذلك الكلام هنا لأننا نريد أن نذكر هنا ما يدل ظاهر القرآن على ترجيحه من ذلك فقط.

أما لفظ الولد فإن القرآن يدل على أن أولاد البنات لا يدخلون فيه. وذلك في قوله تعالى {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}، فإن قوله في أولادكم لا يدخل فيه أولاد البنات، وذلك لا نزاع فيه بين المسلمين، وهو نص صريح قرآني على عدم دخول أولاد البنات في اسم الولد.

وإن كان جماهير العلماء على أن العقب والولد سواء.

ولا شك أن اتباع القرآن هو المتعين على كل مسلم.

أما لفظ النسل فظاهر القرآن شموله لأولاد البنات لأن قوله تعالى {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ لِذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ} ظاهر في أن لفظه النسل في الآية شاملة لأولاد البنات كما لا يخفى.

والألفاظ التي يتكلم عليها العلماء في هذا المبحث هي أحد عشر لفظاً ذكرنا خمسة منها وهي: الذرية والبنون والعقب والولد والنسل. وذكرنا أن أربعة منها يدل ظاهر القرآن على أنها يدخل فيها أولاد البنات وواحد بخلاف ذلك وهو الولد.

وأما الستة الباقية منها فهي الآل والأهل ومعناها واحد.

والقراية والعشيرة والقوم والموالي، وكلام العلماء فيها مضطرب.

ولم يحضرني الآن تحديد يتميز به ما يدخل في كل واحد منها وما يخرج عنه إلا على سبيل التقريب إلا لفظين منها وهما القراية والعشيرة.

أما القراية فقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «أنه أعطى من خمس خبير بنى هاشم وبنى المطلب دون بنى عبد شمس وبنى نوفل» مبيناً أن ذلك هو معنى قوله تعالى {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ} كما تقدم إيضاحه في سورة الأنفال في الكلام على آية الخمس هذه.

وأما العشيرة فقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث ابن عباس أنه لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي «يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا» الحديث. وفيه تحديد العشيرة الأقربين بجميع بنى فهر بن مالك وهو الجد العاشر له صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية أبي هريرة في الصحيح. أنه لما نزلت الآية المذكورة قال «يا

معشر قريش أو كلمة نحوها» الحديث، وقريش هم أولاد فهر بن مالك.

وقيل: أولاد النصر بن كنانة، والأول هو الأظهر لحديث ابن عباس المذكور وعليه الأكثر.

تنبيه

(فإن قيل) ذكرتم أن ظاهر القرآن يدل على دخول أولاد البنات في لفظ البنين والشاعر يقول في خلاف ذلك: **بَنُوْنَا بَنُوا أَبْنَايْنَا وَبَنَاتْنَا بَنُوْنَا أَبْنَا** الرِّجَالِ الْأَبَاعِدِ

وكثير من أهل الفقه يذكرون البيت المذكور، على سبيل التسليم له، قالوا: ومما يوضح صدقه أنهم ينسبون إلى رجال آخرين، ربما كانوا أعداء لأهل أمهاتهم وكثيراً ما يتبع الولد أباه وعصبته، في عداوة أخواله وبغضهم كما هو معلوم.

(فالجواب) أن الواحد بالشخص له جهتان، فمعنى لفظ الابن له جهة خاصة هي معنى كونه خلق من ماء هذا الرجل على وجه يلحق فيه نسبه به، وهذا المعنى منفي عن والد أمه، فلا يقال له ابن بهذا الاعتبار وثابت لأبيه الذي خلق من مائه، وله جهة أخرى هي كونه خارجاً في الجملة من هذا الشخص، سواء كان بالباشرة، أو بواسطة ابنه أو بنته وإن سفل، فالبنوة بهذا المعنى ثابتة لولد البنت، وهذا المعنى هو الذي عناه صلى الله عليه وسلم في قوله في الحسن بن علي رضي الله عنهما «إن ابني هذا سيد» الحديث وهو المراد في الآيات القرآنية كقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} وقوله تعالى {وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ} وكقوله تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا بَنَاتِهِنَّ وَلَا أُمَّهَاتِهِنَّ} فلفظ البنات والأبناء في جميع الآيات المذكورة شامل لجميع أولاد البنين والبنات وإن سفلوا، وإنما شملهم من الجهة المذكورة بالاعتبار المذكور، وهو إطلاق لفظ الابن على كل من خرج من الشخص في الجملة، ولو بواسطة بناته.

وأما البيت المذكور فالمراد به الجهة الأولى والاعتبار الأول. فإن بني البنات، ليسوا أبناءً لأبائهم من تلك الجهة، ولا بذلك الاعتبار لأنهم لم يخلقوا من مائهم، وإنما خلقوا من ماء رجال آخرين، ربما كانوا أباعد وربما كانوا أعداء.

فصح بهذا الاعتبار نفي البنوة عن ابن البنت. وضح بالاعتبار الأول إثبات البنوة له ولا تناقض مع انفكاك الجهة. وإذا عرفت معنى الجهتين المذكورتين وأنه بالنظر إلى إحداهما تثبت البنوة لابن البنت وبالنظر إلى الأخرى تنتفي عنه.

فاعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم: «إن ابني هذا سيد» وقوله تعالى: {وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ} ونحوها من الآيات ينزل على إحدى الجهتين: وقوله تعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ} يتنزل على الجهة الأخرى. وتلك الجهة هي التي يعني الشاعر بقوله: * وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد *

ويزيد ذلك إيضاحاً: أن قبائل العرب قد تكون بينهم حروب ومقاتلات، فيكون ذلك القتال بين أعمام الرجل وأخواله، فيكون مع عصبته دائماً على أخواله، كما في البيت المذكور.

وقد يكون الرجل منهم في أخواله فيعاملونه معاملة دون معاملتهم لأبنائهم. كما أوضح ذلك غسان بن وعله في شعره حيث يقول:
إذا كنت في سعد وأمك منهم شطيراً فلا يغرك خالك من سعد
فإن ابن أخت القوم مصغي إنأؤه إذا لم يزاحم خاله بأب جلد

فقوله مصغي إنأؤه من الإصغاء وهو الإمالة، لأن الإناء إذا أميل ولم يترك معتدلاً لم يتسع إلا للقليل، فهو كناية عن نقص نصيبه فيهم وقتله. وعلى الجهتين المذكورتين ينتزل اختلاف الصحابة في ميراث الجد والإخوة. فمن رأى منهم أنه أب يحجب الإخوة، فقد راعى في الجد إحدى الجهتين. ومن رأى منهم أنه ليس بأب وأنه لا يحجب الإخوة فقد لاحظ الجهة الأخرى. ولم نطل الكلام هنا في جميع الألفاظ المذكورة التي هي أحد عشر لفظاً خوف الإطالة. ولأننا لم نجد نصوصاً من الوحي تحدد شيئاً منها تحديداً دقيقاً. ومعلوم أن لفظ القوم منها قد دل القرآن على أنه يختص بالذكور دون الإناث.

وإن الإناث قد يدخلن فيه بحكم التبع إذا اقترن بما يدل على ذلك. لأن الله تعالى قال: {لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ}. فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في لفظ القوم.

ونظيره من كلام العرب قول زهير:
وما أدري وسوف إخال أدري قوم آل حصن أم نساء

وأما دخول النساء في القوم بحكم التبع عند الاقتران بما يدل على ذلك، فقد بينه قوله تعالى في ملكة سبأ: {وَوَصَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ}.

وأما الموالى فقد دل القرآن واللغة على أن المولى يطلق على كل من له سبب يوالى ويوالى به.

ولذا أطلق على الله أنه مولى المؤمنين لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء.

ونفى ولاية الطاعة عن الكافرين في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكٰفِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ}.

وأثبت له عليهم ولاية الملك والقهر في قوله تعالى: {وَرُؤُوسًا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ لِحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}. كما أثبت لهم ولاية النار في قوله:

{مَا وَآكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ}. وأطلق تعالى اسم المولى على العصبية في قوله تعالى: {وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبُونَ}.

وأطلق اسم المولى على الأقارب ونحوهم في قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ شَيْئًا}.

ويكثر في كلام العرب إطلاق الموالى على العصبية وابن العم ومنه قول الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تظهرن لنا ما كان مدفونا

وقول طرفة بن العبد:
وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

والحاصل أن من قال هذا وقف، أو صدقة على قومي، أو موالي أنه إن كان هناك عرف خاص، وجب اتباعه في ذلك، وإن لم يكن هناك عرف فلا نعلم نصاً من كتاب ولا سنة يحدد ذلك تحديداً دقيقاً.
وكلام أهل العلم فيه معروف في محاله.
والعلم عند الله تعالى.

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ لِّقَرَّبَيْنِ عَظِيمٍ * أَهْمُ
يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَيْسِمَاتُ بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا
بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُفْهًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِنُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِن كَلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ * وَمَن يَعْمُرْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ يَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *
وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ
يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّكِنَ لِلْقَرِينِ * وَلَن يَنْفَعَكُم لِيَوْمٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِي لِعَذَابٍ مُّشْتَرِكُونَ * أَفَأَن تَسْمِعُ الْأَصْمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَأَمَّا تَدَاهُنَ بَيْنَكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ * أَوْ تُرِيكَ لِيَدِي
وَعَدْتُهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالْأُوحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَيْنَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ * وَإِنَّهُ لِيَذْكُرَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن
قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا
إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ
بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ كُفُّوا عَنَّا عَهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا
لَمُّهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَبْكُونَ * وَتَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي
قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا
يُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ
أَسْوَرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ لِمَلَائِكَةُ مُّقْتَرِنِينَ * فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ
* فَجَعَلْنَاهُمْ سَلْفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ * وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ
يَصُدُونَ * وَقَالُوا يَا إِلَهِنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِجْدَالًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَاصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ }

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ لِّقَرَّبَيْنِ عَظِيمًا هُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَيْسِمَاتُ بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ.

وقالوا: أي قال كفار مكة، لولا أي هلا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين، أي من إحدى القريتين، وهما مكة والطائف عظيم يعنون بعظمه، كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وعظيم مكة الذي يريدون هو الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب، وفي مرة بن كعب يجتمع نسبه بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. وعظيم الطائف. هو عروة بن مسعود. وقيل حبيب بن عمرو بن عمير. وقيل هو كنانة بن عبد ياليل وقيل غير ذلك.

وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر كما أوضحناه مراراً.

ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن اقتراحهم إرسال رسل من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين المذكورين:

وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، حيث يجعلون كثرة المال، والجاه في الدنيا، موجبا لاستحقاق النبوة. وتنزيل الوحي.

ولذا زعموا، أن محمداً صلى الله عليه وسلم، ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه، لقلته ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه صلى الله عليه وسلم.

وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك النبوة وإنزال الوحي.

وإطلاق الرحمة على ذلك متعدد في القرآن كقوله تعالى في الدخان {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}، وقوله في آخر القصص {وَمَا كُنْتَ تَبْرُهُمْ أَن يُلْقِيَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}، وقوله في آخر الأنبياء {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

وقد قدمنا الآيات الدالة، على إطلاق الرحمة: والعلم على النبوة في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا}.

وقدمنا معاني إطلاق الرحمة، في القرآن في سورة فاطر، في الكلام على قوله تعالى {مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا}.

وقوله تعالى في هذه الآية {تَخُنُّ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معاشهم وحظوظهم، في الدنيا، بل تولى هو جل وعلا قسمة ذلك بينهم، فجعل هذا غنياً، وهذا فقيراً، وهذا رفيعاً، وهذا وضيعاً، وهذا خادماً، وهذا مخدوعاً، ونحو ذلك فإذا لم يفوض إليهم، حظوظهم في الدنيا، ولم يحكمهم فيها.

بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء كيف شاء، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟ فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غبي جاهل كالكفار المذكورين.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا} التحقيق إن شاء الله أنه من التسخير.

ومعنى تسخير بعضهم لبعض، خدمة بعضهم البعض، وعمل بعضهم لبعض، لأن نظام العالم في الدنيا، يتوقف قيامه على ذلك، فمن حكمته جل وعلا، أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه، ولكنه تعالى يهيئ له دراهم، يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف، والضعيف بعمل القوي فتنتظم المعيشة، لكل منهما وهكذا.

وهذه المسائل التي ذكرها الله جل وعلا، في هذه السورة الكريمة جاءت كلها موضحة في آيات آخر من كتاب الله. أما زعمهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم أنقص شرفاً، وقديراً من أن ينزل عليه الوحي، فقد ذكره الله عنهم في (حرا) في قوله تعالى {أَنْزَلَ عَلَيْهِ فَقَوْلُ كِفَارِ مَكَّةَ {أَنْزَلَ عَلَيْهِ {الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا} بِلْ هُمْ قَى بَشِكِّ مِّنْ ذِكْرِي}.
بأنزال الوحي من بينهم، لزعمهم أن فيهم من هو أحق بالوحي منه، لكثرة ماله، وجاهه وشرفه فيهم.

وقد قال قوم صالح، مثل ذلك لصالح، كما قال تعالى منهم {أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ}.
فقلوب الكفار متشابهة فكانت أعمالهم متشابهة. كما قال تعالى {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} وقال تعالى {أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ}.
وأما اقتراحهم إنزال الوحي على غيره منهم، وأنهم لا يرضون خصوصيته بذلك دونهم، فقد ذكره تعالى في سورة الأنعام في قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِنْ مِّثْلِ مَا آتَىٰ رُسُلَ اللَّهِ} وقوله تعالى في المدثر {بَلْ يَرِيدُ كُلُّ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً}.
أي تنزل عليه صحف بالوحي من السماء، كما قال مجاهد وغير واحد، وهو ظاهر القرآن.

وفي الآية قول آخر معروف. وأما إنكاره تعالى عليهم، اقتراح إنزال الوحي على غير محمد صلى الله عليه وسلم، الذي دلت عليه همزة الإنكار المتضمنة مع الإنكار لتجهيلهم، وتسفيه عقولهم، في قوله: {أَهُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}. فقد أشار تعالى إليه مع الوعيد الشديد في الأنعام.

لأنه تعالى لما قال {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِنْ مِّثْلِ مَا آتَىٰ رُسُلَ اللَّهِ} أتبع ذلك بقوله، رداً عليهم، وإنكاراً لمقاتلتهم {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}.

ثم أوعدهم على ذلك فقوله {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}.

وأما كونه تعالى هو الذي تولى قسمة معيشتهم بينهم، فقد جاء في مواضع آخر كقوله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا لِلَّذِينَ

فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَيَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ { وقوله تعالى
 { أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْتَنِي بِعَصَّتِهِمْ عَلَيَّ بَعْضٌ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا }
 وقوله تعالى: { أَلَلَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ } وقوله تعالى: { وَلِيَكُن
 يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } وقوله تعالى: { إِنْ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ
 فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا }.

وقد أوضح تعالى حكمة هذا التفاضل، والتفاوت في الأرزاق، والحظوظ
 والقوة والضعف، ونحو ذلك، بقوله هنا { لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا }، كما
 تقدم.

وقوله تعالى هنا { وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } . يعني أن النبوة، والاهتداء
 يهدي الأنبياء، وما يناله المهتدون يوم القيامة، خير مما يجمعه الناس في
 الدنيا من حطامها.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى، في غير هذا الموضوع، كقوله في سورة
 يونس { قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلِكُ قَلِيلًا حَسْبُ الْوَالِدِ } وقوله تعالى في آل عمران { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ
 اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }.

مسألة

دلت هذه الآيات الكريمة، المذكورة هنا، كقوله تعالى: { تَخُنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ
 مَّعِيشَتَهُمْ } . وقوله { وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ فِي الرِّزْقِ } ونحو ذلك
 من الآيات، على أن تفاوت الناس في الأرزاق، والحظوظ سنة، من سنن الله
 السماوية الكونية، القدرية، لا يستطيع أحد من أهل الأرض، البتة تبديلها، ولا
 تحويلها، بوجه من الوجوه، { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
 تَحْوِيلًا }.

وبذلك تحقق أن ما يتذرع به الآن الملاحدة المنكرون لوجود الله، ولجميع
 النبوات، والرسائل السماوية، إلى ابتزاز ثروات الناس، ونزع ملكهم الخاص،
 عن أملاكهم بدعوى المساواة بين الناس، في معاشهم أمر باطل. لا يمكن
 بحال من الأحوال.

مع أنهم لا يقصدون ذلك الذي يزعمون. وإنما يقصدون استثارتهم، بأمل
 جميع الناس، ليتمتعوا بها ويتصرفوا فيها، كيف شاءوا، تحت ستار كثير من
 أنواع الكذب، والغرور والخداع، كما يتحققه كل عاقل مطلع على سيرتهم،
 وأحوالهم مع المجتمع في بلادهم.

فالطغمة القليلة الحاكمة، ومن ينظم إليها، هم المتمتعون بجميع خيرات
 البلاد. وغيرهم من عامة الشعب. محرومون من كل خير. مظلومون في كل
 شيء. حتى ما كسبوه بأيديهم، يعلفون ببطاقة، كما تelf البغال والحمير.
 وقد علم الله جل وعلا في سابق علمه أنه يأتي ناس يغتصبون أموال الناس
 بدعوى أن هذا فقير وهذا غني وقد نهى جل وعلا عن اتباع الهوى يتلك
 الدعوى، وأوعد من لم ينته عن ذلك، بقوله تعالى: { إِنْ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا
 فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا لَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ
 كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }.

وقوله: { فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } فيه وعيد شديد لمن فعل ذلك. قوله تعالى: { وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَيُولِي بُيُوتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَّكِنُونَ وَخُرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ }. قوله لبُيُوتِهِمْ، في الموضعين، قرأه ورش وأبو عمرو وحفص، عن عاصم، بضم الباء على الأصل.

وقراه قالون، عن نافع وابن كثير، وابن عامر، وحمزة والكسائي، وشعبة عن عاصم { لِبُيُوتِهِمْ } بكسر الباء لمجانسة الكسرة للباء. وقوله سقفاً: قرأه نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم، سقفاً بضمين، على الجمع.

وقراه ابن كثير وأبو عمرو { سَقْفًا } بفتح السين وإسكان القاف على الإفراد المراد به الجمع.

وقوله: { وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ } قرأه نافع وابن كثير، وابن عامر، في رواية ابن ذكوان، وإحدى الروایتين عن هشام وأبي عمرو والكسائي { لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا } بتخفيف الميم من لما. وقراه عاصم، وحمزة وهشام، عن ابن عامر، وفي إحدى الروایتين { لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا } بتشديد الميم من لما.

ومعنى الآية الكريمة، أن الله لما بين حقارة الدنيا، وعظم شأن الآخرة في قوله: { وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }.

أتبع ذلك بيان شدة حقارتها، وأنه جعلها مشتركة، بين المؤمنين، والكافرين وجعل ما في الآخرة من النعيم خاصاً بالمؤمنين، دون الكافرين وبين حكمته في اشتراك المؤمن مع الكافر، في نعيم الدنيا بقوله: { وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ } أي لولا كراهتنا لكون جميع الناس أمة واحدة، متفقة على الكفر، لأعطينا زخارف الدنيا كلها للكفار.

ولكننا لعلمنا، بشدة ميل القلوب إلى زهرة الحياة الدنيا، وحبها لها لو أعطينا ذلك كله للكفار، لحملت الرغبة في الدنيا جميع الناس على أن يكونوا كفاراً، فجعلنا في كل من الكافرين والمؤمنين غنياً وفقيراً، وأشركنا بينهم في الحياة الدنيا.

ثم بين جل وعلا اختصاص نعيم الآخرة بالمؤمنين في قوله: { وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ لِحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ }. أي خالصة لهم دون غيرهم.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ }. فقوله: { قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي } لِحَيَاةِ الدُّنْيَا أي مشتركة بينهم في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة.

أي خاصة بهم، دون الكفار، يوم القيامة. إذ لا نصيب للكفار البتة في طيبات الآخرة.

فقوله في آية الأعراف هذه {قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} صريح في اشتراك المؤمنين مع الكفار في متاع الحياة الدنيا. وذلك الاشتراك المذكور، دل عليه حرف الامتناع، للوجود الذي هو لولا، في قوله هنا {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ لِلنَّاسِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ}. وخصوص طيبات الآخرة، بالمؤمنين المنصوص عليه في آية الأعراف بقوله {خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} هو الذي أوضحه تعالى في آية الزخرف هذه بقوله {وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}. وجميع المؤمنين يدخلون في الجملة في لفظ المتقين لأن كل مؤمن اتقى الشرك بالله.

وما دلت عليه هذه الآيات. من أنه تعالى يعطي الكفار من متاع الحياة الدنيا، دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله. كقوله تعالى {قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ} وقوله {ثُمَّ نَجِّنَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ تَضْرِبُ لَهُمُ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ} وقول تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وقوله {قُلْ إِنْ لِدِينٍ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ لَكَذِبٌ لَآ يَفْلِحُونَ} في الدنيا ثم إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} والآيات بمثل هذا كثيرة. وقد بين تعالى في آيات من كتابه، أن إنعامه على الكافرين ليس لكرامتهم عليه، ولكنه للاستدراج، كقوله تعالى {فَدَرَيْتُ وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ} وقوله تعالى {فَلَمَّا تَسَاءَلُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَجُوا بِمَا أُوْتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} وقوله تعالى {ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ لِحَسَنَةٍ حَتَّىٰ عَفَاؤًا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَافُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} وقوله تعالى {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا} على أظهر التفسيرين. وقوله تعالى: {وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيُزْدَاوُوا إِنَّمَا وَلَهُمُ عَذَابٌ مُهِينٌ} وقوله تعالى: {فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ تَكْبِيرًا}.

ودعوى الكفار، أن الله ما أعطاهم المال ونعيم الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأنه إن كان البعث حقاً أعطاهم خيراً منه في الآخرة قد ردها الله عليهم في آيات كثيرة كقوله تعالى {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ نُبْسَارُغٌ لَهُمْ فِي لَحْيَتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}، وقوله تعالى {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِإِيَّتِي تُفَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}، وقوله تعالى {قَالُوا مَا آغَيْنَا عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ}، وقوله تعالى: {مَا آغَيْنَا عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} وقوله تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} وقوله تعالى {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا طرفاً من هذا في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجْدَنِّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}.

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية الكريمة. فقوله {لَجَعَلْنَا} أي صيرنا، وقوله {لِئِيَّتِهِمْ} بدل اشتمال مع إعادة العامل، من قوله لمن يكفر، وعلى قراءة سقفاً بضمين، فهو جمع سقف، وسقف البيت معروف.

وعلى قراءة سقفاً بفتح السين، وسكون القاف: فهو مفرد أريد به الجمع. وقد قدمنا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً} أن المفرد إذا كان اسم جنس. يجوز إطلاقه مراداً به الجمع وأكثرنا من أمثلة ذلك في القرآن، ومن الشواهد العربية. على ذلك. وقوله {وَمَعَارِجَ} الظاهر أنه جمع معرج بلا ألف بعد الراء. والمعرج والمعراج بمعنى واحد وهو الآلة التي يعرج بها أي يصعد بها، إلى العلو.

وقوله: يظهرون أي يصعدون ويرتفعون، حتى يصيروا على ظهور البيوت. ومن ذلك المعنى قوله تعالى {فَمَا لَسَطُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا سَلَّتْ عُوَالُهُ نَقَبًا}. والسرر جمع سرير، والاتكاء معروف.

والأبواب جمع باب وهو معروف، والزخرف الذهب. قال الزمخشيري: إن المعارج التي هي المصاعد، والأبواب والسرر كل ذلك من فضة، كأنه يرى اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في ذلك، وعلى هذا المعنى فقوله زخرفاً مفعول، عامله محذوف والتقدير وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً.

وقال بعض العلماء: إن جميع ذلك بعضه من فضة، وبعضه من زخرف، أي ذهب.

وقد ذكر القرطبي أن إعراب قوله وزخرفاً على هذا القول أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنى من فضة، ومن زخرف، فحذف حرف الجر فانتصب زخرفاً.

وأكثر علماء النحو على أن النصيب بنزع الخافض ليس مطرداً ولا قياسياً، وما سمع منه يحفظ ولا يقاس عليه.

وعليه درج ابن مالك في الخلاصة في قوله: وإن حذف فالنصب للمتجر نقلاً، إلخ.

وعلي بن سليمان وهو الأخفش الصغير يرى اطراده في كل شيء أمن فيه اللبس، كما أشار في الكافية بقوله:

وابن سليمان اطراده رأى إن لم يخف لبس كمن زيد نأى

وقوله تعالى: {وَإِنْ كُلُّ دَلِيلٍ لَمَّا مَتَّعُ لِحَيَوَةِ الدُّنْيَا} على قراءة الجمهور بتخفيف الميم من لما، فإن هي المخففة، من الثقيلة، واللام هي الفارقة بين إن المخففة من الثقيلة، وإن النافية المشار إليها بقوله في الخلاصة: وخفت إن فعل العمل وتلزم اللام إذا ما تهمل

وما مزيدة للتوكيد، وأما على قراءة عاصم وحمزة وابن عامر في إحدى الروايتين عن هشام لما بتشديد الميم فإن نافية، ولما حرف إثبات بمعنى إلا.

والظاهر أن لفظة من هنا سببية، ومعلوم أن أهل العربية، يذكرون أن من معاني من السببية، ومنه قوله تعالى: {مِمَّا خَطَبْتِهِمْ أَعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا}. أي بسبب خطيئاتهم أغرقوا.

ومن ذلك قول الحالفين في أيمان القسامة: أقسم بالله لمن ضربه مات. وإيضاح معنى ضرب ابن الزبير عيسى مثلاً، أن الله لما أنزل قوله تعالى {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}، قال ابن الزبير: إن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول إن كل معبود من دون الله في النار وأنا وأصنامنا جميعاً في النار، وهذا عيسى ابن مريم قد عبده النصارى من دون الله فإن كان ابن مريم مع النصارى الذين عبده في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه. وقالوا مثل ذلك في عزيز والملائكة لأن عزيزاً عبده اليهود، والملائكة عبدهم بعض العرب.

فاتضح أن ضربه عيسى مثلاً، يعني أنه على ما يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قاله، من أن كل معبود وعابده في النار، يقتضي أن يكون عيسى مثلاً لأصنامهم، في كون الجميع في النار، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم يثني على عيسى الثناء الجميل، ويبين للناس أنه عبد الله ورسوله، وكلمته القاها إلى مريم وروح منه.

فزعم ابن الزبير أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لما اقتضى مساواة الأصنام مع عيسى في دخول النار مع أنه صلى الله عليه وسلم يعترف بأن عيسى رسول الله وأنه ليس في النار، دل ذلك على بطلان كلامه عنده. وعند ذلك أنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِمْ عَصَىٰ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ فِيهَا مُبَدَّدُونَ}، وأنزل الله أيضاً قوله تعالى: {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا}. وعلى هذا القول فمعنى قوله تعالى: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}، أي ما ضربوا عيسى مثلاً إلا من أجل الجدل والخصومة بالباطل. وقيل إن جدلاً حال وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير، وقد أوضحنا توجيهه مراراً.

والمراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل لقصد الغلبة بغير حق. قال جماعة من العلماء: والدليل على أنهم قصدوا الجدل بشيء يعلمون في أنفسهم أنه باطل، أن الآية التي تذرعوها بها إلى الجدل، لا تدل البتة، على ما زعموه، وهم أهل اللسان، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات. والآية المذكورة إنما عبر الله فيها بلفظة «ما» التي هي في الموضع العربي لغير العقلاء لأنه قال {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ} ولم يقل (ومن) تعبدون وذلك صريح في أن المراد الأصنام، وأنه لا يتناول عيسى ولا عزيزاً ولا الملائكة، كما أوضح تعالى أنه لم يرد ذلك بقوله تعالى بعده: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ}.

وإذا كانوا يعلمون من لغتهم أن الآية الكريمة، لم تتناول عيسى بمقتضى لسانهم العربي، الذي نزل به القرآن، تحققنا أنهم ما ضربوا عيسى مثلاً، إلا لأجل الجدل، والخصومة بالباطل.

ووجه التعبير في صيغة الجمع في قوله { مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا } مع أن ضارب المثل واحد وهو ابن الزبيري يرجع إلى أمرين: أحدهما: أن من أساليب اللغة العربية إسناد فعل الرجل الواحد من القبيلة إلى جميع القبيلة، ومن أصرح الشواهد العربية في ذلك قوله: فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

فإنه نسب الضرب إلى جميع بني عبس مع تصريحه بأن السيف في يد رجل واحد منهم، وهو ورقاء بن زهير، والشاعر يشير بذلك إلى قتل خالد بن جعفر الكلابي لزهير بن جذيمة العبسي، وأن ورقاء بن زهير، ضرب بسيف بني عبس، رأس خالد بن جعفر الكلابي، الذي قتل أباه ونبا عنه، أي لم يؤثر في رأسه، فإن معنى: نبا السيف ارتفع عن الضريبة ولم يقطع. والشاعر يهجو بني عبس بذلك.

والحروب التي نشأت عن هذه القصة، وقتل الحارث بن ظالم المري لخالد المذكور، كل ذلك معروف في محله.

والأمر الثاني: أن جميع كفار قريش، صوبوا ضرب ابن الزبيري عيسى مثلاً، وفرحوا بذلك، ووافقوه عليه، فصاروا كالمتمثلين عليه.

وبهذين الأمرين المذكورين جمع المفسرون بين صيغة الجمع في قوله: { فَعَقَّرُوا النَّاقَةَ } وقوله { فَكَذَّبُوهُ فَعَقَّرُوهَا } وبين صيغة الأفراد في قوله: { فَتَادُوا صَحْبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ }.

وقال بعض العلماء: الفاعل المحذوف في قوله ولما ضرب ابن مريم مثلاً هو عامة قريش.

والذين قالوا إن كفار قريش لما سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يذكر عيسى، وسمعوا قول الله تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ }. ثالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ما تريد بذكر عيسى إلا أن نعبدك كما عبد النصارى عيسى.

وعلى هذا فالمعنى أنهم ضربوا عيسى مثلاً للنبي صلى الله عليه وسلم، في عبادة الناس لكل منهما، زاعمين أنه يريد أن يعبد كما عبد عيسى. وعلى هذا القول فمعنى قوله { مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا } أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الخصومة بالباطل، مع أنهم يعلمون أنك لا ترضى أن تعبد بوجه من الوجوه.

وقوله تعالى: { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْصًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ }.

وإن كان من القرآن المدني النازل بعد الهجرة فمعناه يكرره عليهم النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً قبل الهجرة كما هو معلوم. وكذلك قوله { وَلَا يَأْمُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِمَلِكَةٍ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرْكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }.

ولا شك أن كفار قريش متيقنون، في جميع المدة التي أقامها صلى الله عليه وسلم، في مكة قبل الهجرة بعد الرسالة، وهي ثلاث عشرة سنة، أنه لا يدعو إلا إلى عبادة الله، وحده لا شريك له.

فادعائهم أنه يريد أن يعبدوه، افتراء منهم، وهم يعلمون أنهم مفترون، في ذلك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {ءَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}؟ التحقيق أن الضمير في قوله {هُوَ} راجع إلى عيسى، لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

قال بعض العلماء: ومرادهم بالاستفهام تفضيل معبوداتهم على عيسى. قيل: لأنهم يتخذون الملائكة آلهة، والملائكة أفضل عندهم من عيسى. وعلى هذا فمرادهم أن عيسى عبد من دون الله، ولم يكن ذلك سبباً لكونه في النار، ومعبوداتنا خير من عيسى، فكيف تزعم أنهم في النار.

وقال بعض العلماء: أرادوا تفضيل عيسى على آلهتهم. والمعنى على هذا أنهم يقولون: عيسى خير من آلهتنا، أي في زعمك وأنت تزعم أنه في النار، بمقتضى عموم ما تتلوه من قوله {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}.

وعيسى عبده النصارى من دون الله، فدلالة قولك على أن عيسى في النار، مع اعترافك بخلاف ذلك، يدل على أن ما تقوله، من أنا ووالهتنا، في النار ليس بحق أيضاً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} أي لد، مبالغون في الخصومة، بالباطل، كما قال تعالى: {وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} أي شديدي الخصومة.

وقوله تعالى: {وَهُوَ أَلَدُّ لِخِصَامٍ}، لأن الفعل بفتح فكسر كخصم، من صيغ المبالغة، كما هو معلوم في محله.

وقد علمت مما ذكرنا أن قوله تعالى هنا {وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا} إنما بينته الآيات التي ذكرنا بيان سببه.

ومعلوم أن الآية قد يتضح معناها بيان سببها.

فعلى القول الأول، أنهم ضربوا عيسى مثلاً لأصنامهم، في دخول النار، فإن ذلك المثل يفهم من أن سبب نزول الآية نزول قوله تعالى قبلها {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} لأنها لما نزلت قالوا إن عيسى عبد من دون الله كآلهتهم فهم بالنسبة لما دلت عليه سواء.

وقد علمت بطلان هذا مما ذكرناه آنفاً.

وعلى القول الثاني أنهم ضربوا عيسى مثلاً لمحمد صلى الله عليه وسلم، في أن عيسى قد عبد، وأنه صلى الله عليه وسلم، يريد أن يعبد كما عبد عيسى، فكون سبب ذلك سماعهم لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} وسماعهم للآيات المكية النازلة في شأن عيسى يوضح المراد بالمثل.

وأما الآيات التي بينت قوله {مَا صَرَّبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا} في بيانها له واضح على كلا القولين. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ}.

والتحقيق أن الضمير في قوله: هو عائد إلى عيسى أيضاً لا إلى محمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله هنا: {عَبْدُ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} لم يبين هنا شيئاً من الإنعام الذي أنعم به على عبده عيسى، ولكنه بين ذلك في المائة، في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كُذِّبْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ مَرْيَمَ إِذْ يَقُولُ لِطَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ فِي لَهْفٍ وَقَهْلٍ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ لِكِتَابٍ وَ الْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَ تَبْرِيءُ الْأَكْمَامَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جُنَّتْهُمْ رِيبَاتُ} وفي آل عمران، في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ سَلْمُهُ لِمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَن لِّمُؤْمِنِينَ} إلى قوله {وَمِنَ الصَّالِحِينَ} إلى غير ذلك من الآيات.

{وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ لَبِيعُونَ هَذَا صِرْطٌ مُُّسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لَآئِينَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ وَ عِبُدُوهُ هَذَا صِرْطٌ مُُّسْتَقِيمٌ * وَ خْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يُعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ لِيَوْمٍ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ * لُحُلُوا لِحَبَّتِهِمْ أَنْتُمْ وَأَرْؤُوسِكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ وَ فِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْأَنْفُسُ وَ تَلذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَ تِلْكَ لِحَبَّتِهِ الَّذِينَ أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ * إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَ مَا ظَلَمْتَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَ بَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَوْلًا وَإِنَّكُمْ لَمَكْتُونَ * لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرهُونَ * أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ}

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا}. التحقيق أن الضمير في قوله: وإنه راجع إلى عيسى لا إلى القرآن، ولا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ومعنى قوله: {لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ} على القول الحق الصحيح الذي يشهد له القرآن العظيم، والسنة المتواترة، هو أن نزول عيسى في آخر الزمان، حيا علم للساعة أي علامة لقرب مجيئها لأنه من أشراطها الدالة على قربها. وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى، جار على أمرين، كلاهما أسلوب عربي معروف.

أحدهما: أن نزول عيسى المذكور، لما كان علامة لقربها، كانت تلك العلامة، سبباً لعلم قربها، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب.

وإطلاق المسبب وإرادة السبب، أسلوب عربي معروف في القرآن، وفي كلام العرب.

ومن أمثله في القرآن قوله تعالى: {وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}.

فالرزق مسبب عن المطر والمطر سببه، فأطلق المسبب الذي هو الرزق وأريد سببه الذي هو المطر للملابسة القوية التي بين السبب والمسبب. ومعلوم أن البلاغيين، ومن وافقهم، يزعمون أن مثل ذلك، من نوع ما يسمونه المجاز المرسل، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم.

والثاني من الأمرين أن غاية ما في ذلك، أن الكلام على حذف مضاف، والتقدير، وإنه لذو علم للساعة، أي وإنه لصاحب إعلام الناس، بقرب مجيئها، لكونه علامة لذلك، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كثير في القرآن، وفي كلام العرب، وإليه أشار في الخلاصة بقوله: وما يلي المضاف يأت خلفاً عنه في الإعراب إذا ما حذفاً

وهذا الأخير أحد الوجهين اللذين وجه بهما علماء العربية النعت بالمصدر كقولك: زيد كرم وعمرو عدل أي ذو كرم وذو عدل كما قال تعالى: {وَإِشْهَدُوا دَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ}، وقد أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله: ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الأفراد والتذكيرا

أما دلالة القرآن الكريم على هذا القول الصحيح، ففي قوله تعالى سورة النساء: {وَإِنْ مِّنْ أَهْلٍ لِّكِتَابٍ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} أي ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك صريح في أن عيسى حي وقت نزول آية النساء هذه، وأنه لا يموت حتى يؤمن به أهل الكتاب.

ومعلوم أنهم لا يؤمنون به إلا بعد نزوله إلى الأرض. فإن قيل قد ذهبت جماعة من المفسرين، من الصحابة فمن بعدهم إلى أن الضمير في قوله: قبل موته راجع إلى الكتابي، أي إلا ليؤمنن به الكتابي قبل موت الكتابي.

فالجواب أن يكون الضمير راجعاً إلى عيسى، يجب المصير إليه، دون القول الآخر، لأنه أرجح منه من أربعة أوجه: الأول: أنه هو ظاهر القرآن المتبادر منه، وعليه تنسجم الضمائر بعضها مع بعض.

والقول الآخر بخلاف ذلك.

وإيضاح هذا أن الله تعالى قال: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا لِمَسِيحَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} ثم قال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ} أي عيسى، {وَمَا صَلَّبُوهُ} أي عيسى {وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} أي عيسى {وَإِنَّ لِدِينِ جَنَّاتٍ فِيهِ} أي عيسى {لَفِي سَكِّ مَنَّهُ} أي عيسى {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} أي عيسى، {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} أي عيسى {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ} أي عيسى {وَإِنْ مِّنْ أَهْلٍ لِّكِتَابٍ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ} أي عيسى {قَبْلَ مَوْتِهِ} أي عيسى {وَيَوْمَ لَقِيَمَةُ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} أي يكون هو، أي عيسى عليهم شهيداً.

فهذا السياق القرآني الذي ترى، ظاهر ظهوراً لا ينبغي العدول عنه، في أن الضمير في قوله قبل موته، راجع إلى عيسى.

الوجه الثاني: من مرجحات هذا القول، أنه على هذا القول الصحيح، فمفسر الضمير، ملفوظ مصريح به، في قوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا لِمَسِيحَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ}.
وأما على القول الآخر فمفسر الضمير ليس مذكوراً في الآية أصلاً، بل هو مقدر تقديره: ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته، أي موت أحد أهل الكتاب المقدر.

ومما لا شك فيه، أن ما لا يحتاج إلى تقدير، أرجح وأولى، مما يحتاج إلى تقدير.

الوجه الثالث من مرجحات هذا القول الصحيح، أنه تشهد له السنة النبوية المتواترة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد تواترت عنه الأحاديث بأن عيسى حي الآن، وأنه سينزل في آخر الزمان حكماً مقسطاً. ولا ينكر تواتر السنة بذلك إلا مكابر.

قال ابن كثير في تفسيره، بعد أن ذكر هذا القول الصحيح ونسبه إلى جماعة من المفسرين ما نصه: وهذا القول هو الحق كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله تعالى اهـ.

وقوله بالدليل القاطع يعني السنة المتواترة، لأنها قطعية وهو صادق في ذلك. وقال ابن كثير، في تفسير آية الزخرف هذه ما نصه:

وقد تواترت الأحاديث، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، «أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً» اهـ منه.

وهو صادق في تواتر الأحاديث بذلك.

وأما القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى الكتاب فهو خلاف ظاهر القرآن، ولم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة.

الوجه الرابع: هو أن القول الأول الصحيح، واضح لا إشكال فيه، ولا يحتاج إلى تأويل ولا تخصيص بخلاف القول الآخر، فهو مشكل لا يكاد يصدق، إلا مع تخصيص، والتأويلات التي يروونها فيه عن ابن عباس، وغيره، ظاهرة البعد والسقوط لأنه على القول بأن الضمير في قوله قبل موته راجع إلى عيسى فلا إشكال ولا خفاء، ولا حاجة إلى تأويل، ولا إلى تخصيص.

وأما على القول بأنه راجع إلى الكتابي فإنه مشكل جداً بالنسبة لكل من فاجأه الموت من أهل الكتاب، كالذي يسقط من عال إلى أسفل، والذي يقطع رأسه بالسيف وهو غافل والذي يموت في نومه ونحو ذلك، فلا يصدق هذا العموم المذكور في الآية على هذا النوع، من أهل الكتاب، إلا إذا ادعى إخراجهم منه بمخصص.

ولا سبيل إلى تخصيص عمومات القرآن، إلا بدليل يجب الرجوع إليه من المخصصات المتصلة أو المنفصلة.

وما يذكر عن ابن عباس من أنه سئل عن الذي يقطع رأسه من أهل الكتاب فقال إن رأسه يتكلم، بالإيمان بعيسى، وأن الذي يهوي من عال إلى أسفل يؤمن به وهو يهوي، لا يخفى بعده وسقوطه، وأنه لا دليل ألينة عليه كما ترى.

وبهذا كله تعلم، أن الضمير في قوله {قَبَلَ مَوْتِهِ}، راجع إلى عيسى، وأن تلك الآية من سورة النساء تبين قوله تعالى هنا: {وَإِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ} كما ذكرنا. فإن قيل: إن كثيراً ممن لا تحقيق عندهم يزعمون أن عيسى قد توفي، ويعتقدون مثل ما يعتقدوه، ضلال اليهود والنصارى، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسِي إِيَّيْ مُتَوَفِّكَ وَرَأَفِكَ إِيَّي} وقوله {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}.

فالجواب أنه لا دلالة في إحدى الآيتين البتة على أن عيسى قد توفي فعلاً. أما قوله تعالى: {إِيَّي مُتَوَفِّكَ} فإن دلالة المزعومة على ذلك منفية من أربعة أوجه:

الأول: أن قوله: {مُتَوَفِّكَ} حقيقة لغوية في أخذ الشيء كاملاً غير ناقص، والعرب تقول: توفي فلان دينه يتوفاه فهو متوف له إذا قبضه وحازه إليه كاملاً من غير نقص.

فمعنى: {إِيَّي مُتَوَفِّكَ} في الوضع اللغوي أي حائزك إلي، كاملاً بروحك وجسمك.

ولكن الحقيقة العرفية خصت التوفي المذكور بقبض الروح دون الجسم ونحو هذا مما دار بين الحقيقة اللغوية العرفية فيه لعلماء الأصول ثلاثة مذاهب.

الأول: هو تقديم الحقيقة العرفية، وتخصيص عموم الحقيقة اللغوية بها. وهذا هو المقرر في أصول الشافعي وأحمد، وهو المقرر في أصول مالك إلا أنهم في الفروع ربما لم يعتمدوه في بعض المسائل.

وإلى تقديم الحقيقة العرفية، على الحقيقة اللغوية أشار في مراقي السعودي بقوله: واللفظ محمول على الشرعي إن لم يكن فمطلق العرفي فاللغوي على الجلي ولم يجب بحث عن المجاز في الذي انتخب

المذهب الثاني: هو تقديم الحقيقة اللغوية على العرفية بناء على أن العرفية وإن ترجحت بعرف الاستعمال، فإن اللغوية مترجمة بأصل الوضع. وهذا القول مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

المذهب الثالث: أنه لا تقدم العرفية على اللغوية، ولا اللغوية على العرفية، بل يحكم باستوائهما ومعادلة الاحتمالين فيهما، فيحكم على اللفظ بأنه مجمل، لاحتمال هذه واحتمال تلك.

وهذا اختيار ابن السبكي، ومن وافقه، وإلى هذين المذهبين الأخيرين أشار في مراقي السعودي بقوله: ومذهب النعمان عكس ما مضى والقول بالإجمال فيه مرتضى

وإذا علمت هذا، فاعلم أنه على المذهب الأول، الذي هو تقديم الحقيقة اللغوية، على العرفية، فإن قوله تعالى: {إِيَّي مُتَوَفِّكَ} لا يدل إلا على أنه قبضه إليه بروحه وجسمه، ولا يدل على الموت أصلاً، كما أن توفي الغريم لدينه لا يدل على موت دينه.

وأما على المذهب الثاني: وهو تقديم الحقيقة العرفية على اللغوية، فإن لفظ التوفي حينئذ، يدل في الجملة على الموت.

ولكن سترى إن شاء الله، أنه وإن دل على ذلك في الجملة، لا يدل على أن عيسى قد توفي فعلاً.

وقد ذكرنا في كتابنا: دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب، في سورة آل عمران، وجه عدم دلالة الآية، على موت عيسى فعلاً، أعني قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ} فقلنا ما نصه: والجواب عن هذا، من ثلاثة أوجه:

الأول أن قوله تعالى: {مُتَوَقِّئُكَ} لا يدل على تعيين الوقت، ولا يدل على كونه قد مضى.

وأما عطفه ورافعه إلى، على قوله: متوفيك، فلا دليل فيه لإطباق جمهور أهل اللسان العربي، على أن الواو لا تقتضي الترتيب ولا الجمع، وإنما تقتضي مطلق التشريك.

وقد ادعى السيرافي والسيهيلي، إجماع النحاة على ذلك، وعزاه الأكثر للمحققين وهو الحق خلافاً لما قاله قطرب والفراء وثعلب وأبو عمرو الزاهد وهشام والشافعي من أنها تفيد الترتيب لكثرة استعمالها فيه.

وقد أنكر السيرافي ثبوت هذا القول عن الفراء وقال لم أجده في كتابه.

وقال ولي الدين: أنكر أصحابنا نسبة هذا القول إلى الشافعي.

حكاه عنه صاحب الضياء اللامع.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «أبدأ بما بدأ الله به» يعني الصفا لا دليل فيه على اقتضائها الترتيب.

وبيان ذلك هو ما قاله الفهري كما ذكره عنه صاحب الضياء اللامع.

وهو أنها كما أنها لا تقتضي الترتيب ولا المعية، فكذلك لا تقتضي المنع منهما.

فقد يكون العطف بها مع قصد الاهتمام بالأول كقوله: {إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ سَعَائِرِ اللَّهِ} بدليل الحديث المتقدم.

وقد يكون المعطوف بها مرتباً كقول حسان: * هجوت محمداً وأجبت عنه *

على رواية الواو.

وقد يراد بها المعية كقوله: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ} وقوله {وَجُمِعَ

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} ولكن لا تحمل على الترتيب ولا على المعية إلا بدليل

منفصل.

الوجه الثاني: أن معنى {مُتَوَقِّئُكَ} أي منيمك ورافعك إلي، أي في تلك

النومة.

وقد جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّكُمْ لَيْلًا وَبَعَلَّمَ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ}، وقوله: {اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَإِلَىٰ لِمَ تَمُتُ فِي مَنَامِهَا}، وعزى ابن كثير هذا القول للأكثرين، واستدل بالآيتين المذكورتين.

الوجه الثالث: أن متوفيك، اسم فاعل توفاه، إذا قبضه وحازه إليه، ومنه

قولهم: توفي فلان دينه إذا قبضه إليه، فيكون معنى متوفيك على هذا،

قابضك منهم إلي حياً، وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وأما الجمع بأنه توفاه ساعات أو أياماً، ثم أحياه فلا معول عليه، إذ لا دليل عليه. اهـ. من دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

وقد قدمنا في هذا البحث أن دلالة قوله تعالى: {مُتَوَفِّيكَ} على موت عيسى فعلاً، منفية من أربعة أوجه، وقد ذكرنا منها ثلاثة، من غير تنظيم، أولها أن {مُتَوَفِّيكَ} حقيقة لغوية في أخذه بروحه وجسمه.

الثاني: أن {مُتَوَفِّيكَ} وصف محتمل للحال والاستقبال والماضي، ولا دليل في الآية على أن ذلك التوفي قد وقع ومضى، بل السنة المتواترة والقرآن دالان على خلاف ذلك، كما أوضحنا في هذا المبحث.

الثالث: أنه توفي نوم، وقد ذكرنا الآيات الدالة على أن النوم يطلق عليه الوفاة، فكل من النوم والموت، يصدق عليه اسم التوفي، وهما مشتركان في الاستعمال العرفي.

فهذه الأوجه الثلاثة ذكرناها كلها في الكلام الذي نقلنا من كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب.

وذكرنا الأول منها بانفراده لنبين مذاهب الأصوليين فيه.

أما قوله تعالى: {فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}، فدلالته على أن عيسى مات، منفية من وجهين:

الأول منهما: أن عيسى يقول ذلك يوم القيامة، ولا شك أن يموت قبل يوم القيامة، فأخباره يوم القيامة بموته، لا يدل على أنه الآن قد مات كما لا يخفى.

والثاني منهما: أن ظاهر الآية أنه توفي رَفُعٌ وَقَبْضٌ للروح والجسد، لا توفي موت.

وإيضاح ذلك أن مقابلته لذلك التوفي بالديمومة فيهم في قوله: {وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}، تدل على ذلك لأنه لو كان توفي موت، لقال ما دمت حياً، فلما توفيتني لأن الذي يقابل بالموت هو الحياة كما في قوله: {وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَّا دُمْتُ حَيًّا}.

أما التوفي المقابل بالديمومة فيهم فالظاهر أنه توفي انتقال عنهم، إلى موضع آخر.

وغاية ما في ذلك هو حمل اللفظ على حقيقته اللغوية مع قرينة صارفة عن قصد العرفية، وهذا لا إشكال فيه.

وأما الوجه الرابع، من الأوجه المذكورة سابقاً، أن الذين زعموا أن عيسى قد مات، قالوا إنه لا سبب لذلك الموت، إلا أن اليهود قتلوه وصلبوه، فإذا تحقق نفي هذا السبب وقطعهم أنه لم يمت بسبب غيره، تحققنا أنه لم يمت أصلاً، وذلك السبب الذي زعموه، منفي يقيناً بلا شك، لأن الله جل وعلا قال: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ}. وقال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}.

وضمير رفعه ظاهر في رفع الجسم والروح معاً كما لا يخفى.

وقد بين الله جل وعلا مستند اليهود في اعتقادهم أنهم قتلوه، بأن الله ألقى شبهه على إنسان آخر فصار من يراه يعتقد اعتقاداً جازماً أنه عيسى.

فراه اليهود لما أجمعوا على قتل عيسى فاعتقدوا لأجل ذلك الشبه الذي ألقى عليه اعتقاداً جازماً أنه عيسى فقتلوه.

فهم يعتقدون صدقهم، في أنهم قتلوه وصلبوه، ولكن العليم اللطيف الخبير، أوحى إلى نبيه، في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه.

محمد صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوه عندهم علم من الله يأمر عيسى لم يكن عند اليهود ولا النصارى كما أوضحه تعالى بقوله {وَإِنَّ لِّذِينَ هُتِلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا بُتْبَاعٌ لِّظُنٍّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}.

والحاصل أن القرآن العظيم على التفسير الصحيح والسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم كلاهما دال على أن عيسى حي، وأنه سينزل في آخر الزمان، وأن نزوله من علامات الساعة، وأن معتمد الذين زعموا أنهم قتلوه ومن تبعهم هو إلقاء شبهه على غيره، واعتقادهم الكاذب أن ذلك المقتول الذي شبه بعيسى هو عيسى. وقد عرفت دلالة الوحي على بطلان ذلك، وأن قوله {مُتَوَفِّيكَ} على موته فعلاً.

وقد رأيت توجيه ذلك من أربعة أوجه، وأنه على المقرر في الأصول، في المذاهب الثلاثة التي ذكرنا عنهم، ولا إشكال في أنه لم يمت فعلاً. أما على القول بتقديم الحقيقة اللغوية فالأمر واضح، لأن الآية على ذلك لا تدل على الموت.

وأما على القول بالإجمال، فالمقرر في الأصول أن المحمل، لا يحمل على واحد من معنياه، ولا معانيه بل يطلب بيان المراد منه، بدليل منفصل. وقد دل الكتاب هنا والسنة المتواترة على أنه لم يمت وأنه حي. وأما على القول بتقديم الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية، فإنه يجاب عنه من أوجه:

الأول: أن التوفي محمول على النوم، وحمله عليه يدخل في اسم الحقيقة العرفية.

والثاني: أنا وإن سلمنا أنه توفي موت، فالصيغة لا تدل على أنه قد وقع فعلاً. الثالث: أن القول المذكور بتقديم العرفية، محله فيما إذا لم يوجد دليل صارف، عن إرادة العرفية اللغوية، فإن دل على ذلك دليل وجب تقديم اللغوية قولاً واحداً.

وقد قدمنا مراراً دلالة الكتاب والسنة المتواترة على إرادة اللغوية هنا دون العرفية.

واعلم بأن القول بتقديم اللغوية على العرفية، محله فيما إذا لم تتناس اللغوية بالكلية، فإن أميتت الحقيقة اللغوية بالكلية، وجب المصير إلى العرفية إجماعاً، وإليه أشار في مراقي السعود بقوله: أجمع إن حقيقة تمات على التقدم له الإثبات

فمن حلف ليأكلن من هذه النخلة، فمقتضى الحقيقة اللغوية، أنه لا يبر يمينه حتى يأكل من نفس النخلة لا من ثمرتها. ومقتضى الحقيقة العرفية أنه يأكل من ثمرتها لا من نفس جذعها.

والمصير إلى العرفية هنا واجب إجماعاً، لأن اللغوية في مثل هذا أميتت بالكلية.

فلا يقصد عاقل ألبتة الأكل من جذع النخلة.

أما الحقيقة اللغوية في قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَقِّئُكَ} فإنها ليست من الحقيقة المماتة كما لا يخفى.

ومن المعلوم في الأصول أن العرفية تسمى حقيقة عرفية ومجازاً لغوياً، وأن اللغوية تسمى عندهم حقيقة لغوية، ومجازاً عرفياً.

وقد قدمنا مراراً أنا أوضحنا أن القرآن الكريم لا مجاز فيه على التحقيق في رسالتنا المسماة «منع جواز المجاز، في المنزل للتعب والإعجاز».

فاتضح مما ذكرنا كله أن آية الزخرف هذه تبينها آية النساء المذكورة، وأن عيسى لم يمت وأنه ينزل في آخر الزمان وإنما قلنا إن قوله تعالى هنا: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ} أي علامة ودليل على قرب مجيئها، لأن وقت مجيئها بالفعل لا يعلمه إلا الله.

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك مراراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا} أي لا تشكن في قيام الساعة فإنه لا شك فيه.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له مراراً كقوله تعالى: {وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا}. وقوله: {وَتُنذِرَ يَوْمَ لَجْمِ لَّا رَيْبَ فِيهِ قَرِيْقٌ فِي لَجَّةٍ وَقَرِيْقٌ فِي السَّعِيرِ}.

وقوله {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ لُقَيْمَةَ لَّا رَيْبَ فِيهِ} وقوله {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمِ لَّا رَيْبَ فِيهِ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة مراراً كقوله: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}. وقوله {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {قَوْلُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ}. قوله هنا {ظَلَمُوا} أي كفروا، بدليل قوله في مريم، في القصة بعينها، {قَوْلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

وقوله {مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} يوضحه قوله هنا: {مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}.

وقد قدمنا مراراً الآيات الدالة على إطلاق الظلم على الكفر كقوله: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} وقوله: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ} وقوله: {وَلَا تَدْعُ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ} وقوله تعالى {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} أي بشرك، كما فسره به النبي

صلى الله عليه وسلم، في الحديث الثابت في صحيح البخاري. قوله تعالى:

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. الاستفهام بهل

هنا بمعنى النفي، وينظرون بمعنى ينتظرون، أي ما ينتظر الكفار إلا الساعة،

أي القيامة أن تأتيهم بغتة، أي في حال كونها مباغتة لهم، أي مفاجئة لهم،

وهم لا يستغفرون أي بمفاجأتها في حال غفلتهم وعدم شعورهم بمجيئها.

والظاهر أن المصدر المنسبك من أن وصلتها في قوله: {أَنْ تَأْتِيَهُمْ} في

محل نصب، على أنه بدل اشتمال من الساعة، وكون ينظرون، بمعنى

ينتظرون، معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس: فإنكما إن
تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن الساعة تأتيهم بغتة، جاء موضحاً في
آيات من كتاب الله. كقوله تعالى في الأعراف: {تَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً}. وقوله تعالى في القتال {قَهْلُ يَنْظُرُونَ إِلَّا
السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا} وقوله تعالى: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً}.
فالمراد بالصيحة: القيامة.

وقوله: {وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً}، يدل على أنها تأتيهم وهم في
غفلة، وعدم شعور باتيانها، إلى غير ذلك من الآيات. والعلم عند الله تعالى.
قوله تعالى: {لِيُعَذِّبَ لَكُمْ L

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بعض صفات الذين ينتفي عنهم الخوف
والحزن يوم القيامة.

فذكر منها هنا الإيمان بآيات الله والإسلام، وذكر بعضاً منها في غير هذا
الموضع.

فمن ذلك الإيمان والتقوى، وذلك في قوله تعالى في سورة يونس {أَلَا إِنَّ
أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ لَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}.
ومن ذلك الاستقامة، وقولهم: ربنا الله، وذلك في قوله في فصلت: {إِنَّ
لَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا يَخَافُوا وَلَا
تَحْزَنُوا}: وقوله تعالى في الأحقاف {إِنَّ لَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.
والخوف في لغة العرب: الغم من أمر مستقبل.
والحزن: الغم من أمر ماض.

وربما استعمل كل منهما في موضع الآخر.

وإطلاق الخوف على العلم أسلوب عربي معروف. ومنه قوله تعالى {إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}.
قال معناه: إلا أن يعلم.

ومنه قول أبي محجن الثقفي:

إذا مت فادفني إلى جنب كريمة تروي عظامي في الممات عروقها

ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فقوله أخاف: أي أعلم لأنه لا يشيك في أنه لا يشربها بعد موته.

وقوله في هذه الآية الكريمة {لَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} ظاهره
المغايرة بين الإيمان والإسلام.

وقد دل بعض الآيات على اتحادهما كقوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ
لُمُومِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنْ لِّمُسْلِمِينَ}.

ولا منافاة في ذلك، فإن الإيمان يطلق تارة على جميع ما يطلق عليه الإسلام من الاعتقاد والعمل. كما ثبت في الصحيح، في حديث وفد عبد القيس، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة جداً.

ومن أصرحها في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون». وفي بعض الروايات الثابتة في الصحيح «وستون شعبة أعلاها شهادة ألا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق».

فقد سمي صلى الله عليه وسلم «إمطة الأذى عن الطريق» إيماناً. وقد أطال البيهقي رحمه الله في شعب الإيمان، في ذكر الأعمال التي جاء الكتاب والسنة تسميتها إيماناً.

فالإيمان الشرعي التام والإسلام الشرعي التام معناهما واحد. وقد يطلق الإيمان إطلاقاً آخر على خصوص ركنه الأكبر الذي هو الإيمان بالقلب، كما في حديث جبريل الثابت في الصحيح.

والقلب مضغة في الجسد إذا صلحت صلح الجسد كله. فغيره تابع له. وعلى هذا تحصل المغايرة في الجملة بين الإيمان والإسلام.

فالإيمان، على هذا الإطلاق، اعتقاد والإسلام شامل للعمل.

واعلم أن مغايرته تعالى بين الإيمان والإسلام في قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قَوْلًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ}.

قال بعض العلماء: المراد بالإيمان هنا، معناه الشرعي، والمراد بالإسلام معناه اللغوي.

لأن إذعان الجوارح وانقيادها دون إيمان القلب إسلام لغة لا شرعاً. وقال بعض العلماء: المراد بكل منهما معناه الشرعي، ولكن نفي الإيمان في قوله: ولما يدخل الإيمان، يراد به عند من قال هذا، نفي كمال الإيمان لا نفي أصله، ولكن ظاهر الآية لا يساعد على هذا، لأن قوله {وَلَمَّا يَدْخُلِ} فعل في سياق النفي وهو صيغة عموم، على التحقيق، وإن لم يؤكد بمصدر، ووجهه واضح جداً، كما قدمناه مراراً.

وهو أن الفعل الصناعي ينحل، عن مصدر وزمن عند النحويين، وعن مصدر وزمن، ونسبة عند البلاغيين، كما حرروه في مبحث الاستعارة التبعية، وهو أصوب.

فالمصدر كامن في مفهوم الفعل الصناعي إجماعاً، وهو نكرة لم تتعرف بشيء فيؤول إلى معنى النكرة في سياق النفي.

وقد أشار صاحب مراقي السعود إلى أن الفعل في سياق النفي أو الشرط من صيغ العموم بقوله: ونحو لا شربت أو وإن شربا واتفقوا إن مصدر قد جلبا

ووجه إهمال لا في هذه الآية في قوله تعالى: {لَا خَوْفٌ} أن لا الثانية التي هي {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} بعدها معرفة وهي الضمير، وهي لا تعمل في المعارف، بل في النكرات، فلما وجب إهمال الثانية، أهملت الأولى لينسجم الحرفان بعضهما مع بعض في إهمالهما معاً. قوله تعالى: {لُحُلُوا لِحَبَّتِهِ أَنْتُمْ

وَأَرْوُجُكُمْ تُخْبِرُونَ}. قوله تعالى في هذه الآية {وَأَرْوُجُكُمْ} فيه لعلماء التفسير وجهان:

أحدهما، أن المراد بأزواجهم، نظراؤاهم وأشباههم في الطاعة وتقوى الله واقتصر على هذا القول ابن كثير.

والثاني: أن المراد بأزواجهم، نساؤهم في الجنة.

لأن هذا الأخير أبلغ في التنعم والتلذذ من الأول.

ولذا يكثر في القرآن، ذكر إكرام أهل الجنة، بكونهم مع نساءهم دون الامتنان عليهم، بكونهم مع نظرائهم وأشباههم في الطاعة.

قال تعالى: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِوتَهُمْ وَأَرْوُجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ}.

وقال كثير في أهل العلم: إن المراد بالشغل المذكور في الآية، هو افتضاض الأبيكار. وقال تعالى: {وَرَوَّجْتَهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ}. وقال تعالى: {وَحُورٌ عَيْنًا مِّثْلُ

اللؤلؤِ لَمَكِينُونَ}. وقال تعالى: {فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ} إلى قوله: {حُورٌ

مَّقْصُورَاتٌ فِي لِحْيَامٍ}، وقال: {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ الْطَّرْفِ عِينٌ} وقال

تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتٌ الْطَّرْفِ أُنثَاءٌ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا: أن مفرد الأزواج زوج بلا هاء، وأن الزوجة بالتاء لغة لا لحن خلافاً

لمن زعم أن الزوجة لحن من لحن الفقهاء، وأن ذلك لا أصل له في اللغة.

والحق أن ذلك لغة عربية، ومنه قول الفرزدق: وإن الذي يسعى ليفسد

زوجتي كساع إلى أسد الشرى يستبيلها

وقول الحماسي: فبكى يناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إلى ثم تصدع

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في

صفية «إنها زوجتي» وقوله {تُخْبِرُونَ} أقوال العلماء فيه راجعة إلى شيء

واحد، وهو أنهم يكرمون بأعظم أنواع الإكرام وأتمها. قوله تعالى: {يُطَافُ

عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وجميع الآيات التي

فيها الأنعام على أهل الجنة بأواني الذهب والفضة، والتحلي بهما، ولبس

الحريز، ومنه السندس والإستبرق، وفي سورة النحل في الكلام على قوله

تعالى: {وَتَبَسَّخِ رِجُوعًا مِنْهُ جِلِيَّةً تَلْبَسُوتَهَا}. قوله تعالى: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ

الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية

الكريمة، أن كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، أي تلتذ به الأعين أي برؤيته

لحسنه، كما قال تعالى: {صَفْرَاءٌ قَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ}. وأسند اللذة

إلى العين، وهي في الحقيقة مسندة لصاحب العين، كإسناد الكذب والخطيئة

إلى الناصية، وهي مقدم شعر الرأس، في قوله تعالى: {نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ

خَاطِئَةٌ} وكإسناد الخشوع، والعمل والنصب، إلى الوجوه، في قوله تعالى:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ}.

ومعلوم أن الكذب والخطيئة مسندان في الحقيقة لصاحب الناصية، كما أن

الخشوع والعمل، والنصب مسندات إلى أصحاب الوجوه.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الجنة، فيها كل مشتهى، وكل مستلذ، جاء مبسوطاً موضحاً أنواعه في آيات كثيرة، من كتاب الله، وجاء محمد أيضاً إجمالاً شاملاً لكل شيء من النعيم.

أما إجمال ذلك ففي قوله تعالى: { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

وأما بسط ذلك وتفصيله، فقد بين القرآن، أن من ذلك النعيم المذكور في الآية، المشارب، والمأكول والمناكح، والفرش والسرر، والأواني، وأنواع الحلوى والملابس والخدم إلى غير ذلك، وسنذكر بعض الآيات الدالة على كل شيء من ذلك.

أما المأكول فقد قال تعالى: { لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ }، وقال: { وَلَحْمٌ طَيْرٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ } وقال تعالى: { وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ لَا تَمْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ } وقال تعالى: { كَلِمًا زُرْقًا مِنْهَا مِنْ تَمْرَةٍ زُرْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي زُرَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا }، إلى غير ذلك من الآيات.

أما المشارب، فقد قال تعالى: { إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا }، وقال تعالى: { وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا }، وقوله تعالى: { يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ يُتَآكَلُونَ مِنْ أَسْفَلَ وَفَوْقَ وَلَا يَنْزِفُونَ }، وقال تعالى: { يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَصَائِلَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ فِيهَا عَاقُولٌ وَلَا فِيهَا يَنْزِفُونَ }، وقال تعالى: { فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ } وقال تعالى { كُلُوا وَشَرِبُوا هَنِيئًا بِمَا آسَلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ } إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الملابس والأواني والحلي، فقد قدمنا الكلام عليها مستوفى في سورة النحل.

وأما المناكح فقد قدمنا بعض الآيات الدالة عليها قريباً.

وهي كثيرة كقوله تعالى: { وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ }، ويكفي ما قدمنا من ذلك قريباً.

وأما ما يتكئون عليه من الفرش والسرر ونحو ذلك، ففي آيات كثيرة كقوله تعالى: { مُتَّكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ }، وقوله تعالى: { هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ } وقوله تعالى: { عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ }.

والسرر الموضونة هي المنسوجة بقضبان الذهب.

وقوله تعالى { إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَّقِلِينَ }، وقوله تعالى: { فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ }، وقوله تعالى: { مُتَّكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيِّ حِسَانٍ } إلى غير ذلك من الآيات.

وأما خدمهم فقد قال تعالى في ذلك: { يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ }، وقال تعالى في سورة الإنسان في صفة هؤلاء الغلمان: { إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَا

مَنْثُورًا}، وذكر نعيم أهل الجنة بأبلغ صيغة في قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}.

والآيات الدالة على أنواع نعيم الجنة وحسنها وكمالها كالظلال والعيون والأنهار وغير ذلك كثيرة جداً ولنكتف منها بما ذكرنا.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، قد قدمنا الآيات الموضحة، لأن خلودهم المذكور لا انقطاع له البتة كقوله تعالى: {عَطَاءٌ غَيْرَ

مَجْدُودٍ} أي غير مقطوع، وقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ بَقَادٍ} وقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ}، قوله تعالى: {وَتِلْكَ لِحَنَّتُ

الْحَيِّ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، قد قدمنا الكلام على هذه الآية الكريمة، ونحوها من الآيات الدالة على أن العمل سبب لدخول الجنة كقوله تعالى:

{وَتُورِثُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ} قوله تعالى: {تِلْكَ لِحَنَّتُ لِحَنَّتُ لِحَنَّتُ لِحَنَّتُ} قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} وقوله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا

أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وبيننا أقرب أوجه الجمع بين هذه الآيات الكريمة وما بمعناها، مع وقوله صلى

الله عليه وسلم «لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وذكرنا في ذلك أن العمل الذي بينت الآيات كونه سبب دخول الجنة هو العمل الذي تقبله الله برحمة منه وفضل.

وأن العمل الذي لا يدخل الجنة هو الذي لم يتقبله الله.

والله يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، قوله تعالى: {وَتَادَا يُرْمَى} لِيَقْضَ عَلَيْهِمْ وَعْدُ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، اللام في قوله {لِيَقْضَ} لام الدعاء.

والظاهر أن المعنى، أن مرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار، أن يدعو الله لهم بالموت.

والدليل على ذلك أمران:

الأول: أنهم لو أرادوا دعاء الله بأنفسهم أن يميتهم لما نادوا يا مالك، ولما خاطبوه في قولهم: {رَبُّكَ}.

والثاني: أن الله بين في سورة المؤمن أن أهل النار، يطلبون خزنة النار، أن يدعو الله لهم ليخفف عنهم العذاب، وذلك في قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي

النَّارِ لِحَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ}، وقوله {لِيَقْضَ عَلَيْهِمْ وَعْدُ اللَّهِ} أي ليمتنا فنستريح بالموت من العذاب.

ونظيره قوله تعالى: {فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ} أي أماته.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ} دليل على أنهم لا يجابون إلى الموت بل يمكثون في النار معذبين إلى غير نهاية.

وقد دل القرآن العظيم على أنهم لا يموتون فيها فيستريحوا بالموت، ولا تغني هي عنهم، ولا يخفف عنهم عذابها، ولا يخرجون منها.

أما كونهم لا يموتون فيها الذي دل عليه قوله هنا {قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ} فقد دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ

جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ}، وقوله تعالى: {وَيَتَجَنَّبُهَا إِلَّا شَقَ لِذِي يَصَلَّىٰ} النَّارَ لِكُبْرَتِهِمْ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ}، وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ

جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا}. وقوله تعالى: {وَيَأْتِيهِ لَمَوْتُ مِنَ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}.

وأما كون النار لا تغني عنهم، فقد بينه تعالى بقوله: {كَلَّمَآ حَبَّتْ زِدَاتُهُمْ سَعِيرًا}، فمن يدعي أن للنار خبوة نهائية وفناء رد عليه بهذه الآية الكريمة. وأما كون العذاب لا يخفف عنه فقد دلت عليه آيات كثيرة جداً كقوله: {وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا}. وقوله تعالى: {فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، وقوله تعالى: {فَلَنْ نُزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا}، وقوله تعالى: {لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ}. وقوله: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} وقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَكُونُ لِرَامًا} على الأصح في الأخيرين.

وأما كونهم لا يخرجون منها فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى في البقرة: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} وقوله تعالى في المائدة: {يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، وقوله تعالى في الحج: {كَلَّمَآ أَرَأُوْا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أَعِيدُوا فِيهَا}. وقوله تعالى في السجدة: {كَلَّمَآ أَرَأُوْا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أَعِيدُوا فِيهَا}، وقوله تعالى في الجاثية: {وَلَيُؤْمِنَنَّ أَن يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا هذا المبحث إيضاحاً شافياً في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} وفي سورة النبا في الكلام على قوله تعالى: {لَسِئَنَ فِيهَا أَحْقَابًا} وسنوضحه أيضاً إن شاء الله، في هذا الكتاب المبارك في الكلام على آية النبا المذكورة، ونوضح هناك إن شاء الله إزالة إشكال يورده الملحدون على الآيات التي فيها إيضاح هذا المبحث. قوله تعالى: {لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرهُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}. قوله تعالى: {بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: {سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ}، وأكثرنا من الآيات الموضحة لذلك في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {كَلَّا سَتَكْتَبُ مَا يَقُولُ}.

{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ * سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * قَدَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قَائِلِي يُوقُونَ * وَقِيلَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * وَطَفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}

قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ}. اختلف العلماء في معنى {إِنْ} في هذه الآية.

فقال جماعة من أهل العلم إنها شرطية، واختاره غير واحد، وممن اختاره ابن جرير الطبري، والذين قالوا إنها شرطية، اختلفوا في المراد بقوله: فأنا أول العابدين.

فقال بعضهم: فأنا أول العابدين لذلك الولد.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولداً.

وقال بعضهم: فأنا أول العابدين لله جازمين بأنه لا يمكن أن يكون له ولد

وقالت جماعة آخرون: إن لفظة {إن} في الآية نافية.

والمعنى ما كان لله ولد، وعلى القول بأنها نافية ففي معنى قوله: {قَاتَا أَوْلُ

الْعَبِيدِينَ} ثلاثة أوجه الأول وهو أقربها: أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول

العابدين لله، المنزهين له عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله، وجلاله.

والثاني أن معنى قوله {قَاتَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ}: أي الأنفين المستنكفين من ذلك

يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له.

والعرب تقول: عبد بكسر الباء يعبد بفتحها فهو عبد بفتح فكسر على القياس،

وعابد أيضاً سماعاً، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه، ومنه قول الفرزدق:

أولئك قومي إن هجوني هجوتهم وأعد أن أهجو كلياً بدارم

فقوله: وأعد يعني أنف وأستنكف.

ومنه أيضاً قول الآخر: متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة

ظالماً

وفي قصة عثمان بن عفان رضي الله عنه المشهورة: أنه جيء بامرأة من

جهينة تزوجت، فولدت لسته أشهر، فبعث بها عثمان لترجم، اعتقاداً منه أنها

كانت حاملاً قبل العقد لولادتها قبل تسعة أشهر، فقال له علي رضي الله

عنهما: إن الله يقول: {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ تَلَاثُونَ شَهْرًا}، ويقول جل وعلا:

{وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} فلم يبق عن الفصال من المدة إلا ستة أشهر.

فما عبد عثمان رضي الله عنه، أن بعث إليها، لترد ولا ترجم.

ومحل الشاهد من القصة، فوالله: (ما عبد عثمان) أي ما أنف ولا استنكف

من الرجوع إلى الحق.

الوجه الثالث: أن المعنى {قَاتَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} أي الجاحدين النافين أن يكون

لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

الذي يظهر لي في معنى هذه الآية الكريمة: أنه يتعين المصير إلى القول بأن

إن نافية، وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنى بحسب وضع

اللغة العربية التي نزل بها القرآن، وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء.

وإنما اخترنا أن {إن} هي النافية لا الشرطية، وقلنا إن المصير إلى ذلك

متعين في نظرنا لأربعة أمور:

الأول: إن هذا القول جار على الأسلوب العربي، جرياناً واضحاً، لا إشكال فيه،

فكون إن كان بمعنى ما كان كثير في القرآن، وفي كلام العرب كقوله تعالى:

{إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَّةً} أي ما كانت إلا صيحة واحدة.

فقولك مثلاً معنى الآية الكريمة: ما كان لله ولد فأنا أول العابدين، الخاضعين للعظيم الأعظم، المنزه عن الولد أو الأنفين المستنكفين، من أن يوصف ربنا بما لا يليق بكماله وجلاله، من نسبة الولد إليه، أو الجاحدين النافين، أن يكون لربنا ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً لا إشكال فيه، لأنه جار على اللغة العربية، التي نزل بها القرآن، دال على تنزيه الله، تنزيهاً تاماً عن الولد، من غير إيهام ألبتة لخلاف ذلك.

الأمر الثاني: أن تنزيه الله عن الولد، بالعبارات التي لا إيهام فيها، هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة، في القرآن كما قدمنا إيضاحه، في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَيُنذِرَ لِيَذِينَ قَالُوا لِيُحَدِّثْ اللَّهُ وَلَدًا}. وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالُوا لِيُحَدِّثْ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا} والآيات الكثيرة التي ذكرناها في ذلك تبين أن (إن) نافية. فالنفي الصريح الذي لا نزاع فيه يبين أن المراد في محل النزاع النفي الصريح.

وخير ما يفسر به القرآن القرآن فكون المعبر في الآية: وما كان للرحمن ولد بصيغة النفي الصريح مطابق لقوله تعالى في سورة بني إسرائيل {وَقُلْ لِيُحَمِّدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}. وقوله تعالى في أول الفرقان {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}. وقوله تعالى: {مَا يَتَّخِذُ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}. وقوله تعالى: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} وقوله تعالى {أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُوا وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. وأما على القول بأن إن شرطية وأن قوله تعالى: {فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} جزاء لذلك الشرط فإن ذلك لا نظير له ألبتة في كتاب الله، ولا توجد فيه آية تدل على مثل هذا المعنى.

الأمر الثالث: هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح له معنى في اللغة العربية، إلا معنى محذور، لا يجوز القول به بحال، وكتاب الله جل وعلا، يجب تنزيهه عن حمله على معان محذورة لا يجوز القول بها. وإيضاح هذا أنه على القول بأن (إن) شرطية، وقوله: {فَأَنَّا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ} جزاء الشرط لا معنى لصدقه ألبتة إلا بصحة الربط بين الشرط والجزاء. والتحقيق الذي لا شك فيه أن مدار الصدق والكذب في الشرطية المتصلة، منصب على صحة الربط بين مقدمها الذي هو الشرط وتاليها الذي هو الجزاء، والبرهان القاطع على صحة هذا، هو كون الشرطية المتصلة، تكون في غاية الصدق مع كذب طرفيها معاً، أو أحدهما لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها، فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا لِلَّهِ لَقَسَدَتَا} فهذه قضية في غاية الصدق كما ترى، مع أنها لو أزيلت أداة الربط بين طرفيها كان كل واحد من طرفيها، قضية كاذبة بلا شك، ونعني بأداة الربط لفظة لو من الطرف الأول، واللام من الطرف الثاني، فإنهما لو أزيلتا وحذفتا صار الطرف الأول كان فيهما آلهة إلا الله، وهذه قضية في منتهى الكذب، وصار الطرف الثاني فسدتا أي السماوات والأرض، وهذه قضية في غاية الكذب كما ترى.

فاتضح بهذا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين الطرفين وعدم صحته. فإن كان الربط صحيحاً فهي صادقة، ولو كذب طرفها أو أحدهما عند إزالة الربط.

وإن كان الربط بينهما كاذباً كانت كاذبة كما لو قلت: لو كان هذا إنساناً لكان حجراً، فكذب الربط بينهما وكذب القضية بسببه كلاهما واضح. وأمثلة صدق الشرطية مع كذب طرفيها كثيرة جداً كالأية التي ذكرنا، وكقولك لو كان الإنسان حجراً لكان جماداً، ولو كان الفرس ياقوتاً لكان حجراً، فكل هذه القضايا ونحوها صادقة مع كذب طرفيها لو أزيلت أداة الربط. ومثال صدقها مع كذب أحدهما، قولك لو كان زيد في السماء ما نجا من الموت فإنها شرطية صادقة لصدق الربط بين طرفيها، مع أنها كاذبة أحد الطرفين دون الآخر، لأن عدم النجاة من الموت صدق، وكون زيد في السماء كذب، هكذا مثل بهذا المثال البناني، وفيه عندي أن هذه الشرطية التي مثل بها اتفاقية لا لزومية، ولا دخل للاتفاقيات في هذا المبحث. والمثال الصحيح: لو كان الإنسان حجراً لكان جسماً. واعلم أن قوماً زعموا أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات منصب على خصوص التالي الذي هو الجزاء، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك. وزعموا أن هذا المعنى هو المراد عند أهل اللسان العربي. والتحقيق الأول.

ولم يقل أحد البتة بقول ثالث في مدار الصدق والكذب في الشرطيات. فإذا حققت هذا، فاعلم أن الآية الكريمة، على القول بأنها جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة بحال على واحد من القولين اللذين لا ثالث لهما إلا على وجه محذور لا يصح القول به بحال. وإيضاح ذلك أنه على القول الأخير، أن مصب الصدق والكذب، في الشرطيات إنما هو التالي الذي هو الجزاء، وأن المقدم الذي هو الشرط قيد في ذلك.

فمعنى الآية عليه باطل بل هو كفر. لأن معناه أن كونه أول العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً. لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد، لم يكن أول العابدين، وفساد هذا المعنى كما ترى.

وأما على القول الأول الذي هو الصحيح أن مدار الصدق والكذب في الشرطيات على صحة الربط بين طرفي الشرطية. فإنه على القول بأن الآية الكريمة جملة شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها ألبتة أيضاً، إلا على وجه محذور لا يجوز المصير إليه بحال، لأن كون المعبود ذا ولد، واستحقاقه هو، أو ولده العبادة، لا يصح الربط بينهما ألبتة إلا على معنى هو كفر بالله، لأن المستحق للعبادة لا يعقل بحال أن يكون ولداً أو والداً.

وبه تعلم أن الشرط المزعوم في قوله {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} إنما يعلق به محال لاستحالة كون الرحمن ذا ولد. ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال.

فتعليق عبادة الله التي هي أصل الدين على كونه ذا ولد ظهور فسادها كما ترى، وإنما تصدق الشرطية في مثل هذا لو كان المعلق عليه مستحيلًا، فادعاء أن (إن) في الآية شرطية مثل ما لو قيل: لو كان معه آلهة لكنت أول العابدين له، وهذا لا يصدق بحال، لأن واحداً من آلهة متعددة، لا يمكن أن يعبد، فالربط بين طرفيها مثل هذه القضية لا يصح بحال. ويتضح لك ذلك بمعنى قوله: {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

فإن قوله إذا: أي لو كان معه غيره من الآلهة، لذهب كل واحد منهم بما خلق واستقل به، وغالب بعضهم بعضاً ولم ينتظم للسموات والأرض نظام ولفسد كل شيء.

كما قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، وقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آِلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} على الصحيح الذي هو الحق من التفسيرين.

ومعنى ابتغائهم إليه تعالى سبيلاً هو طلبهم طريقاً إلى مغالبتة كما يفعله بعض الملوك مع بعضهم.

والحاصل: أن الشرط إن علق به مستحيل فلا يمكن أن يصح الربط بينه وبين الجزاء، إلا إذا كان الجزاء مستحيلًا أيضاً لأن الشرط المستحيل لا يمكن أن يوجد به إلا الجزاء المستحيل.

أما كون الشرط مستحيلًا والجزاء هو أساس الدين وعماد الأمر. فهذا مما لا يصح بحال.

ومن ذهب إليه من أهل العلم والدين لا شك في غلطه. ولا شك في أن كل شرطية صدقت مع بطلان مقدمها الذي هو الشرط وصحة تاليها الذي هو الجزاء لا يصح التمثيل بها لهذه الآية بوجه من الوجوه، وأن ما ظنه الفخر الرازي من صحة التمثيل لها بذلك غلط فاحش منه بلا شك، وإيضاح ذلك أن كل شرطية كاذبة الشرط صادقة الجزاء عند إزالة الربط لا بد أن يكون موجب ذلك فيها أحد أمرين لا ثالث لهما ألبتة.

وكلاهما يكون الصدق به من أجل أمر خاص لا يمكن وجود مثله في الآية الكريمة التي نحن بصددنا، بل هو مناقض لمعنى الآية.

والاستدلال بوجود أحد المتناقضين على وجود الآخر ضروري البطلان. ونعني بأول الأمرين المذكورين كون الشرطية اتفافية لا لزومية أصلاً. وبالتالي منهما كون الصدق المذكور، من أجل خصوص المادة.

ومعلوم أن الصدق من أجل خصوص المادة لا عبرة به في العقليات، وأنه في حكم الكذب لعدم اضطراده، لأنه يصدق في مادة ويكذب في أخرى.

والمعتبر إنما هو الصدق اللازم المضطرر، الذي لا يختلف باختلاف المادة بحال.

ولا شك أن كل قضية شرطها محال لا يضطرر صدقها إلا إذا كان جزؤها محالاً خاصة.

فإن وجدت قضية باطلة الشرط صحيحة الجزاء، فلا بد أن يكون ذلك، لكونها اتفاقية أو لأجل خصوص المادة فقط.

فمثال وقوع ذلك لكونها اتفاقية قولك: إن كان زيد في السماء لم ينج من الموت.

فالشرط الذي هو كونه في السماء باطل والجزاء الذي هو كونه لم ينج من الموت صحيح.

وإنما صح هذا لكون هذه الشرطية اتفاقية.

ومعلوم أن الاتفاقية لا علاقة بين طرفيها أصلاً.

فلا يقتضي ثبوت أحدهما ولا نفيه ثبوت الآخر ولا نفيه، فلا ارتباط بين طرفيها في المعنى أصلاً وإنما هو في اللفظ فقط.

فكون زيد في السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلاً، ولا ارتباط بينهما إلا في اللفظ.

فهو كقولك: إن كان الإنسان ناطقاً فالفرس صاهل.

وقد قدمنا إيضاح الفرق بين الشرطية للزومية والشرطية الاتفاقية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} فراجع.

ومعلوم أن قوله {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} لم يقل أحد إنها شرطية اتفاقية ولم يدع أحد، أنها لا علاقة بين طرفيها أصلاً.

ومثال وقوع ذلك لأجل خصوص المادة فقط، ما مثل به الفخر الرازي لهذه الآية الكريمة، مع عدم انتباهه لشدة المنافاة بين الآية الكريمة وبين ما مثل لها به، فإنه لما قال: إن الشرط الذي هو {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} باطل، والجزاء الذي هو: {فَأَتَا أَوَّلَ لَعِيدٍ} صحيح.

مثل لذلك بقوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، يعني أن قوله: إن كان الإنسان حجراً شرط باطل فهو كقوله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ} فكون الإنسان حجراً وكون الرحمن ذا ولد كلاهما شرط باطل.

فلما صح الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم دل ذلك على أن الجزاء الصحيح في قوله: {فَأَتَا أَوَّلَ لَعِيدٍ} يصح ترتيبه على الشرط الباطل الذي هو {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}.

وهذا غلط فاحش جداً، وتسوية بين المتنافيين غاية المنافاة، لأن الجزاء المرتب على الشرط الباطل في قوله: إن كان الإنسان حجراً فهو جسم إنما صدق لأجل خصوص المادة لا لمعنى اقتضاه الربط ألبتة.

وإيضاح ذلك أن النسبة بين الجسم والحجر، والنسبة بين الإنسان والجسم هي العموم والخصوص المطلق في كليهما.

فالجسم أعم مطلقاً من الحجر، والحجر أخص مطلقاً من الجسم، كما أن الجسم أعم من الإنسان أيضاً عموماً مطلقاً، والإنسان أخص من الجسم أيضاً خصوصاً مطلقاً: فالجسم جنس قريب للحجر، وجنس بعيد للإنسان، وإن شئت قلت: جنس متوسط له.

وإيضاح ذلك أن تقول في التقسيم الأول:
الجسم إما نامٍ أي يكبر تدريجاً أو غير نامٍ، فغير النامي كالحجر مثلاً، ثم تقسم
النامي تقسيماً ثانياً؟ فتقول:

النامي إما حساس أو غير حساس، فغير الحساس منه كالنبات.
ثم تقسم الحساس تقسيماً ثالثاً فتقول:

الحساس إما ناطق أو غير ناطق، والناطق منه هو الإنسان.
فاتضح أن كلاً من الإنسان والحجر يدخل في عموم الجسم، والحكم بالأعم
على الأخص صادق في الإيجاب بلا نزاع ولا تفصيل.

فقولك: الإنسان جسم صادق في كل تركيب، ولا يمكن أن يكذب بوجه، وذلك
للملابسة الخاصة بينهما من كون الجسم جنساً للإنسان، وكون الإنسان فرداً
من أفراد أنواع الجسم، فلأجل خصوص هذه الملابسة بينهما، كان الحكم على
الإنسان بأنه جسم صادقاً، على كل حال، سواء كان الحكم بذلك، غير معلق
على شيء أو كان معلقاً على باطل أو حق.

فالاستدلال يصدق هذا المثال على صِدْقِ الرِّبْطِ بين الشرط والجزاء في قوله
تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ قَاتًا أَوَّلُ الْعَبِيدِ} بطلانه كالشمس في
رابعة النهار.

والعجب كل العجب من عاقل بقوله، لأن المثال المذكور إنما صدق لأن
الإنسان يشمله مسمى الجسم.

أما من كان له ولد فالنسبة بينه وبين المعبود الحق هي تباين المقابلة، لأن
المقابلة بين المعبود بحق وبين والد أو ولدهي المقابلة بين الشيء ومساوي
نقيضه.

لأن من يولد أو يولد له لا يمكن أن يكون معبوداً بحق بحال.
وإيضاح المناقاة بين الأمرين أنك لو قلت: الإنسان جسم لقلت الحق ولو
قلت: المولود له معبود، أو المولود معبود. قلت الباطل الذي هو الكفر
البواح.

ومما يوضح ما ذكرنا إجماع جميع النظائر على أنه إن كانت إحدى مقدمتي
الدليل باطلة، وكانت النتيجة صحيحة أن ذلك لا يكون إلا لأجل خصوص المادة
فقط، وأن ذلك الصدق لا عبرة به، فحكمه حكم الكذب ولا يعتبر إلا الصدق
اللازم المضطرد في جميع الأحوال.

فلو قلت مثلاً: كل إنسان حجر، وكل حجر جسم، أنتج من الشكل الأول كل
إنسان جسم، وهذه النتيجة صحيحة في غاية الصدق كما ترى.
مع أن المقدمة الصغرى، من الدليل التي هي قولك: كل إنسان حجر في غاية
الكذب كما ترى.

وإنما صدقت النتيجة لخصوص المادة كما أوضحنا، ولولا ذلك لكانت كاذبة لأن
النتيجة لازم الدليل والحق لا يكون لازماً للباطل فإن وقع شيء من ذلك
فلخصوص المادة كما أوضحنا.

وبهذا التحقيق تعلم، أن الشرط الباطل لا يلزم وتطرد صحة ربطه إلا بجزاء
باطل مثله.

وما يظنه بعض أهل العلم من أن قوله تعالى { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ قَاسًا لَّذِينَ يَقْرءُونَ لِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِكَ } كقوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ قَاتًا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ } فهو غلط فاحش والفرق بين معنى الآيتين شاسع فظن استوائها في المعنى باطل.

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ } معناه المقصود منه جار على الأسلوب العربي، لا إبهام فيه، لأننا أوضحنا سابقاً أن مدار صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزئها، فهي صادقة ولو كذب طرفها عند إزالة الربط كما تقدم إيضاحه قريباً.

فربط قوله: { فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ } بقوله { قَاسًا لَّذِينَ يَقْرءُونَ لِكِتَابٍ } ربط صحيح لا إشكال فيه، لأن الشاك في الأمر شأنه أن يسأل العالم به عنه كما لا يخفى، فهي قضية صادقة، مع أن شرطها وجزئها كلاهما باطل بانفراده، فهي كقوله { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } فهي شرطية صادقة لصحة الربط بين طرفيها، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط. أما قوله تعالى { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ قَاتًا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ } على القول بأن إن شرطية لا تمكن صحة الربط بين شرطها وجزئها البتة، لأن الربط بين المعبود وبين كونه والداً أو ولداً لا يصح بحال.

ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب» فنفي الطرفين مع أن الربط صحيح، ولا يمكن أن ينفي صلى الله عليه وسلم هو ولا غيره الطرفين في الآية الأخرى، فلا يقول هو ولا غيره: ليس له ولد ولا أعبد.

وعلى كل حال، فالربط بين الشك وسؤال الشاك للعالم أمر صحيح، بخلاف الربط بين العبادة وكون المعبود والداً أو ولداً فلا يصح.

فاتضح الفرق بين الآيتين وحديث: «لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب» رواه قتادة بن دعامه مرسلًا.

وبنحوه قال بعض الصحابة. فمن بعدهم، ومعناه صحيح بلا شك.

وما قاله الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة يستغربه كل من رآه لقبحه وشناعته، ولم أعلم أحداً من الكفار في ما قص الله في كتابه عنهم يتجرأ على مثله أو قريب منه.

وهذا مع عدم فهمه لما يقول وتناقض كلامه.

وسنذكر هنا كلامه القبيح للتنبيه على شناعة غلظه، الديني واللغوي.

قال في الكشف ما نصه: { قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ } وصح ذلك وثبت

ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له، كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه.

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي

الولد والإطنا ب فيه، وألا يترك للناطق به شبهة إلا مضمحلة، مع الترجمة عن

نفسه بإثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكيونة الولد وهي

محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها فهو في صورة إثبات الكيونة،

والعبادة وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها.

ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سرمداً فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله. فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً للكفر.

وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماحة المذهب، وضلالة الذهاب إليه، والشهادة القاطعة بإحاطته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه.

ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له: «أما والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تُلظي، لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك». وقد تمحل الناس؟ أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقليل: إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم لإضافة الولد. إليه اه الغرض من كلام الزمخشري. وفي كلام هذا من الجهل بالله وشدة الجراءة عليه، والتخبط والتناقض في المعاني اللغوية ما الله عالم به. ولا أظن أن ذلك يخفى على عاقل تأمله.

وسنبين لك ما يتضح به ذلك فإنه أولاً قال: إن كان للرحمن ولد وضح ذلك ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته، والانقياد له كما يعظم الرجل، ولد الملك لتعظيم أبيه. فكلامه هذا لا يخفى بطلانه على عاقل، لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه، وقيام البرهان الصحيح والحجة الواضحة على أنه له ولد، فلا شك أن ذلك يقتضي، أن ذلك الولد لا يستحق العبادة، بحال، ولو كان في ذلك تعظيم لأبيه، لأن أباه مثله في عدم استحقاق العبادة والكفر بعبادة كل والد وكل مولود بشرط في إيمان كل موحد، فمن أي وجه يكون هذا الكلام صحيحاً. أما في اللغة العربية فلا يكون صحيحاً البتة.

وما أظنه يصح في لغة من لغات العجم فالربط بين هذا الشرط وهذا الجزاء لا يصح بوجه.

فمعنى الآية عليه لا يصح بوجه، لأن المعلق على المحال لا بد أن يكون محالاً مثله.

والزمخشري في كلامه كلما أراد أن يأتي بمثال في الآية خارج عنها اضطر إلى أن لا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً.

فضره للآية المثل بقصة ابن جبير مع الحجاج، دليل واضح على ما ذكرنا وعلى تناقضه وتخبطه.

فإنه قال فيها إن الحجاج قال لسعيد بن جبير: لأبدلنك بالدنيا ناراً تُلظي. قال سعيد للحجاج: لو علمت إن ذلك إليك ما عبدت إلهاً غيرك.

فهو يدل على أنه علق المحال على المحال، ولو كان غير متناقض للمعنى الذي مثل له به الزمخشري لقال: لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله.

فقوله: لو علمت أن ذلك إليك في معنى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}، فنسبة الولد والشريك إليه معناهما في الاستحالة وادعاء النقص واحد. فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال: لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله.

ولكنه لم يقل هذا، لأنه ليس له معنى صحيح يجوز المصير إليه.

وكذلك تمثيل الزمخشري للآية الكريمة في كلامه القبيح البشع الشنيع الذي يتقاصر عن التلطف به كل كافر.

فقد اضطر فيه أيضاً إلى ألا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً شنيعاً فإنه قال فيه:

ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله تعالى خالقاً للكفر في القلوب ومعذباً عليه عذباً سرمداً فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله.

فانظر قول هذا الضال في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة بقول الضال الذي يسميه العدلي: إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب إلخ.

فخلق الله للكفر في القلوب وتعذيبه الكفار على كفرهم، مستحيل عنده كاستحالة نسبة الولد لله، وهذا المستحيل في زعمه الباطل، إنما علق عليه أفضع أنواع المستحيل وهو زعمه الخبيث أن الله إن كان خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه فهو شيطان لا إله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

فانظر رحمك الله فظاعة جهل هذا الإنسان بالله، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية.

لأنه جعل قوله: إن كان الله خالقاً للكفر ومعذباً عليه بمعنى «إن كان للرحمن ولد» في أن الشرط فيهما مستحيل، وجعل قوله في الله أنه شيطان لا إله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

كقول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أول العابدين.

فاللزام لكلامه أن يقول: لو كان خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له، ولا يخفى أن الادعاء على الله أنه شيطان مناقض لقوله: أنا أول العابدين.

وقد أعرضت عن الإطالة في بيان بطلان كلامه، وشدة ضلاله، وتناقضه

لشناعته ووضوح بطلانه، فهي عبارات مزخرفة، وشقشقة لا طائل تحتها،

وهي تحمل في طياتها الكفر والجهل بالمعنى العربي للآية، والتناقض الواضح وكم من كلام مليء بزخرف القول، وهو عقيم لا فائدة فيه، ولا طائل تحته كما قيل:

وإني وإني ثم إني وإني إذا انقطعت نعلي جعلت لها شسعا

فظل يعمل أياماً رويته وشبه الماء بعد الجهد بالماء

واعلم أن الكلام على القدر، وخلق أفعال العباد، قدمنا منه جملاً كافية في هذه السورة الكريمة، في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ

مَا عَبَدْتَهُمْ}، ولا يخفى تصريح القرآن بأن الله خالق كل شيء، كما قال

تعالى: {اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، وقال تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ

تَقْدِيرًا}. وقال: {هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ}، وقال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}.

فالإيمان بالقدر خيره وشره الذي هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشري يقتضي أن لله شيطان، سبحانه الله وتعالى عما يقوله الزمخشري علواً كبيراً.

وجزى الزمخشري بما هو أهله.

الأمر الرابع: هو دلالة استقراء القرآن العظيم أن الله تعالى إذا أراد أن يفرض المستحيل ليبين الحق بفرضه علقه أولاً بالأداة التي تدل على عدم وجوده وهي لفظة لو، ولم يعلق عليه ألبتة إلا مجازاً مثله، كقوله: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، وقوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}، وقوله تعالى: {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَنَتَّخِذَنَّهُ مِن لَدُنَّا}.

وأما تعليق ذلك بأداة لا تقتضي عدم وجوده كلفظة إن مع كون الجزاء غير مستحيل فليس معهوداً في القرآن.

ومما يوضح هذا المعنى الذي ذكرنا، المحاورة التي ذكرها جماعة من المفسرين، التي وقعت بين النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، وهي وإن كانت أسانيداً غير قائمة، فإن معناها اللغوي صحيح.

وهي أن النضر بن الحارث كان يقول:

الملائكة بنات الله فأنزل الله قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}.

فقال النضر للوليد بن المغيرة: ألا ترى أنه قد صدقني؟

فقال الوليد: لا ما صدقك ولكنه يقول:

ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أي الموحدين، من أهل مكة المنزهين له عن الولد. فمحاورة هذين الكافرين، العالمين بالعربية، مطابقة لما قررنا. لأن النضر قال: إن معنى الآية على أن إن شرطية مطابق لما يعتقد الكفار من نسبة الولد إلى الله، وهو معنى محذور وأن الوليد قال: إِنَّ (إِنْ) نافية، وأن معنى الآية على ذلك هو مخالفة الكفار وتنزيه الله عن الولد. وبجميع ما ذكرنا يتضح أن إن في الآية الكريمة نافية.

وذلك مروى عن ابن عباس والحسن والسدي وقتادة وابن زيد وزهير بن محمد وغيرهم.

تنبيه

اعلم أن ما قاله ابن جرير وغير واحد من أن القول بأن إن نافية يلزمه إبهام المحذور الذي لا يجوز في حق الله.

قالوا: لأنه إن كان المعنى ما كان لله ولد فإنه لا يدل على نفي الولد، إلا في الماضي، فللكفار أن يقولوا إذا صدقت لم يكن له في الماضي ولد. ولكن الولد طراً عليه، بعد ذلك لما صاهر الجن، وولدت له بناته التي هي الملائكة.

وإن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفي لا شك في عدم صحته لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإبهام لا أثر له ولو كان له أثر لما كان الله يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة كان الدالة على خصوص الزمن الماضي في نحو قوله تعالى {وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}،

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا} إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب حصرها. فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل.

فلو كان الكفار يقولون ذلك الذي زعموه الذي هو قولهم: صدقت ما كان له ولد في الماضي ولكنه طراً له لقالوا مثله في الآيات التي ذكرنا. كان يقولوا {كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} في الماضي ولكنه طراً عليه عدم ذلك وهكذا في جميع الآيات المذكورة ونحوها.

وأيضاً فإن المحذور الذي زعموه لم يمنع من إطلاق نفي الـكون الماضي في قوله تعالى {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، وقوله {وَمَا كُنْتَ تُتَّخَذُ لِمُضِلِّينَ عَصْدًا} وقوله {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي لِقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة. ومن أوضحها في محل النزاع قوله تعالى {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}.

ولم يمنع من نفي القرآن للولد في الزمن الماضي في قوله تعالى {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} فإن الكفار لم يقولوا يوماً ما: صدقت ما اتخذه في الماضي ولكنه طراً عليه اتخذه.

وكذلك في قوله {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا} وقوله {لَمْ يَلِدْ}، لأن لم تنقل المضارع إلى معنى الماضي.

والكفار لم يقولوا يوماً صدقت لم يتخذ ولداً في الماضي، ولكنه طراً عليه اتخذه ولم يقولوا لم يلد في الماضي، ولكنه ولد أخيراً.

والحاصل أن الكفار لم يقرروا أن الله منزّه عن الولد لا في الماضي ولا في الحال، ولا في الاستقبال.

ومعلوم أن الولادة المزعومة حدث متحدد. وبذلك تعلم أنما زعموه من إيهام المحذور في كون إن في الآية نافية لا أساس له ولا معول عليه، وأن ما ادعوه من كونها شرطية ليس لها معنى في اللغة العربية إلا المعنى المحذور الذي لا يجوز في حق الله بحال.

واعلم أن كلام الفخر الرازي في هذه الآية الكريمة الذي يقتضي إمكان صحة الربط بين طرفيها على أنها شرطية لا شك في غلطه فيه.

وأما إبطاله لقول من قال: إن المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين له والمكذبين لكم في ذلك، فهو إبطال صحيح، وكلامه فيه في غاية الحسن والدقة، وهو يقتضي إبطاله بنفسه، لجميع ما كان يقرره في الآية الكريمة.

والحاصل أن كون معنى إن في الآية الكريمة هو النفي لا إشكال فيه، ولا محذور ولا إيهام، وأن الآيات القرآنية تشهد له لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى في القرآن.

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء فلا يصح له معنى، غير محذور في اللغة، وليس له في كتاب الله نظير، لإجماع أهل اللسان العربي على اختلاف المعنى في التعليق بإن، والتعليق بلو.

لأن التعليق بلو يدل على عدم الشرط، وعدم الشرط استلزم عدم المشروط بخلاف إن.

فالتعليق بها يدل على الشك في وجود الشرط بلا نزاع.

وما خرج عن ذلك من التعليق بها مع العلم بوجود الشرط أو العلم بنفيه،
فأسباب آخر، وأدلة خارجة، ولا يجوز حملها على أحد الأمرين المذكورين، إلا
بدليل منفصل كما أوضحناه، في غير هذا الموضع.

تنبيه

اعلم أن ما ذكرنا من أن لو تقتضي عدم وجود الشرط، وأن إن تقتضي الشك
فيه، لا يرد عليه قوله تعالى: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ}. كما أشرنا
له قريباً.

لأن التحقيق أن الخطاب في قوله: (إن كنت في شك) خطاب للنبي صلى
الله عليه وسلم، والمراد به من يمكن أن يشك في ذلك من أمته. وقد
قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ
اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}. دلالة القرآن الصريحة على أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه
إليه الخطاب من الله، والمراد به التشريع لأمته، ولا يراد هو صلى الله عليه
وسلم ألبتة بذلك الخطاب.

وقدمنا هناك أن من أصرح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى {وَالْوَالِدِينَ
إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ}، فالتحقيق
أن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد أمته لا هو نفسه، لأنه هو
المشرع لهم بأمر الله.

وإيضاح ذلك أو معنى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ} أي إن يبلغ عندك الكبر يا نبي
الله والداك أو أحدهما فلا تقل لهما آف.

ومعلوم أن أباه مات وهو حمل، وأمه ماتت وهو في صباه فلا يمكن أن يكون
المراد: إن يبلغ الكبر عندك هما أو أحدهما والواقع أنهما قد ماتا قبل ذلك
بأزمان.

وبذلك يتحقق أن المراد بالخطاب غيره من أمته الذي يمكن إدراك والديه أو
أحدهما الكبر عنده.

وقد قدمنا أن مثل هذا أسلوب عربي معروف وأوردنا شاهداً لذلك رجز سهل
بن مالك الفزاري في قوله:

يا أخت خير البدو والحضاره كيف ترين في فتى فزاره
أصبح يهوى حرة معطاره إياك أعني واسمعي يا جاره

وقد بسطنا القصة هناك، وبيننا أن قول من قال: إن الخطاب في قوله تعالى:
{إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا}: لكل من يصح خطابه من أمته،
صلى الله عليه وسلم لا له هو نفسه، باطل بدليل قوله تعالى بعده في سياق
الآيات: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}.

والحاصل أن آية: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ}. لا ينقص بها الضابط
الذي ذكرنا لأنها كقوله: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} {لَيْسَ أَشْرَكَكَ لِيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ} {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْفِرِينَ} {وَلَا تُطِعِ الْكُفْرِينَ وَ الْمُؤْمِنِينَ} {وَلَا
تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا} إلى غير ذلك من الآيات.

ومعلوم أنه هو صلى الله عليه وسلم، لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة، ولكنه يؤمر
وينهى ليشرع لأمته على لسانه.

وبذلك تعلم اطراد الضابط الذي ذكرنا في لفظة لو، ولفظة إن، وأنه لا ينتقض بهذه الآية.

هذا ما ظهر لنا في هذه الآية الكريمة، ولا شك أنه لا محذور فيه ولا غرر ولا إيهام، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}. قد قدمنا معنى لفظة سبحان، وما تدل عليه من تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله وإعراب لفظة سبحان مع بعض الشواهد العربية في أول سورة بني إسرائيل.

وقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ}. نزه نفسه تنزيهاً تاماً عما يصفونه به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات والأرض، ورب العرش، جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أنه لما ذكر وصف الكفار له، بما لا يليق به، نزه نفسه عن ذلك، معلماً خلقه في كتابه، أن ينزهوه عن كل ما لا يليق به، جاء مثله موضعاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: {مَا اخْتَدَى اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ} إلى قوله تعالى: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} لِعِيبٍ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ} وقوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَاتَّبَعُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا} وقوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} وقوله تعالى: {سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ وَمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {قَدَرَهُمْ خَوْصُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ}. قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}. قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}.

قد بينا الآيات الموضحة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}.

وفي الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِيِّهَا إِلَّا هُوَ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَلَا يَمْلِكُ لِدِينِ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ}. وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قَاتِي يُؤَفِّكُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة، في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَدًى لِقُرْءَانٍ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}. قوله تعالى: {وَقِيلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ}. قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، والكسائي (وقيله) بفتح اللام وضم الهاء، وقرأه عاصم وحمزة: (وقيله) بكسر اللام والهاء.

قال بعض العلماء إعرابه بأنه عطف محل على الساعة لأن قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} مصدر مضاف إلى مفعوله.

فلفظ الساعة مجرور لفظاً بالإضافة، منصوب محلاً بالمفعولية، وما كان كذلك جاز في تابعه النصب نظراً إلى المحل، والخفض نظراً إلى اللفظ، كما قال في الخلاصة: وجر ما يتبع ما جر ومن راعى في الاتباع المحل فحسن

وقال في نظيره في الوصف: واخفض أو نصب تابع الذي انخفض كمتبغى جاه ومالا من نهض

وقال بعضهم: هو معطوف على {سِرَّهُمْ}.
وعليه فالمعنى: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، وقيله يا رب الآية.
وقال بعضهم: هو منصوب على أنه مفعول مطلق.
أي، وقال: قيله وهو بمعنى قوله إلا أن القاف لما كسرت، أبدلت الواو ياء لمجانسة الكسرة.
قالوا: ونظير هذا الإعراب قول كعب بن زهير: تمشي الوشاة جنابها وقيلهم إنك يا بن أبي سلمى لمقتول

أي ويقولون: قيلهم.

وقال بعضهم: هو منصوب بيعلم محذوفة لأن العطف الذي ذكرنا على قوله: سرهم، والعطف على الساعة يقال فيه إنه يقتضي الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يصلح لكونه اعتراضاً، وتقدير الناصب إذا دل المقام عليه لا إشكال فيه. كما قال في الخلاصة: ويحذف الناصبها إن علما وقد يكون حذفه ملتزماً

وأما على قراءة الخفض، فهو معطوف على الساعة، أي وعنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب.
واختار الزمخشري أنه مخفوض بالقسم، ولا يخفى بعده كما نبه عليه أبو حيان.

والتحقيق أن الضمير في قيله، للنبي صلى الله عليه وسلم.
والدليل على ذلك، أن قوله بعد: {وَطَفَّحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} خطاب له صلى الله عليه وسلم بلا نزاع، فادعاء أن الضمير في قيله لعيسى لا دليل عليه ولا وجه له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من شكواه صلى الله عليه وسلم، إلى ربه عدم إيمان قومه، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا لِقُرْآنًا مَّهْجُورًا}، وذكر مثله عن موسى في قوله تعالى في الدخان: {قَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ}، وعن نوح قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَبِلاً وَتَهَارَأَقَلِمُ يَزُدُّهُمْ دُعَاؤُا إِلَّا فَرَاراً} إلى آخر الآيات. قوله تعالى: {وَطَفَّحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} فسوف يعلمون}. قرأ هذا الحرف ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: (فسوف يعلمون) بياء الغيبة، وقرأ نافع وابن عامر (فسوف تعلمون) بقاء الخطاب.

وهذه الآية الكريمة تضمنت، ثلاثة أمور:

الأول: أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح عن الكفار.

والثاني: أن يقول لهم سلام.

والثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر وصحة ما يوعد به الكافر من عذاب النار.

وهذه الأمور الثلاثة جاءت موضحة في غير هذا الموضع:

كقوله تعالى في الأول {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ وَبَطْحُ الصَّوْحِ لَجَمِيلٌ}، وقوله تعالى {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُتَّفِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ}.

والصفح الإعراض عن المواخذه بالذنب.

قال بعضهم: وهو أبلغ من العفو.

قالوا: لأن الصفح أصله مشتق من صفحة العنق، فكأنه يولي المذنب بصفحة عنقه معرضاً عن عتابه فما فوقه.

وأما الأمر الثاني، فقد بين تعالى أنه هو شأن عباده الطيبين.

ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم سيدهم كما قال تعالى {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}، وقال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعُوا الْجَاهِلِينَ}. وقال عن إبراهيم إنه قال له أبوه: {لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَهُجُرْنِي مَلِيًّا} قال له {سَلِّمٌ عَلَيْكَ}.

ومعنى السلام في الآيات المذكورة، إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي سلمتم منا لا نسا فهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملوننا.

وأما الأمر الثالث الذي هو تهديد الكفار بأنهم سيعلمون الحقيقة قد جاء موضحاً في آيات كتاب الله كقوله تعالى: {وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ جِينِ} وقوله تعالى: {لِكُلِّ تَبَاهٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وقوله: {كَلَّا سَيَعْلَمُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} وقوله تعالى: {لَتَرُونَ لِجَحِيمْتُمْ لَتَرُونَهَا عَيْنَ لَيَقِينَ} إلى غير ذلك من الآيات. وكثير من أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: {وَ طَفَحَ عَنْهُمْ} وما في معناه منسوخ بآيات السيف، وجماعات من المحققين يقولون هو ليس بمنسوخ. والقتال في المحل الذي يجب فيه القتال، والصفح عن الجهلة، والإعراض عنهم، وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان

{ح} * وَ لِكِتَابٍ لُمِينٍ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ *

فَوَأْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا
 كَشِفْنَا عَنْكَ الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَلَيْسَ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ *
 ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا أَنْتُمْ عَائِدُونَ *
 يَوْمَ نَبْطِشُ لِبَطْشَةِ الْكَافِرِينَ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ
 وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَوْأَىٰ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا
 تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتَيْكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ
 تَرْجُمُون * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي وَتُكْفِرُوا * فَدَعَا رَبِّي أَنْ هُوَ لَاقٍ قَوْمًا مُّجْرِمُونَ *
 فَأَسْرَبَ بِعَبَابِي لَيْلًا أَنْتُمْ مُّبْعُونَ * وَأَتْرَكَ لِيَحْرَرْهُوَ إِنَّهُمْ كَانُوا مُّعْرِفُونَ * كَمْ
 تَرَكَوْا مِنْ حَتَّىٰ وَعَيْوْنَ * وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعَمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ *
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
 مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ تَجَنَّبْنَا زِينَةَ السَّرْيَلِ مِنَ الْعَذَابِ لِمُهين * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ
 غَالِيًا هُنَّ لِمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ فَتَنَّاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ * وَعَاطَيْنَاهُمْ
 مِّنْ آيَاتٍ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ
 وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا يَا آتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ النَّعِ
 وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُّجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
 إِنَّ يَوْمَ الْقَضَائِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ
 يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * إِنَّ شَجَرَةَ الزُّرْقُمِ *
 طَعَامٌ لِالِثِيْمِ * كَلْمُهُلِ يَغْلَىٰ فِي لُبَطُونِ * كَعْلَىٰ لِحَمِيمِ * حُدُوهُ وَغُلُوهُ إِلَىٰ
 سَوَاءٍ لِحَجِيمِ {

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُّبَرَّكَةٍ}. أبهم تعالى هذه الليلة المباركة
 هنا، ولكنه بين أنها هي ليلة القدر في قوله تعالى {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}
 وبين كونها (مباركة) المذكورة هنا في قوله تعالى {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ

شَهْرٍ} إلى آخر السورة.
 فقوله {فِي لَيْلَةِ مُّبَرَّكَةٍ} أي كثيرة البركات والخيرات.
 ولا شك أن ليلة هي خير من ألف شهر، إلى آخر الصفات التي وصفت بها،
 في سورة القدر كثيرة البركات، والخيرات جداً.

وقد بين تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن
 من شهر رمضان، في قوله تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}.
 فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره، لا شك في
 أنها دعوى باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح.
 ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنهم من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا
 أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من
 المحققين.

فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح، بلا مستند كتاب
 ولا سنة صحيحة. قوله تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمًا مِّنْ عِنْدِنَا}.
 معنى قوله: يفرق، أي يفصل ويبين، ويكتب في الليلة المباركة، التي هي ليلة

القدر، كل أمر حكيم، أي ذي حكمة بالغة لأن كل ما يفعله الله، مشتمل على أنواع الحكم الباهرة:

وقال بعضهم: حكيم، أي محكم، ولا تغيير فيه، ولا تبديل.
وكلا الأمرين حق لأن ما سبق في علم الله، لا يتغير ولا يتبدل، ولأن جميع أفعاله في غاية الحكمة.

وهي في الاصطلاح وضع الأمور في مواضعها وإيقاعها في مواقعها.
وإيضاح معنى الآية أن الله تبارك وتعالى في كل ليلة قدر من السنة يبين للملائكة ويكتب لهم، بالتفصيل والإيضاح جميع ما يقع في تلك السنة، إلى ليلة القدر من السنة الجديدة.

فتبين في ذلك الآجال والأرزاق والفقر والغنى، والخصب والجذب والصحة والمرض، والحروب والزلازل، وجميع ما يقع في تلك السنة كائناً ما كان.
قال الزمخشري في الكشاف: ومعنى يفرق: يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وأجالهم، وجميع أمورهم فيها، إلى الأخرى القابلة إلى أن قال: فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل، والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت اه محل الغرض منه بلفظه.

ومرادنا بيان معنى الآية، لا التزام صحة دفع النسخ المذكورة للملائكة المذكورين، لأننا لم نعلم له مستنداً.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، يدل أيضاً على أن الليلة المباركة هي ليلة القدر فهو بيان قرآني آخر.
وإيضاح ذلك أن معنى قوله { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } أي في ليلة التقدير لجميع أمور السنة، من رزق وموت، وحياة وولادة ومرض، وصحة وخصب وجذب، وغير ذلك من جميع أمور السنة.
قال بعضهم: حتى إن الرجل لينكح ويتصرف في أموره ويولد له، وقد خرج اسمه في الموتى في تلك السنة.

وعلى هذا التفسير الصحيح لليلة القدر، فالتقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ }.

وقد قدمنا في سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى: { فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } أن قدر بفتح الدال مخففاً يقدر ويقدر بالكسر والضم كيضرب وينصر قدراً بمعنى قدر تقديراً، وأن ثعلباً أنشد لذلك قول الشاعر:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أروق السلم النضر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

وبينا هناك، أن ذلك هو معنى ليلة القدر، لأن الله يقدر فيها وقائع السنة.
وبينا أن ذلك هو معنى قوله تعالى: { فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ } وأوضحنا هناك أن القدر بفتح الدال والقدر بسكونها هما ما يقدره الله من قضائه: ومنه قول هدية بن الخشرم: ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

واعلم أن قول من قال: إنما سميت ليلة القدر لعظمها وشرفها على غيرها من الليالي من قولهم: فلان ذو قدر أي ذو شرف ومكانة رفيعة لا ينافي القول الأول لاتصافها بالأمرين معاً، وصحة وصفها بكل منهما كما أوضحنا مثله مراراً.

واختلف العلماء في إعراب قوله {أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا}، قال بعضهم: هو مصدر منكر في موضع الحال، أي أنزلناه في حال كوننا أمرين به. وممن قال بهذا الأخفش.

وقال بعضهم: هو ما ناب عن المطلق من قوله (أنزلناه) وجعل (أَمْراً) بمعنى: إنزالاً.

وممن قال به المبرد.

وقال بعضهم هو ما ناب عن المطلق من يفرق، فجعل (أَمْراً) بمعنى فرقاً أو فرق بمعنى أمراً.

وممن قال بهذا الفراء والزجاج.

وقال بعضهم هو حال من (أمر) أي (يفرق فيها بين كل أمر حكيم). في حال كونه أمراً من عندنا، وهذا الوجه جيد ظاهر، وإنما ساغ إتيان الحال من النكرة وهي متأخرة عنها لأن النكرة التي هي (أمر) وصفت بقوله (حكيم) كما لا يخفى.

وقال بعضهم (أَمْراً) مفعول به لقوله (منذرين) وقيل غير ذلك. واختار الزمخشري: أنه منصوب بالاختصاص، فقال: جعل كل أمر جزلاً فخمماً بأن وصفه بالحكيم ثم زاده جزالة وأكسبه فخامة، بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا وهذا الوجه أيضاً ممكن، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَأَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا}. وفي سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى {مَا يَفْتَحُ إِلَهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا}. قوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ}. هذا الذي ادعوه على النبي صلى الله عليه وسلم افتراء، من أنه معلم، يعنون أن هذا القرآن علمه إياه بشر، وأنه صلى الله عليه وسلم مجنون، قد بينا الآيات الموضحة لإبطاله. أما دعواهم أنه معلم فقد قدمنا الآيات الدالة على تلك الدعوى في سورة النحل، في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} وفي سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ} إلى قوله {فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}.

وبينا الآيات الموضحة لافتراءهم وتعنتهم في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {لِسَانٌ لِّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}. وفي الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا

أَسْطِطِيرُ
الْأُولَيْنِ كُتِبَ عَلَيْهَا}.

وأما دعواهم أنه مجنون، فقد قدمنا الآيات الموضحة لها. ولإبطالها في سورة قد أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ } . قوله تعالى: { وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَوْ أَلَىٰ عِبَادَ اللَّهِ } . الرسول الكريم هو موسى، والآيات الدالة على أن موسى هو الذي أرسل لفرعون وقومه كثيرة ومعروفة.

وقوله: { أَوْ أَلَىٰ } أي سلموا إلى عباد الله يعني بني إسرائيل، وأرسلوهم معي.

فقوله { عِبَادَ اللَّهِ } مفعول به لقوله: { أَلَىٰ } . وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن موسى طلب فرعون أن يسلم له بني إسرائيل ويرسلهم معه جاء موضحاً في آيات أخر، مصرح فيها بأن عباد الله هم بنو إسرائيل، كقوله تعالى في طه: { فَأَتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنْدِ إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ } وقوله تعالى في الشعراء { فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ لَعَلِمِينَ أَرْسِلْ مَعَنَا بِنْدِ إِسْرَائِيلَ } .

والتحقيق أن أن في قوله { أَنْ } هي المفسرة، لأن مجيء الرسول يتضمن معنى القول لا المخففة من الثقلية، وأن قوله: { عِبَادَ اللَّهِ } مفعول به كما ذكرنا وكما أوضحته آية طه وآية الشعراء لا منادى مضاف. قوله تعالى: { وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ } . قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: { وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ } . قوله تعالى: { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ } . لم يبين هنا من هؤلاء القوم الذين أورثهم ما ذكره هنا، ولكنه بين في سورة الشعراء أنهم بنو إسرائيل وذلك في قوله تعالى: { كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بِنْدِ إِسْرَائِيلَ } كما تقدم في الترجمة، وفي الأعراف. قوله تعالى: { وَلَقَدْ تَجَبْنَا بِبِنْدِ إِسْرَائِيلَ مِّنْ لَّعْدَابِ لِّمُهَيِّمِينَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنْ لِّمُسْرِفِينَ } . ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه نجى بني إسرائيل من العذاب المهين الذي كان يعذبهم به فرعون وقومه، جاء موضحاً في آيات أخر، مصرح فيها بأنواع العذاب المذكور، كقوله تعالى في سورة البقرة { وَإِذْ تَجَبَّيْتُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ لَّعْدَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } إلى قوله { وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ } . وقوله في الأعراف { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكَ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ لَّعْدَابِ يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ } . وقوله تعالى في المؤمن { فَلَمَّا جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ } . وقوله تعالى في إبراهيم: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ لُكُّرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ سُوءَ لَّعْدَابِ وَيُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ } .

وقوله في الشعراء: { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } . فتعبده إياهم من أنواع عذابه لهم، إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، من أن فرعون كان عالياً من المسرفين، أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في يونس: { وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ } وقوله تعالى في أول القصص

{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ
 أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } إلى غير ذلك من الآيات.
 { ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ لِّحَمِيمٍ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ
 هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنَّ لِمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *
 يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *
 يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يُدْفِقُونَ فِيهَا لَمُوتٍ إِلَّا لَمَوْتَةَ الْأُولَى
 وَوَقَّهْمُ عَذَابَ لِّجِيمٍ * فَضَلَّ مَن رَّبَّنَا ذَلِكِ هُوَ لَقُورٌ لِّعَظِيمٍ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ
 بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَوَأْتَمَّتْ إِيَّاهُمْ مُّزْتَقِبُونَ }

قوله تعالى: { ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابٍ لِّحَمِيمٍ }. قد قدمنا الآيات
 الموضحة في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: { يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ
 رُءُوسِهِمْ لِحَمِيمٍ }.

وقد تركنا إحالات متعددة بينا فيها بعض آيات سورة الدخان هذه خشية
 الإطالة بكثرة الإحالة. قوله تعالى: { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }.
 قد قدمنا الآيات الموضحة في سورة مريم في الكلام على قوله: { فَإِنَّمَا
 يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ لِمُتَّقِينَ }.

تم بحمد الله تفسير سورة الدخان

تفسير سورة الجاثية

{ نَزَّلْنَا نَارًا مِّنَ السَّمَاءِ وَنَزَّلْنَا نَارًا مِّنَ السَّمَاءِ وَنَزَّلْنَا نَارًا مِّنَ السَّمَاءِ
 لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ *
 وَخُتِلِفَ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ
 بِالْحَقِّ قِيَاسٌ حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ
 آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
 قوله تعالى: { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ } والآيات والآيات والآيات
 من دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ } والآيات والآيات والآيات من السَّمَاءِ
 مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.
 ذكر جلَّ وعلا، في هذه الآيات الكريمة، من أول سورة الجاثية ستة براهين،
 من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق
 للعبادة وحده تعالى.

الأول: منها خلقه السماوات والأرض.

الثاني: خلقه الناس.

الثالث: خلقه الدواب.

الرابع: اختلاف الليل والنهار.

الخامس: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

السادس: تصريف الرياح.

وذكر أن هذه الآيات والبراهين، إنما ينتفع بها المؤمنون، الموقنون الذين يعقلون عن الله حجه، وآياته.

فكانهم هم المختصون بها دون غيرهم. ولذا قال: {لَا يَتَّبِعُ لِلْمُؤْمِنِينَ}، ثم قال: {ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، ثم قال: {ءَايَاتُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

وهذه البراهين الستة المذكورة في أول هذه السورة الكريمة، جاءت موضحة في آيات كثيرة جداً كما هو معلوم.

أما الأول منها وهو خلقه السماوات والأرض المذكور في قوله: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ} فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ} وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}. وقوله: {قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطَى الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقوله: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. وقوله: {وَمِنَ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} في الروم وشورى. وقوله: {لِذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً} وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}، وقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَأْتِدُ وَاتَّابُوا لِمُوسِعُونَ} * وَالْأَرْضَ قَرَشْتَهَا فَنِعْمَ لِمَهْدُونَ}. وقوله تعالى: {الْمُ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا} إلى قوله {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً معروفة.

وأما الثاني منها: وهو خلقه الناس المذكور في قوله: {وَفِي خَلْقِكُمْ}، فقد جاء موضعاً في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَمِنَ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذْ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَتَشَابَهُونَ}. وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُبدُوا رَبَّكُمْ لِدَى خَلْقِكُمْ وَ لِذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}. وقوله تعالى عن نبيه نوح: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}، وقوله تعالى: {يَخْلُقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَةٍ تَلْتِ دَلِكُمْ إِلَهُ رَبِّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُصْرَفُونَ} وقوله {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الثالث منها: وهو خلقه الدواب المذكور في قوله: {وَمَا يَبْتُ مِنْ دَابَّةٍ} فقد جاء أيضاً موضعاً في آيات كثيرة أيضاً من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الشورى. {وَمِنَ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}. وقوله تعالى في البقرة: {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقوله تعالى {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَجٍ} والآيات بمثل ذلك كثيرة ومعلومة.

وأما الرابع منها: وهو اختلاف الليل والنهار المذكور في قوله: واختلاف الليل والنهار. فقد جاء موضعاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في

البقرة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِتْلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ لِقُلُوكَ لِيَتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} إلى قوله: {لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وقوله تعالى في آل عمران: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِتْلَفِ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}. وقوله تعالى في فصلت: {وَمِنْ آيَاتِهِ لَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}. وقوله تعالى: {وَأَيُّ لَيْلٍ تَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا}. وقوله تعالى: {يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}. وقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ} * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}. وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ خِتْلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما الخامس منها وهو: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله: {وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِتْلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ لِقُلُوكَ لِيَتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} إلى قوله {لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}. وقوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبْأًا} إلى قوله {مَتَّعْنَاكُمْ وَلَانعَمِمْكُمْ}. وإيضاح هذا البرهان باختصار أن قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من خلق الماء الذي كان سبباً لنباته. هل يقدر أحد غير الله أن يخلقه؟

الجواب: لا.
ثم هب أن الماء قد خلق بالفعل، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله إلى الأرض، على هذا الوجه الذي يحصل به النفع، من غير ضرر بإنزاله على الأرض رشا صغيراً، حتى تروى به الأرض تدريجاً. من غير أن يحصل به هدم، ولا غرق كما قال تعالى: {فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ}.
الجواب: لا.

ثم هب أن الماء قد خلق فعلاً، وأنزل في الأرض، على ذلك الوجه الأتم الأكمل، هل يقدر أحد غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها مسمار النبات؟
الجواب: لا.

ثم هب أن النبات خرج من الأرض، وانشقت عنه فهل يقدر أحد غير الله أن يخرج السنبل من ذلك النبات؟
الجواب: لا.

ثم هب أن السنبل خرج من النبات فهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبه وينقله من طور إلى طور حتى يدرك ويكون صالحاً للغذاء والقوت؟

الجواب: لا.

وقد قال تعالى: { أَنْظُوا إِلَى تَوْبِهِ إِذَا أَتَمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }، وكقوله تعالى: { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً نَّجَّالِيخًا بِهَ حَبًّا وَتَبَاتًا وَخَلَّتِ الْقَفَايَا }، وقوله تعالى: { وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ لَمَيَّةٌ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

واعلم أن إطلاقه تعالى الرزق على الماء، في آية الجاثية هذه، قد أوضحنا وجهه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا }.

وأما السادس منها: وهو تصريف الرياح المذكور في قوله { وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ } فقد جاء موضحاً أيضاً في آيات من كتاب الله كقوله في البقرة: { وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وقوله تعالى:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيْحَ مُبَشِّرَاتٍ }، وقوله تعالى { وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ } إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه

اعلم أن هذه البراهين العظيمة المذكورة، في أول سورة الجاثية، هذه ثلاثة منها، من براهين البعث، التي يكثر في القرآن العظيم، الاستدلال بها على البعث، كثرة مستفيضة.

وقد أوضحناها في مواضع من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة وسورة النحل وغيرهما، وأحلنا عليها مراراً كثيرة في هذا الكتاب المبارك وسنعيد طرفاً منها هنا لأهميتها إن شاء الله تعالى.

والأول من البراهين المذكورة هو خلق السماوات والأرض المذكور هنا في سورة الجاثية هذه { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ } لأن خلقه جل وعلا للسماوات والأرض، من أعظم البراهين على بعث الناس بعد الموت لأن من خلق الأعظم الأكبر، لا شك في قدرته على خلق الأضعف الأصغر، والآيات الدالة على هذا كثيرة كقوله تعالى: { لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ } أي ومن قدر على خلق الأكبر فلا شك أنه قادر على خلق الأصغر، وقوله تعالى: { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ }، وقوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ لَمَوْتِي بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } وقوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ }، وقوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَسَوَّاهَا وَأَعْطَشَ لِبَنَاتِهَا وَأَخْرَجَ مِنْهَا نَهْرًا وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَجِبَالَ أَرْسَاهَا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ }.

ونظير آية النازعات هذه قوله تعالى في أول الصافات: { وَ سَلَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا }، لأن قوله: { أَمْ مَنِ خَلَقْنَا } يشير به إلى خلق السماوات والأرض، وما ذكر معهما المذكور في قوله تعالى: { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ } إلى قوله { فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ }.

وأما الثاني من البراهين المذكورة: فهو خلقه تعالى للناس المرة الأولى، لأن من ابتدع خلقهم على غير مثال سابق، لا شك في قدرته على إعادة خلقهم، مرة أخرى كما لا يخفى.

والإستدلال بهذا البرهان على البعث كثير جداً في كتاب الله كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبَعْثِ قَائِنَا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ} إلى آخر الآيات. وقوله تعالى: {وَصَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} وقوله تعالى: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَبُّكَ لَخَشِيعُهُمْ وَالشَّيَاطِينِ}. وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ لَخَلْقِ تَمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. وقوله تعالى: {فَيَسْأَلُونَكَ مَنِ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي قَطَرَكُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقوله تعالى: {أَفَعَيَّبْنَا بِلَخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى قَلُوبًا تَذْكُرُونَ} وقوله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْقَةٍ مِّن مَّنِيِّ يُمْسِكُهُمْ كَانَ عَاقِبَةُ فَخَلَقَ فَيَسْأَلُونَكَ مَنِ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ لِمَوْتِي}. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ وَالزَّيْنُونَ طُورٍ سِينِيَتَوْهَذَا لَبَدٍ الْأَمِينَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ} إلى قوله {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ} يعني أي شيء يحملك على التكذيب بالذيين أي بالبعث والجزاء، وقد علمت أني خلقتك الخلق الأول في أحسن تقويم، وأنت تعلم أنه لا يخفى على عاقل أن من ابتدع الإيجاد الأول لا شك في قدرته، على إعادته مرة أخرى إلى غير ذلك من الآيات.

وأما البرهان الثالث منها: وهو إحياء الأرض بعد موتها المذكور في قوله تعالى في سورة الجاثية هذه: {وَمَا أَنزَلْنَا إِلَهُ مِنَ السَّمَاءِ مِّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، فإنه يكثر الاستدلال به أيضاً على البعث في القرآن العظيم، لأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الناس بعد موتهم، لأن الجميع أحياء بعد موت.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً فَتُخْرَجُ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ لِمَوْتِي إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا لِمَاءً فَتُخْرَجُ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي لِمَوْتِي وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْأُبُورِ} وقوله تعالى: {فَأَنْظِرْ إِلَى آتِئِر رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ لِمَوْتِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشِيرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا تَقَالَا سَفِيفَةً لِيَلِدَنَّ مِيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ لِمَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتِي لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُونَ}.

فقوله تعالى: {كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتَى} أي نبعثهم من قبورهم أحياء كما أخرجنا تلك الثمرات بعد عديمها، وأحيينا بإخراجها ذلك البلد الميت، وقوله تعالى: {يُخْرِجُ لِحَيٍّ مِنْ لَمِيَّتٍ وَيُخْرِجُ لَمِيَّتٍ مِنْ لِحَيٍّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُونَ} يعني تخرجون من قبوركم أحياء بعد الموت. وقوله تعالى: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ لُخْرُوجُ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ}. أشار جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى آيات هذا القرآن العظيم، وبين لنبيه أنه يتلوها عليه، متلبسة بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وما ذكره جل وعلا في آية الجاثية هذه، ذكره في آيات آخر بلفظه كقوله تعالى في البقرة: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} آيَةُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} وقوله تعالى في آل عمران: {وَأَمَّا الَّذِينَ أُبَيِّنَتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} آيَةُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {تِلْكَ} بمعنى هذه. ومن أساليب اللغة العربية إطلاق الإشارة إلى البعيد على الإشارة إلى القريب كقوله: {ذَلِكَ لِكِتَابٍ} بمعنى هذا الكتاب. كما حكاه البخاري عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومن شواهد قول خفاف بن ندبة السلمي: فإن تك خيلي قد أصيب صميمها فعمداً على عيني تيممت مالكا أقول له والرمح ياطر متنه تأمل خفافاً إنني أنا ذالكا

يعني أنا هذا.

وقد أوضحنا هذا المبحث وذكرنا أوجهه في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب، عن آيات الكتاب) في أول سورة البقرة وقوله تعالى: {تَتْلُوهَا} أي نقرؤها عليك. وأسند جل وعلا تلاوتها إلى نفسه لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغاً عنه جل وعلا. ونظير ذلك قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَارْتَعِبْ إِنْ عَلَيْنَا لَبَأَهُ}.

فقوله: فإذا قرأناه أي قرأه عليك الملك المرسل به، من قبلنا مبلغاً عنا، وسمعته منه، فاتبع قرأه أي فاتبع قراءته وقرأه كما سمعته يقرؤه. وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}.

وسمعه صلى الله عليه وسلم القرآن من الملك المبلغ عن الله كلام الله وفهمه له هو معنى تنزيله إياه على قلبه في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} وقوله تعالى في هذه الآية: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ} يعني آياته الشرعية الدينية.

واعلم أن لفظ الآية، يطلق في اللغة العربية إطلاقين، وفي القرآن العظيم إطلاقين أيضاً.

أما إطلاقاه في اللغة العربية.
فالأول منهما وهو المشهور في كلام العرب، فهو إطلاق الآية بمعنى العلامة،
وهذا مستفيض في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان: توهمت آيات لها
فعرفتها لسته أعوام وذا العام سابع

ثم بين أن مراده بالآيات علامات الدار في قوله بعده: رماد ككحل العين لآياً
أبينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

وأما الثاني منهما فهو إطلاق الآية بمعنى الجماعة، يقولون: جاء القوم بآيتهم
أي بجماعتهم.
ومنه قول برج بن مسهر: خرجنا من النقبين لا حي مثلنا بآيتنا نزجي اللقاح
المطافلا

وقوله: بآياتنا يعني بجماعتنا.
وأما إطلاقاه في القرآن العظيم:
فالأول منهما إطلاق الآية على الشرعية الدينية كآيات هذا القرآن العظيم،
ومنه قوله هنا: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ رَبُّكَ} .
وأما الثاني منهما: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية كقوله تعالى:
{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُوفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ} .

أما الآية الكونية القدرية فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة، لأن الآيات
الكونية علامات قاطعة، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده.
وأما الآية الشرعية الدينية، فقال بعض العلماء: إنها أيضاً من الآية التي هي
العلامة، لأن آيات هذا القرآن العظيم، علامات على صدق من جاء بها، لما
تضمنته من برهان الإعجاز، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات
ومنتهاها.

وقال بعض العلماء إنها من الآية بمعنى الجماعة، لتضمنها جملة وجماعة من
كلمات القرآن وحروفه.
واختار غير واحد أن أصل الآية أيبة بفتح الهمزة وفتح الياءين بعدها، فاجتمع
في الياءين موجباً لإعلال، لأن كلا منهما متحركة حركة أصلية بعد فتح متصل،
كما أشار له في الخلاصة بقوله:
من واو وياء بتحريك أصل ألفاً أبدل بعد فتح متصل

إن حرك التالي... إلخ.
والمعروف في علم التصريف، أنه إن اجتمع موجباً لإعلال في كلمة واحدة
فالأكثر في اللغة العربية تصحيح الأول منهما، وإعلال الثاني بإبداله ألفاً
كالهوى والنوى والبطوى والشوى، وربما صحح الثاني وأعل الأول كغاية،
وراية، وآية على الأصح، من أقوال عديدة، ومعلوم أن إعلالهما لا يصح، ولهذا

أشار في الخلاصة بقوله: وإن لحرفين ذا الإعلال استحق صح أول وعكس قد يحق

قوله تعالى: { قَبَائِحَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ سَمِعَ
ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } .
ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن من كفر بالله وبآيات الله ولم
يؤمن بذلك مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان بالله، وآياته أنه
يستبعد، أن يؤمن بشيء آخر، لأنه لو كان يؤمن بحديث لآمن بالله وبآياته
لظهور الأدلة على ذلك، وأن من لم يؤمن بآيات الله متوعد بالويل، وأنه أفاك
أثيم، والأفك: كثير الإفك وهو أسوأ الكذب، والأثيم: هو مرتكب الإثم بقلبه
وجوارحه، فهو مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه، قد ذكره تعالى في غير هذا
الموضع فتوعد المكذبين لهذا القرآن، بالويل يوم القيامة، وبين استبعاد
إيمانهم، بأي حديث بعد أن لم يؤمنوا بهذا القرآن، وذلك بقوله في آخر
المرسلات: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ زُكُّوا لَّا يَزُكُّوا قَوْلًا لَّيْمًا يُؤْمِنُونَ لِلْمُكَذِّبِينَ حَدِيثٌ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } فقوله تعالى: { وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ } كقوله هنا { وَيَلُّ لِكُلِّ
أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } .

وقد كرر تعالى وعيد المكذبين بالويل في سورة المرسلات كما هو معلوم
وقوله في آخر المرسلات: { قَبَائِحَ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } كقوله هنا في
الجاثية: { قَبَائِحَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ } . ومعلوم أن الإيمان بالله
على الوجه الصحيح، يستلزم الإيمان بآياته، وأن الإيمان بآياته كذلك يستلزم
الإيمان به تعالى، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى
عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } يدل على أن من
يسمع القرآن يتلى ثم يصر على الكفر والمعاصي في حالة كونه متكبرا عن
الانقياد إلى الحق الذي تضمنته آيات القرآن كأنه لم يسمع آيات الله، له
البشارة يوم القيامة بالعذاب الأليم وهو الخلود في النار، وما تضمنته هذه
الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في لقمان: { وَإِذَا
تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُفْرًا فَبَشَّرَهُ
بِعَذَابٍ } وقوله تعالى في الحج: { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي
وُجُوهِهِمْ لَذِينَ كَفَرُوا لِمُنْكَرٍ يَكْفُرُونَ يَسْطُوبُونَ لِذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ
أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن دَلِكُمْ أَتَّارٌ وَعَدَّاهَا اللَّهُ لَذِينَ كَفَرُوا وَيَسِّنَّ لِمَصِيرٍ } وقوله
تعالى: { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا جَرَجُوا مِن عِنْدِكَ قَالُوا لِلذِينَ أُوْتُوا
الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانفَا أُولَئِكَ لَذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ } ،
فقوله تعالى عنهم: ماذا قال أنفاً. يدل على أنهم ما كانوا يبالون بما يتلو
عليهم النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والهدى.

وقد ذكرنا كثيراً من الآيات المتعلقة بهذا المبحث في سورة فصلت في
الكلام على قوله تعالى: { فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَّا يَسْمَعُونَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي
أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقُفْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ جَبَابٌ } .

وقوله تعالى في هذه الآية. { كَانَ لَّمْ يَسْمَعْهَا } خفت فيه لفظة كان،
ومعلوم أن كان إذا خفت كان اسماً مقدرًا وهو ضمير الشأن والجملة

خبرها كما قال في الخلاصة: وخفت كأن أيضاً فنوى منصوبها وثابتاً أيضاً روى

وقد قدمنا في أول سورة الكهف: أن البشارة تطلق غالباً على الإخبار بما يسر، وأنها ربما أطلقت في القرآن وفي كلام العرب على الإخبار بما يسوء أيضاً.

وأوضحنا ذلك بشواهد العربية، وقوله في هذه الآية الكريمة: {وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}.

قال بعض العلماء: {وَيْلٌ} واد في جهنم. والأظهر أن لفظة {وَيْلٌ} كلمة عذاب وهلاك، وأنها مصدر لا لفظ له من فعله، وأن المسوغ للابتداء بها مع أنها نكرة كونها في معرض الدعاء عليهم بالهلاك.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قَبَائِلٌ حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَعَائِيَةٌ يُؤْمِنُونَ}. قرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو وحفص، عن عاصم: يؤمنون بياء الغيبة. وقرأه ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وشعبة عن عاصم تؤمنون بتاء الخطاب. وقرأه ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو يؤمنون بإبدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً.

وقرأه حمزة بإبدال الهمزة واواً في الوقف دون الوصل. والباقون بتحقيق الهمزة مطلقاً.

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا لَّيَحْذَرُهَا هُرُوعًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا لَّحَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا آيَاتٍ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ أَلِيمٍ * أَلَلَّهُ لِيذِي سَحَرٍ لَّكُمْ لِيَبْحَثَ لِيَجْزِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَحَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا هَارُونَ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَلِحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَيَّ الْعَالَمِينَ * وَعَائِيَتُهُمْ بَيِّنَاتٌ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ لِعِلْمٍ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}

قوله تعالى: {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا لَّيَحْذَرُهَا هُرُوعًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة توعده الأفَّاك الأثيم بالويل، والبشارة بالعذاب الأليم.

وقد قدمنا قريباً أن من صفاته، أنه إذا سمع آيات الله تتلى عليه أصر مستكبراً كأن لم يسمعها، وذكر في هذه الآية الكريمة أنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً أي مهزوعاً بها، مستخفاً بها، ثم توعده على ذلك بالعذاب المهين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الكفار يتخذون آيات الله هزواً، وأنهم سيعذبون على ذلك يوم القيامة، قد بينه تعالى في غير هذا الموضع كقوله

تعالى في آخر الكهف: {ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنَّا لَنَكُونُنَّ لَهُمْ سَائِدِينَ} وقوله تعالى في الكهف أيضاً: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَبْطُلَ
لِيُذْحِقُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِرَ آيَاتِ
رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}. وقوله تعالى في سورة الجاثية
هذه: {وَقِيلَ لِيَوْمٍ نَبِّسَاكُمْ كَمَا نَبَّيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مَنْ نَصْرِيئَنَّا بِكُمْ بِأَنكُمْ لِحَدَّثْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوا}.
وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة وحفص عن عاصم هزواً بضم
الزاي بعدها همزة محققة.

وقرأه حفص عن عاصم بضم الزاي وإبدال الهمزة واواً.
وقرأه حمزة هزاً بسكون الزاي بعدها همزة محققة في حالة الوصل.
وأما في حالة الوقف، فعن حمزة نقل حركة الهمزة إلى الزاي فتكون الزاي
مفتوحة بعدها ألف، وعنه إبدالها واواً محرّكة بحركة الهمزة.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} أي لأن عذاب الكفار
الذين كانوا يستهزءون بآيات الله لا يراد به إلا إهانتهم وخزيهم وشدة إيلاهم
بأنواع العذاب.

وليس فيه تطهير ولا تمحيص لهم بخلاف عصاة المسلمين فإنهم وإن عذبوا
فسيصرون إلى الجنة بعد ذلك العذاب.

فليس المقصود بعذابهم مجرد الإهانة بل ليؤلوا بعده إلى الرحمة ودار
الكرامة. قوله تعالى: {مَنْ وَرَأَيْهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا
مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. قوله تعالى: {مَنْ وَرَأَيْهِمْ
جَهَنَّمَ} قد قدمنا آيات الموضحة له مع الشواهد العربية في سورة إبراهيم
في الكلام على قوله تعالى: {وَسَيُفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مَنْ وَرَأَيْهِ
جَهَنَّمَ}. وبيننا هناك أن أصح الوجهين أن وراء بمعنى أمام.

فمعنى من ورأيه جهنم أي أمامه جهنم يصلها يوم القيامة كما قال تعالى:
{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} أي أمامهم ملك.

وذكرنا هناك الشواهد العربية على إطلاق وراء بمعنى أمام، وبيننا أن هذا هو
التحقيق في معنى الآية وكذلك آية الجاثية هذه، فقوله تعالى {مَنْ وَرَأَيْهِمْ
جَهَنَّمَ} أي أمامهم جهنم يصلونها يوم القيامة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ}.

أوضح فيه أن ما كسبه الكفار في دار الدنيا من الأموال والأولاد لا يغني عنهم
شيئاً يوم القيامة أي لا ينفعهم بشيء فلا يجلب لهم بسببه نفع ولا يدفع عنهم
بسببه ضرر، وإنما اتخذوه من الأولياء في دار الدنيا من دون الله، كالمعبودات
التي كانوا يعبدونها، ويزعمون أنها شركاء لله لا ينفعهم يوم القيامة أيضاً
بشيء.

وهاتان المسألتان اللتان تضمنتهما هذه الآية الكريمة، قد أوضحهما الله في
آيات كثيرة من كتابه.

أما الأولى منهما: وهي كونهم لا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً فقد أوضحها في
آيات كثيرة كقوله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}

وقوله تعالى: { وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى } وقوله تعالى: { لِيَذَى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهَا يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي لِحْطَمَةٍ } . وقوله تعالى: { قَدْ قَالَهَا لِيذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } . وقوله تعالى: { يَلْبَثَهَا كَانَتْ لِقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَةَ } . وقوله تعالى: { قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } . وقوله تعالى عن إبراهيم: { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ } . وقوله تعالى: { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِرِلِّي تَقْرَبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى } . وقوله تعالى: { إِنَّ لِيذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا } . وقوله تعالى: { إِنَّ لِيذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .
 وقوله تعالى في المجادلة { اتَّخَوْا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا } .
 والآيات بمثل هذا كثيرة جداً، وقد قدمنا كثيراً منها في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وأما الثانية منهما، وهي كونهم لا تنفعهم المعبودات، التي اتخذوها أولياء من دون الله، فقد أوضحها تعالى في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هود: { وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } . وقوله تعالى { قَلُّوا تَصْرَهُمْ لِيذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } . وقوله تعالى: { وَقِيلَ لِّلْعَوَا شِرْكَاءَكُمْ قَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأُوا لِّلْعَذَابِ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ } : وقوله تعالى { وَيَوْمَ يَقُولُ تَادُوا شِرْكَائِيَ لِيذِينَ رَعِمْتُمْ قَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَّوْبِقًا } وقوله تعالى: { وَمَنْ أَصْلَ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً } وقوله تعالى: { ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ لِمْلِكٌ وَ لِيذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا سَلَّتْجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ } . وقوله تعالى: { وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } ، وقوله تعالى: { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ } ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ } ، الأولياء جمع ولي.

والمراد بالأولياء هنا، المعبودات التي يوالونها بالعبادة من دون الله، { وَمَا كَسَبُوا } في قوله: { وَمَا } ؟ { وَمَا اتَّخَذُوا } موصولة وهي في محل رفع في الموضعين، لأن { مَا } الأولى فاعل { يُغْنِي } ؟ { وَمَا } الثانية معطوفة عليها وزيادة لا، قبل المعطوف على منفي معروفة. وقوله: { وَلَا يُغْنِي } أي لا ينفع. والظاهر أن أصله من الغناء بالفتح والمد وهو النفع. ومنه قول الشاعر:
 وقل غناء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً وواراك لاحد

فقوله: قل غناء أي قل نفعاً. وقول الآخر: قل الغناء إذا لاقى الفتى تلفاً قول الأحبة لا تبعد وقد بعدا

فقوله: الغناء أي النفع.

والبيت من شواهد إعمال المصدر المعرف بالألف واللام، لأن قوله: قول الأحبة، فاعل قوله الغناء. وأما الغناء بالكسر والمد فهو الألحان المطربة. وأما الغنى بالكسر والقصر فهو ضد الفقر. وأما الغنى بالفتح والقصر فهو الإقامة، من قولهم غنى بالمكان بكسر النون يعنى بفتحها غنى بفتحيتين إذا أقام به. ومنه قوله تعالى {كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ} وقوله تعالى {كَانَ لَمْ يَعْتَوْا فِيهَا} كأنهم لم يقيموا فيها.

وأما الغنى بالضم والقصر فهو جمع غنية وهي ما يستغنى به الإنسان. وأما الغناء بالمد والضم فلا أعلمه في العربية. وهذه اللغات التي ذكرنا في مادة غنى كنت تلقيتها في أول شبابي في درس من دروس الفقه لقنيتها شيخي الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكني، وذكر لي بيتي رجز في ذلك لبعض أفاضل علماء القطر وهما قوله: وضد فقر كإلى وكسحاب النفع والمطرب أيضاً ككتاب

وكفتى إقامة وكهنا جمع لغنية لما به الغنى قوله تعالى: {هَذَا هُدًى وَ لِيذِينَ كَفَرُوا يَا آيَاتِ رَبِّهِمْ لَهِمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ}. الإشارة في قوله {هَذَا هُدًى} راجعة للقرآن العظيم المعبر عنه بآيات الله في قوله {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ}. وقوله {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ}. وقوله: {يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلِّئُ عَلَيْهِ} وقوله: {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا}. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن هدى، وأن من كفر بآياته له العذاب الأليم، جاء موضحاً في غير هذا الموضع.

أما كون القرآن هدى، فقد ذكره تعالى، في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} وقوله تعالى {إِنَّ هَذَا لَقُرْآنٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} وقوله تعالى {شَهْرٌ رَّمْضَانَ} لِيُنزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنْ هُدًى وَ لِقُرْآنٍ} وقوله {إِنَّ هَذَا لَقُرْآنٌ لِّكِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما كون من كفر بالقرآن يحصل له بسبب ذلك العذاب الأليم، فقد جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتُنَّ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ}؛ وقوله تعالى {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَدُنَّا ذِكْرًا مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا} وقوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَاءُ هُم جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَوْا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوا} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقد قدمنا في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ}. وغير ذلك من المواضع، أن الهدى يطلق في القرآن إطلاقاً عاماً،

بمعنى أن الهدى هو البيان والإرشاد وإيضاح الحق، كقوله {وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ} أي بينا لهم الحق وأوضحناه وأرشدناهم إليه وإن لم يتبعوه، وكقوله {هُدًى لِلنَّاسِ} وقوله هنا {هَدَا هُدًى} وأنه يطلق أيضاً في القرآن بمعناه الخاص وهو التفضل بالتوفيق إلى طريق الحق والاصطفاء كقوله {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} وقوله {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَبَشَاءً} وقوله {وَالَّذِينَ هَتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى} وقوله {أُولَئِكَ لِيُذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ قُدِّدَةٌ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد أوضحنا في سورة فصلت أن معرفة إطلاق الهدى المذكورين، يزول بها الإشكال الواقع في آيات من كتاب الله.

والهدى مصدر هداه على غير قياس، وهو هنا من جنس النعت بالمصدر، وبينما فيما مضى مراراً أن تنزيل المصدر منزلة الوصف إما على حذف مضاف، وإما على المبالغة.

وعلى الأول فالمعنى هذا القرآن ذو هدى أي يحصل بسببه الهدى لمن اتبعه كقوله {إِنَّ هَدَا لِقُرءَانَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمٌ}.

وعلى الثاني فالمعنى أن المراد المبالغة في اتصاف القرآن بالهدى حتى أطلق عليه أنه هو نفس الهدى.

وقوله في هذه الآية الكريمة، لهم عذاب من رجز أليم، أصح القولين فيه أن المراد بالرجز العذاب، ولا تكرار في الآية لأن العذاب أنواع متفاوتة والمعنى لهم عذاب، من جنس العذاب الأليم، والأليم معناه المؤلم. أي الموصوف بشدة الألم وفضاعته.

والتحقيق إن شاء الله: أن العرب تطلق الفعيل وصفاً بمعنى المفعول، فما يذكر عن الأصمعي من أنه أنكر ذلك إن صح عنه فهو غلط منه، لأن إطلاق الفعيل بمعنى المفعول معروف في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومن إطلاقه في القرآن العظيم قوله تعالى: {عَذَابٌ أَلِيمٌ} أي مؤلم وقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي مبدعهما وقوله تعالى: {إِنَّ هُوَ إِلَّا تَذِيرٌ لَّكُمْ}. أي منذر لكم، ونظير ذلك من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب: أمن ربحانة الداعي السميع يورقني وأصحابي هجوع

فقوله الداعي السميع يعني الداعي المسمع. وقوله أيضاً: وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

أي موجه. وقول غيلان بن عقبة: ويرفع من صدور شمردلات يصك وجوهها وهج أليم

أي مؤلم. وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم بخفض أليم على أنه نعت لرجز.

وقراه ابن كثير وحفص عن عاصم من رجز أليم، برفع أليم على أنه نعت لعذاب. قوله تعالى: {اللَّهُ لِيذِي سَخَّرَ لَكُمْ لِيَجْرِيَ لِفُكِّ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في

سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا }، وفي سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: { وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا } إلى قوله: { وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ }. قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَبْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { وَقَفَّضْنَا لَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه فضل بني إسرائيل على العالمين. وذكر هذا المعنى في موضع آخر من كتابه كقوله تعالى في سورة البقرة: { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كُفُّوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } في الموضوعين. وقوله في الدخان: { وَلَقَدْ خُذْنَا مِنْكُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَيَّ الْعَالَمِينَ }، وقوله في الأعراف: { قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ }.

ولكن الله جل وعلا بين أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، خير من بني إسرائيل وأكرم على الله، كما صرح بذلك في قوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ }، فخير صيغة تفضيل والآية نص صريح في أنهم خير من جميع الأمم، بني إسرائيل وغيرهم.

ومما يزيد ذلك إيضاحاً حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أمته: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»: وقد رواه عنه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور.

وقال ابن كثير: حسنه الترمذي، ويروى من حيث معاذ بن جبل وأبي سعيد نحوه اهـ.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: ولا شك في صحة معنى حديث معاوية بن حيدة المذكور رضي الله عنه. لأنه يشهد له النص المعصوم المتواتر في قوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ }، وقد قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ }. وقوله: { وَسَطًا } أي خياراً عدولاً. واعلم أن ما ذكرنا من كون أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من بني إسرائيل كما دلت عليه الآية والحديث المذكوران وغيرهما من الأدلة لا يعارض الآيات المذكورات أنفاً في تفضيل بني إسرائيل. لأن ذلك التفضيل الوارد في بني إسرائيل ذكر فيهم حال عدم وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

والمعدوم في حال عدمه ليس بشيء حتى يفضل أو يفضل عليه. ولكنه تعالى بعد وجود أمة محمد صلى الله عليه وسلم صرح بأنها هي خير الأمم.

وهذا واضح لأن كل ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل. إنما يراد به ذكر أحوال سابقة.

لأنهم في وقت نزول القرآن كفروا به وكذبوا كما قال تعالى: { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ }.

ومعلوم أن الله لم يذكر لهم في القرآن فضلاً إلا ما يراد به أنه كان في زمنهم السابق لا في وقت نزول القرآن.

ومعلوم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن موجودة في ذلك الزمن السابق الذي هو ظرف تفضيل بني إسرائيل، وأنها بعد وجودها، صرح الله بأنها هي خير الأمم، كما أوضحنا والعلم عند الله تعالى.

{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ وَاتَّبَعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جَحَرُوا ألسِنَتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَبَّيْتُ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْتِئَاتُ بآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُم ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِدُ بِخَسِرٍ لِّمُنْطَلِقُونَ * وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا لِيَوْمَ تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْنِسِحُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ لِقَاؤُهُمْ لِمُتِّبِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ يَكُنْ ءَايَاتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ وَسُلْطٰنٰتُنُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَلَهُ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ لِيَوْمَ نَنسِيٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ * ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَّضْتُمْ لِحَيٰوَةِ الدُّنْيَا وَلِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * قَلِيلٌ لِّحَمْدِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ { قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ وَاتَّبَعُهَا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَسَلِّمْسِيكَ بِاللَّيْلِ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}.

نهى الله جل وعلا نبيه صلى الله عليه وسلم، في هذه الآية الكريمة عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} أنه جل وعلا يأمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وبينها، ليشرع بذلك الأمر والنهي، لأمته كقوله هنا: {وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا}. وقوله تعالى: {فَلَا تُطِعْ لِمُكْذِبِينَ}. وقوله: {وَلَا تُطِعْ

كُلَّ خِلَافٍ مَّهِينٍ}. وقوله: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}. وقوله: {لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقد بينا الأدلة القرآنية على أنه صلى الله عليه وسلم يخاطب، والمراد به التشريع لأمته، في آية بني إسرائيل المذكورة.

وما تضمنته آية الجاثية هذه، من النهي عن اتباع أهوائهم جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في الشورى: {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمَّنتُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ} وقوله تعالى في الأنعام: {فَإِنْ يَشْهَدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ}. وقوله تعالى في القصص: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ وَ عَلَّمَ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرُهُ هَدَىٰ مَنْ أَلَّهَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد بين تعالى في قد أفلح المؤمنون أن الحق لو اتبع أهواءهم لفسد العالم وذلك في قوله تعالى: {وَلَوْ اتَّبَعَ لِحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}.

والأهواء: جمع هوى بفتحين وأصله مصدر، والهمزة فيه مبدلة من ياء كما هو معلوم. قوله تعالى: {وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}. قد قدمنا في هذا الكتاب المبارك مراراً أن الظلم في لغة العرب أصله وضع الشيء في غير موضعه.

وأن أعظم أنواعه الشرك بالله لأن وضع العبادة في غير من خلق ورزق هو أشنع أنواع وضع الشيء في غير موضعه. ولذا كثر في القرآن العظيم، إطلاق الظلم بمعنى الشرك. كقوله تعالى: {وَ لِكْفُرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ}. وقوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ إِذَا مَنَّ الظَّالِمِينَ}. وقوله تعالى: {وَبَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}. وقوله تعالى في لقمان: {يَبْنَئِي لَأُشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}. وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر قوله تعالى: {لَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} «بأن معناه ولم يلبسوا إيمانهم بشرك».

وما تضمنته آية الجاثية هذه من أن الظالمين بعضهم أولياء بعض جاء مذكوراً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في آخر الأنفال: {وَ لَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}. وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. وقوله تعالى: {وَ لَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلْمَةِ}. وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَيَحْتَدُوا لِلشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}. وقوله تعالى: {فَقَاتِلِ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}. وقوله تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}، وقوله {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَ لِلَّهِ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه ولي المتقين، وهم الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهيه.

وذكر في موضع آخر أن المتقين أولياؤه فهو وليهم وهم أولياؤه لأنهم يوالونه بالطاعة والإيمان، وهو يواليهم بالرحمة والجزاء، وذلك في قوله تعالى: {الْأَنْبِيَاءَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.
ثم بين المراد بأوليائه في قوله {لَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، فقوله تعالى: {وَكَانُوا يَتَّقُونَ} كقوله في آية الجاثية هذه {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}.
وقد بين تعالى في آيات من كتابه أنه ولي المؤمنين، وأنهم أولياؤه كقوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}. وقوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} بقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا}. وقوله تعالى {إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهُ لَإِذِي تَرْجَى لِكِتَابٍ وَهُوَ يَنبَوَىٰ الصَّالِحِينَ} وقوله تعالى في الملائكة {قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِن دُونِهِمْ}. إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه بأبسط من هذا. قوله تعالى: {هٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}. الإشارة في قوله {هٰذَا} للقرآن العظيم.

والبصائر جمع بصيرة والمراد بها البرهان القاطع الذي لا يترك في الحق لبساً كقوله تعالى: {قُلْ هٰذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ} أي على علم ودليل واضح.

والمعنى أن هذا القرآن براهين قاطعة، وأدلة ساطعة، على أن الله هو المعبود وحده، وأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق.
وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن القرآن بصائر للناس جاء موضحاً في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى في أخريات الأعراف {قُلْ إِنَّمَا أَدَّبْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هٰذَا بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، وقوله تعالى في الأنعام {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ}.

وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا لِقُرُونِ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

وما تضمنته آية الجاثية هذه من كون القرآن هدى ورحمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع.

أما كونه هدى فقد ذكرنا الآيات الموضحة له قريباً.
وأما كونه رحمة فقد ذكرنا الآيات الموضحة له في الكهف في الكلام على قوله تعالى {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءِتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا}، وفي أولها في الكلام على قوله تعالى {لِحَمْدِ اللَّهِ لَإِذِي أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِكِتَابٍ}. وفي فاطر في الكلام على قوله تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِّن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا}. وفي الزخرف في الكلام على قوله: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، أي لأنهم هم المنتفعون به.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال عربي معروف.

وهو أن المبتدأ الذي هو قوله {هَذَا} اسم إشارة إلى مذكر مفرد، والخبر الذي هو بصائر جمع مكسر مؤنث.

فيقال: كيف يسند الجمع المؤنث المكسر إلى المفرد المذكر؟ والجواب: أن مجموع القرآن كتاب واحد، تصح الإشارة إليه بهذا، وهذا الكتاب الواحد يشتمل على براهين كثيرة، فصح إسناد البصائر إليه لاشتماله عليها كما لا يخفى. قوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جُنَّتْ رُءُوسُهُمْ أَن نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} . قد قدمنا الكلام عليه في سورة (ص) في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} . قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} . قد أوضحنا معناه في سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} . قوله تعالى: {وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} . قد أوضحنا معناه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} . قوله تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا} . وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إنكار الكفار للبعث بعد الموت، جاء موضعاً في آيات كثيرة كقوله تعالى عنهم {وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ} . وقوله {أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ} . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} وقوله تعالى عنهم {أَعِدَّا مِثْلًا وَكُنَّا تُرَابًا} ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} . وقوله تعالى عنهم {أَعِنَّا لَمَرُدُّوهُمْ فِي لَحْفَةٍ إِذْ كُنَّا عِظَامًا تَحَرَّةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَسِرَةٌ} .

وقوله تعالى: {قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقد قدمنا البراهين القاطعة القرآنية، على تكذيبهم في إنكارهم البعث، وبيننا دلالتها على أن البعث واقع لا محالة، في سورة البقرة، وسورة النحل، وسورة الحج، وأول سورة الجاثية هذه، وأحلنا على ذلك مراراً. وبيننا في سورة الفرقان الآيات الموضحة أن إنكار البعث كفر بالله، والآيات التي فيها وعيد منكري البعث بالنار في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} . قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئذٍ يَحْسُرُ الْمُبْطِلُونَ} . قد قدمنا الكلام عليه في سورة المؤمن في الكلام على قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} . قوله تعالى: {كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا} . قد قدمنا إيضاحه في سورة الكهف، في الكلام على قوله تعالى: {وَوُضِعَ لِكِتَابٍ قَتْرَى لِمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} . قوله تعالى: {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَسِيحُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة مريم، في الكلام على قوله تعالى: {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} ، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَقِيلَ لِيَوْمٍ تَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة طه في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَتَسَى وَلَمْ تَجِدْ لَهُ عَزْمًا} .

قوله تعالى: { فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } . قد أوضحنا معنى قوله: يستعتبون في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { وَيَوْمَ تَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤَدُّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: فالיום لا يخرجون منها، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: { وَتَادُوا بِمَلِكٍ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ } . قوله تعالى: { قَلِيلٌ لِحَمْدِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } . أتبع الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، حمده جل وعلا بوصفه بأنه رب السماوات والأرض ورب العالمين، وفي ذلك دلالة على أن رب السماوات والأرض، ورب العالمين مستحق لكل حمد ولكل ثناء جميل.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى في سورة الفاتحة { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وقوله تعالى في آخر الزمر { وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } وقوله تعالى: { فَقَطَعَ دَائِرَ لِقَوْمٍ لَّذِينَ ظَلَمُوا } وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ { وقوله تعالى في أول الأنعام { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ } وقوله تعالى في أول سبأ { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } . وقوله في أول فاطر { الْحَمْدُ لِلَّهِ قَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ } . قوله تعالى: { وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن له الكبرياء في السماوات والأرض، يعني أنه المختص بالعظمة، والكمال والجلال والسلطان، في السماوات والأرض، لأنه هو معبود أهل السماوات والأرض، الذي يلزمهم تكبيره وتعظيمه، وتمجيده، والخضوع والذل له.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات آخر كقوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا } .

فقوله { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ } معناه أنه هو وحده الذي يعظم ويعبد في السماوات والأرض ويكبر ويخضع له ويذل.

وقوله تعالى: { وَلَهُ لِمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } .

فقوله { وَلَهُ لِمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ } معناه أن له الوصف الأكمل، الذي هو أعظم الأوصاف، وأكملها وأجلها في السماوات والأرض.

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن الله يقول: العظمة إزاري والكبرياء، ردائي فمن نازعني في واحد منهما أسكنته ناري».

تم بحمد الله تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

{ حم * تنزيل * لكتاب من الله لعزير الحكيم * ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ولذين كفروا عما أهدوا معرضون * قل رأيتم ما تدعون من دون الله أروني ما إذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات إني لئن يكتب من قبل هداً أو أتترة من علم إن كنتم صديقين * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعائهم غفلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين * وإذا نزل عليهم آياتنا بينت قال لذين كفروا للحق لما جاءهم هداً سحر مبين * أم يقولون فتراه قل إن فتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو لغفور الرحيم * قل ما كنت يدعياً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين }

قوله تعالى: { حم تنزيل لكتاب من الله لعزير الحكيم }. قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة. في أول سورة هود، وقدما الكلام على قوله تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم في أول سورة الزمر. قوله تعالى: { ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى }. صيغة الجمع في قوله: خلقنا للتعظيم.

وقوله: إلا بالحق أي خلقاً متلبساً بالحق.

والحق ضد الباطل، ومعنى كون خلقه للسموات والأرض متلبساً بالحق أنه خلقهما لحكم باهرة، ولم يخلقهما باطلاً، ولا عبثاً، ولا لعباً، فمن الحق الذي كان خلقهما متلبساً به، إقامة البرهان، على أنه هو الواحد المعبود وحده جل وعلا، كما أوضح ذلك في آيات كثيرة لا تكاد تحصى في المصحف الكريم كقوله تعالى في البقرة { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } ثم أقام البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله بعده: { إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِطَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِلْفِكَ لَيْلِي نَجْرِي فِي بَحْرٍ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

فتلبس خلقه للسموات والأرض بالحق واضح جداً، من قوله تعالى: { إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِطَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِلْفِكَ لَيْلِي نَجْرِي فِي بَحْرٍ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }.

معنى لا إله إلا الله هو أعظم الحق: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُبدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } { لَذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرِاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }، لأن قوله: { عُبدُوا رَبَّكُمْ } فيه معنى الإثبات من لا إله إلا الله.

وقوله { فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } يتضمن معنى النفي منها على أكمل وجه وأتمه.

وقد أقام الله جل وعلا البرهان القاطع، على صحة معنى لا إله إلا الله، نفيًا وإثباتًا، بخلقه للسموات والأرض، وما بينهما في قوله { لِذِي خَلَقَكُمْ وَ لَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ لِذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً } .
وبذلك تعلم أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بأعظم الحق، الذي هو إقامة البرهان القاطع، على توحيد جلاله وعلا، ومن كثرة الآيات القرآنية، الدالة على إقامة هذا البرهان، القاطع المذكور، على توحيد جلاله وعلا، علم من استقراء القرآن، أن العلامة الفارقة من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، هي كونه خالقًا لغيره، فمن كان خالقًا لغيره، فهو المعبود بحق، ومن كان لا يقدر على خلق شيء، فهو مخلوق محتاج، لا يصح أن يعبد بحال.

فالآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا كقوله تعالى في البقرة المذكورة آنفًا: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُبدُوا رَبَّكُمْ لِذِي خَلَقَكُمْ وَ لَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } .
فقوله: { لِذِي خَلَقَكُمْ } يدل على أن المعبود هو الخالق وحده، وقوله تعالى: { أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ لِخَلْقِ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } . يعني وخالق كل شيء هو المعبود وحده.

وقد أوضح تعالى هذا في سورة النحل، لأنه تعالى لما ذكر فيها إبراهيم القاطعة، على توحيد جلاله وعلا، في قوله { خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } إلى قوله { وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالتَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ } أتبع ذلك بقوله { أَقَمْنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَقَلَّا تَذَكَّرُونَ } .

وذلك واضح جدًا في أن من يخلق غيره هو المعبود وأن من لا يخلق شيئًا لا يصح أن يعبد.

ولهذا قال تعالى بعده قريباً منه { وَ لَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ } . وقال تعالى في الأعراف { أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ } . وقال تعالى في الحج { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبْ مَثَلٌ وَ سَلِّمْ عُوا لَهُ إِنَّ لَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَ لَوْ جُمِعُوا لَهُ } أي ومن لم يقدر أن يخلق شيئًا لا يصح أن يكون معبوداً بحال وقال تعالى: { سَبِّحْ سُبْحَانَ رَبِّكَ الْأَعْلَى لِذِي خَلَقَ فَسَوَى } .

ولما بين تعالى في أول سورة الفرقان، صفات من يستحق أن يعبد، ومن لا يستحق ذلك.

قال في صفات من يستحق العبادة: { لِذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لَمْ يَخْذُ وَ لَدّاً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا } .
وقال في صفات من لا يصح أن يعبد { وَ لَّحَدُّوا مِنْ دُونِهِ ءِالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ } .

والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا وكل تلك الآيات تدل دلالة واضحة على أنه تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا خلقًا متلبسًا بالحق.
وقد بين جلاله وعلا أن من الحق الذي خلق السموات والأرض وبينهما، خلقًا متلبسًا به، تعليمه خلقه أنه تعالى على كل شيء قدير، وأنه قد أحاط بكل

شيء علماء، وذلك في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

فلام التعليل في قوله: لتعلموا متعلقة بقوله {خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ} وبه تعلم أنه ما خلق السماوات السبع، والأرضين السبع، وجعل الأمر يتنزل بينهما، إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ومن الحق الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقاً متلبساً به، هو تكليف الخلق، وابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، ثم جزأؤهم على أعمالهم، كما قال تعالى في أول سورة هود: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ لِمَاءٍ لِيَبْلُوكُم بِمَا كُنتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

فلام التعليل في قوله: ليبلوكم متعلقة بقوله {خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ} وبه تعلم أنه ما خلقهما إلا خلقاً متلبساً بالحق.

ونظير ذلك قوله تعالى في أول الكهف {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}. وقوله تعالى في أول الملك: { الَّذِي خَلَقَ لِمَوْتٍ وَ لِحَيَاةٍ لِيَبْلُوكُمْ بِمَا كُنتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

ومما يوضح أنه ما خلق السماوات والأرض إلا خلقاً متلبساً بالحق، قوله تعالى في آخر الذاريات {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أريدُ مِنْهُمْ مِّن رَّزْقٍ وَمَا أريدُ أَنْ يُطِيعُونِ}.

سواء قلنا: إن معنى إلا ليعبدون أي لآمرهم بعبادتي فيعبدني السعداء منهم، لأن عبادتهم يحصل بها تعظيم الله وطاعته، والخضوع له كما قال تعالى: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ}. وقال تعالى: {فَإِن سَأَلْتَهُمْ لَظُنُوبَهُمْ قَالُوا لَنْ نَبْرَأَ لَكَ بِهَا آلِ لَيْلٍ وَنَحْنُ بِهَا بِسَاطِمُونَ} أو قلنا: إن معنى إلا ليعبدون أي إلا ليقروا لي بالعبودية، ويخضعوا ويزعقوا لعظمتي، لأن المؤمنين يفعلون ذلك طوعاً، والكفار يذعنون لقهرة وسلطانه تعالى كرهاً.

ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف لا تتم إلا بالجزاء على الأعمال.

وقد بين تعالى أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض خلقاً متلبساً به، جزاء للناس بأعمالهم، كقوله تعالى في النجم {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}. فقوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} أي هو خالقها ومن فيها {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا}.

ويوضح ذلك قوله تعالى في يونس {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}.

ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هددهم بالويل من النار، بسبب ذلك الظن السيئ، في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطِلاًّ ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}.

وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثاً، لا لتكليف وحساب وجزاء، وأنكر ذلك على من ظن به، في قوله تعالى {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}. فقوله (فتعالى الله) أي تنزهه وتعاضم، وتقدس، عن أن يكون خلقهم لا لحكمة تكليف وبعث، وحساب وجزاء.

وهذا الذي نزه تعالى عنه نفسه، نزهه عنه أولو الألباب، كما قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتَلِفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ لِيَذْكُرُوا لِلَّهِ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} إلى قوله: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فقوله عنهم {سُبْحَانَكَ} أي تنزيهاً لك، عن أن تكون خلقت هذا الخلق، باطلاً لا لحكمة تكليف، وبعث وحساب وجزاء. وقوله جل وعلا في آية الأحقاف هذه: {مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}، يفهم منه أنه لم يخلق ذلك باطلاً، ولا لعباً ولا عبثاً. وهذا المفهوم جاء موضعاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا}، وقوله تعالى: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا}، وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَمَا خَلَقْتُهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ}.

وقوله تعالى في آية الأحقاف هذه {وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} معطوف على قوله: {بِالْحَقِّ} أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا خلقاً متلبساً بالحق، وبتقدير أجل مسعى، أي وقت معين محدد ينتهي إليه أمد السماوات والأرض، وهو يوم القيامة كما صرح الله بذلك في أخريات الحجر في قوله تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ}، فقوله في الحجر: {وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ} بعد قوله {إِلَّا بِالْحَقِّ} يوضح معنى قوله في الأحقاف {إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى}.

وقد بين تعالى في آيات من كتابه أن للسماوات والأرض أمداً ينتهي إليه أمرهما. كما قال تعالى: {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}. وقال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}. وقوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ} وقوله: {وَإِذَا السَّمَاءُ كُثِطَتْ} وقوله تعالى {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ}. إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَ لِيذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ}. ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أن الكفار معرضون عما أنذرتهم به الرسل جاء موضعاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في البقرة: {إِنَّ لِيذِينَ كَفَرُوا سَوَاءً عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} وقوله في سورة هود: {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والإعراض عن الشيء الصدود عنه. وعدم الإقبال إليه. قال بعض العلماء: وأصله من العرض بالضم. وهو الجانب. لأن المعرض عن الشيء يوليه بجانب عنقه. صاداً عنه. والإنذار: الإعلام المقترن بتهديد. فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً.

وقد أوضحنا معاني الإنذار في أول سورة الأعراف. {وَمَا} في قوله {عَمَّا أَنْذَرُوا} قال بعض العلماء هي موصولة. والعائد محذوف، أي الذين كفروا معرضون عن الذي أنذروه. أي خوفه من عذاب يوم القيامة. وحذف العائد المنصوب بفعل أو وصف مضطرد كما هو معلوم. وقال بعض العلماء: هي مصدرية. أي والذين كفروا معرضون عن الإنذار، ولكليهما وجه. قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَلْيُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}. قد ذكرنا قريباً أن قوله: {مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} يتضمن البرهان القاطع على صحة معنى لا إله إلا الله. وأن العلامة الفارقة بين المعبود بحق. وبين غيره هي كونه خالقاً. وأول سورة الأحقاف هذه يزيد ذلك إيضاحاً. لأنه ذكر من صفات المعبود بحق أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق. وذكر من المعبودات الأخرى التي عبادتها كفر. مخلد في النار أنها لا تخلق شيئاً. فقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} أي هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله. أروني ماذا خلقوا من الأرض. فقوله: أروني. يراد بها التعجيز والمبالغة في عدم خلقهم شيئاً. وعلى أن {مَا} استفهامية. {وَدَا} موصولة.

فالمعنى أروني ما الذي خلقوه من الأرض. وعلى أن {مَا} و {دَا} بمنزلة كلمة واحدة يراد بها الاستفهام.

فالمعنى: أروني أي شيء خلقوه من الأرض؟

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من لم يخلق شيئاً في الأرض ولم يكن له شرك في السماوات. لا يصح أن يكون معبوداً بحال جاء موضحاً في آيات كثيرة. كقوله تعالى في فاطر {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا}. وقوله في لقمان: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} وقوله في سبأ {قُلِ لِّذِينَ رَعَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقد قدمنا طرفاً منها قريباً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {أَلْيُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا}، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ}. قوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الجاثية في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءً}. وفي سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}. قوله تعالى: {وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قَالِ لَّذِينَ كَفَرُوا لِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا قرئت عليهم آيات هذا القرآن العظيم الذي هو الحق ادعوا أنها سحر مبين واضح. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من افتراءهم على القرآن أنه سحر وعلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه ساحر جاء موضحاً في آيات كثيرة. كقوله تعالى في سبأ { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } . وقوله تعالى في الزخرف { وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ } . وقوله تعالى: { مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهَيَّ قُلُوبُهُمْ } إلى قوله { أَفَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ } . وقوله تعالى: { وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَّرْعُوثُونَ مِّن بَعْدِ لَمَوتٍ لِّيقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } .

والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: { أَمْ يَقُولُونَ قُتِرَاهُ قُلْ إِنْ قُتِرْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } . أم هذه هي المنقطعة وقد قدمنا أنها تأتي بمعنى الإضراب.

وتأتي بمعنى همزة الإنكار.

وتأتي بمعناها معاً وهو الظاهر في هذه الآية الكريمة.

فأم فيها على ذلك تفيد معنى الإضراب والإنكار معاً، فهو بمعنى دع هذا، واسمع قولهم المستنكر لظهور كذبهم فيه، أن محمداً افترى هذا القرآن، وقد كذبهم الله في هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله تعالى { لِمَ يَقُولُونَ قُتِرَاهُ قُلْ قَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ } . وقوله { أَمْ يَقُولُونَ قُتِرَاهُ قُلْ قَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ } : وقوله تعالى { وَمَا كَانَ هَذَا لِقُرءَانٍ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } ، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { قُلْ إِنْ قُتِرْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } أي إن كنت افتريت هذا القرآن على سبيل الفرض.

والتقدير: عاجلني الله بعقوبته الشديدة، وأنتم لا تملكون لي منه شيئاً، أي لا تقدرُونَ أن تدفعوا عني عذابه إن أراد أن يعذبني على الافتراء.

فكيف أفتريه لكم، وأنتم لا تقدرُونَ على دفع عذاب الله عني؟

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لَقَطَعْنَا مِنْهُ لَوْتِيَنَفَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } .

فقوله تعالى في آية الحاقة هذه: { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ } كقوله في آية الأحقاف { قُلْ إِنْ قُتِرْتُهُ } .

وقوله في الحاقة: { قَمًا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } يوضح معنى قوله:

{ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } ، لأن معنى قوله: { قَمًا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } ، أنهم لا يقدرُونَ على أن يحجزوا عنه أي يدفعوا عنه عقاب الله له بالقتل، لو تقول عليه بعض الأقاويل.

وذلك هو معنى قوله: { فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } أي لا تقدرُونَ على دفع عذابه عني.

ونظير ذلك في المعنى قوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ لَمَسِيحَ ابْنِ مَرْيَمَ وَآمَهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} وقوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}.

وما تضمنته آية الأحقاف هذه وآية الحاقة المبينة لها من أنه لو افتري على الله أو تقول عليه عاجله بالعذاب، وأنه لا يقدر أحد على دفعه عنه. جاء معناه في بعض الآيات. كقوله تعالى في يونس: {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِيَّاكَ بَقَرَاءٌ نَقَرْتَ عَضَّاءَهُنَّ أَوْ بَدَّلَهُمْ أَبْدَانَهُمْ لِمَا بَدَّلَهُمْ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسٍ إِنْ أُتْبِعَ إِلَّا مَا يُوجِبُ إِلَيْكَ الْإِحْخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي إني أخاف إن عصيت ربي بالافتراء عليه بتبديل قرانه أو الإتيان بقران غيره. عذاب يوم عظيم.

وذكر الله تعالى مثل هذا عن بعض الرسل في آيات أخر كقوله عن صالح {قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْتُ مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ}. وقوله تعالى عن نوح: {وَيَقَوْمٍ مِّن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ}. قوله تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ}. الأظهر في قوله {بدعاً} أنه فعل بمعنى المفعول فهو بمعنى مبتدع، والمبتدع هو الذي أبدع على غير مثال سابق.

ومعنى الآية قل لهم يا نبي الله: ما كنت أول رسول أرسل إلي البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إياها، لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}.

وقوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}. وقوله تعالى {حَمَلْنَاكَ كَذَلِكَ بِيُوحِ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقوله تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}. وقوله تعالى:

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ}. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَآوَدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا}، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}. التحقيق إن شاء الله، أن معنى الآية الكريمة، ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في دار الدنيا، فما أدري ما يخرج من مسقط رأسي أو أقتل كما فعل ببعض الأنبياء.

وما أدري ما ينالني من الحوادث والأمور في تحمل أعباء الرسالة.

وما أدري ما يفعل بكم أيخسف بكم، أو تنزل عليكم حجارة من السماء، ونحو ذلك.

وهذا هو اختيار ابن جرير وغير واحد من المحققين.

وهذا المعنى في هذه الآية دلت عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ لَعَيَّبْتُ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِن لَّخَيْرٍ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}. وقوله تعالى أمراً له صلى الله عليه وسلم: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ لَعَيَّبْتُ}.

وبهذا تعلم أن ما يروى عن ابن عباس وأنس وغيرهما من أن المراد، {وَمَا أَدْرَى مَا يُفَعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} أي في الآخرة فهو خلاف التحقيق، كما سترى إيضاحه إن شاء الله.

فقد روي عن ابن عباس وأنس وقتادة والضحاك وعكرمة والحسن في أحد قوليه أنه لما نزل قوله تعالى: {وَمَا أَدْرَى مَا يُفَعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} فرح المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا بنا وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله، من عند نفسه، لأخبره الذي بعث به بما يفعل به.

فنزلت {لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} فنسخت هذه الآية. وقالت الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، لقد بين لك الله ما يفعل بك فليت شعربا هو ما فاعل بنا.

فنزلت {لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، ونزلت: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً}.

فالظاهر أن هذا كله خلاف التحقيق، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجهل مصيره يوم القيامة لعصمته صلوات الله وسلامه عليه: وقد قال له الله تعالى {وَلَا آخِرَهُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَوَّلِسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} وأن قوله: {وَمَا أَدْرَى مَا يُفَعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ} في أمور الدنيا كما قدمنا. فإن قيل: قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أم العلاء الأنصارية ما يدل على أن قوله: {وَمَا يُفَعَلُ بِي} أي في الآخرة فإن حديثها في قصة وفاة عثمان بن مظعون رضي الله عنه عندهم، ودخول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، أنها قالت: رحمة الله عليك، أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل تعني عثمان بن مظعون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» الحديث.

فالجواب هو ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله، فقد قال في تفسير هذه الآية الكريمة، بعد أن ساق حديث أم العلاء المذكور بالسند الذي رواه به أحمد رحمه الله انفراداً به البخاري دون مسلم، وفي لفظ له «ما أدري وأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفعل به»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزنتني ذلك أهـ. محل الغرض منه وهو الصواب إن شاء الله، والعلم عند الله تعالى.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَبَشَّهَدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ عَلَيْهِ فَآمَنُوا وَبِئْسَ كِبَرُتُمْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَهِيَ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُّوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ * إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا جَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ

بِسْمَةِ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وُلْدِيَّ وَأَنْ
 أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دِينِي النَّاسِي وَأَلْتَمِئَ لِي مِنْ أُمَّةٍ مَرْضِيَّةٍ
 * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ
 لِحَابِهِمْ وَعَدَّ الصَّادِقُ لِذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَ لِذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ أَنْتَعِدَانِي
 أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ مِنَ الْفُرُوجِ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ إِلَهًا وَبَلَكَ عَامِنِ إِنْ وَعَدَ
 اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأُولِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ
 فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ
 دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقَفِيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ}. جواب الشرط في هذه الآية محذوف.

وأظهر الأقوال في تقديره إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتكم به، ووجدتموه فأنتم ضلال ظالمون. ويكون جزاء الشرط في هذه الآية كونهم ضالين ظالمين بينه قوله تعالى في آخر فصلت: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ}، وقوله في آية الأحقاف هذه {قَامَنَ وَ سَتَّكَبَرْتُمْ إِنْ أَلَلَّ لَا يَهْدِي لِقَوْمَ الظَّالِمِينَ}. وقال أبو حيان في البحر: مفعولاً أرايتم محذوفان لدلالة المعنى عليهما. والتقدير: أرايتم حالكم، إن كان كذا أستم ظالمين. فالأول حالكم، والثاني أستم ظالمين، وجواب الشرط محذوف أي فقد ظلمتم.

ولذلك جاء فعل الشرط ماضياً.

وبعض العلماء يقول: إن {أَرَأَيْتُمْ} بمعنى أخبروني. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ}. التحقيق: إن شاء الله، أن هذه الآية الكريمة جارية على أسلوب عربي معروف، وهو إطلاق المثل، على الذات نفسها، كقولهم: مثلك، لا يفعل هذا، يعنون لا ينبغي لك أنت أن تفعله.

وعلى هذا فالمعنى، وشهد شاهد من بني إسرائيل على أن هذا القرآن، وحي منزل حقاً من عند الله، لا أنه شهد على شيء آخر مماثل له.

ولذا قال تعالى {قَامَنَ وَ سَتَّكَبَرْتُمْ}.

ويمما يوضح هذا، تكرر إطلاق المثل في القرآن مراداً به الذات كقوله تعالى {أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ}.

فقوله: كمن مثله في الظلمات، أي كمن هو نفسه في الظلمات، وقوله تعالى {قَائِنٌ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ هْتَدَوْا} أي فإن آمنوا بما آمنتم به لا بشيء آخر مماثل له على التحقيق.

ويستأنس له بالقراءة المروية عن ابن عباس وابن مسعود {قَائِنٌ ءَامَنُوا بِمَا بِهِ ءَالِنٌ} الآية.

القول بأن لفظة ما في الآية مصدرية، وأن المراد تشبيه الإيمان بالإيمان، أي فإن آمنوا بإيمان مثل إيمانكم فقد اهتدوا لا يخفى بعده.

والشاهد في الآية هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه كما قال الجمهور،
وعليه فهذه الآية مدنية في سورة مكية.

وقيل: إن الشاهد موسى بن عمران عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقيل
غير ذلك. قوله تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا
سَبَقُونَا إِلَيْهِ }. أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة، أن الكافرين الذين
قالوا للمؤمنين لو كان خيراً ما سبقونا إليه، أنهم كفار مكة، وأن مرادهم أن
فقراء المسلمين، وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم، أحقر
عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير.

وأنتهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير
لزعيمهم أن الله أكرمهم في الدنيا بالمال والجاه، وأن أولئك الفقراء لا مال
لهم ولا جاه، وأن ذلك التفضيل في الدنيا يستلزم التفضيل في الآخرة.
وهذا المعنى الذي استظهرناه في هذه الآية الكريمة تدل له آيات كثيرة من
كتاب الله، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

أما ادعائهم أن ما أعطوا من المال، والأولاد والجاه، في الدنيا دليل على أنهم
سيعطون مثله في الآخرة، وتكذيب الله لهم في ذلك، فقد جاء موضحاً في
آيات كثيرة كقوله تعالى { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِي وَسَارِعُ لَهُمْ
فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ }، وقوله تعالى { أَفَرَأَيْتَ لِيذِي كَفَرَ يَا أَيَّتَا وَقَالَ
لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ لَغَيْبٍ أَمْ لِيُحَدِّدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَتَكُنُّ مِمَّا يَقُولُ
وَتَمُدُّ لَهُ مِنْ لَعْدَابٍ مَدًّا }. وقوله تعالى { وَقَالُوا تَحْرِي كَثْرًا أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا
تَحْرِي بِمُعَذِّبِينَ } مع قوله { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِلِي تَقْرَبُكُمْ عِنْدَنَا
زُلْفَى }. وقوله تعالى: { وَلَئِن رَّجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ }.

وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة الكهف في الكلام على قوله
تعالى: { وَلَئِن رَّجَعْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا }.

وأما احتقار الكفار لضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وزعمهم أنهم أحقر عند الله،
من أن يصيبهم بخير، وإنما هم عليه لو كان خيراً لسبقهم إليه أصحاب الغنى،
والجاه والولد، من الكفار فقد دلت عليه آيات أخر كقوله تعالى في الأنعام:
{ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا }.

فهزمة الإنكار في قوله: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، تدل على إنكارهم أن
الله يمن على أولئك الضعفاء بخير.

وقد رد الله عليهم بقوله { أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا قُلْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ }. وقوله تعالى في الأعراف: { وَتَادِي
أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رَجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا
كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَفْسَمْتُمْ لَا يَتَالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ لَّا يُلْجَأُوا لِحَنَّتِهِ
لَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ } وقوله تعالى في حر { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ
رَجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْتَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ }.

فقد قال غير واحد: إن الرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار هم ضعفاء
المسلمين الذين كانوا يسخرون منهم في دار الدنيا ويزعمون أنهم أحقر من
أن ينالهم الله بخير ويدل له قوله { أَتَّخَذْتَهُمْ سِحْرِيًّا } وسيسخر ضعفاء

المسلمين في الجنة من الكفار الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا وهم في النار، كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَهَا مَرًّا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ} إلى قوله تعالى {وَلْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَهُمْ} الآية ينظرونهم ينظرونهم نوب الكفار ما كانوا يفعلون}. وقوله تعالى {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِحَيَاتِهِمُ الْآيَاتِ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ تَقَوَّأْ قُوقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}. قوله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا}. قد

قدمنا الآيات الموضحة في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى {لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} وفي سورة الزمير في الكلام على قوله تعالى: {فُزَّأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ}. قوله تعالى: {لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَ الْمُحْسِنِينَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له مع بيان أنواع الإنذار في القرآن في أول سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {قَلَّا يَكُن فِي صَدْرِكَ جَرْحٌ مِّمَّهٖ لِيُنذِرَ بِهِ}. وفي أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

قد قدمنا الكلام عليه في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ}. قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا}. قرأ هذا الحرف، نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو {حَسَنًا} بضم الحاء وسكون السين، وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي: إحساناً بهمزة مكسورة وإسكان الحاء وألف بعد السين.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا رَجُلًا أَن تَعْبُدَ إِلَّا إِلَهًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} وقال أبو حيان في البحر:

قيل ضمن {وَوَصَّيْنَا} معنى ألزمتنا فيتعدى لاثنين فانتصب حسناً وإحساناً على المفعول الثاني لوصينا.

وقيل: التقدير إيذاء ذا حسن أو ذا إحسان ويجوز أن يكون حسناً بمعنى إحسان فيكون مفعولاً له، أي ووصيناها بها لإحساننا إليهما فيكون الإحسان من الله تعالى.

وقيل: النصب على المصدر على تضمين معنى أحسنا بالوصية للإنسان بوالديه إحساناً أه منه، وكلها له وجه. قوله تعالى: {حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا}. قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر: {كُرْهًا} بفتح الكاف في الموضعين.

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي، وابن ذكوان، عن ابن عامر: {كُرْهًا} بضم الكاف في الموضعين.

وهما لغتان كالضعف والضعف.

ومعنى حملته {كُرْهًا} أنها في حال حملها به تلاقي مشقة شديدة. ومن المعلوم ما تلاقيه الحامل، من المشقة والضعف، إذا أثقلت وكبر الجنين في بطنها.

ومعنى وضعته كرهاً: أنها في حالة وضع الولد، تلاقي من ألم الطلق، وكرهه مشقة شديدة، كما هو معلوم.

وهذه المشاق العظيمة التي تلاقيها الأم في حمل الولد ووضعه، لا شك أنها يعظم حقها بها، وبتحتم برها، والإحسان إليها كما لا يخفى.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من المشقة التي تعانيتها الحامل، ودلت عليه آية أخرى، وهي قوله تعالى في لقمان: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} أي تهن به وهناً على وهن أي ضعفاً على ضعف، لأن الحمل كلما تزايد وعظم في بطنها، ازدادت ضعفاً على ضعف.

وقوله في آية الأحقاف هذه كرهاً في الموضعين مصدر منكر وهو حال أي حملته ذات كره ووضعت ذات كره، وإتيان المصدر المنكر حالاً كثير كما أشار له في الخلاصة بقوله: ومصدر منكر حالاً يقع بكثرة كبغته زيد طلع

وقال بعضهم: كرهاً في الموضعين نعت لمصدر، أي حملته حملاً ذا كره، ووضعت وضعاً ذا كره، والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}. هذه الآية الكريمة، ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل، لأن هذه الآية الكريمة، من سورة الأحقاف، صرحت بأن أمد الحمل والفصال معاً، ثلاثون شهراً.

وقوله تعالى في لقمان: {وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}. وقوله في البقرة {وَأُولَادٌ يُرَضَعُونَ أَولَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} يبين أن أمد الفصال عامان وهما أربعة وعشرون شهراً، فإذا طرحتها من الثلاثين بقيت ستة أشهر، فتعين كونها أمداً للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين العلماء.

ودلالة هذه الآيات على أن ستة أشهر أمد للحمل هي المعروفة عند علماء الأصول بدلالة الإشارة.

وقد أوضحنا الكلام عليها، في مباحث الحج، في سورة الحج، في مبحث أقوال أهل العلم، في حكم المبيت بمزدلفة، وأشرنا لهذا النوع، من البيان في ترجمة هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}، وفي ترجمة هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: {وَأَلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ إِفِّ لَكُمْمَا اتَّعَدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتْ لِقُرُونٍ مِنْ قَبْلِي وَهَمَّ يَسْتَعِينُ اللَّهُ وَيَلِكْ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأُولِيْنَاوَلَيْكَ لِيذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ لِقَوْلُ}. التحقيق إن شاء الله أن، {لِيذِي} في قوله: {وَأَلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ} بمعنى الذين، وأن الآية عامة في كل عاق لوالديه مكذب بالبحث.

والدليل من القرآن على أن الذي، بمعنى الذين، وأن المراد به العموم، أن {لِيذِي} في قوله: {وَأَلَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ} مبتداً خبره قوله تعالى: {أُولَئِكَ لِيذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ لِقَوْلُ}.

والإخبار عن لفظة الذي في قوله {أُولَئِكَ لِيذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ} القول بصيغة الجمع، صريح في أن المراد بالذي، العموم لا الأفراد. وخير ما يفسر به

القرآن القرآن. وبهذا الدليل القرآني تعلم أن قول من قال في هذه الآية الكريمة أنها نازلة في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ليس بصحيح، كما جازمت عائشة رضي الله عنها ببطلانه. وفي نفس آية الأحقاف هذه دليل آخر واضح على بطلانه، وهو أن الله صرح بأن الذين قالوا تلك المقالة حق عليهم القول، وهو قوله {وَلَكِنْ حَقَّ لِقَوْلٍ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِن لَّجِنَّةٍ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}. ومعلوم أن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم وحسن إسلامه، وهو من خيار المسلمين وأفاضل الصحابة، رضي الله عنهم. وغاية ما في هذه الآية الكريمة هو إطلاق الذي وإرادة الذين، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب، لأن لفظ الذي مفرد ومعناها عام لكل ما تشمله صلتها، وقد تقرر في علم الأصول أن الموصولات كالذي والتي وفروعها من صيغ العموم، كما أشار له في مراقي السعود بقوله: صيغة كل أو الجميع وقد تلا الذي التي الفروع

فمن إطلاق الذي وإرادة الذين في القرآن، هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف. وقوله تعالى في سورة البقرة: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا}. أي كمثل الذين استوقدوا بدليل قوله {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ} بصيغة الجمع في الضمائر الثلاثة التي هي {بِنُورِهِمْ} {وَتَرَكَهُمْ}، والواو في {لَا يُبْصِرُونَ} وقوله تعالى في البقرة أيضاً: {كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ} أي كالذين ينفقون بدليل قوله {لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا}. وقوله في الزمر: {وَ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وقوله في التوبة {وَخُصُّمٌ كَالَّذِي خَاصًّا} أي كالذين خاضوا بناء على أنها موصولة لا مصدرية، ونظير ذلك من كلام العرب قول أشهب بن رميلة: فإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

وقول عدیل بن الفرخ العجلي: وبت أساقي القوم إخوتي الذي غوايتهم غيبي ورشدهم رشدي

وقول الراجز: يا رب عبس لا تبارك في أحد في قائم منهم ولا في من قعد * إلا الذي قاموا بإطراف المسد * وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَفْ لَكُمْ} كلمة تضجر. وقائل ذلك عاق لوالديه غير مجتنبٍ نهى الله في قوله: {إِذَا مَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ}. وقوله {أَتَعْدَانِي}: فعل مضارع وعد، وحذف واوه في المضارع مطرد، كما ذكره في الخلاصة بقوله: فأمر أو مضارع من كوعد أحذف وفي كعدة ذاك اطرد

والنون الأولى نون الرفع، والثانية نون الوقاية كما لا يخفى.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي: أتعداني بنونين مكسورتين مخففتين وبياء ساكنة. وقرأه هشام عن ابن عامر بنون مشددة مكسورة وبياء ساكنة. وقرأه نافع وابن كثير بنونين مكسورتين مخففتين وبياء مفتوحة، والهمزة للإنكار.

وقوله {أَنْ أُخْرَجَ} أي أبعث من قبري حياً بعد الموت. والمصدر المنسب من أن وصلتها هو المفعول الثاني لتعداني يعني أتعداني الخروج من قبري حياً بعد الموت، والحال قد مضت القرون أي هلكت الأمم الأولى، ولم يحيي منهم أحد، ولم يرجع بعد أن مات. وهما أي والداه يستغيثان الله أي يطلبانه أن يغثهما بأن يهدي ولدتهما إلى الحق والإقرار بالبعث، ويقولان لولدتهما: ويلك أمن. أي بالله وبالبعث بعد الموت.

والمراد بقولهما ويلك: حثه على الإيمان إن وعد الله حق، أي وعده بالبعث بعد الموت حق لا شك فيه، فيقول ذلك الولد العاق المنيك للبعث: {مَا هَذَا} إن الذي تعداني إياه من البعث بعد الموت، {إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ}. والأساطير جمع أسطورة. وقيل جمع إسطورة، ومراده بها ما سطره الأولون، أي كتبه من الأشياء التي لا حقيقة لها.

وقوله {أُولَئِكَ} ترجع الإشارة فيه إلى العاقين المكذبين، بالبعث المذكورين في قوله: {وَإِذَى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ}. وقوله: {حَقَّ عَلَيْهِمْ لَقَوْلٌ} أي وجبت عليهم كلمة العذاب.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة س، في الكلام على قوله تعالى {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلٍ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن منكري البعث يحق عليهم القول لكفرهم، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى {وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا}.

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَسَتَمْتَعْتُمْ بِهَا وَيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ أَلِيمٍ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ * وَكُفِرُوا إِذَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ بِالْحَقِّ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِمَّنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُؤُوا إِلَّا اللَّهُ يُرِئِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ أَدَّبْتُمْ لِنَافِكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّمَا تَعْبُدُونَ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَبْلَغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنَّ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا سَتَعَلَّجْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ يَجْزَىٰ لِقَوْمٍ لِّمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَجَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا جَوْلَكُمْ مِّنْ لِّقْرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمْ لَّذِينَ لَّجَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَرَبَّنَا آئِلِهَةَ بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ تَفْرًا مِّنْ

لِحِرٍّ يَسْتَمِعُونَ لِقُرْءَانٍ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن دُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّكُم مِّن عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيَّرْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ لَمْوَاتِي بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ قَدُوفُوا لِعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَطَبَّرَ كَمَا صَبَّرَ أُولُوا لِعِزْمٍ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلَوْا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا لِقَوْمٍ لِّفْسُقُونَ}

قوله تعالى: { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ قَدُوفُوا لِعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } في الأرض يعرّض لِحق وبما كنتم تفسقون } .
 معنى الآية الكريمة أنه يقال للكفار يوم يعرضون على النار: { أَدَهَبْتُمْ طَبَّيْتِكُمْ } .

فقوله يعرضون على النار: قال بعض العلماء: معناه يباشرون حرها كقول العرب: عرضهم على السيف إذا قتلهم به، وهو معنى معروف في كلام العرب.

وقد ذكر تعالى مثل ما ذكر هنا في قوله: { وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ } وهذا يدل علي أن المراد بالعرض مباشرة العذاب لقوله: { قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ قَدُوفُوا لِعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } . وقوله تعالى: { وَحَاقَ بِالِالِ فِرْعَوْنَ نُوءُ لِعَدَايَالنَّارِ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا } لأنه عرض عذاب.

وقال بعض العلماء: معنى عرضهم على النار هو تقريبهم منها، والكشف لهم عنها، حتى يروها كما قال تعالى: { وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ } . وقال تعالى: { وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ } .

وقال بعض العلماء: في الكلام قلب، وهو مروى عن ابن عباس وغيره. قالوا: والمعنى ويوم تعرض النار على الذين كفروا قالوا وهو كقول العرب: عرضت الناقة على الحوض. يعنون عرضت الحوض على الناقة، ويدل لهذا قوله تعالى: { وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا } . قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

هذا النوع الذي ذكره من القلب في الآية، كقلب الفاعل مفعولاً، والمفعول فاعلاً، ونحو ذلك اختلف فيه علماء العربية، فمنعه البلاغيون إلا في التشبيه، فأجازوا قلب المشبه مشبهاً به والمشبه به مشبهاً بشرط أن يتضمن ذلك نكته وسراً لطيفاً كما هو المعروف عندهم في مبحث التشبيه المقلوب. وأجازه كثير من علماء العربية.

والذي يظهر لنا أنه أسلوب عربي نطقت به العرب في لغتها، إلا أنه يحفظ ما سمع منه، ولا يقاس عليه ومن أمثله في التشبيه قول الراجز:

ومنهل مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه

أي كأن سماءه لون أرضه، وقول الآخر:
وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

لأن أصل المراد تشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح فقلب التشبيه ليوهم أن الفرع أقوى من الأصل في وجه الشبه.
قالوا ومن أمثلته في القرآن {وَأَتَيْنَاهُ مِنْ لَكُؤُورٍ مَّا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُؤَأُ بِرِئْصَةِ أُولَى لِقُؤُوةٍ}، لأن العصبة من الرجال هي التي تنوء بالمفاتيح أي تنهض بها بمشقة وجهه لكثرتها وثقلها، وقوله تعالى: {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ [الأنبياء] أي عموا عنها. ومن أمثلته في كلام العرب قول كعب بن زهير:
كأن أوب ذراعها إذا عرقت وقد تلعف بالقور العساقيل
لأن معنى قوله: تلعف لبس اللفاح وهو اللحاف، والقور الحجارة العظام، والعساقيل: السراب.
والكلام مقلوب، لأن القور هي التي تلتحف بالعساقيل لا العكس كما أوضحه لبيد في معلقته بقوله:
فتلك إذ رقص اللوامع بالضحي واجتاب أردية السراب إكامها

فصرح بأن الإكام التي هي الحجارة اجتابت أي ليست أردية السراب. والأردية جمع رداء، وهذا النوع من القلب وإن أجازه بعضهم فلا ينبغي حمل الآية عليه، لأنه خلاف الظاهر، ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه. وظاهر الآية جار على الأسلوب العربي الفصيح، كما أوضحه أبو حيان في البحر المحيط.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَ سَأْتُمْتَعْتُمْ بِهَا} قرأه ابن كثير وابن عامر {أأذهبتهم} بهمزتين وهما على أصولهما في ذلك.

فابن كثير يسهل الثانية بدون ألف إدخال بين الهمزتين. وهشام يحققها ويسهلها مع ألف الإدخال. وابن ذكوان يحققها من غير إدخال. وقرأه نافع وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ} بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام.

واعلم أن للعلماء كلاماً كثيراً في هذه الآية قائلين إنها تدل على أنه ينبغي التقشف والإقلال من التمتع بالماكل والمشارب والملابس ونحو ذلك. وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يفعل ذلك خوفاً منه، أن يدخل في عموم من يقال لهم يوم القيامة: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا}. والمفسرون يذكرون هنا أثراً كثيرة في ذلك، وأحوال أهل الصفة وما لاقوه من شدة العيش.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له:

التحقيق: إن شاء الله في معنى هذه الآية هو أنها في الكفار وليست في المؤمنين الذين يتمتعون باللذات التي أباحها الله لهم، لأنه تعالى ما أباحها لهم ليذهب بها حسناتهم.

وإنما قلنا: إن هذا هو التحقيق، لأن الكتاب والسنة الصحيحة دالان عليه والله تعالى يقول: { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ }.
أما كون الآية في الكفار فقد صرح الله تعالى به في قوله: { وَيَوْمَ يُعْرَضُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ }.

والقرآن والسنة الصحيحة، قد دلا على أن الكافر إن عمل عملاً صالحاً مطابقاً للشرع، مخلصاً فيه لله، كالكافر الذي يبر والديه، ويصل الرحم ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين المظلوم يتغي بذلك وجه الله يثاب بعمله في دار الدنيا خاصة بالرزق والعافية، ونحو ذلك ولا نصيب له في الآخرة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَمَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } وقوله تعالى: { وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَزْنَ الدُّنْيَا نُوْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ }.

وقد قيد تعالى هذا الثواب الدنيوي المذكور في الآيات بمشيئته وإرادته، في قوله تعالى: { مَّن كَانَ يُرِيدُ لِعَجَلَةٍ غَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَّذْحُورًا }.

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها» هذا لفظ مسلم في صحيحه.
وفي لفظ له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقاً في الدنيا على طاعته» اهـ.

فهذا الحديث الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه التصريح، بأن الكافر بخارى بحسناته في الدنيا فقط، وأن المؤمن يجازى بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، وبمقتضى ذلك. يتعين تعييناً لا محيص عنه، أن الذي أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها هو الكافر، لأنه لا يجزي بحسناته إلا في الدنيا خاصة.

وأما المؤمن الذي يجزي بحسناته في الدنيا والآخرة معاً، فلم يذهب طيباته في الدنيا، لأن حسناته مدخرة له في الآخرة مع أن الله تعالى يشبه بها في الدنيا كما قال تعالى: { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } فجعل المخرج من الضيق له ورزقه من حيث لا يحتسب ثوباً في الدنيا وليس ينقص أجر تقواه في الآخرة.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وعلى كل حال فالله جل وعلا أباح لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم الطيبات في الحياة الدنيا، وأجاز لهم التمتع بها، ومع ذلك جعلها خاصة بهم في الآخرة، كما قال تعالى: { قُلْ مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}.

فدل هذا النص القرآني أن تمتع المؤمنين بالزينة والطيبات من الرزق في الحياة الدنيا لم يمنعهم من اختصاصهم بالتنعم بذلك يوم القيامة، وهو صريح في أنهم لم يذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا.

ولا ينافي هذا أن من كان يعاني شدة الفقر في الدنيا كأصحاب الصفة، يكون لهم أجر زائد على ذلك، لأن المؤمنين يؤجرون، بما يصيبهم في الدنيا من المصائب والشدائد، كما هو معلوم.

والنصوص الدالة على أن الكافر هو الذي يذهب طيباته في الحياة الدنيا، لأنه يجزي في الدنيا فقط كآيات المذكورة، وحديث أنس المذكور عند مسلم، قد قدمناها موضحة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى:

{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} وذكرنا هناك أسانيد الحديث المذكور وألفاظه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَلْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ لَهُونٍ} أي عذاب الهوان وهو الذل والصغار.

وقوله تعالى: {بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} وبما كنتم تفسقون، الباء في قوله: بما كنتم سببية، وما مصدرية أي تجزون عذاب

الهون بسبب كونكم مستكبرين في الأرض، وكونكم فاسقين.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون الاستكبار في الأرض والفسق من أسباب عذاب الهون، وهو عذاب النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع

كقوله تعالى: {الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} وقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ}.

وقد قدمنا النتائج الوخيمة الناشئة عن التكبر في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا}.

وقوله تعالى: {بِغَيْرِ الْحَقِّ} مع أنه من المعلوم أنهم لا يستكبرون في الأرض إلا استكباراً متلبساً بغير الحق كقوله تعالى: {وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}

ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه، وقوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ لِكِتَابِ

بِأَيْدِيهِمْ}، ومعلوم أنهم لا يكتبونه إلا بأيديهم، ونحو ذلك من الآيات، وهو أسلوب عربي نزل به القرآن. قوله تعالى: {وَ لِكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ

بِالْأَخْقَافِ}. أبهم جل وعلا في هذه الآية الكريمة أخا عاد ولم يعينه ولكنه بين في آيات أخرى، أنه هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كقوله تعالى: {وَأِلَىٰ

عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا} في سورة الأعراف وسورة هود وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ} وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}. ذكر

جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن النبي هوداً نهى قومه أن يعبدوا غير الله، وأمرهم بعبادته تعالى وحده، وأنه خوفهم من عذاب الله، إن تمادوا في

شركهم به.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية جاء موضحين في آيات أخر.

أما الأول منهما ففي قوله تعالى: {وَاللّٰهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ} في سورة الأعراف وسورة هود ونحو ذلك من الآيات.

وأما خوفه عليهم العذاب العظيم فقد ذكره في الشعراء في قوله تعالى: {وَأَقْبُوا لَوْلَا أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ وَجْهَتَيْ وَعُيُونِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهو يوم القيامة. قوله تعالى: {قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَّا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}. ومعنى قوله تعالى: {عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَّا}، أي لتصرفنا عن عبادتها إلى عبادة الله وحده.

وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين: أحدهما: إنكار عاد على هود أنه جاءهم، لتركوا عبادة الأوثان، وعبدوا الله وحده.

والثاني: أنهم قالوا له: اتنا بما تعدنا من العذاب وعجله لنا إن كنت صادقاً فيما تقول، عناداً منهم وعتوا.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف {قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}. قوله تعالى: {وَأَبْلَغُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبي الله هوداً قال لقومه، إنه يبلغهم ما أرسل به إليهم، لأنه ليس عليه إلا البلاغ، وهذا المعنى جاء مذكوراً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في الأعراف: {قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ لَعَلَّمِيْنَ أَبْلَغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ تَاصِحٌ أَمِينٌ} وقوله تعالى في سورة هود: {إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ}. قوله تعالى: {بَلْ هُوَ مَا سَتَعَجَلْتُمْ بِهِ بَهِرِجٍ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ}. قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ}. لفظة {ءان} في هذه الآية الكريمة فيها للمفسرين ثلاثة أوجه، يدل استقراء القرآن، على أن واحداً منها هو الحق، دون الاثنين الآخرين.

قال بعض العلماء: إن شرطية وجزاء الشرط محذوف، والتقدير إن مكناكم فيه طغيتم وبغيتم. وقال بعضهم: إن زائدة بعد ما الموصولة حملاً لما الموصولة على ما النافية لأن ما النافية تزداد بعدها لفظة إن كما هو معلوم. كقول قتيلة بنت الحرث والنضر العبديّة: أبلغ بها ميتاً بأن تحية ما إن نزل بها النجائب تخفقوا

وقول دريد بن الصمة في الخنساء: ما إن رأيت ولا سمعت به كالיום طالى أينق جرب

فإن زائدة بعد ما النافية في البيتين وهو كثير، وقد حملوا على ذلك ما الموصولة فقالوا: تزداد بعدها إن كاية الأحقاف هذه. وأنشد لذلك الأخفش: يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب

أي يرجى المرء الشيء الذي لا يراه، وإن زائدة، وهذان هما الوجهان اللذان لا تظهر صحة واحد منهما.

لأن الأول منهما فيه حذف وتقدير.

والثاني منهما فيه زيادة كلمة.

وكل ذلك لا يصار إليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

أما الوجه الثالث الذي هو الصواب إن شاء الله، فهو أن لفظة إن نافية بعد ما الموصولة أي ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه من القوة في الأجسام،

وكثرة الأموال والأولاد، والعدد.

وإنما قلنا: إن القرآن يشهد لهذا القول لكثرة الآيات الدالة عليه، فإن الله جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه يهدد كفار مكة بأن الأمم الماضية كانت أشد

منهم بطشاً وقوة، وأكثر منهم عدداً، وأموالاً، وأولاداً، فلما كذبوا الرسل،

أهلكهم الله ليخافوا من تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم أن يهلكهم الله

بسببه، كما أهلك الأمم التي هي أقوى منهم، كقوله تعالى في المؤمنين {أَقْلَمُ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ

مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَعَآثِرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغْنَى عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}

وقوله فيها أيضاً: {أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَعَآثِرًا فِي الْأَرْضِ فَآخَذَهُمُ اللَّهُ

يَذُوبِهِمْ}.

وقوله تعالى في الروم: {أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

عَمَرُوهَا}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في السلام على قوله

تعالى: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَصَّبْنَا لَأُولَئِكَ}، قوله تعالى: {قَلُوبًا

تَصَرَّهُمْ لِذِينَ لَّحَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ صَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ

وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ}.

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الجاثية في الكلام على قوله تعالى:

{وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا لَّحَدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ}.

قوله تعالى: {وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ تَقْرَأَ مِنْ لَجِنٍّ يَسْتَمِعُونَ لِقُرْءَانَ فَلَمَّا

حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا

سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى لَحَقِّ وَإِلَى

طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}. ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة من سورة

الأحقاف، أنه صرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم {تَقْرَأَ مِنْ لَجِنٍّ} والنفر

دون العشرة {يَسْتَمِعُونَ لِقُرْءَانَ} وأنهم لما حضروه، قال بعضهم لبعض

{أَنْصِتُوا} أي اسكتوا مستمعين، وأنه لما قضى. أي انتهى النبي صلى الله

عليه وسلم من قراءته {وَلُوا} أي رجعوا إلى قومهم من الجن في حال

كونهم منذرين أي مخوفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله، ويجيبوا

داعيه محمداً صلى الله عليه وسلم. وأخبروا قومهم، أن هذا الكتاب الذي

سمعوه يتلى، المنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق، وهو ضد الباطل، وإلى طريق مستقيم، أي لا اعوجاج فيه. وقد دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أوحى الله ذلك إليه، كما قال تعالى في القصة بعينها، مع بيانها وبسطها، بتفصيل الأقوال التي قالتها الجن، بعد استماعهم القرآن العظيم: {قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ سَتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} إلى آخر الآيات. قوله تعالى: {يَقُومَتَا أَجِيبَا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنَا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}. منطوق هذه الآية أن من أجاب داعي الله محمداً صلى الله عليه وسلم وآمن به، وبما جاء به، من الحق غفر الله له ذنوبه. وأجاره من العذاب الأليم، ومفهومها، أعني مفهوم مخالفتها، والمعروف بدليل الخطاب، أن من لم يجب داعي الله من الجن، ولم يؤمن به لم يغفر له، ولم يجره، من عذاب أليم، بل يعذبه ويدخله النار، وهذا المفهوم جاء مصرحاً به مبيناً في آيات آخر، كقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}. وقوله تعالى: {وَلَكِنَّ حَقَّ لِقَوْلِي مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} وقوله تعالى {قَالَ خُلُوهَا فِي أَمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ}: وقوله تعالى {فَكَفَبُوا بِهَا هُمْ وَ لِعَاؤُوا وَتَوَجُّدُوا إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

أما دخول المؤمنين، المجيبين داعي الله من الجن، الجنة فلم تتعرض له الآية الكريمة بإثبات ولا نفي، وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، وهي قوله تعالى في سورة الرحمن: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ قَيَّاتٍ ۖ آيَاتُهَا رُتَبًا وَتُكَدِّبَاتٍ} وبه تعلم أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم، قائلين إنه يفهم من هذه الآية، من أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، وأن جزاء إيمانهم وإجابتهم داعي الله، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط، كما هو نص الآية، كله خلاف التحقيق.

وقد أوضحنا ذلك في كتابنا «دفع إبهام الاضطراب، عن آيات الكتاب» في الكلام على هذه الآية، من سورة الأحقاف فقلنا فيه ما نصه: هذه الآية، يفهم من ظاهرها، أن جزاء المطيع من الجن غفران ذنوبه، وإجارته من عذاب أليم، لا دخوله الجنة.

وقد تمسك جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى، بظاهر هذه الآية، فقالوا إن المؤمنين المطيعين من الجن لا يدخلون الجنة، مع أنه جاء في آية أخرى، ما يدل على أن مؤمنهم في الجنة وهي قوله تعالى {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ آيَاتُهَا رُتَبًا وَتُكَدِّبَاتٍ}، لأنه تعالى بين شموله للجن والإنس، بقوله {قَيَّاتٍ ۖ آيَاتُهَا رُتَبًا وَتُكَدِّبَاتٍ}.

ويستأنس لهذا بقوله تعالى {لَمْ يَطْمِئُنُّوا فِيهَا وَتَكُنَّ مِنَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا وَمِنَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ} فإنه يشير إلى أن في الجنة جنات يطمئنون النساء كالإنس.

والجواب عن هذا، أن آية الأحقاف، نص فيها على الغفران، والإجارة من العذاب، ولم يتعرض فيها لدخول الجنة، بنفي ولا إثبات، وآية الرحمن نص فيها على دخولهم الجنة، لأنه تعالى قال فيها: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ}.

وقد تقرر في الأصول أن الموصولات من صيغ العموم، فقوله: {وَلَمَنْ خَافَ}، يعم كل خائف مقام ربه، ثم صرح بشمول ذلك الجن والإنس معاً بقوله: {قِيَاءِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ}.

فبين أن الوعد بالجنين لمن خاف مقام ربه من آلائه، أي نعمه على الإنس والجن، فلا تعارض بين الآيتين، لأن إحداهما بينت ما لم تعرض له الأخرى. ولو سلمنا أن قوله: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}، يفهم منه عدم دخولهم الجنة، فإنه إنما يدل عليه بالمفهوم، وقوله: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ} {قِيَاءِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ} يدل على دخولهم الجنة بعموم المنطوق.

والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول. ولا يخفى أنا إذا أردنا تحقيق هذا المفهوم المدعي وجدناه معدوماً من أصله للإجماع على أن قسمة المفهوم ثنائية، إما أن يكون مفهوم موافقة أو مخالفة ولا ثالث.

ولا يدخل هذا المفهوم المدعي في شيء من أقسام المفهومين. أما عدم دخوله في مفهوم الموافقة بقسميه فواضح.

وأما عدم دخوله في شيء من أنواع مفهوم المخالفة، فلأن عدم دخوله في مفهوم الحصر أو الغاية أو العدد أو الصفة أو الظرف واضح.

فلم يبق من أنواع مفهوم المخالفة يتوهم دخوله فيه إلا مفهوم الشرط أو اللقب، وليس داخلياً في واحد منهما. فظهر عدم دخوله فيه أصلاً.

أما وجه توهم دخوله في مفهوم الشرط، فلأن قوله: {يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ} فعل مضارع مجزوم بكونه جزاء الطلب.

وجمهور علماء العربية على أن الفعل إذا كان كذلك فهو مجزوم بشرط مقدر، لا بالجملة قبله، كما قيل به.

وعلى الصحيح الذي هو مذهب الجمهور، فتقرير المعنى: {أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ} إن تفعلوا ذلك يغفر لكم، فيتوهم في الآية مفهوم هذا الشرط المقدر.

والجواب عن هذا: أن مفهوم الشرط عند القائل به، إنما هو في فعل الشرط لا في جزائه، وهو معتبر هنا في فعل الشرط على عادته، فمفهوم أن تجيبوا داعي الله وتؤمنوا به يغفر لكم، أنهم إن لم يجيبوا داعي الله ولم يؤمنوا به لم يغفر لهم، وهو كذلك.

أما جزاء الشرط فلا مفهوم له لاحتمال أن تترتب على الشرط الواحد مشروطات كثيرة، فيذكر بعضها جزاء له فلا يدل على نفي غيره.

كما لو قلت لشخص مثلاً: إن تسرق يجب عليك غرم ما سرقت. فهذا الكلام حق ولا يدل على نفي غير الغرم كالقطع، لأن قطع اليد مرتب أيضاً على السرقة كالغرم.

وكذلك الغفران، والإجارة من العذاب ودخول الجنة كلها مرتبة على إجابة داعي الله والإيمان به.

فذكر في الآية بعضها وسكت فيها عن بعض، ثم بين في موضع آخر، وهذا لا إشكال فيه.

وأما وجه توهم دخوله في مفهوم اللقب، فلأن اللقب في اصطلاح الأصوليين هو ما لم يمكن انتظام الكلام العربي دونه، أعني المسند إليه سواء كان لقباً أو كنية أو اسماً أو اسم جنس أو غير ذلك. وقد أوضحنا اللقب غاية في المائدة.

والجواب عن عدم دخوله في مفهوم اللقب، أن الغفران والإجارة من العذاب المدعي بالفرض أنهما لقبان لجنس مصدريهما، وأن تخصيصهما بالذكر يدل على نفي غيرهما في الآية سندان لا مسند إليهما بدليل أن المصدر فيهما كامن في الفعل ولا يستند إلى الفعل إجماعاً ما لم يرد مجرد لفظه على سبيل الحكاية.

ومفهوم اللقب عند القائل به إنما هو فيما إذا كان اللقب مسنداً إليه، لأن تخصيصه بالذكر عند القائل به يدل على اختصاص الحكم به دون غيره، وإلا لما كان للتخصيص بالذكر فائدة كما عللوا به مفهوم الصفة. وأجيب من جهة الجمهور: بأن اللقب ذكر ليتمكن الحكم لا لتخصيصه بالحكم، إذ لا يمكن الإسناد بدون مسند إليه. لا يظهر.

فلا عبرة بقول الصيرفي وأبي بكر الدقاق وغيرهما من الشافعية. ولا يقول ابن خوزير منداد وابن القصار من المالكية ولا يقول بعض الحنابلة باعتبار مفهوم اللقب، لأنه لا دليل على اعتباره عند القائل به، إلا أنه يقول: لو لم يكن اللقب مختصاً بالحكم لما كان لتخصيصه بالذكر فائدة، كما علل به مفهوم الصفة لأن الجمهور يقولون: ذكر اللقب ليسند إليه وهو واضح لا إشكال فيه.

وأشار صاحب مراقبي السعود إلى تعريف اللقب بالاصطلاح الأصولي وأنه أضعف المفاهيم بقوله: أضعفها اللقب وهو ما أبى من دونه نظم الكلام العرب

وحاصل فقه هذه المسألة أن الجن مكلفون، على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع المسلمين وأن كافرهم في النار بإجماع المسلمين، وهو صريح قوله تعالى: {لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ لِحْنَةٍ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} وقوله تعالى: {فَكَبُكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ لِعَاؤُوتَوْجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}، وقوله تعالى: {قَالَ لُحُلُوا بِؤَامٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ لِحْنٍ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} إلى غير ذلك من الآيات. وأن مؤمنهم اختلف في دخولهم الجنة ومنشأ الخلاف الاختلاف في فهم الآيتين المذكورتين.

والظاهر دخولهم الجنة كما بينا، والعلم عند الله تعالى. اهـ. منه بلفظه. قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهَا بِقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذه الآية، وأنها من الآيات الدالة على البعث في البقرة والنحل

والجاثية، وغير ذلك من المواضع وأحلنا على ذلك مراراً، والباء في قوله {بِقَادِرٍ} يسوغه أن النفي متناول لأن فما بعدها، فهو في معنى أليس الله بقادر؟

ويوضح ذلك قوله بعد: بلي. مقررراً لقدرتة على البعث وغيره. قوله تعالى: {وَ طَٰئِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولَآءَ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}. اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافاً كثيراً. وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبروا أربعة فصار هو صلى الله عليه وسلم خامسهم. وإعلم أن القول بأن المراد بأولي العزم جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأن لفظة من، في قوله: من الرسل بيانية يظهر أنه خلاف التحقيق، كما دل على ذلك بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: {وَ طَٰئِرٌ لِّحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنُّ كَصَٰحِبِ الْهُوتِ}، فأمر الله جل وعلا نبيه في آية القلم هذه بالصبر، ونهاه عن أن يكون مثل يونس، لأنه هو صاحب الحوت وكقوله: {وَلَقَدْ عٰهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} وآية طه المذكورتان كلتاهما تدل على أن أولي العزم من الرسل الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصبر كصبرهم ليسوا جميع الرسل والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}.

نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة، أن يستعجل العذاب لقومه، أي يدعو الله عليهم بتعجيله لهم، فمفعول تستعجل محذوف تقديره العذاب، كما قاله القرطبي، وهو الظاهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن طلب تعجيل العذاب لهم جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {وَدَّرَنِي وَأَمُكِّدِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا}. وقوله تعالى {فَمَهَلٌ لِّكٰفِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا}. فإن قوله {وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا}، وقوله: {فَمَهَلٌ لِّكٰفِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا} موضح لمعنى قوله {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}.

والمراد بالآيات، نهيه صلى الله عليه وسلم عن طلب تعجيل العذاب لهم، لأنهم معذبون، لا محالة عند انتهاء المدة المحدودة للإمهال، كما يوضحه قوله تعالى {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}. وقوله تعالى {يُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ يَضِطِّرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} وقوله تعالى {قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأِمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ}. وقوله تعالى: {لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي لَبَدٍ مَّتَاعٍ قَلِيلٍ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنَسَآءٌ لِّمَهَادٍ} وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّا لَنذِيقُكُمْ لِعَذَابِ الشَّدِيدِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُؤْا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُؤْا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} وفي سورة قد

أفلح المؤمنون في الكلام على قوله تعالى: {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}.

وبينا في الكلام على آية قد أفلح المؤمنون وجه إزالة إشكال معروف في الآيات المذكورة. قوله تعالى: {بَلَاغٌ}. التحقيق إن شاء الله أن أصوب القولين في قوله: {بَلَاغٌ} أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره، هذا بلاغ، أي هذا القرآن بلاغ من الله إلى خلقه.

ويدل لهذا قوله تعالى في سورة إبراهيم {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ}، وقوله في الأنبياء {إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ}، وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والبلاغ اسم مصدر، بمعنى التبليغ، وقد علم باستقراء اللغة العربية، أن الفاعل يأتي كثيراً، بمعنى التفعيل، كبلغه بلاغاً: أي تبليغاً، وكلمه كلاماً، أي تكليماً، وطلقها طلاقاً، وسرحها سراحاً، وبينه بياناً.

كل ذلك بمعنى التفعيل، لأن فعل مضعفة العين، غير معتلة اللام ولا مهموزته قياس مصدرها التفعيل.

وما جاء منه على خلاف ذلك، يحفظ ولا يقاس عليه، كما هو معلوم في محله. أما القول بأن المعنى وذلك اللبث بلاغ، فهو خلاف الظاهر كما ترى، والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الأحقاف



{ لِّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ * وَ لِّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ يَأْتِي لِّذِينَ كَفَرُوا يُبْعَثُوا يُطَّلَعُونَ لِّذِينَ ءَامَنُوا يُبْعَثُوا لِحَقِّ مَن رَّبَّهُمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثِلَهُمْ * قَادًا لِّقَبِيْمُ لِّذِينَ كَفَرُوا فَصَرَّبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنحَنُومُهُمْ فَسَدُّوا لُوتَاقَ قِيمًا مَّنَا بَعْدُ وَإِيمًا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَيْنَصْرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ لِّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُضِلُّهُم بِأَلَهُمْ * وَيُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَأْتِيهَا لِّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَ لِّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَصَلَ أَعْمَلَهُمْ * ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَرَهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ لِّذِينَ مَن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثِلْهَا * ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ مَوْلَى لِّذِينَ ءَامَنُوا وَأَن لِّكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِن اللَّهَ يُدْخِلُ لِّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّى تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ لِّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَنوَى لَهُمْ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَصِرُ لَهُمْ * أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ بُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ }

سُورَةُ الْقِتَالِ وَهِيَ سُورَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَوْلُهُ تَعَالَى: { لَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ لَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بَانَ لَّذِينَ كَفَرُوا تَبِعُوا لِبَطَلٍ وَأَنَّ لَّذِينَ ءَامَنُوا تَبِعُوا لِحَقٍّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ }. قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنَ الصَّدُودِ، لِأَنَّ صَدَّ فِي الْآيَةِ لَازِمَةٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ مِنَ الصَّدِّ لِأَنَّ صَدَّ فِي الْآيَةِ مُتَعَدِيَةٌ. وَعَلَيْهِ فَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ أَيَّ صَدُّوا غَيْرَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، أَيَّ عَنِ الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

وهذا القول الأخير هو الصواب، لأنه على القول بأن صد لازمة، فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله { كَفَرُوا } لأن الكفر هو أعظم أنواع الصدود عن سبيل الله. وأما على القول: بأن صد متعدية فلا تكرار لأن المعنى أنهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم بصددهم إياهم عن سبيل الله، وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ }، أن اللفظ إذا دار بين التأكيد والتأسيس وجب حمله على التأسيس، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ } أي أبطل ثوابها، فما عمله الكافر من حسن في الدنيا، كقري الضيف، وبر الوالدين، وحمي الجار، وصلة الرحم، والتنفيس عن المكروب، يبطل يوم القيامة، ويضمحل ويكون لا أثر له، كما قال تعالى: { وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا }، وهذا هو الصواب في معنى الآية. وقيل: أضل أعمالهم أي أبطل كيدهم، الذي أرادوا أن يكيدوا به النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَ لَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } أي غفر لهم ذنوبهم وتجاوز لهم عن أعمالهم السيئة { وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ } أي أصلح لهم شأنهم وحالهم إصلاحاً لا فساد معه، وما ذكره جل وعلا هنا في أول هذه السورة الكريمة، من أن يبطل أعمال الكافرين، ويبقى أعمال المؤمنين جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ لِحَيٰوةٍ الدُّنْيَا وَالدُّنْيَا وَرَبَّتَهَا نُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }. وقوله تعالى: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ تَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } وقوله تعالى: { وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا أَصْحَابُ لَجَنَةٍ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقْرَرًا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا }. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا مع بعض الأحاديث الصحيحة فيه، مع زيادة إيضاح مهمة في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا }. وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ

وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، وذكرنا طرفاً منه في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: {أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ أَلَدُنْيَا وَ سَبَّيْتُمْ عَنْهَا}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {أَصَلَّ أَعْمَلَهُمْ} أصله من الضلال بمعنى الغيبة، والاضمحلال. لا من الضالة كما زعمه الزمخشري فهو كقوله: {وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

وقد قدمنا معاني الضلال في القرآن واللغة، في سورة الشعراء في الكلام على قوله: {قَالَ فَعَلَّيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ}، وفي آخر الكهف في الكلام على قوله تعالى: {لِذِينَ صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي لِحْيَةِ أَلَدُنْيَا}، وفي غير ذلك من المواضع.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَ لِذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قد قدمنا إيضاحه في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}، وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ دُونِ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَوَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ}. قال فيه ابن كثير: هو عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان، بعد بعثته صلى الله عليه وسلم اه منه.

ويدل لذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ نَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرَّةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ لِحَقٌّ مِّنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَهُوَ لِحَقٌّ} جملة اعتراضية تتضمن شهادة الله بأن هذا القرآن المنزل على هذا النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم هو الحق من الله، كما قال تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ لِحَقٌّ}، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَيَّ لِكُفْرَيْتُمْ بِهِ لِحَقِّ لِيَقِينِ}. وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ لِحَقٌّ مِّنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ هُدَىٰ قَائِمًا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِ لِحَقِّ مِّنْ رَبِّكُمْ}، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا تَبِعُوا لِبَطْلٍ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا تَبِعُوا لِحَقٍّ مِّنْ رَبِّهِمْ} أي ذلك المذكور من إضلال أعمال الكفار أي إبطالها واضمحلالها، وبقاء ثواب أعمال المؤمنين، وتكفير سيئاتهم وإصلاح حالهم، كله واقع بسبب أن

الكفار اتبعوا الباطل، ومن اتبع الباطل فعمله باطل. والزائل المضمحل تسميه العرب باطلاً وضده الحق. وبسبب أن الذين آمنوا اتبعوا الحق، ومتبع الحق أعماله حق، فهي ثابتة باقية، لا زائلة مضمحلة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من أن اختلاف الأعمال، يستلزم اختلاف الثواب، لا يتوهم استواءهما إلا الكافر الجاهل، الذي يستوجب الإنكار عليه، جاء موضحاً في آيات آخر، كقوله تعالى: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}. وقوله تعالى: {أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}. وقوله تعالى:

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ جُنِّتُوا بِالسِّيئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} .
 وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} .
 قال فيه الزمخشري: فإن قلت: أين ضرب الأمثال؟

قلت: في جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار،
 واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين. أو في أن جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار،
 وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين. اهـ.
 منه.

وأصل ضرب الأمثال يراد منه بيان الشيء بذكر نظيره الذي هو مثل له. قوله
 تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَصَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَّخِثُوا هَمًّا فَنشُدُّوا
 لِقَاكَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَصَّعَّ لِحَرْبٍ أَوْ رَارَهَا} . قوله تعالى:
 فاضرب الرقاب مصدر نائب عن فعله، وهو بمعنى فعل الأمر، ومعلوم أن صيغ
 الأمر في اللغة العربية أربع:

وهي فعل الأمر كقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ} {الشمس} .
 واسم فعل الأمر كقوله تعالى: {عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ} .

والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى: {ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ
 وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ} .

والمصدر النائب عن فعله كقوله تعالى: {فَصَرْبَ الرِّقَابِ} ، أي فاضربوا
 رقابهم، وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَتَّخِثُوا هَمًّا} أي أوجعتم فيهم قتلاً.
 فالإثخان هو الإكثار من قتل العدو حتى يضعف ويثقل عن النهوض.
 وقوله: فشدوا الوثاق، أي فأسروهم، والوثاق بالفتح والكسر اسم لما يؤسر
 به الأسير من قد ونحوه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من الأمر بقتل الكفار حتى يتخنم المسلمون،
 ثم بعد ذلك بأسروهم جاء موضحاً في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {مَا
 كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُبْخَرَ فِي الْأَرْضِ} ، وقد أمر تعالى بقتلهم
 في آيات أخر كقوله تعالى: {وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ} . وقوله:
 {وَ طَرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ طَرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} ، وقوله تعالى: {وَ قَاتِلُوا
 الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً} . وقوله: {فَإِمَّا تَثَقَّفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ
 خَلَفَهُمْ} ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً} أي
 فيما تمنون عليهم منا، أو تفادونهم فداءً.

ومعلوم أن المصدر إذا سيق لتفصيل وجب حذف عامله، كما قال في
 الخلاصة: وما لتفصيل كما منا عامله يحذف حيث عنا

ومنه قول الشاعر: لأجهدن فيما درء واقعة تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بالآيات التي ذكرنا قبلها وممن يروى
 عنه هذا القول، ابن عباس والسدي وقتادة والضحاك وابن جريج.
 وذكر ابن جرير عن أبي بكر رضي الله عنه ما يؤيده.

ونسخ هذه الآية هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله فإنه لا يجوز عنده المن ولا الفداء، لأن الآية المنسوخة عنده بل يخير عنده الإمام بين القتل والاسترقاق. ومعلوم أن آيات السيف النازلة في براءة نزلت بعد سورة القتال هذه. وأكثر أهل العلم يقولون: إن الآية ليست منسوخة، وإن جميع الآيات المذكورة، محكمة، فالإمام مخير وله أن يفعل ما رآه مصلحة للمسلمين من من وفداء وقتل واسترقاق.

قالوا: قتل النبي صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث أسيرين يوم بدر، وأخذ فداء غيرهما من الأسارى.

ومن على ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، وكان يسترق السبي من العرب وغيرهم.

وقال الشوكاني في نيل الأوطار:

والحاصل أنه قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق، فمن ادعى أن بعض هذه الأمور تختص ببعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العمومات، والمجوز قائم في مقام المنع، وقول علي وفعله عند بعض المانعين من استرقاق ذكور العرب حجة. وقد استرق بني ناجية ذكورهم وإناتهم وباعهم كما هو مشهور في كتب السير والتواريخ اهـ. محل الغرض منه.

ومعلوم أن بني ناجية من العرب.

قال مقيد عفا الله عنه وغفر له:

لم يختلف المسلمون في جواز الملك بالرق.

ومعلوم أن سببه أسر المسلمين الكفار في الجهاد، والله تبارك وتعالى في كتابه يعبر عن الملك بالرق بعبارة هي أبلغ العبارات، في توكيد ثبوت ملك الرقيق، وهي ملك اليمين لأن ما ملكته يمين الإنسيان، فهو مملوك له تماماً، وتحت تصرفه تماماً، كقوله تعالى: {قَانَ خَفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَجِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} وقوله: {وَلِذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَا أَلَّا عَلَىٰ أَرْوَجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} في سورة {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} و{سَأَلِ سَائِلٌ} وقوله: {وَلِلْمُحْصَنَاتِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} وقوله: {وَلِذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَتَبُوا لَهُمْ} وقوله: {وَلِجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ لِجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} وقوله: {لَا يَجِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَرْوَاجٍ وَلَوْ أَغَبَّ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ} وقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَرْوَجَكَ إِلَّا لِلَّذِينَ آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ} وقوله: {أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ} وقوله: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ لِمُؤْمِنَاتٍ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مَنْ قَتَيْتَكُمْ لِمُؤْمِنَاتٍ} وقوله: {فِيمَا لِذِينَ فَضَّلُوا بَرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ} وقوله {هَلْ لَكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَاءَ}، فالمراد بملك اليمين في جميع هذه الآيات كلها الملك بالرق، والأحاديث والآيات بمثل ذلك يتعذر حصرها، وهي معلومة، فلا ينكر الرق في الإسلام، إلا مكابر أو ملحد أو من لا يؤمن بكتاب الله، ولا بسنة رسوله.

وقد قدمنا حكمة الملك بالرق وإزالة الإشكال في ملك الرقيق المسلم في
سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَقُرْءَانٌ يَهْدِي
لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

ومن المعلوم أن كثيراً من أجلاء علماء المسلمين ومحدثيهم الكبار كانوا
أرقاء مملوكين، أو أبناء أرقاء مملوكين.

فهذا محمد بن سيرين كان أبوه سيرين عبداً لأنس بن مالك.
وهذا مكحول كان عبداً لامرأة من هذيل فاعتقته.
ومثل هذا أكثر من أن يحصى كما هو معلوم.

واعلم أن ما يدعيه بعض من المتعصبين، لنفي الرق في الإسلام من أن آية
القتال هذه دلت على نفي الرق من أصله، لأنها أوجبت واحداً من أمرين لا
ثالث لهما، وهما المن والفداء فقط فهو استدلال ساقط من وجهين:
أحدهما أن فيه استدلالاً بالآية، على شيء لم يدخل فيها، ولم تتناوله أصلاً،
والاستدلال إن كان كذلك فسقوطه كما ترى.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية التي فيها تقسيم حكم الأسارى، إلى من وفداء، لم
تتناول قطعاً إلا الرجال المقاتلين من الكفار لأن قوله {فَصَزَبَ الرِّقَابِ}،
وقوله: {حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ}. صريح في ذلك كما ترى.
وعلى إتيان هؤلاء المقاتلين رتب بالفاء قوله: {فَشُدُّوا لُؤْتَاقَ}.
فظهر أن الآية لم تتناول أنثى ولا صغيراً البته.

ويزيد ذلك إيضاحاً أن النهي عن قتل نساء الكفار وصبيانهم ثابت عن النبي
صلى الله عليه وسلم، وأكثر أهل الرق في أقطار الدنيا إنما هو من النساء
والصبيان.

ولو كان الذي يدعي نفي الرق من أصله يعترف بأن الآية، لا يمكن أن يستدل
بها على شيء غير الرجال المقاتلين، لقصر نفي الرق الذي زعمه على
الرجال الذين أسروا، في حال كونهم مقاتلين، ولو قصره على هؤلاء، لم
يمكنه أن يقول بنفي الرق من أصله كما ترى.

الوجه الثاني: هو ما قدمنا من الأدلة على ثبوت الرق في الإسلام. وقوله
تعالى في هذه الآية الكريمة: {حَتَّى تَصَعَ لِحَرْبٍ أَوْ زَارَهَا} أي إذا لقيتم
الكفار فاضربوا أعناقهم {حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ} قتلاً فأسروهم {حَتَّى تَصَعَ
لِحَرْبٍ أَوْ زَارَهَا} أي حتى تنتهي الحرب.

وأظهر الأقوال في معنى وضع الحرب أوزارها أنه وضع السلاح، والعرب
تسمي السلاح وزراً، وتطلق العرب الأوزار على آلات الحرب وما يساعدها فيها
كالخيل، ومنه قول الأعشى: وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً
ذكوراً

وفي معنى أوزار الحرب، أقوال آخر معروفة تركناها، لأن هذا أظهرها عندنا.
والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ
يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}. ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن
المؤمنين، إن نصرُوا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبت أقدامهم، أي عصمهم
من الفرار والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}، ثم بين صفات الموعودين بهذا النصر في قوله تعالى بعده {لِذِينَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ لَا تُبْلَغُونَ}، وكقوله تعالى: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {إِنَّا لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَلِذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. وقوله تعالى في بيان صفات من وعدهم بالنصر في الآيات المذكورة: {لِذِينَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَبُوا أَنَّكُمْ لَا تُبْلَغُونَ}.

يدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة. فمثلهم كمثل الأجير الذي لم يعمل لمستأجره شيئاً ثم جاءه يطلب منه الأجرة.

فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممن يتسمون باسم المسلمين ثم يقولون: إن الله سينصرنا مفررون لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره كما لا يخفى.

ومعنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه وكتابيه، وسعيهم وجهادهم، في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه، ويحكم في عبادته بما أنزل على رسله صلى الله عليه وسلم. قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا}. قد قدمنا إيضاحه في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ}، وأحلنا على الآيات الموضحة لذلك في سورة الروم في الكلام على قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضِ}. وأوضحناها في الزخرف في الكلام على قوله: {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا} وفي الأحقاف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِيهَا مَكَّنًا}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا تَصِرَ لَهُمْ}. التي توضح معنى هذه الآية، هي المشار إليها في نفس الآية، التي ذكرنا قبلها. وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من إخراج كفار مكة للنبي صلى الله عليه وسلم منها بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكَ لَقَدْ يُخْرِجُكُمُ الرَّسُولَ وَإِيَّكُمْ}، وقوله تعالى {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِطُوا يَدِيَهُمْ عَلَيْكَ وَيَقْتُلُواكَ أَوْ يُجْرِمُوا}.

وقد أخرجوه فعلاً بمكرهم المذكور، وبين جل وعلا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم لا ذنب لهم يستوجبون به الإخراج إلا الإيمان بالله، كما قال تعالى {لِذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ

يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} وقال تعالى {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} أي يخرجون الرسول وإياكم لأجل إيمانكم بربكم.
وقال تعالى في إخراجهم له {أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَوْا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ}. إلى غير ذلك من الآيات.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن كثير بهمزة مفتوحة بعد الكاف وياء مشددة مكسورة ونون ساكنة.
وقراه ابن كثير وكائن، بألف بعد الكاف، وهمزة مكسورة.
وكلهم عند الوقف يقفون على النون الساكنة، كحال الصلة، إلا أبا عمرو فإنه يقف على الياء.

وقد قدمنا أوجه القراءة في كآين ومعناها، وما فيها من اللغات، مع بعض الشواهد العربية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى {فَكَآئِن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ}.

{مَثَلُ لُجَّتِي لِي وَوَعْدَ الْمُتَّقِينَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ * وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ هُتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّيَّعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ * وَ عَلَّمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ سَيُغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَمُؤْمِنَاتٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا لَقَاتَلْ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظِيرَ لِمَعْشَرَ عَالِيهِمْ مِّن لَّمُوتٍ قَائِلِينَ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ يَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانٍ أُمِّ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَا}

قوله تعالى: {مَثَلُ لُجَّتِي لِي وَوَعْدَ الْمُتَّقِينَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ}. أنهار الماء، وأنهار الخمر التي ذكرها الله في هذه الآية بين بعض صفاتها، في آيات أخرى كقوله تعالى {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} في آيات كثيرة، وقوله {وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ}. وقوله: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ}، وقوله {فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ}، وقد بين تعالى من صفات خمر الجنة أنها لا تسكر شاربها، ولا تسبب له الصداع الذي هو وجع الرأس في آيات من كتابه كقوله تعالى: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَّفُونَ}، وقوله {لَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ}.
وقد قدمنا معنى هذه الآيات بإيضاح في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى {إِنَّمَا لِحَمْرٍ وَ لِمَيْسِرٍ وَ لَأَنْصَابٍ وَ لَأَزْلَامٍ رَّجْسٍ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ وَ جُنَيْبُوهُ}. وقوله تعالى في الآية الكريمة {غَيْرِ آسِنٍ} أي غير متغير اللون ولا الطعم. والآسن والأجن معناهما واحد، ومنه قول ذي الرمة:
ومنهل أجن قفر محاضره تذرروا الرياح على جماته البعرا

وقول الراجز:

ومنهل فيه الغراب ميت كأنه من الأجون زيت
* سقيت منها القوم واستقيت *

وبما ذكرنا تعلم أن قوله: غير آسن كقوله: من لبن لم يتغير طعمه. قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}. قد بين تعالى في سورة البقرة أن الثمار التي يرزقها أهل الجنة يشبه بعضها بعضاً في الجودة والحسن والكمال، ليس فيها شيء رديء، وذلك في قوله تعالى: {كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}. قوله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحج، في الكلام على قوله تعالى {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لِحَمِيمٍ صُحُورٌ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ}. قوله تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. قوله تعالى: {فَأَتَى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ}. التحقيق إن شاء الله تعالى، في معنى هذه الآية الكريمة، أن الكفار يوم القيامة، إذا جاءتهم الساعة، يتذكرون ويؤمنون بالله ورسوله، وأن الإيمان في ذلك الوقت لا ينفعهم لفوات وقته فقوله {ذِكْرَاهُمْ} مبتدأ خبره {فَأَتَى لَهُمْ} أي كيف تنفعهم ذكراهم وإيمانهم بالله، وقد فات الوقت الذي يقبل فيه الإيمان. والضمير المرفوع في {جَاءَتْهُمْ} عائد إلى الساعة التي هي القيامة. وهذا المعنى، الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، من أن الكفار يوم القيامة يؤمنون، ولا ينفعهم إيمانهم جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى {وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُوسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}، وقوله تعالى: {وَجَعَلَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} - إلى قوله - {أَوْ تَرُدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}.

فظهر أن قوله {فَأَتَى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} على حذف مضاف، أي أتى لهم نفع ذكراهم.

والذكري اسم مصدر بمعنى الاتعاض الحامل على الإيمان. قوله تعالى: {قَائِدًا أَنْزَلْتُ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذُكِرَ فِيهَا لِقِتَالِ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَّ لِمَعْشَى عَلَيْهِ مِنْ لَمُوتٍ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني، واضحة الدلالة، لا نسخ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبب عن ذلك، كون الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لأنه في سياق الموت، لأن نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزرع بصره.

وهذا إنما وقع لهم من شدة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم.

وقد صرح جل وعلا بأن ذلك من الخوف المذكور في قوله: {فَإِذَا جَاءَ لِحُوفٍ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}.

وقد بين تعالى، أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة، فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد، وذهبهم الله على ذلك، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةً أَنْ جَاءَ مِنْهَا بَيِّنَاتٌ لِقَوْمِكَ وَسَأَلَ مِنْهُمُ الْمَخْتَلِفُونَ عَلَيْهِمُ الْكُفْرَانَ كَانُوا كَالْبُهْمِ وَالْبُهْمُ يَسْأَلُونَ رَسُولَهُمْ أَنْ يَرْغَبُوا بِهِنَّ فِي الْأَمْثَالِ كَمَا رَغَبُوا بِهَا فِي الْأَسْفَالِ}.

وقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}. الهمزة في قوله: أفلا يتدبرون الإنكار، والفاء عاطفة على جملة محذوفة، على أصح القولين، والتقدير يعرضون عن كتاب الله فلا يتدبرون القرآن كما أشار له في الخلاصة بقوله: * وحذف متبوع يدا هنا استبح *

وقوله تعالى: {أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} فيه منقطة بمعنى بل، فقد أنكر تعالى عليهم إعراضهم عن تدبر القرآن، بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وبين أن قلوبهم عليها أقفال لا تفتح لخير، ولا لفهم قرآن، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من التوبيخ والإنكار على من أعرض عن تدبر كتاب الله، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ غُتْلَفًا كَثِيرًا}، وقوله تعالى {أَقْلَمُ يَدَبُّوهُ لِقَوْلِ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ}، وقوله تعالى {كَيْتَبُ أَنْزَلْتَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

وقد ذم جل وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم في آيات كثيرة كقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا}، وقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}.

ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبر، وقد شكنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن، كما قال تعالى {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}.

وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المشتغلين بذلك هم خير الناس. كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ لِكِتَابِ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}.

فإعراض كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثابتة المبينة له. من أعظم المناكر وأشنعها، وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى.

ولا يخفى على عاقل أن القول بمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، اكتفاء عنهما بالمذاهب المدونة. وانتفاء الحاجة إلى تعلمهما، لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمة من أعظم الباطل. وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة ومخالف لأقوال الأئمة الأربعة.

فمرتكبه مخالف لله ولرسوله ولأصحاب رسوله جميعاً وللأئمة رحمهم الله، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى.

مسائل تتعلق بهذه الآية الكريمة المسألة الأولى:

اعلم أن قول بعض متأخري الأصوليين: إن تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهمه والعمل به. لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وأن كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً.

بل الحق الذي لا شك فيه، أن كل من له قدرة من المسلمين، على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به منهما فممنوع إجماعاً. وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح. فله أن يعمل به. ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً.

ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس. ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكماً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به، والاهتداء بهديه إلا للمجتهدون بالإصلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا بشروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى.

ومعلوم أن من المقرر في الأصول أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، وإذا فدخل الكفار والمنافقين، في الآيات المذكورة قطعي، ولو كان لا يصح الانتفاع بهدي القرآن إلا لخصوص المجتهدين لما أنكر الله على الكفار عدم تدبرهم كتاب الله، وعدم عملهم به. وقد علمت أن الواقع خلاف ذلك قطعاً، ولا يخفى أن شروط الاجتهاد لا تشترط إلا فيما فيه مجال للاجتهاد، والأمور المنصوصة في نصوص صحيحة، من الكتاب والسنة، لا يجوز الاجتهاد فيها لأحد، حتى تشترط فيها شروط الاجتهاد، بل ليس فيها إلا الاتباع، وبذلك تعلم أنما ذكره صاحب مراقبي السعود تبعاً للقرافي من قوله: من لم يكن مجتهداً فالعمل منه بمعنى النص مما يحظر

لا يصح على إطلاقه بحال لمعارضته لآيات وأحاديث كثيرة من غير استناد إلى دليل.

ومن المعلوم، أنه لا يصح تخصيص عمومات الكتاب والسنة، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

ومن المعلوم أيضاً، أن عمومات الآيات والأحاديث، الدالة على حث جميع الناس، على العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، أكثر من أن تحصى، كقوله صلى الله عليه وسلم: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي» وقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي» الحديث. ونحو ذلك مما لا يحصى.

فتخصيص جميع تلك النصوص، بخصوص المجتهدين وتحريم الانتفاع بهدي الكتاب والسنة على غيرهم، تحريماً باتاً يحتاج إلى دليل من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يصح تخصيص تلك النصوص بأراء جماعات من المتأخرين المقرين على أنفسهم بأنهم من المقلدين. ومعلوم أن المقلد الصرف، لا يجوز عده من العلماء ولا من ورثة الأنبياء، كما سترى إيضاحه إن شاء الله. وقال صاحب مراقبي السعود، في نشر البنود، في شرحه لبيته المذكور أنفاً ما نصه: يعني أن غير المجتهد، يحظر له. أي يمنع أن يعمل بمعنى نص من كتاب أو سنة وإن صح سندها لاحتمال عوارضه، من نسخ وتقييد، وتخصيص وغير ذلك من العوارض التي لا يضبطها إلا المجتهد، فلا يخلصه من الله إلا تقليد مجتهد. قاله القرافي. اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أنه لا مستند له، ولا للقرافي الذي تبعه، في منع جميع المسلمين، غير المجتهدين من العمل بكتاب الله، وسنة رسوله، إلا مطلق احتمال العوارض، التي تعرض لنصوص الكتاب والسنة، من نسخ أو تخصيص أو تقييد ونحو ذلك، وهو مردود من وجهين:

الأول: أن الأصل السلامة من النسخ حتى يثبت ورود الناسخ والعام ظاهر في العموم حتى يثبت ورود المخصص، والمطلق ظاهر في الإطلاق، حتى يثبت ورود المقيد والنص يجب العمل به، حتى يثبت النسخ بدليل شرعي، والظاهر يجب العمل به عموماً كان أو إطلاقاً أو غيرهما، حتى يرد دليل صارف عنه إلى المحتمل المرجوح. كما هو معروف في محله.

وأول من زعم أنه لا يجوز العمل بالعام، حتى يبحث عن المخصص فلا يوجد ونحو ذلك، أبو العباس بن سريج وتبعه جماعات من المتأخرين، حتى حكموا على ذلك الإجماع حكاية لا أساس لها.

وقد أوضح ابن القاسم العبادي، في الآيات البيئات غلطهم في ذلك، في كلامه على شرح المحل لقول ابن السبكي في جمع الجوامع، ويتمسك بالعام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، قبل البحث عن المخصص، وكذا بعد الوفاة، خلافاً لابن سريج اهـ.

وعلى كل حال فظواهر النصوص، من عموم وإطلاق، ونحو ذلك، لا يجوز تركها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، من مخصص أو مقيد، لا لمجرد مطلق الاحتمال، كما هو معلوم في محله.

فادعاء كثير من المتأخرين، أنه يجب ترك العمل به، حتى يبحث عن المخصص، والمقيد مثلاً خلاف التحقيق.

الوجه الثاني: أن غير المجتهد إذا تعلم آيات القرآن، أو بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ليعمل بها، تعلم ذلك النص العام، أو المطلق، وتعلم معه، مخصصه ومقيده إن كان مخصصاً أو مقيداً، وتعلم ناسخه إن كان منسوخاً وتعلم ذلك سهل جداً، بسؤال العلماء العارفين به، ومراجعة كتب التفسير والحديث المعتمد بها في ذلك، والصحابة كانوا في العصر الأول يتعلم أحدهم آية فيعمل بها، وحديثاً فيعمل به، ولا يمتنع من العمل بذلك حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، وربما عمل الإنسان بما علم فعلمه ما لم يكن يعلم، كما يشير له قوله تعالى: {وَأَقْبُوا لِلَّهِ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ} وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا} على القول بأن الفرقان هو العلم النافع الذي يفرق به بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اقْبُوا لِلَّهِ وَعَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}.

وهذه التقوى، التي دلت الآيات، على أن الله يعلم صاحبها، بسببها ما لم يكن يعلم، لا تزيد على عمله بما علم، من أمر الله وعليه فهي عمل ببعض ما علم زاده الله به علم ما لم يكن يعلم.

فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة، حتى يحصل رتبة الاجتهاد المطلق، هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين، من الانتفاع بنور القرآن، حتى يحصلوا شرطاً مفقوداً، في اعتقاد القائلين بذلك، وادعاء مثل هذا على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله هو كما ترى.

تنبيه مهم

يجب على كل مسلم، يخاف العرض على ربه، يوم القيامة، أن يتأمل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطاعة الكبرى، التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة.

وهي ادعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنة رسوله، استغناء تاماً، في جميع الأحكام من عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدونة. وبناء هذا على مقدمتين:

إحدهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين. والثانية: أن المجتهدين معدومون عدماً كلياً، لا وجود لأحد منهم، في الدنيا، وأنه بناء على هاتين المقدمتين، يمنع العمل بكتاب الله وسنة رسوله منعاً باتاً على جميع أهل الأرض، ويستغنى عنهما بالمذاهب المدونة. وزاد كثير منهم على هذا منع تقليد غير المذاهب الأربعة، وأن ذلك يلزم استمراره إلى آخر الزمان.

فتأمل يا أخي رحمك الله: كيف يسوغ لمسلم، أن يقول بمنع الاهتداء بكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وعدم وجوب تعلمهما والعمل بهما، استغناء عنهما بكلام رجال، غير معصومين ولا خلاف في أنهم يخطئون. فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة، لا حاجة إلى تعلمهما، وأنهما يغني غيرهما، فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور.

وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه، فهو أيضاً زعم باطل، لأن تعلم الكتاب والسنة، أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع

كونها في غاية التعقيد، والكثرة والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} . ويقول تعالى في الدخان: {قَائِمًا يَسَّرْتَهُ لِيَسَّرْتَكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} ويقول في مريم: {قَائِمًا يَسَّرْتَهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} .

فهو كتاب ميسر، بتيسير الله، لمن وفقه إليه للعمل به، والله جل وعلا يقول بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورٍ لَذِينَ آوْتُوا الْعِلْمَ}، ويقول {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} .

فلا شك أن الذي يتباعد، عن هداياه، يحاول التباعد، عن هدى الله ورحمته. ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه، ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار، والرشد من الغي.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} .

وقال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} . وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنِ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقال تعالى: {قَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنزَلْنَا مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} .

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور.

فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم: خفافيش أعماها النهار بضوئه ووافقها قطع من الليل مظلم مثل النهار يزيد أبصار الورى نورا ويعمي أعين الخفاش

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} . {أَقَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لِحَقٍّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ} .

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نورا، فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما، علماً صحيحاً.

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان، أيسر منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال، من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.

وجميع الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف.

فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جداً على كل من رزقه الله فهماً وعلماً.

والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك تسهل معرفته اليوم على كل ناظر في الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووفقه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله.

واعلم أيها المسلم المنصف، أن من أشنع الباطل وأعظم القول بغير الحق، على الله وكتابه وعلى النبي وسنته المطهرة، ما قاله الشيخ أحمد الصاوي، في حاشيته على الجلالين، في سورة الكهف وآل عمران واغتر بقوله في ذلك، خلق لا يحصى من المتسمين، باسم طلبة العلم، لكونهم لا يميزون بين حق وباطل.

فقد قال الصاوي أحمد المذكور في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِيَّائِي قَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً}، بعد أن ذكر الأقوال في انفصال الاستثناء عن المستثنى منه بزمان، ما نصه: وعامة المذاهب الأربعة على خلاف ذلك كله فإن شرط حل الأيمان بالمشيئة أن تتصل، وأن يقصد بها حل اليمين، ولا يضر الفصل بتنفس أو سعال أو عطاس، ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة، ضال مضل وربما أداة ذلك للكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. اهـ. منه بلفظه.

فانظر يا أخي رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله، وما أجراً قائله على الله، وكتابه وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

أما قوله بأنه لا يجوز الخروج عن المذاهب الأربعة، ولو كانت أقوالهم مخالفة للكتاب والسنة، وأقوال الصحابة فهو قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضي الله عنهم وإجماع الأئمة الأربعة أنفسهم، كما سنرى إيضاحه إن شاء الله بما لا مزيد عليه في المسائل الآتية بعد هذه المسألة. فالذي ينصره هو الضال المضل.

وأما قوله: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة، من أصول الكفر، فهذا أيضاً من أشنع الباطل وأعظمه، وقائله من أعظم الناس انتهاكاً لحرمة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

والتحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامة علماء المسلمين أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال من الأحوال بوجه من الوجوه، حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح.

والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله وإنما يصدر عن من لا علم له بالكتاب والسنة أصلاً، لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفراً والواقع في نفس الأمر أن ظاهرهما بعيد مما ظنه أشد من بعد الشمس من اللمس.

ومما يوضح لك ذلك أن آية الكهف هذه، التي ظن الصاوي أن ظاهرها حل الأيمان بالتعليق بالمشيئة المتأخر وزمنها عن اليمين وأن ذلك مخالف للمذاهب الأربعة: وبنى على ذلك أن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر كله باطل لا أساس له.

وظاهر الآية بعيد مما ظن بل الظن الذي ظنه والزعم الذي زعمه لا تشير الآية إليه أصلاً، ولا تدل عليه لا بدلالة المطابقة، ولا التضمن ولا الالتزام. فضلاً على أن تكون ظاهرة فيه.

وسبب نزولها يزيد ذلك إيضاحاً، لأن سبب نزول الآية أن الكفار سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال لهم سأخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله فعاتبه ربه بعدم تفويض الأمر إليه، وعدم تعليقه بمشيئته جل وعلا فتأخر عنه الوحي.

ثم علمه الله في الآية والأدب معه في قوله: {وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِيَّائِي قَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}.

ثم قال لنبية {وَ لُكْر رَبِّكَ إِذَا تَسَيَّبَتْ} (الكهف: 42) يعني إن قلت سأفعل كذا غداً، ثم نسيت أن تقول إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك، فاذكر ربك، أي قل إن شاء الله، أي لتتدارك بذلك الأدب، مع الله الذي فاتك عند وقته، بسبب النسيان وتخرج من عهدة النهي في قوله تعالى {وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِيَّائِي قَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}.

والتعليق بهذه المشيئة المتأخرة لأجل المعنى المذكور، الذي هو ظاهر الآية الصحيح لا يخالف مذهباً من المذاهب الأربعة ولا غيرهم، وهو التحقيق في مراد ابن عباس بما ينقل عنه من جواز تأخير الاستثناء كما أوضحه كبير المفسرين. أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله.

وقد قدمنا إيضاحه في الكلام على آية الكهف هذه. فيا أتباع الصاوي المقلدين له تقليداً أعمى على جهالة عمياء، أين دل ظاهر آية الكهف هذه، على اليمين بالله، أو بالطلاق أو بالعتق أو بغير ذلك من الأيمان؟

هل النبي صلى الله عليه وسلم حلف لما قال للكفار: سأخبركم غداً؟ وهل قال الله: ولا تقولن لشيءٍ إني حالف سأفعل ذلك غداً؟

ومن أين جئتم باليمين، حتى قلتم إن ظاهر القرآن، هو حل الأيمان بالمشيئة المتأخرة عنها، وبنيتم على ذلك أن ظاهر الآية مخالف لمذاهب الأئمة الأربعة، وأن العمل بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟

ومما يزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما قاله الصاوي أيضاً في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: {قَامًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِيبٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ يُتِغَاءَ لُفْتَةً وَ يُتِغَاءَ تَأْوِيلَهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ} فإنه قال على كلام الجلال ما نصه: زيغ أي ميل عن الحق للباطل، قوله: بوقوعهم في الشبهات واللبس،

أي كنصاري نجران، ومن هذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة اهـ. فانظر رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله وما أجراً قائله على انتهاك حرمت الله، وكتابه ونبيه وسنته صلى الله عليه وسلم، وما أدله على أن صاحبه لا يدري ما يتكلم به. فإنه جعل ما قاله نصارى نجران، هو ظاهر كتاب الله، ولذا جعل مثلهم من هذا حذوهم فأخذ بظاهر القرآن. وذكر أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر مع أنه لا يدري وجه ادعاء نصارى نجران على ظاهر القرآن أنه كفر، مع أنه مسلم أن ادعاءهم على ظاهر القرآن أنه كفرهم ومن هذا حذوهم ادعاء صحيح إلا أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. وقد قال قبل هذا: قيل سبب نزولها أن وفد نجران قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألسنت تقول: إن عيسى روح الله وكلمته؟ فقال نعم، فقالوا حسبنا، أي كفانا ذلك في كونه ابن الله. فنزلت الآية.

فاتضح أن الصاوي يعتقد أن ادعاء نصارى نجران أن ظاهر قوله تعالى: {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ} هو أن عيسى ابن الله ادعاء صحيح، وبنى على ذلك أن العلماء قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

وهذا كله من أشنع الباطل وأعظمه، فالآية لا يفهم من ظاهرها البتة، بوجه من الوجوه، ولا بدلالة من الدلالات، أن عيسى ابن الله، وادعاء نصارى نجران ذلك كذب بحت.

فقول الصاوي كنصارى نجران، ومن هذا حذوهم ممن أخذ بظواهر القرآن صريح في أنه يعتقد أن ما ادعاه وفد نجران من كون عيسى ابن الله هو ظاهر القرآن اعتقاد باطل باطل باطل، حاشا القرآن العظيم من أن يكون هذا الكفر البواح ظاهره، بل هو لا يدل عليه البتة فضلاً عن أن يكون ظاهره وقوله: {وَرُوحٌ مِّنْهُ} كقوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} أي كل ذلك من عيسى ومن تسخير السماوات والأرض مبدؤه ومنشؤه جل وعلا.

فلفظة من في الآيتين لابتداء الغاية، وذلك هو ظاهر القرآن وهو الحق خلافاً لما زعمه الصاوي وحكاه عن نصارى نجران.

وقد اتضح بما ذكرنا أن الذين يقولون: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر لا يعلمون ما هي الظواهر وأنهم يعتقدون شيئاً ظاهر النص. والواقع أن النص لا يدل عليه بحال من الأحوال فضلاً عن أن يكون ظاهره. فبنوا باطلاً على باطل، ولا شك أن الباطل لا يبنى عليه إلا الباطل. ولو تصوروا معاني ظواهر الكتاب والسنة على حقيقتها لمنعهم ذلك، من أن يقولوا ما قالوا.

فتصور الصاوي، أن ظاهر الآية الكهف المتقدمة، هو حل الأيمان، بالتعليق بالمشيئة المتأخر زمنها عن اليمين، وبنائه على ذلك مخالفة ظاهر الآية لمذاهب الأئمة الأربعة، وأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، مع أن الآية لا تشير أصلاً إلى ما اعتقد أنه ظاهرها.

وكذلك اعتقاده أن ظاهر آية آل عمران المذكورة هو ما زعمه نصارى نجران، من أن عيسى ابن الله فإنه كله باطل وليس شيء مما زعم ظاهر القرآن مطلقاً، كما لا يخفى على عاقل.

وقول الصاوي في كلامه المذكور في سورة آل عمران: إن العلماء قالوا: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر. قول باطل لا يشك في بطلانه من عنده أدنى معرفة.

ومن هم العلماء الذين قالوا إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟

سموهم لنا، وبينوا لنا من هم؟

والحق الذي لا شك فيه أن هذا القول لا يقوله عالم، ولا متعلم، لأن ظواهر الكتاب والسنة هي نور الله الذي أنزله على رسوله ليستضاء به في أرضه وتقام به حدوده، وتنفذ به أوامره، وينصف به بين عباده في أرضه. والنصوص القطعية التي لا احتمال فيها قليلة جداً لا يكاد يوجد منها إلا أمثلة قليلة جداً كقوله تعالى: {قَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي لِحَجٍّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ}.

والغالب الذي هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب والسنة ظواهر.

وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه، إلى المحتمل المرجوح، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول.

فتنفير الناس وإبعادها عن كتاب الله، وسنة رسوله، بدعوى أن الأخذ بظواهرهما من أصول الكفر هو من أشنع الباطل وأعظمه كما ترى. وأصول الكفر يجب على كل مسلم أن يحذر منها كل الحذر، ويتباعد منها كل التباعد ويتجنب أسبابها كل الاجتناب، فيلزم على هذا القول المنكر الشنيع وجوب التباعد من الأخذ بظواهر الوحي.

وهذا كما ترى، وبما ذكرنا يتبين أن من أعظم أسباب الضلال، ادعاء أن ظواهر الكتاب والسنة دالة على معان قبيحة، ليست بلائقة.

والواقع في نفس الأمر بعدها وبراءتها من ذلك.

وسبب تلك الدعوى الشنيعة على ظواهر كتاب الله، وسنة رسوله، هو عدم معرفة مدعيها.

ولأجل هذه البلية العظمى، والطامة الكبرى، زعم كثير من النظار الذين عندهم فهم، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها، غير لائقة بالله، لأن ظواهرها المتبادرة منها هو تشبيه صفات الله بصفات خلقه، وعقد ذلك المقري في إضائه في قوله: والنص إن أوهم غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق فاصرفه عن ظاهره إجماعاً واقطع عن الممتنع الأطماعاً

وهذه الدعوى الباطلة، من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم.

والواقع في نفس الأمر أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها المتبادرة منها، لكل مسلم راجع عقله، هي مخالفة صفات الله لصفات خلقه. ولا بد أن نتساءل هنا فنقول:

أليس الظاهر المتبادر مخالفة الخالق للمخلوق، في الذات والصفات والأفعال؟

والجواب الذي لا جواب غيره: بلى.

وهل تشابهت صفات الله مع صفات خلقه حتى يقال إن اللفظ الدال على صفته تعالى ظاهره المتبادر منه تشبيهه بصفة الخلق؟

والجواب الذي لا جواب غيره: لا.

فبأي وجه يتصور عاقل أن لفظاً أنزله الله في كتابه، مثلاً دالاً على صفة من صفات الله أثنى بها تعالى على نفسه، يكون ظاهره المتبادر منه، مشابهته لصفة الخلق؟ {سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ}.

فالخالق والمخلوق متخالفان كل التخالف وصفاتهما متخالفة كل التخالف. فبأي وجه يعقل دخول صفة المخلوق في اللفظ الدال على صفة الخالق؟ أو دخول صفة الخالق في اللفظ الدال على صفة المخلوق مع كمال المنافاة بين الخالق والمخلوق؟

فكل لفظ دل على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لائقاً بالخالق منزهاً عن مشابهة صفات المخلوق.

وكذلك اللفظ الدال على صفة المخلوق لا يعقل أن تدخل فيه صفة الخالق. فالظاهر المتبادر من لفظ اليد بالنسبة للمخلوق، هو كونها جارحة هي عظم ولحم ودم، وهذا هو الذي يتبادر إلى الذهن في نحو قوله تعالى: {وَاقْطُوعُ أَيْدِيَهُمَا}.

والظاهر المتبادر من اليد بالنسبة للخالق في نحو قوله تعالى: {مَا مَتَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّْ} أنها صفة كمال وجلال، لائقة بالله جل وعلا ثابتة له على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

وقد بين جل وعلا عظم هذه الصفة وما هي عليه من الكمال والجلال، وبين أنها من صفات التأثير كالقدرة، قال تعالى في تعظيم شأنها {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

وبين أنها صفة تأثير كالقدرة، في قوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَتَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّْ}، فتصرّحه تعالى بأنه خلق نبيه آدم بهذه الصفة العظيمة التي هي صفات كماله وجلاله يدل على أنها من صفات التأثير كما ترى.

ولا يصح هنا تأويل اليد بالقدرة ألبتة، لإجماع أهل الحق والباطل، كلهم على أنه لا يجوز تثنية القدرة.

ولا يخطر في ذهن المسلم المراجع عقله، دخول الجارحة التي هي عظم ولحم ودم في معنى هذا اللفظ، الدال على هذه الصفة العظيمة، من صفات خالق السماوات والأرض.

فاعلم أيها المدعي أن ظاهر لفظ اليد في الآية المذكورة وأمثالها، لا يليق بالله، لأن ظاهرها التشبيه بجارحة الإنسان، وأنها يجب صرفها، عن هذا الظاهر الخبيث، ولم تكف بهذا حتى ادعيت الإجماع على صرفها عن ظاهرها. إن قولك هذا كله افتراء عظيم على الله تعالى، وعلى كتابه العظيم، وإنك بسبه كنت أعظم المشبهين والمجسمين، وقد جرك شؤم هذا التشبيه، إلى ورطة التعطيل، فنفيت الوصف الذي أثبتته الله في كتابه لنفسه بدعوى أنه لا يليق به، وأولته بمعنى آخر من تلقاء نفسك بلا مستند من كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا قول أحد من السلف.

وماذا عليك لو صدقت الله وأمنت بما مدح به نفسه على الوجه اللائق بكماله وجلاله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل؟ وبأي موجب سوغت لذهنك أن يخطر فيه صفة المخلوق عند ذكر صفة الخالق؟

هل تلبس صفة الخالق بصفة المخلوق عن أحد؟ حتى يفهم صفة المخلوق من اللفظ الدال على صفة الخالق؟

فاخش الله يا إنسان، واحذر من القول على الله بلا علم، وآمن بما جاء في كتاب الله مع تنزيه الله عن مشابهة خلقه.

واعلم أن الله الذي أحاط علمه بكل شيء لا يخفى عليه الفرق بين الوصف اللائق به والوصف غير اللائق به، حتى يأتي إنسان فيتحكم في ذلك فيقول: هذا الذي وصفت به نفسك غير لائق بك، وأنا أنفيه عنك بلا مستند منك ولا من رسولك، وأتيتك بدله بالوصف اللائق بك.

فإلذم مثلاً التي وصفت بها نفسك لا تليق بك لدلالاتها على التشبيه بالجارحة، وأنا أنفيها عنك نفيًا باتًا، وأبدلها لك بوصف لائق بك وهو النعمة أو القدرة مثلاً أو الجود.

{ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ }
 { وَقَالُوا اللَّهُ يَأُولَى الْأَلْبَابِ لِذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا سُوْلًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ لِّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }.

ومن الغريب أن بعض الجاحدين لصفات الله المؤولين لها بمعان لم ترد عن الله ولا عن رسوله يؤمنون فيها ببعض الكتاب دون بعض.

فيقرون بأن الصفات السبع التي تشتق منها أوصاف ثابتة لله مع التنزيه، ونعني بها القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، لأنها يشتق منها قادر حي عليم إلخ. وكذلك في بعض الصفات الجامعة كالعظمة والكبرياء والملك والجلال مثلاً، لأنها يشتق منها العظيم المتكبر والجليل والملك، وهكذا يجحدون كل صفة ثبتت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم يشتق منها غيرها كصفة اليد والوجه ونحو ذلك، ولا شك أن هذا التفريق بين صفات الله التي أثبتتها لنفسه أو أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم لا وجه له ألبتة بوجه من الوجوه.

ولم يرد عن الله ولا عن رسوله صلى الله عليه وسلم الإذن في الإيمان ببعض صفاته ووجد بعضها، وتأويله لأنها لا يشتق منها.

وهل يتصور عاقل أن يكون عدم الاشتقاق مسوغاً لجحد ما وصف الله به نفسه؟

ولا شك عند كل مسلم راجع عقله، أن عدم الاشتقاق لا يرد به كلام الله، فيما أثنى به على نفسه، ولا كلام رسوله فيما وصف به ربه. والسبب الموجب للإيمان إيجاباً حتماً كلياً هو كونه من عند الله، وهذا السبب هو الذي علم الراسخون في العلم أنه الموجب للإيمان بكل ما جاء عن الله سواء استأثر الله بعلمه كالمتشابه، أو كان مما يعلمه الراسخون في العلم كما قال الله عنهم: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا}.

فلا شك أن قوله تعالى: {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} من عند ربنا. وقوله تعالى: {وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} من عند ربنا أيضاً، فيجب علينا الإيمان بالجميع، لأنه كله من عند ربنا. أما الذي يفرق بينه، وهو عالم بأن كله من عند ربه، بأن هذا يشتق منه، وهذا لا يشتق منه فقد أمن ببعض الكتاب دون بعض. والمقصود أن كلما جاء من عند الله، يجب الإيمان به سواء كان من المتشابه، أو من غير المتشابه، وسواء كان يشتق منه أو لا. ومعلوم أن مالكا رحمه الله سئل كيف استوى، فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب. وما يزعمه بعضهم من أن القدرة والإرادة مثلاً ونحوهما ليست كاليد، والوجه، بدعوى أن القدرة والإرادة مثلاً ظهرت آثارهما في العالم العلوي والسفلي بخلاف غيرهما كصفة اليد ونحوها فهو من أعظم الباطل. ومما يوضح ذلك أن الذي يقوله هو وأبوه وجده من آثار صفة اليد التي خلق الله بها نبيه آدم.

ونحن نرجو أن يغفر الله تعالى للذين ماتوا على هذا الاعتقاد، لأنهم لا يقصدون تشبيه الله بخلقه، وإنما يحاولون تنزيهه عن مشابهة خلقه. فقصدهم حسن ولكن طريقهم إلى ذلك القصد سيئة. وإنما نشأ لهم ذلك السوء بسبب أنهم ظنوا لفظ الصفة التي مدح الله بها نفسه يدل ظاهره على مشابهة صفة الخلق فنفوا الصفة التي ظنوا أنها لا تليق قصداً منهم لتنزيه الله، وأولوها بمعنى آخر يقتضي التنزيه في ظنهم فهم كما قال الشافعي رحمه الله: رام نفعاً فضر من غير قصد ومن البر ما يكون عقوقاً

ونحن نرجو أن يغفر الله لهم خطأهم، وأن يكونوا داخلين في قوله تعالى: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}.

وخطوهم المذكور لا شك فيه، ولو وفقهم الله لتطهير قلوبهم من التشبيه أولاً، وجزموا بأن ظاهر صفة الخالق هو التنزيه عن مشابهة صفة المخلوق، لسلموا مما وقعوا فيه.

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم، عالم كل العلم، بأن الظاهر المتبادر، مما مدح الله به نفسه، في آيات الصفات هو التنزيه التام عن صفات الخلق، ولو كان يخطر في ذهنه أن ظاهره لا يليق، لأنه تشبيه بصفات الخلق، لبادر كل المبادرة إلى بيان ذلك، لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه، ولا سيما في العقائد، ولا سيما فيما ظاهره الكفر والتشبيه. فسكوت النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان هذا يدل على أن ما زعمه المؤلون لا أساس له كما ترى.

فإن قيل: إن هذا القرآن العظيم، نزل بلسان عربي مبين، والعرب لا تعرف في لغتها، كيفية لليد مثلاً، إلا كيفية المعاني المعروفة عندها كالجارحة، وغيرها من معاني اليد المعروفة في اللغة، فبينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم.

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن العرب لا تدرك كيفيات صفات الله من لغتها، لشدة منافاة صفة الله لصفة الخلق.

والعرب لا تعرف عقولهم كيفيات إلا لصفات الخلق، فلا تعرف العرب كيفية للسمع والبصر، إلا هذه المشاهدة، في حاسة الأذن والعين، أما سمع لا يقوم بإذن وبصر لا يقوم بحدقة، فهذا لا يعرفون له كيفية البتة.

فلا فرق بين السمع والبصر، وبين اليد والاستواء، فالذي تعرف كيفيته العرب من لغتها من جميع ذلك، هو المشاهد في المخلوقات.

وأما الذي اتصف الله به من ذلك، فلا تعرف له العرب كيفية، ولا حداً لمخالفة صفاته لصفات الخلق، إلا أنهم يعرفون من لغتهم أصل المعنى، كما قال الإمام مالك رحمه الله: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

كما يعرفون من لغتهم، أن بين الخالق والمخلوق، والرزق والمرزوق، والمحبي والمحيا، والمميت والممات. فوارق عظيمة لا حد لها، تستلزم المخالفة، التامة، بين صفات الخالق والمخلوق.

الوجه الثاني: أن نقول لمن قال: بينوا لنا كيفية لليد ملائمة لما ذكرتم، من كونها صفة كمال، وجلال، منزهة عن مشابهة جارحة المخلوق.

هل عرفت كيفية الذات المقدسة المتصفة باليد، فلا بد أن يقول: لا. فإن قال ذلك.

قلنا: معرفة كيفية الصفات تتوقف على معرفة كيفية الذات.

فالذات والصفات من باب واحد.

فكما أن ذاته جل وعلا تخالف جميع الذوات، فإن صفاته تخالف جميع الصفات.

ومعلوم أن الصفات، تختلف وتتباين، باختلاف موصوفاتها.

ألا ترى مثلاً أن لفظة رأس كلمة واحدة؟

إن أضفتها إلى الإنسان فقلت رأس الإنسان، وإلى الوادي فقلت رأس الوادي، وإلى المال فقلت رأس المال، وإلى الجبل فقلت رأس الجبل.

فإن كلمة الرأس اختلفت معانيها، وتباينت تبايناً شديداً بحسب اختلاف إضافتها مع أنها في مخلوقات حقيرة. فما بالك بما أضيف من الصفات إلى الله وما أضيف منها إلى خلقه، فإنه يتباين كتباين الخالق والمخلوق، كما لا يخفى. فاتضح بما ذكر أن الشرط في قول المقرري في إضاءته: * والنص إن أوهم غير اللائق *

شرط مفقود قطعاً، لأن نصوص الوحي الواردة في صفات الله، لا تدل ظواهرها ألبتة، إلا على تنزيه الله، ومخالفته لخلقه في الذات والصفات والأفعال.

فكل المسلمين، الذين يراجعون عقولهم، لا يشك أحد منهم في أن الظاهر المتبادر السابق إلى ذهن المسلم، هو مخالفة الله لخلقه، كما نص عليه بقوله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ونحو ذلك من الآيات، وبذلك تعلم أن الإجماع الذي بناه على ذلك في قوله: * فاصرفه عن ظاهره إجماعاً *

إجماع مفقود أصلاً، ولا وجود له ألبتة، لأنه مبني على شرط مفقود لا وجود له ألبتة.

فالإجماع المعدوم المزعوم لم يرد في كتاب الله، ولا في سنة رسوله، ولم يقله أحد من أصحاب رسول الله، ولا من تابعيهم ولم يقله أحد من الأئمة الأربعة، ولا من فقهاء الأمصار المعروفين. وإنما لم يقولوا بذلك لأنهم يعلمون أن ظواهر نصوص الوحي لا تدل إلا على تنزيه الله عن مشابهة خلقه، وهذا الظاهر الذي هو تنزيه الله لا داعي لصرفها عنه كما ترى.

ولأجل هذا كله قلنا في مقدمة هذا الكتاب المبارك، إن الله تبارك وتعالى موصوف بتلك الصفات حقيقة لا مجازاً، لأننا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه شك، أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها، لا تدل ألبتة إلا على التنزيه عن مشابهة الخلق واتصافه تعالى بالكمال والجلال.

وإثبات التنزيه والكمال والجلال لله حقيقة لا مجازاً لا ينكره مسلم. ومما يدعو إلى التصريح بلفظ الحقيقة، ونفي المجاز، كثرة الجاهلين الزاعمين أن تلك الصفات لا حقائق لها، وأنها كلها مجازات. وجعلوا ذلك طريقاً إلى نفيها، لأن المجاز يجوز نفيه، والحقيقة لا يجوز نفيها. فقالوا مثلاً: اليد مجاز يراد به القدرة والنعمة أو الجود، فنفوا صفة اليد، لأنها مجاز.

وقالوا على العرش استوى: مجاز فنفوا الاستواء، لأنه مجاز. وقالوا: معنى استوى: استولى، وشبهوا استيلاءه باستيلاء بشر بن مروان على العراق.

ولو تدبروا كتاب الله، لمنعهم ذلك من تبديل الاستواء بالاستيلاء، وتبديل اليد بالقدرة، أو النعمة، لأن الله جل وعلا يقول في محكم كتابه في سورة البقرة {قَبَدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}. ويقول في الأعراف {قَبَدَلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} فالقول الذي قاله الله لهم، هو قوله حطة، وهي فعلة من الحط بمعنى الوضع خبر مبتدأ محذوف أي دعاؤنا ومسألتنا لك حطة لذنوبنا أي حط ووضع لها عنا فهي بمعنى طلب المغفرة، وفي بعض روايات الحديث في شأنهم أنهم بدلوا هذا القول بأن زادوا نونا فقط فقالوا حنطة وهي القمح. وأهل التأويل قيل لهم على العرش استوى. فزادوا لا ما فقالوا استولى.

وهذه اللام التي زادوها أشبه شيء بالنون التي زادها اليهود في قوله تعالى {وَقُولُوا حِطَّةٌ}. ويقول الله جل وعلا في منع تبديل القرآن بغيره: {قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَدَّبُهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسٍ إِذْ أَنْبِئْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ لِيُحَافَظَ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

ولا شك أن من بدل استوى باستولى مثلاً لم يتبع ما أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

فعليه أن يجتنب التبديل ويخاف العذاب العظيم، الذي خافه رسول الله صلى الله عليه وسلم لو عصا الله فبدل قرآناً بغيره المذكور في قوله {لِيُحَافَظَ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

واليهود لم ينكروا أن اللفظ الذي قاله الله لهم: هو لفظ حطة ولكنهم حرفوه بالزيادة المذكورة.

وأهل هذه المقالة، لم ينكروا أن كلمة القرآن هي استوى، ولكن حرفوها وقالوا في معناها استولى وإنما أبدلوها بها، لأنها أصلح في زعمهم من لفظ كلمة القرآن، لأن كلمة القرآن توهم غير اللائق، وكلمة استولى في زعمهم هي المنزهة اللائقة بالله مع أنه لا يعقل تشبيهه أشنع من تشبيهه استيلاء الله على عرشه المزعوم، باستيلاء بشر على العراق.

وهل كان أحد يغالب الله على عرشه حتى غلبه على العرش، واستولى عليه؟ وهل يوجد شيء إلا والله مستول عليه، فالله مستول على كل شيء. وهل يجوز أن يقال إنه تعالى استوى على كل شيء غير العرش؟ فافهم.

وعلى كل حال، فإن المؤول، زعم أن الاستواء يوهم غير اللائق بالله لاستلزامه مشابهة استواء الخلق، وجاء بدله بالاستيلاء، لأنه هو اللائق به في زعمه، ولم ينتبه.

لأن تشبيه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشر بن مروان على العراق هو أفضح أنواع التشبيه، وليس بلائق قطعاً، إلا أنه يقول: إن الاستيلاء المزعوم منزّه، عن مشابهة استيلاء الخلق مع أنه ضرب له المثل باستيلاء بشر على العراق والله يقول {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}. ونحن نقول: أيها المؤول هذا التأويل، نحن نسألك إذا علمت أنه لا بد من تنزيه أحد اللفظين أعني لفظ {سُتُوِي} الذي أنزل الله به الملك على النبي صلى الله عليه وسلم قرآناً يتلى، كل حرف منه عشر حسنات ومن أنكر أنه من كتاب الله كفر.

ولفظة استولى التي جاء بها قوم من تلقاء أنفسهم من غير استناد إلى نص من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قول أحد من السلف. فأى الكلمتين أحق بالتنزيه في رأيك. الأحق بالتنزيه كلمة القرآن، المنزلة من الله على رسوله، أم كلمتكم التي جئتم بها، من تلقاء أنفسكم، من غير مستند أصلاً؟

ونحن لا يخفى علينا الجواب الصحيح، عن هذا السؤال إن كنت لا تعرفه. واعلم أننا ذكرنا من أن ما وصف الله به نفسه من الصفات، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً، على الوجه اللائق بكماله وجلاله. وأنه لا فرق ألبتة بين صفة يشتق منها وصف، كالسمع والبصر والحياة. وبين صفة لا يشتق منها كالوجه واليد. وأن تأويل الصفات كتأويل الاستواء بالاستيلاء لا يجوز ولا يصح. هو معتقد أبي الحسن الأشعري رحمه الله. وهو معتقد عامة السلف، وهو الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فمن ادعى على أبي الحسن الأشعري، أنه يؤول صفة من الصفات، كالوجه واليد والاستواء، ونحو ذلك فقد افترى عليه افتراء عظيماً. بل الأشعري رحمه الله مصرح في كتبه العظيمة التي صنفها بعد رجوعه عن الاعتزال، (كالموجز)، (ومقالات الإسلاميين واختلاف المصلين)، (والإبانة عن أصول الديانة) أن معتقده الذي يدين الله به هو ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وإثبات ذلك كله من غير كيف ولا تشبيه ولا تعطيل. وأن ذلك لا يصح تأويله ولا القول بالمجاز فيه. وأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو مذهب المعتزلة ومن ضاهاهم. وهو أعلم الناس بأقوال المعتزلة لأنه كان أعظم إمام في مذهبهم، قبل أن يهديه الله إلى الحق، وسنذكر لك هنا بعض نصوص أبي الحسن الأشعري رحمه الله لتعلم صحة ما ذكرنا عنه. قال رحمه الله (في كتاب الإبانة عن أصول الديانة)، الذي قال غير واحد أنه آخر كتاب صنفه، ما نصه:

فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة، والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون قيل له:

قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث. ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون.

لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين، وزبغ الزائغين وشك الشاكين.

فرحمة الله عليه من إمام مقدم و خليل معظم مفخم، وعلى جميع أئمة المسلمين.

وجملة قولنا: أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نرد من ذلك شيئاً. وأن الله عز وجل إله واحد لا إله إلا هو فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. وأن الله استوى على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَيَّ لِعَرْشِ سِتْوَى} وأن له وجهاً كما قال: {وَبَيَّعَى وَجْهَهُ رَبِّكَ دُو لَجَلِّلٍ وَالأِكْرَامِ}. وأن له يدين بلا كيف كما قال {خَلَفْتُ بِيَدَيْيَّ} وكما قال {بَلَّ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}، وأن له عينان بلا كيف كما قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} اهـ. محل الغرض منه بلفظه. وبه تعلم أن من يفترى على الأشعري أنه من المؤولين المدعين أن ظاهر آيات الصفات وأحاديثها لا يليق الله كاذب عليه كذباً شنيعاً. وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتاب الإبانة أيضاً في إثبات الاستواء لله تعالى ما نصه:

إن قال قائل ما تقولون في الاستواء؟ قيل له نقول: إن الله عز وجل مستو على عرشه كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَيَّ لِعَرْشِ سِتْوَى}. وقد قال الله عز وجل: {إِلَيْهِ يَهْتَدُ لِكَلِمٍ الطَّيِّبِ} وقد قال: {بَلَّ رَفَعَهُ اللُّهُ إِلَيْهِ}. قال عز وجل {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ}. وقال حكاية عن فرعون: {يَهْمَنُ إِن لِّي صَرْحاً لَعَنَّا أَبْلَغُ الأَسْبَابِ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِباً}.

فكذب فرعون نبي الله موسى عليه السلام في قوله: (إن الله عز وجل فوق السماوات). وقال عز وجل: {أَءَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الأَرْضَ}.

فالسماوات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السماوات: قال {أَءَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ} لأنه مستو على العرش الذي فوق السماوات، وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السماوات. هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة المذكور.

وقد أطال رحمه الله في الكلام بذكر الأدلة القرآنية، في إثبات صفة الاستواء، وصفة العلو لله جل وعلا. ومن جملة كلامه المشار إليه ما نصه:

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية: إن قول الله عز وجل {الرَّحْمَنُ عَلَيَّ لِعَرْشِ سِتْوَى} أنه استولى وملك وقهر، وأن الله عز وجل في كل مكان. ووجدوا أن يكون الله عز وجل على عرشه كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة.

ولو كان هذا كما ذكره كان لا فرق بين العرش والأرض، فالله سبحانه قادر عليها وعلى الحشوش، وعلى كل ما في العالم.

فلو كان الله مستويًا علي العرش بمعنى الاستيلاء وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها لكان مستويًا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأفراد، لأنه قادر على الأشياء مستول عليها. وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله عز وجل مستول على الحشوش والأخلية، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها. ووجب أن يكون معناه استواء يختص العرش دون الأشياء كلها. وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله عز وجل في كل مكان فلزمهم أنه في بطن مريم وفي الحشوش والأخلية. وهذا خلاف الدين، تعالى الله عن قولهم. اهـ. هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في آخر مصنفاته. وهو كتاب الإبانة عن أصول الديانة.

وتراه صرح رحمه الله بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء هو قول المعتزلة والجهمية والحرورية لا قول أحد من أهل السنة وأقام البراهين الواضحة على بطلان ذلك.

فليعلم مؤولو الاستواء بالاستيلاء أن سلفه في ذلك المعتزلة والجهمية والحرورية، لا أبو الحسن الأشعري رحمه الله ولا أحد من السلف. وقد أوضحنا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}. أن قول الجهمية ومن تبعهم: إن الله في كل مكان قول باطل. لأن جميع الأمكنة الموجودة، أحقر وأقل وأصغر، من أن يسع شيء منها خالق السماوات والأرض، الذي هو أعظم وأكبر من كل شيء، وهو محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء.

فانظر إيضاح ذلك في الأنعام. واعلم أن ما يزعمه كثير من الجهلة، من أن ما في القرآن العظيم، من صفة الاستواء والعلو والفوقية، يستلزم الجهة، وأن ذلك محال على الله، وأنه يجب نفي الاستواء والعلو والفوقية، وتأويلها بما لا دليل عليه من المعاني كله باطل.

وسببه سوء الظن بالله وبكتابه، وعلى كل حال فمدعي لزوم الجهة لظواهر نصوص القرآن العظيم. واستلزام ذلك للنقص الموجب للتأويل يقال له: ما مرادك بالجهة؟

إن كنت تريد بالجهة مكاناً موجوداً، انحصر فيه الله، فهذا ليس بظاهر القرآن، ولم يقله أحد من المسلمين. وإن كنت تريد بالجهة العدم المحض. فالعدم عبارة عن لا شيء.

فميز أولاً، بين الشيء الموجود وبين لا شيء. وقد قال أيضاً أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة أيضاً ما نصه: فإن سئلتنا أتقولون إن لله يدين؟ قيل نقول ذلك، وقد دل عليه قوله عز وجل: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}. وقوله عز وجل: {لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدَيَّ}.

وأطال رحمه الله، الكلام في ذكر الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفة
اليدين لله.

ومن جملة ما قال ما نصه:
ويقال لهم: لم أنكرتم أن يكون الله عز وجل عني بقوله: {يَدَيَّ} يدين ليستا
نعمتين.

فإن قالوا: لأن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة.
قيل لهم: ولم قضيتم أن اليد إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة؟
فإن رجوعنا إلى شاهدنا، وإلى ما نجد فينا من الخلق؟
فقالوا: اليد إذا لم تكن نعمة في الشاهد لم تكن إلا جارحة.
قيل لهم: إن عملتم على الشاهد وقضيتم به على الله عز وجل فكذلك لم
نجد حياً من الخلق، إلا جسماً لحماً ودماً، فاقضوا بذلك على الله عز وجل.
وإن أثبتتم حياً لا كالأحياء منا.

فلم أنكرتم أن تكون اليدين اللتان أخبر الله عز وجل عنهما، يدين ليستا
نعمتين ولا جارحتين ولا كالأيدي؟
وكذلك يقال لهم:

لم تجدوا مدبراً حكيماً إلا إنساناً، ثم أثبتتم أن للدنيا مدبراً حكيماً، ليس
كالإنسان، وخالفتم الشاهد ونقضتم اعتلالكم.
فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين، من أجل أن ذلك خلاف
الشاهد اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أن الأشعري رحمه الله، يعتقد أن الصفات التي أنكرها المؤولون
كصفة اليد، من جملة صفات المعاني كالحياة ونحوها، وأنه لا فرق ألبتة بين
صفة اليد وصفة الحياة فما اتصف الله به من جميع ذلك فهو منزه عن
مشابهة ما اتصف به الخلق منه.
واللازم لمن شبه في بعض الصفات ونزه في بعضها أن يشبه في جميعها أو
ينزه في جميعها، كما قاله الأشعري.

أما ادعاء ظهور التشبيه في بعضها دون بعض، فلا وجه له بحال من الأحوال،
لأن الموصوف بها واحد، وهو منزه عن مشابهة صفات خلقه.
ومن جملة كلام أبي الحسن الأشعري رحمه الله المشار إليها آنفاً في إثبات
الصفات ما نصه:

فإن قال قائل: لم أنكرتم أن يكون قوله: {مِمَّا عَمِلْتُ أَيَّدِيَّآ} وقوله {لِمَا
خَلَقْتُ يَدَيَّ} على المجاز؟

قيل له: حكم كلام الله عز وجل أن يكون على ظاهره وحقيقته ولا يخرج
الشيء عن ظاهره إلى المجاز إلا لحجة.

ألا ترون أنه إذا كان ظاهر الكلام العموم فإذا ورد بلفظ العموم، والمراد به
الخصوص، فليس هو على حقيقة الظاهر؟

وليس يجوز أن يعدل بما ظاهره العموم عن العموم بغير حجة؟
كذلك قول الله عز وجل {لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ} على ظاهره وحقيقته من إثبات
اليدين، ولا يجوز أن يعدل به عن ظاهر اليدين إلى ما ادعاه خصومنا إلا بحجة.

ولو جاز ذلك لمدع أن يدعي أن ما ظاهره العموم، فهو على الخصوص، وما ظاهره الخصوص فهو على العموم بغير حجة. وإذا لم يجر هذا لمدعيه بغير برهان، لم يجر لكم ما ادعيتموه، أنه مجاز بغير حجة.

بل واجب أن يكون قوله {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} إثبات يدين لله تعالى في الحقيقة غير نعمتين إذا كانت النعمتان لا يجوز عند أهل اللسان أن يقول قائلهم: فعلت بيدي وهو يعني النعمتين. أهـ محل الغرض منه بلفظه. وفيه تصريح أبي الحسن الأشعري رحمه الله، بأن صفات الله كصفة اليد ثابتة له حقيقة لا مجازاً، وأن المدعين أنها مجازهم خصومه وهو خصمهم كما ترى. وإنما قال رحمه الله: إنه تعالى متصف بها حقيقة لا مجازاً، لأنه لا يشك في أن ظاهر صفة الله هو مخالفة صفة الخلق، وتنزيهها عن مشابهتها كما هو شأن السلف الصالح كلهم.

فإثبات الحقيقة ونفي المجاز في صفات الله هو اعتقاد كل مسلم طاهر القلب من أقدار التشبيه، لأنه لا يسبق إلى ذهنه من اللفظ الدال على الصفة كصفة اليد والوجه إلا أنها صفة كمال منزهة عن مشابهة صفات الخلق. فلا يخطر في ذهنه التشبيه الذي هو سبب نفي الصفة وتأويلها بمعنى لا أصل له.

تنبيه مهم

فإن قيل دل الكتاب والسنة وإجماع السلف على أن الله وصف نفسه بصفة اليدين كقوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}. وقوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} وقوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}.

والأحاديث الدالة على مثل ما دلت عليه الآيات المذكورة كثيرة، كما هو معلوم، وأجمع المسلمون على أنه جل وعلا، لا يجوز أن يوصف بصفة الأيدي مع أنه تعالى قال {أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} فلم أجمع المسلمون على تقديم آية لما خلقت بيدي على آية مما عملت أيدينا؟

فالجواب: أنه لا خلاف بين أهل اللسان العربي ولا بين المسلمين أن صيغ الجمع تأتي لمعنيين أحدهما إرادة التعظيم فقط، فلا يدخل في صيغة الجمع تعدد أصلاً، لأن صيغة الجمع المراد بها التعظيم، إنما يراد بها واحد. والثاني أن يراد بصيغة الجمع معنى الجمع المعروف، وإذا علمت ذلك، فاعلم أن القرآن العظيم. يكثر فيه جداً إطلاق الله جل وعلا، على نفسه صيغة الجمع، يريد بذلك تعظيم نفسه، ولا يريد بذلك تعدداً ولا أن معه غيره، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، كقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}.

فصيغة الجمع في قوله: {إِنَّا} وفي قوله: {نَحْنُ} وفي قوله: {نَزَّلْنَا} وقوله: {لَحَافِظُونَ} لا يراد بها أن معه منزلاً للذكر، وحافظاً له غيره تعالى. بل هو وحده المنزل له والحافظ له، وكذلك قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَاءَ ثُمُودَ إِذْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ لَخَالِقُونَ} وقوله {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ لَمْرِنٍ أَمْ

تَحْنُ لِمُنزَلُونَ}. وقوله: {أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ تَحْنُ لِمُنشِئُونَ}، ونحو هذا كثير في القرآن جداً، وبه تعلم أن صيغة الجمع في قوله: {إِنَّا}. وفي قوله: (خلقنا) وفي قوله: {عَمِلْتَ أَيَدِيْنَا} إنما يراد بها التعظيم، ولا يراد بها التعدد أصلاً.

وإذا كان يراد بها التعظيم، لا التعدد علم بذلك أنها لا تصح بها معارضة قوله: {لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ}، لأنها دلت على صفة اليدين، والجمع في قوله: {أَيَدِيْنَا} لمجرد التعظيم.

وما كان كذلك لا يدل على التعدد فيطلب الدليل من غيره، فإن دل على أن المراد بالتعظيم واحد حكم بذلك، كآيات المتقدمة. وإن دل على معنى آخر حكم به.

فقوله مثلاً: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} قام فيه البرهان القطعي أنه حافظ واحد، وكذلك قوله: {أَمْ تَحْنُ لِحَالِقُونَ}، {أَمْ تَحْنُ لِمُنزَلُونَ}، {أَمْ تَحْنُ لِمُنشِئُونَ} فإنه قد قام في كل ذلك البرهان القطعي على أنه خالق واحد، ومنزل واحد، ومنشيء واحد.

وأما قوله: {مِمَّا عَمِلْتَ أَيَدِيْنَا} فقد دل البرهان القطعي، على أن الله موصوف بصفة اليدين كما صرح به في قوله: {لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ} كما تقدم إيضاحه قريباً.

وقد علمت أن صيغة الجمع في قوله: {لَحَافِظُونَ}، وقوله: {أَمْ تَحْنُ لِحَالِقُونَ} وقوله: {أَمْ تَحْنُ لِمُنزَلُونَ} وقوله: {أَمْ تَحْنُ لِمُنشِئُونَ} وقوله: {خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلْتَ أَيَدِيْنَا} لا يراد بشيء منه معنى الجمع، وإنما يراد به التعظيم فقط.

وقد أجاب أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب الإبانة بما يقرب من هذا في المعنى.

واعلم أن لفظ اليدين، قد يستعمل في اللغة العربية استعمالاً خاصاً، بلفظ خاص لا تقصد به في ذلك النعمة ولا الجارحة ولا القدرة، وإنما يراد به معنى أمام.

واللفظ المختص بهذا المعنى هو لفظة اليدين التي أضيفت إليها لفظة بين خاصة، أعني لفظة بين يديه، فإن المراد بهذه اللفظة أمامه. وهو استعمال عربي معروف مشهور في لغة العرب لا يقصد فيه معنى الجارحة ولا النعمة ولا القدرة، ولا أي صفة كائنة ما كانت.

وإنما يراد به أمام فقط كقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} أي ولا بالذي كان أمامه سابقاً عليه من الكتب. وكقوله: {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ} أي مصدقاً لما كان أمامه متقدماً عليه من التوراة.

وكقوله: {فَرِيقًا لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}، فالمراد بلفظ ما بين أيديهم ما أمامهم.

وكقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}، أي يرسل الرياح مبشرات أمام رحمته التي هي المطر، إلى غير ذلك من الآيات.

ومما يوضح لك ذلك أنه لا يمكن تأويل اليمين في ذلك بنعمتين ولا قدرتين ولا جارحتين. ولا غير ذلك من الصفات، فهذا أسلوب خاص دال على معنى خاص. بلفظ خاص مشهور، في كلام العرب فلا صلة له باللفظ الدال على الجارحة، بالنسبة إلى الإنسان ولا باللفظ الدال على صفة الكمال والجلال الثابتة لله تعالى. فافهم.

وقال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في كتابه: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الذي ذكر فيه أقوال جميع أهل الأهواء والبدع والمؤولين والنافين لصفات الله أو بعضها ما نصه:

جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يردون من ذلك شيئاً.

وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله سبحانه على عرشه كما قال {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سُبُّوهُ} وأن له يدين بلا كيف كما قال: {خَلَقْتُ يَدَيَّْ}. وكما قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} إلى أن قال في كلامه هذا، بعد أن سرد مذهب أهل السنة والجماعة. ما نصه:

فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه وبرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل وإليه المصير، هذا لفظ أبي الحسن الأشعري رحمه الله في كتاب المقالات المذكور.

وبه تعلم أنه يؤمن بكل ما جاء عن الله في كتابه وما ثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يرد من ذلك شيئاً ولا ينفية بل يؤمن به ويشبهه لله، بلا كيف ولا تشبيه، كما هو مذهب أهل السنة. وقال أبو الحسن الأشعري أيضاً في كتاب المقالات المذكور ما نصه:

وقال أهل السنة وأصحاب الحديث: ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش كما قال عز وجل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سُبُّوهُ} ولا نقدم بين يدي الله في القول بل نقول: استوى بلا كيف، ثم أطال الكلام رحمه الله، في إثبات الصفات كما قدمنا عنه، ثم قال ما نصه وقالت المعتزلة: إن الله استوى على عرشه بمعنى استولى. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. فتراه صرح في كتاب المقالات المذكور، بأن تأويل الاستواء بالاستيلاء، هو قول المعتزلة لا قوله هو، ولا قول أحد من أهل السنة.

وزاد في كتاب الإبانة مع المعتزلة الجهمية والحرورية كما قدمنا. وبكل ما ذكرنا تعلم أن الأشعري رجع عن الاعتزال إلى مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها.

وقد قدمنا إيضاح الحق في آيات الصفات بالأدلة القرآنية بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ سُبُّوهُ عَلَى الْعَرْشِ}.

واعلم أن أئمة القائلين بالتأويل، رجعوا قبل موتهم عنه، لأنه مذهب غير مأمون العاقبة، لأن مبناه على ادعاء أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها، لا تليق بالله لظهورها وتبادرها في مشابهة صفات الخلق. ثم نفي تلك الصفات الواردة في الآيات والأحاديث، لأجل تلك الدعوى الكاذبة المشؤومة، ثم تأويلها بأشياء آخر، دون مستند من كتاب أو سنة، أو قول صحابي أو أحد من السلف. وكل مذهب هذه حاله، فإنه جدير بالعاقل المفكر أن يرجع عنه إلى مذهب السلف.

وقد أشار تعالى في سورة الفرقان أن وصف الله بالاستواء صادر عن خير بالله، وبصفاته عالم بما يليق به، وبما لا يليق وذلك في قوله تعالى: { لِيَذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ اَيَّامٍ ثُمَّ سَبَّوْا عَلٰى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنِ فَاَسْأَلُ بِهِ خَيْرًا }. فتأمل قوله: { فَاَسْأَلُ بِهِ خَيْرًا }، بعد قوله: { ثُمَّ سَبَّوْا عَلٰى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنِ }، تعلم أن من وصف الرحمن بالاستواء على العرش خير بالرحمن وبصفاته لا يخفى عليه اللائق من الصفات وغير اللائق. فالذي نبأنا بأنه استوى على عرشه هو العليم الخبير الذي هو الرحمن. وقد قال تعالى: { وَلَا يُتَّبَعُ مِثْلُ خَيْرٍ }. وبذلك تعلم أن من يدعي أن الاستواء يستلزم التشبيه، وأنه غير لائق غير خير، نعم والله هو غير خير. وسنذكر هنا إن شاء الله أن أئمة المتكلمين المشهورين رجعوا كلهم عن تأويل الصفات.

أما كبيرهم الذي هو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى أبي الحسن الأشعري، وهو القاضي محمد بن الطيب المعروف بأبي بكر الباقلاني، فإنه كان يؤمن بالصفات على مذهب السلف ويمنع تأويلها منعاً باتاً، ويقول فيها بمثل ما قدمنا عن الأشعري. وسنذكر لك هنا بعض كلامه.

قال الباقلاني المذكور في كتاب التمهيد ما نصه: باب في أن لله وجهاً ويدين، فإن قال قائل. فما الحجة في أن لله عز وجل وجهاً ويدين؟ قيل له قوله: { وَبَيَّنَّا وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ }. وقوله: { مَا مَتَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ }، فأثبت لنفسه وجهاً ويدين. فإن قالوا: فما أنكرتم أن يكون المعنى في قوله { خَلَقْتَ بِيَدَيْ } أنه خلقه بقدرته أو بنعمته، لأن اليد في اللغة قد تكون بمعنى النعمة، وبمعنى القدرة، كما يقال: لي عند فلان يد بيضاء. يراد به نعمة. وكما يقال: هذا الشيء في يد فلان وتحت يد فلان، يراد به أنه تحت قدرته وفي ملكه.

ويقال: رجل أيدي إذا كان قادراً. وكما قال تعالى: { خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَامًا } يريد عملنا بقدرتنا. وقال الشاعر: إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

فكذلك قوله: {خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} يعني بقدرتي أو نعمتي.
يقال لهم هذا باطل لأن قوله: {بِيَدَيَّ} يقتضي إثبات يدين هما صفة له.
فلو كان المراد بهما القدرة لموجب أن يكون له قدرتان.
وأنتم لا تزعمون أن للباري سبحانه قدرة واحدة، فكيف يجوز أن تثبتوا له قدرتين؟

وقد أجمع المسلمون من مثبتي الصفات والنافين لها على أنه لا يجوز أن يكون له تعالى قدرتان فيطل ما قلتم.
وكذلك لا يجوز أن يكون الله تعالى خلق آدم بنعمتين، لأن نعم الله تعالى على آدم وعلى غيره لا تحصى.
ولأن القائل لا يجوز أن يقول: رفعت الشيء بيدي أو وضعته بيدي أو توليته بيدي وهو يعني نعمته.

وكذلك لا يجوز أن يقال: لي عند فلان يدان يعني نعمتين.
وإنما يقال لي عنده يدان بيضاوان، لأن القول: يد، لا يستعمل إلا في اليد التي هي صفة الذات.

ويدل على فساد تأويلهم أيضاً أنه لو كان الأمر على ما قالوه لم يغفل عن ذلك إبليس، وعن أن يقول وأي فضل لآدم علي يقتضي أن أسجد له، وأنا أيضاً بيدك خلقتني التي هي قدرتك وبنعمتك خلقتني؟
وفي العلم بأن الله تعالى فضل آدم عليه بخلقه بيديه، دليل على فساد ما قالوه.

فإن قال قائل: فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة؟ إذ كنتم لم تعقلوا يد صفة ووجه صفة لا جارحة. يقال له: لا يجب ذلك كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً أن نقضي نحن وأنتم على الله تعالى بذلك.
وكما لا يجب متى كان قائماً بذاته أن يكون جوهرًا أو جسماً، لأننا وإياكم لم نجد قائماً بنفسه في شأهدنا إلا كذلك. اهـ. محل الغرض منه بلفظه.
وهو صريح في أنه يرى أن صفة الوجه وصفة اليد وصفة العلم والحياة والقدرة كلها من صفات المعاني ولا وجه للفرق بينها وجميع صفات الله مخالفة لجميع صفات خلقه.

وقال الباقلاني أيضاً في كتاب التمهيد ما نصه:

فإن قالوا: فهل تقولون: إنه في كل مكان؟

قيل: معاذ الله بل هو مستو على العرش كما أخبر في كتابه، فقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سِتْوَى} وقال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} وقال: {أَعْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ}.

ولو كان في كل مكان، لكان في جوف الإنسان، وفمه وفي الحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها، تعالى عن ذلك، ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذ خلق منها ما لم يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان. ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى وراء ظهورنا وعن أيماننا وشمالنا.

وهذا ما قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله، إلى أن قال رحمه الله: ولا يجوز أن يكون معنى استوائه على العرش هو استيلائه عليه كما قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهران

لأن الاستيلاء هو القدرة والقهر، والله تعالى لم يزل قادراً قاهراً عزيزاً مقتدرًا.

وقوله: {ثُمَّ سُبَّتْوَى عَلَىٰ لِعَرْشِ} يقتضي استفتاح هذا الوصف بعد أن لم يكن، فيبطل ما قالوه.

فإن قال قائل: ففصلوا لي صفات ذاته من صفات أفعاله، لأعرف ذلك. قيل له: صفات ذاته هي التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها.

وهي الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والبقاء والوجه والعينان واليدان. اهـ محل الغرض منه بلفظه.

وقد نقلناه من نسخة هي أجود نسخة موجودة لكتاب التمهيد للباقلاني المذكور.

وترى تصريحه فيها بأن صفة الوجه واليد من صفات المعاني كالحياة والعلم والقدرة والإرادة، كما هو قول أبي الحسن الأشعري الذي قدمنا إيضاحه. وأعلم أن إمام الحرمين، أبا المعالي الجويني، كان في زمانه من أعظم أئمة القائلين بالتأويل، وقد قرر التأويل وانتصر له في كتابه الإرشاد.

ولكنه رجع عن ذلك في رسالته العقيدة النظامية فإنه قال فيها:

اختلف مسالك العلماء، في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها وإجراؤها على موجب ما تبرزه أفهام أرباب اللسان منها.

فراى بعضهم تأويلها، والتزام هذا المنهج في آي الكتاب وفيما صح من سنن النبي صلى الله عليه وسلم.

وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردّها، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه.

والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع والدليل السمعي القاطع في ذلك، أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة.

وقد درج صحب الرسول صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها وهم صفة الإسلام والمشتغلون بأعباء الشريعة.

وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها.

فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة.

فإذا انصرف عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع بحق.

فعلى ذي الدين أن يعتقد تنزه الرب تعالى عن صفات المحدثات ولا يخوض في تأويل المشكلات ويكل معناها إلى الرب.

ومما استحسّن من إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه سئل عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سِتُّوَيْ}، فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة.

فلتجر آية الاستواء والمجيء وقوله: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}، وقوله: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، وما صح عن الرسول عليه السلام كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا، فهذا بيان ما يجب لله تعالى. اهـ. كلامه بلفظه من الرسالة النظامية المذكورة مع أن رجوع الجويني فيها إلى أن الحق هو مذهب السلف أمر معلوم.

وكذلك أبو حامد الغزالي، كان في زمانه من أعظم القائلين بالتأويل ثم رجع عن ذلك، وبين أن الحق الذي لا شك فيه هو مذهب السلف.

وقال في كتابه: إجماع العوام عن علم الكلام:

أعلم أن الحق الصريح الذي لا مرأى فيه عند أهل البصائر، هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين، ثم قال: إن البرهان الكلي على أن الحق في مذهب السلف وحده ينكشف بتسليم أربعة أصول مسلمة عند كل عاقل.

ثم بين أن الأول من تلك الأصول المذكورة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد في دينهم ودنياهم.

الأصل الثاني: أنه بلغ كلما أوحى إليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم، ولم يكتف منه شيئاً.

الأصل الثالث: أن أعرف الناس بمعاني كلام الله وأحراهم بالوقوف على أسرارهم هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لازموا وحضروا التنزيل وعرفوا التأويل.

والأصل الرابع: أن الصحابة رضي الله عنهم في طول عصرهم إلى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق إلى التأويل، ولو كان التأويل من الدين أو علم الدين لأقبلوا عليه ليلاً ونهاراً ودعوا إليه أولادهم وأهلهم.

ثم قال الغزالي: وبهذه الأصول الأربعة المسلمة عند كل مسلم نعلم بالقطع أن الحق ما قالوه والصواب ما رأوه.

اهـ. باختصار.

ولا شك أن الاستدلال الغزالي هذا لأن مذهب السلف هو الحق استدلال لا شك في صحته، ووضوح وجه الدليل فيه، وأن التأويل لو كان سائغاً أو لازماً لبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، ولقال به أصحابه وتابعوهم كما لا يخفى.

وذكر غير واحد عن الغزالي: أنه رجع في آخر حياته إلى تلاوة كتاب الله وحفظ الأحاديث الصحيحة والاعتراف بأن الحق هو ما في كتاب الله وسنة رسوله.

وذكر بعضهم أنه مات وعلى صدره صحيح البخاري رحمه الله.

واعلم أيضاً أن الفخر الرازي الذي كان في زمانه أعظم أئمة التأويل رجع عن ذلك المذهب إلى مذهب السلف معترفاً بأن طريق الحق هي اتباع القرآن في صفات الله.

وقد قال في ذلك في كتابه: أقسام اللذات.

لقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً، ولا تشفي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ سُبُوتِي}، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ}، وفي النفي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. اهـ.

وقد بين هذا المعنى في أبياته المشهورة التي يقول فيها:

نهاية إقدام العقول عقال و غاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى و وبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
إلى آخر الآيات.

وكذلك غالب أكابر الذين كانوا يخوضون في الفلسفة والكلام، فإنه ينتهي بهم أمرهم إلى الحيرة وعدم الثقة بما كانوا يقررون.

وقد ذكر عن الحفيد ابن رشد وهو من أعلم الناس بالفلسفة أنه قال:

ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟

وذكروا عن الشهرستاني أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، وقد قال في ذلك: لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأمثال هذا كثيرة.

فيا أيها المعاصرون المتعصبون لدعوى أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها خبيث لا يليق بالله لاستلزامه التشبيه بصفات الخلق، وأنها يجب نفيها وتأويلها بمعان ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه ولا من التابعين.

فمن هو سلفكم في هذه الدعوى الباطلة المخالفة لإجماع السلف؟

إن كنتم تزعمون أن الأشعري يقول مثل قولكم، وأنه سلفكم في ذلك فهو بريء منكم ومن دعواكم.

وهو مصرح في كتبه التي صنفها بعد الرجوع عن الاعتزال أن القائلين بالتأويل هم المعتزلة، وهم خصومه وهو خصمهم، كما أوضحنا كلامه في الإباحة والمقالات.

وقد بينا أن أساطين القول بالتأويل قد اعترفوا بأن التأويل لا مستند له، وأن الحق هو اتباع مذهب السلف كما أوضحنا ذلك عن أبي بكر الباقلاني، وأبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، وأبي عبد الله الفخر الرازي، وغيرهم ممن ذكرنا.

فنوصيكم وأنفسنا بتقوى الله وألا تجادلوا في آيات الله بغير سلطان أتاكم،
والله جل وعلا يقول في كتابه: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَانٍ أَتَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ وَ سَتَعِدُّ بِاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ
الَّذِي لَبِصِيرٌ}.

ويقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ
مُنِيرٍ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ
كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}.

المسألة الثانية في الكلام على الاجتهاد
اعلم أولاً أننا قدمنا بطلان قول الظاهرية بمنع الاجتهاد مطلقاً، وأن من
الاجتهاد ما هو صحيح موافق للشرع الكريم، وبسطنا أدلة ذلك بإيضاح في
سورة الأنبياء في الكلام على قوله تعالى {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي
الْحَرْثِ}.

وبينا طرفاً منه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا
تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وغرضنا في هذه المسألة هو أن نبين أن تدبر القرآن وانتفاع متدبره بالعمل
بما علم منه الذي دل عليه قوله تعالى في هذه الآية الكريمة التي نحن
يصددها التي هي قوله تعالى: {أَقْلَابًا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَفْقَاهَا}، لا يتوقف على تحصيل الاجتهاد المطلق بشروطه المعروفة عند
متأخري الأصوليين.

اعلم أولاً: أن المتأخرين من أهل الأصول الذين يقولون بمنع العمل بالكتاب
والسنة مطلقاً إلا للمجتهدين، يقولون: إن شروط الاجتهاد هي كون المجتهد
بالغاً، عاقلاً شديداً الفهم.
طبعاً عارفاً بالدليل العقلي، الذي هو استصحاب العدم الأصلي، حتى يرد نقل
صارف عنه.
عارفاً باللغة العربية، وبالنحو من صرف وبلاغة مع معرفة الحقائق الشرعية
والعرفية.

وبعضهم يزيد المحتاج إليه من فن المنطق كشرائط الحدود، والرسوم،
وشرائط البرهان.

عارفاً بالأصول، عارفاً بأدلة الأحكام من الكتاب والسنة.
ولا يشترط عندهم حفظ النصوص، بل يكفي عندهم علمه بمداركها في
المصحف وكتب الحديث.

عارفاً بمواقع الإجماع والخلاف.

عارفاً بشروط المتواتر، والآحاد والصحيح والضعيف.

عارفاً بالناسخ والمنسوخ.

عارفاً بأسباب النزول.

عارفاً بأحوال الصحابة وأحوال رواة الحديث، اختلفوا في شرط عدم إنكاره
للقياس. اهـ.

ولا يخفى أن مستندهم في اشتراطهم لهذه الشروط ليس نصاً من كتاب ولا سنة يصرح بأن هذه الشروط كلها لا يصح دونها عمل بكتاب ولا سنة، ولا إجماعاً دالاً على ذلك.

وإنما مستندهم في ذلك هو تحقيق المناط في ظنهم.

وإيضاح ذلك هو أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع المسلمين كلها دال على أن العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يشترط له إلا شرط واحد، وهو العلم بحكم ما يعمل به منهما. ولا يشترط في العمل بالوحي شرط زائد على العلم بحكمه ألبتة. وهذا مما لا يكاد ينزع فيه أحد.

ومراد متأخري الأصوليين بجميع الشروط التي اشترطوها هو تحقيق المناط. لأن العلم بالوحي لما كان هو مناط العمل به أرادوا أن يحققوا هذا المناط، أي يبينوا الطرق التي يتحقق بها حصول العلم الذي هو مناط العمل. فاشترطوا جميع الشروط المذكورة، ظناً منهم أنه لا يمكن تحقيق حصول العلم بالوحي دونها.

وهذا الظن فيه نظر.

لأن كل إنسان له فهم إذا أراد العمل بنص من كتاب أو سنة فلا يمتنع عليه، ولا يستحيل أن يتعلم معناه ويبحث عنه هل هو منسوخ أو مخصص أو مقيد حتى يعلم ذلك فيعمل به.

وسؤال أهل العلم: هل لهذا النص ناسخ أو مخصص أو مقيد مثلاً. وإخبارهم بذلك ليس من نوع التقليد، بل هو من نوع الاتباع.

وسنئين إن شاء الله الفرق بين التقليد والاتباع في مسألة التقليد الآتية.

والحاصل أن نصوص الكتاب والسنة التي لا تحصى واردة بإلزام جميع المكلفين بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وليس في شيء منها التخصيص بمن حصل شروط الاجتهاد المذكورة.

وسنذكر طرفاً منها لنبين أنه لا يجوز تخصيصها بتحصيل الشروط المذكورة.

قال الله تعالى: { اٰتَّبِعُوا مَا اَنْزَلَ اِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ اَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ }، والمراد بما أنزل إليكم هو القرآن والسنة المبينة له لا آراء الرجال.

وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا }.

فدللت هذه الآية الكريمة أن من دعي إلى العمل بالقرآن والسنة وصد عن ذلك، أنه من جملة المنافقين، لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقال تعالى: { فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ }، والرد إلى الله والرسول هو الرد إلى كتابه والرد إلى الرسول بعد وفاته صلى الله عليه وسلم هو الرد إلى سنته.

وتعليقه الإيمان في قوله: { إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } على رد التنازع إلى كتاب الله وسنة رسوله، يفهم منه أن من يرد التنازع إلى غيرهما لم يكن يؤمن بالله.

وقال تعالى: { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ
لِعَذَابٍ بَعْثَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }.

ولا شك أن القرآن أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، والسنة مهيئة له، وقد هدد من
لم يتبع أحسن ما أنزل إلينا من ربنا بقوله: { مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ لِعَذَابٍ بَعْثَةً
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }.

وقال تعالى: { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلٍ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمْ
اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ }، ولا شك أن كتاب الله وسنة رسوله أحسن
من آراء الرجال.

وقال تعالى: { وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وقوله: { إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } فيه تهديد شديد
لمن لم يعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما إن كان يظن
أن أقوال الرجال تكفي عنها.

وقال تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ }، والأسوة: الاقتداء.

فيلزم المسلم أن يجعل قدوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك باتباع
سنته.

وقال تعالى: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا
يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }، وقد أقسم تعالى في
هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم
في كل ما اختلفوا فيه.

وقال تعالى: { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }.

والاستجابة له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته هي الرجوع إلى سنته صلى
الله عليه وسلم، وهي مبينة لكتاب الله.

وقد جاء في القرآن العظيم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتبع شيئاً إلا
الوحي.

وأن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله.

قال تعالى في سورة يونس: { قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَإِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }.

وقال تعالى في الأنعام: { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ لِعَيْبٍ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ }.

وقال تعالى في الأحقاف: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ
بِي وَلَا بِيَوْمِ الْقِيَامِ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }.

وقال تعالى في الأنبياء: { قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْمَوْحِيِّ }، فحصر الإنذار في الوحي
دون غيره.

وقال تعالى: { قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فَإِنَّمَا أَصَلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِن تُهْتَدِيتُ فَبِمَا يُوحَىٰ
إِلَيَّ رَبِّي }، فبين أن الاهتداء إنما هو بالوحي والآيات بمثل هذا كثيرة.
وإذا علمت منها أن طريقه صلى الله عليه وسلم هي اتباع الوحي، فاعلم أن
القرآن دل على أن من أطاعه صلى الله عليه وسلم فهو مطيع لله كما قال

تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}.

ولم يضمن الله لأحد ألا يكون ضالاً في الدنيا ولا شقيماً في الآخرة إلا لمتبعي الوحي وحده.

قال تعالى في طه {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}، وقد دلت آية طه هذه على انتفاء الضلال والشقاوة عن متبعي الوحي.

ودلت آية البقرة على انتفاء الخوف والحزن عنه، وذلك في قوله تعالى: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. ولا شك أن انتفاء الضلال والشقاوة والخوف والحزن عن متبعي الوحي، المصرح به في القرآن، لا يتحقق فيمن يقلد عالماً ليس بمعصوم، لا يدري أصواب ما قلده فيه أم خطأ. في حال كونه معرضاً عن التدبر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولا سيما إن كان يظن أن آراء العالم الذي قلده، كافية مغنية، عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والآيات القرآنية الدالة على لزوم اتباع الوحي، والعمل به، لا تكاد تحصى، وكذلك الأحاديث النبوية الدالة على لزوم العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا تكاد تحصى، لأن طاعة الرسول طاعة الله. وقد قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، وقال تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}.

وقال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}.

وقال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً}.

وقال تعالى: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً}.

وقال تعالى: {بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}.

وقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ لِقَوْمٍ كَفَرُوا وَعَصُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَبَعَدَ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}.

وقال تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَحُذِرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا لَبِغٌ لِمُؤْمِنِينَ}.

وقال تعالى: {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

وقال تعالى {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا لِبَلِّغِ لِمُؤْمِنِينَ}.

وقال: {وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}.

وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ لِقَائِزُونَ}.

وقال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}.

وقال تعالى: {وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَبُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ}.

ولا شك عند أحد من أهل العلم أن طاعة الله ورسوله المذكورة في هذه الآيات ونحوها من نصوص الوحي، محصورة في العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فمنصوص القرآن والسنة كلها دالة على لزوم تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل به.

فتخصيص تلك النصوص كلها، بدعوى أن تدبر الوحي وتفهمه والعمل به: لا يصح شيء منه إلا لخصوص المجتهدين، الجامعين لشروط الاجتهاد المعروفة عند متأخري الأصوليين، يحتاج إلى دليل يجب الرجوع إليه.

ولا دليل على ذلك ألبتة.

بل أدلة الكتاب والسنة، دالة على وجوب تدبر الوحي، وتفهمه وتعلمه والعمل بكل ما علم منه، علماً صحيحاً قليلاً كان أو كثيراً.

وهذه المسألة الثانية يتداخل بعض الكلام فيها، مع بعض الكلام، في المسألة الأولى. فهما شبه المسألة الواحدة.

المسألة الثالثة في التقليد في بيان معناه لغة واصطلاحاً وأقسامه وبيان ما يصح منها وما لا يصح

اعلم أن التقليد في اللغة: هو جعل القلادة في العنق.

وتقليد الولاية هو جعل الولايات قلائد في أعناقهم.

ومنه قول لقيط الأيادي: وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

وأما التقليد في اصطلاح الفقهاء: فهو الأخذ بمذهب الغير من غير معرفة دليبه.

والمراد بالمذاهب هو ما يصح فيه الاجتهاد خاصة.

ولا يصح الاجتهاد ألبتة في شيء يخالف نصاً من كتابه أو سنة ثابتة، سالماً من المعارض.

لأن الكتاب والسنة حجة على كل أحد كائناً من كان، لا تسوغ مخالفتها ألبتة لأحد كائناً من كان فيجب التفطن، لأن المذهب الذي فيه التقليد يختص

بالأمور الاجتهادية ولا يتناول ما جاء فيه نص صحيح من الوحي سالم من المعارض.

قال الشيخ الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره: مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس ما نصه:

(والمذهب لغة الطريق ومكان الذهاب، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الاجتهادية) اهـ. محل الغرض منه بلفظه.

فقوله: من الأحكام الاجتهادية تدل على أن اسم المذهب لم يتناول مواقع النصوص الشرعية السالمة من المعارض.

وذلك أمر لا خلاف فيه لإجماع العلماء على أن المجتهد المطلق إذا أقام باجتهاده دليلاً، مخالفاً لنص من كتاب أو سنة أو إجماع، أن دليله ذلك باطل بلا خلاف.

وأنه يرد بالقادح المسمى في الأصول بفساد الاعتبار.

وفساد الاعتبار الذي هو مخالفة الدليل لنص أو إجماع من القوادح التي لا نزاع في إبطال الدليل بها. وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود في القوادح: والخلف للنص أو إجماع دعا فسادا لا اعتبار كل من وعى

وبما ذكرنا تعلم أنه لا اجتهاد أصلاً ولا تقليد أصلاً في شيء يخالف نصاً من كتاب أو سنة أو إجماع.

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن بعض الناس من المتأخرين أجاز التقليد، ولو كان فيه مخالفة نصوص الوحي، كما ذكرنا عن الصاوي وأضرابه. وعليه أكثر المقلدين للمذاهب في هذا الزمان وأزمان قبله.

وبعض العلماء منع التقليد مطلقاً، وممن ذهب إلى ذلك ابن خويز منداد من المالكية، والشوكاني في القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد. والتحقيق: أن التقليد منه ما هو جائز، ومنه ما ليس بجائز.

ومنه ما خالف فيه المتأخرون المتقدمين من الصحابة وغيرهم من القرون الثلاثة المفضلة.

وسنذكر كل الأقسام هنا إن شاء الله مع بيان الأدلة.

أما التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامي عالماً أهلاً للفتيا في نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا خلاف فيه.

فقد كان العامي، يسأل من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن حكم النازلة تنزل به فيفتيه فيعمل بفتياه.

وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابي الذي أفتاه أولاً بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعمل بفتياه.

قال صاحب نشر البنود في شرحه لقوله في مراقي السعود: رجوعه لغيره في آخر يجوز للإجماع عند الأكثر

ما نصه: يعني أن العامي يجوز له عند الأكثر، الرجوع إلى قول غير المجتهد الذي استفتاه أولاً في حكم آخر لإجماع الصحابة رضي الله عنهم، على أنه يسوغ للعامي السؤال لكل عالم، ولأن كل مسألة لها حكم نفسها.

فكما لم يتعين الأول للاتباع في المسألة الأولى إلا بعد سؤاله، فكذلك في المسألة الأخرى. قاله الحطاب شارح مختصر خليل.
قال القرافي: انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء من غير حجر.

وأجمع الصحابة على أن من استفتى أبا بكر وعمر وقلدهما فله أن يستفتي أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، ويعمل بقولهم بغير نكير. فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل. اهـ. محل الغرض منه. وما ذكره من انعقاد الإجماعين صحيح كما لا يخفى، فالأقوال المخالفة لهما من متأخري الأصوليين كلها مخالفة للإجماع. وبعض العلماء يقول: إن تقليد العامي المذكور للعالم وعمله بفتياه من الاتباع لا من التقليد.

والصواب: أن ذلك تقليد مشروع مجمع على مشروعيته. وأما ما ليس من التقليد بجائز لا خلاف؟ فهو تقليد المجتهد الذي ظهر له الحكم باجتهاده، مجتهداً آخر يرى خلاف ما ظهر له هو، للإجماع على أن المجتهد إذا ظهر له الحكم باجتهاده لا يجوز له أن يقلد غيره المخالف لرأيه. وأما نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون، الصحابة وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره، من جميع العلماء.

فإن هذا النوع من التقليد، لم يرد به نص من كتاب ولا سنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير.

وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره، من جميع علماء المسلمين. فتقليد العالم المعين من بدع القرن الرابع، ومن يدعي خلاف ذلك، فليعين لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأولى، التزم مذهب رجل واحد معين ولن يستطيع ذلك أبداً، لأنه لم يقع البتة.

وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً من كلام أهل العلم في فساد هذا النوع من التقليد وحجج القائلين به، ومناقشتها. وبعد إيضاح ذلك كله نبين ما يظهر لنا بالدليل أنه هو الحق والصواب إن شاء الله. قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، في كتابه جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ما نصه:

باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع.
قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه، فقال: { أَتَّخِذُوا أَحْبَرَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ }.
وروي عن حذيفة وغيره قالوا: «لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم».

وقال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي عنقي الصليب فقال لي: «يا عدي: ألق هذا الوثن من عنقك، فانتبهت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية: { أَتَّخِذُوا أَحْبَرَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ

دُونَ اللَّهِ { قَالَ قَلْتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا لَمْ نَتَّخِذْهُمْ أَرْبَابًا. قَالَ بَلَى أَلَيْسَ يَحِلُّونَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ فَتَحِلُّونَهُ وَيَحْرَمُونَ عَلَيْكُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ فَتَحْرَمُونَهُ؟ فَقَلْتِ بَلَى فَقَالَ: تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ. ».

حدثنا عبد الوارث بن سفيان ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي البخري في قوله عز وجل: { اتَّخَوْا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ } أما إنهم لو أمرهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم ولكنهم أمرهم، فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية.

قال وحدثنا ابن وضاح، ثم ساق السند إلى أن قال عن أبي البخري قال: قيل لحذيفة في قوله: { اتَّخَوْا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ } أكانوا يعبدونهم؟ فقال لا، ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه.

وقال جل وعز: { وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آيَاتِنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتِنَا كُفِّرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بَعْضًا وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ كَافِرُونَ }.

وفي هؤلاء ومثلهم قال الله عز وجل: { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ لِيُكْمُ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ }.

وقال: { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ دِينِ اللَّهِ فَيُرَدُّونَ إِلَىٰ لَدُنِّهِمْ قُلُوبًا كَآسِفَاتٍ يُبْغُونَ وَيُرِيدُونَ الْإِسْلَامَ كُفْرًا يَدْعُونَ إِلَىٰ تَبَرُّأِكُمْ وَأَسْتَأْذِنُكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُؤْتُونَ لَهُمْ جَسَدًا مُّشَابِهًا لَهُمْ إِن كُنتُمْ إِلاَّ كَافِرِينَ }.

وقال عز وجل عائياً لأهل الكفر وذاماً لهم: { مَا هَذِهِ اللَّتَامِثِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَافُونَ }.

وقال { وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلُّونَا أَلَسَّيْنَا }.

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء.

وقد احتج العلماء بهذه الآيات، في إبطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر.

وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجل فكفر وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة دنياه فأخطأ وجهها، كان كل واحد ملوماً على التقليد بغير حجة.

لأن كل ذلك تقليد يشبهه بعضه بعضاً، وإن اختلفت الآثام فيه.

وقال الله عز وجل: { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ }.

وقد ثبت الاحتجاج بما قدمنا في الباب هذا، وفي ثبوته إبطال التقليد أيضاً.

فإذا بطل التقليد بكل ما ذكرنا وجب التسليم للأصول التي يجب التسليم لها، وهي الكتاب والسنة أو ما كان في معناهما دليل جامع بين ذلك.

أخبرنا عبد الوارث ثم ساق السند إلى أن قال: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول: «إني لأخاف على أمتي من بعدي من أعمال ثلاثة، قال وما هي يا رسول الله؟

قال: أخاف عليهم من زلة العالم، ومن حكم جائر، ومن هوى متبع». وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكنم بهما كتاب الله وسنة رسوله». هذا لفظ أبي عمر في جامعه.

وكثير بن عبد الله المذكور في الإسناد ضعيف، وأبوه عبد الله مقبول. ولكن المتنين المرويين بالإسناد المذكور كلاهما له شواهد كثيرة تدل على أن أصله صحيح.

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر في جامعه بإسناده عن زياد بن حدير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلون.

ثم ذكر بالإسناد المذكور عن ابن مهدي عن جعفر بن حبان، عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن، والقرآن حق وعلى القرآن منار كأعلام الطريق.

ثم أخرج بإسناده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول في مجلسه كل يوم، قلما يخطئه أن يقول ذلك «الله حكم قسط هلك المرتابون إن وراءكم فتناً يكثر فيها المال، ويفتح فيها القرآن حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبي والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول: قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره، فأياكم وما ابتدع، فإن كل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم» إلى آخر ما ذكره رحمه الله من الآثار الدالة على نحو ما تقدم من أن زلة العالم من أخوف المخاوف على هذه الأمة. وإنما كانت كذلك لأن من يقلد العالم تقليداً أعمى يقلده فيما زل فيه فيقول على الله أن تلك الزلة التي قلدهم فيها العالم من دين الله، وأنها مما أمر الله بها ورسوله، وهذا كما ترى والتنبيه عليه هو مراد ابن عبد البر. ومرادنا أيضاً بإيراد الآثار المذكورة.

ثم قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه ما نصه:

وشبه الحكماء زلة العالم بانكسار السفينة، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير.

وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطيء، لم يجر لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه.

حدثنا عبد الرحمن بن يحيى ثم ساق السند إلى أن قال: عن ابن مسعود أنه كان يقول: «اغد عالماً أو متعلماً ولا تغد إمعة» فيما بين ذلك. ثم ساق الروايات في تفسيرهم الإمعة.

ومعنى الإمعة معروف.

قال الجوهر في صحاحه: يقال الإمع والإمعة أيضاً للذي يكون لضعف رأيه مع كل أحد، ومنه قول ابن مسعود: لا يكونن أحدكم إمعة. اهـ. منه. ولقد أصاب من قال: شمر وكن في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل غير قيد فانقاداً

وذكر ابن عبد البر بإسناده عن ابن مسعود في تفسير الإمعة أنه قال.
كنا ندعو الإمعة في الجاهلية الذي يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره، وهو
فيكم اليوم المحقب دينه الرجال.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:
ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل كيف ذلك؟ قال: يقول العالم شيئاً برأيه
ثم يجد من هو أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ذلك
ثم تمضي الأتباع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي، وهو حديث
مشهور عند أهل العلم، يستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم:
يا كميل إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم
رباني ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا
بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، إلى آخر الحديث.
وفيه: أف لحامل حق لا يصيره له، ينقذ الشك في قلبه بأول عارض من
شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال خطأ وإن أخطأ لم يدر، مشغوف بما لا
يدري حقيقته، فهو فتنة لمن افتتن به، وإن من الخير كله من عرفه الله دينه،
وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف دينه.

ولا شك أن المقلد غيره تقليداً أعمى يدخل فيما ذكره علي رضي الله عنه
في هذا الحديث، لأنه لا يدري عن دين الله شيئاً إلا أن الإمام الفلاني عمل
بهذا.

فعلمه محصور في أن من يقلده من الأئمة ذهب إلى كذا ولا يدري أمصيب هو
فيه أم مخطيء.

ومثل هذا لم يستضيء بنور العلم ولم يلجأ إلى ركن وثيق لجواز الخطأ على
متبوعه، وعدم ميزه هو بين الخطأ والصواب.

ثم ذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه بإسناده عن ابن مسعود
رضي الله عنه أنه قال:

ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر، فإنه لا أسوة في
الشر.

وقال في جامعه أيضاً رحمه الله: وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم مما
قد ذكرناه في كتابنا هذا أنه قال: «تذهب العلماء ثم تتخذ الناس رؤساء جهالاً
يسألون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون».

وهذا كله نفي للتقليد، وإبطال له لمن فهمه وهدى لرشده.

ثم ذكر رحمه الله آثاراً نحو ما تقدم ثم قال:

وقال: عبید الله بن المعتمر: لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد.

وهذا كله لغير العامة، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل
بها.

لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم
درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها.

وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة. والله أعلم.

ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المرادون بقول الله عز وجل: {قَسَّأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.
وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه في القبلة إذا أشكلت عليه.

فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا.
وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحريم والتحليل، والقول في العلم.

ثم ذكر أبو عمر بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، ومن استشار أخاه فأشار عليه بغير رشده فقد خانه، ومن أفتى بفتيا من غير ثبت فإنما إثمها علي من أفتاه».

ثم ذكر بسنده أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:
من أفتى بفتيا وهو يعمى عنها كان إثمها عليه اهـ.

ولا شك أن المقلد أعمى عما يفتي به لأن علمه به محصور في أن فلاناً قاله مع علمه بأن فلاناً ليس بمعصوم من الخطأ والزلل.

ثم قال أبو عمر رحمه الله: وقال أهل العلم والنظر حد العلم التبيين وإدراك المعلوم على ما هو به، فمن بان له الشيء فقد علمه.

قالوا: والمقلد لا علم له. ولم يختلفوا في ذلك إلى أن قال رحمه الله، وقال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي:

التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه.
وذلك ممنوع منه في الشريعة.

والاتباع ما ثبت عليه حجة.

وقال في موضع آخر من كتابه: كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قبوله لدليل يوجب عليك ذلك فأنت مقلده.

والتقليد في دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه.

والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع.

وقال أبو عمر في آخر كلامه في هذا الباب ما نصه:

ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد فأغنى ذلك عن الإكثار.

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله، في كلامه عن التقليد ما نصه:

وقد احتج جماعة من الفقهاء وأهل النظر على من أجاز التقليد بحجج نظرية عقلية بعد ما تقدم.

فأحسن ما رأيت من ذلك قول المزني رحمه الله، وأنا أورده قال:

يقال لمن حكم بالتقليد هل لك من حجة فيما حكمت به؟

فإن قال: نعم، أبطل التقليد لأن الحجة أوجبت ذلك عنده لا التقليد.

وإن قال: حكمت به بغير حجة.

قيل له: فلم أرقت الدماء، وأبحت الفروج وأتلفت الأموال، وقد حرم الله ذلك إلا بحجة؟

قال الله عز وجل {إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ يَهْدَى} أي من حجة بهذا؟
فإن قال: أنا أعلم أنني قد أصبت وإن لم أعرف الحجة، لأنني قلدت كبيراً من
العلماء وهو لا يقول إلا بحجة خفيت علي.

قيل له: إذا جاز تقليد معلمك لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت عليك، فتقليد معلم
معلمك أولى.

لأنه لا يقول إلا بحجة خفيت على معلمك: كما لم يقل معلمك إلا بحجة خفيت
عليك.

فإن قال: نعم ترك تقليد معلمه إلى تقليد معلم معلمه.
وكذلك من هو أعلا حتى ينتهي الأمر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

وإن أبى ذلك نقض قوله.

وقيل له: كيف تجوز تقليد من هو أصغر، وأقل علماً؟

ولا تجوز تقليد من هو أكبر وأكثر علماً، وهذا تناقض؟

فإن قال لأن معلمي وإن كان أصغر فقد جمع علم من هو فوقه إلى علمه،
فهو أبصر بما أخذ وأعلم بما ترك.

قيل له: كذلك من تعلم من معلمك، فقد جمع علم معلمك وعلم من فوقه
إلى علمه، فيلزمك تقليده وترك تقليد معلمك.

وكذلك أنت أولى أن تقلد نفسك من معلمك. لأنك جمعت علم معلمك وعلم
من هو فوقه إلى علمك.

فإن أعاد قوله جعل الأصغر ومن يحدث من صغار العلماء، أولى بالتقليد من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكذلك الصحاب عنده يلزمه تقليد التابع والتابع من دونه في قياس قوله.
والأعلى للأدنى أبداً.

وكفى بقول يؤول إلى هذا تناقضاً وفساداً اهـ.

ثم قال أبو عمر رحمه الله بعد هذا ما نصه:

يقال لمن قال بالتقليد: لم قلت به، وخالفت السلف في ذلك فإنهم لم
يقلدوا؟

فإن قال: قلدت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله وسنة رسوله صلى الله عليه
وسلم لم أحصها.

والذي قلده قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم مني.

قيل له: أما العلماء، إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن
سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا

شك فيه.

ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض.

فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض.

وكلهم عالم، والعالم الذي رغبت عن قوله، أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه.
فإن قال: قلده لأنني أعلم أنه صواب.

قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع؟
فإن قال نعم. أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل.

وإن قال: قلده لأنه أعلم مني.
 قيل له: فقلد كل من هو أعلم منك.
 فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً ولا تخص من قلده إذ علتك فيه أنه أعلم منك.
 فإن قال: قلده لأنه أعلم الناس.
 قيل له: فإنه إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً.
 فإن قال: أنا أقلد بعض الصحابة. قيل له: فما حجتك في ترك من لم تقلد
 منهم، ولعل من تركت قوله منهم أفضل ممن أخذت بقوله؟
 على أن القول لا يصح لفضل قائله، وإنما يصح بدلالة الدليل عليه.
 وقد ذكر ابن مزين عن عيسى بن دينار، عن ابن القاسم عن مالك، قال: ليس
 كل ما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتبع عليه لقول الله عز وجل:
 { لِيَذِينَ يَسْتَمِعُونَ لِقَوْلٍ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ } . فإن قال قصري وقلة علمي
 يحملني على التقليد.

قيل له: أما من قلد فيما ينزل. من أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه،
 فيصدر في ذلك عما يخبره فمعذور، لأنه قد أدى ما عليه وأدى ما لزمه فيما
 نزل به لجهله ولا بدله من تقليد عالم، فيما جهله، لإجماع المسلمين أن
 المكفوف يقلد من يثق بخبره في القبلة لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك.
 ولكن من كانت هذه حاله هل تجوز له الفتيا في شرائع دين الله؟ فيحمل
 غيره على إباحة الفروج وإراقة الدماء واسترقاق الرقاب وإزالة الأملاك
 وبصيرها إلى غير من كانت في يديه بقول لا يعرف صحته ولا قام له الدليل
 عليه؟
 وهو مقر أن قائله يخطيء ويصيب، وأن مخالفه في ذلك ربما كان المصيب،
 فيما خالفه فيه.

فإن أجاز الفتوى لمن جهل الأصل والمعنى لحفظه الفروع، لزمه أن يجيزه
 للعامّة.

وكفى بهذا جهلاً، ورداً للقرآن قليل الله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
 عِلْمٌ } . وقال: { أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } .

وقد أجمع العلماء على أن ما لم يتبين ويتيقن فليس بعلم، وإنما هو ظن،
 والظن لا يغني عن الحق شيئاً أهـ. كله من جامع ابن عبد البر رحمه الله.
 وأعلم أن حاصل جميع حجج المقلدين منحصر في قولهم: نحن معاشر
 المقلدين ممثلون قول الله تعالى: { فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ } .

فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو أعلم منه، وهذا نص قولنا.
 وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من لا يعلم إلى سؤال من يعلم، فقال
 في حديث صاحب الشجرة: «ألا سألوها إذا لم تعلموا، إنما شفاء العيي
 السؤال».

وقال أبو العسيف: الذي زنى بامرأة مستأجرة:
 «وإني سألت أهل العلم فأخبروني أن ما على ابني جلد مائة وتغريب عام،
 وأن على امرأة هذا الرجم فلم ينكر عليه تقليد من هو أعلم منه»:
 وهذا عالم الأرض عمر قد قلد أبا بكر.

فروى شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة: أقضي فيها فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه بريء؛ هو ما دون الولد والوالد، فقال عمر بن الخطاب إنني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر. وضح عنه أنه قال له:

رأينا لرأيك تبع، وضح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر. وقال الشعبي عن مسروق: كان ستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتون الناس ابن مسعود وعمر بن الخطاب وعلي وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو موسى.

وكان ثلاثة منهم يدعون قولهم لقول ثلاثة. كان عبد الله يدع قوله لقول عمر، وكان أبو موسى يدع قوله لقول علي، وكان زيد يدع قوله لقول أبي بن كعب.

وقال جندب: ما كنت أدع قول ابن مسعود لقول أحد من الناس. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن معاذاً قد سنَّ لكم سنة فكذلك فافعلوا» في شأن الصلاة حيث أخرج فصلى ما فاته من الصلاة مع الإمام بعد الفراغ، وكانوا يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام. قال المقلدة:

وقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر وهم العلماء والأمراء، وطاعتهم تقليدهم فيما يفتون به. فإنه لولا التقليد لم يكن هناك طاعة تختص بهم. وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ} وقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْتَمَرُونَ}.

وتقليدهم اتباع لهم ففاعله ممن رضي الله عنهم، ويكفي ذلك الحديث المشهور. «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وقال عبد الله بن مسعود: من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوباً، وأعماقها علماً وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وقال: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بهدي ابن أم عبد».

وقد كتب عمر إلى شريح: أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قضى به الصالحون. وقد منع عمر عن بيع أمهات الأولاد وتبعه الصحابة. وألزم بالطلاق الثلاث فتبعوه أيضاً.

واحتلم مرة، فقال له عمرو بن العاص: خذ ثوباً غير ثوبك فقال لو فعلتها صارت سنة.

وقال أبي بن كعب وغيره من الصحابة: ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه.

وقد كان الصحابة يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم حي بين أظهرهم. وهذا تقليد لهم قطعاً.

إذ قولهم لا يكون حجة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قال تعالى: { قَلُولًا نَقَرٍ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } فأوجب عليهم قبول ما أنذروهم به إذا رجعوا إليهم.

وهذا تقليد منهم للعلماء.

وصح عن ابن الزبير، أنه سئل عن الجد والإخوة، فقال:

أما الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذته خليلاً، فإنه أنزله أبا.

وهذا ظاهر في تقليده له.

وقد أمر الله سبحانه بقبول شهادة الشاهد، وذلك تقليد له.

وجاءت الشريعة، بقبول قول القائف، والخارص والقاسم والمقوم للمتلفات، وغيرها والحاكمين بالمثل، في جزاء الصيد وذلك تقليد محض.

وأجمعت الأمة على قبول قول المترجم والرسول والمعرف والمعدل، وإن اختلفوا في جواز الاكتفاء بواحد، وذلك تقليد محض لهؤلاء.

وأجمعوا على جواز شراء اللحمان، والثياب والأطعمة وغيرها، من غير سؤال عن أسباب حلها، وتحريمها اكتفاء بتقليد أربابها.

ولو كلف الناس كلهم الاجتهاد وأن يكونوا علماء فضلاء لصاعت مصالح العباد، وتعطلت الصنائع والمتاجر، وكان الناس كلهم علماء مجتهدين.

وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً، والقدر قد منع من وقوعه.

وقد أجمع الناس على تقليد الزوج، للنساء اللاتي يهدين إليه زوجته وجواز وطئها تقليداً لهن في كونها هي زوجته.

وأجمعوا على أن الأعمى يقلد في القبلة، وعلى تقليد الأئمة في الطهارة، وقراءة الفاتحة، وما يصح به الاقتداء، وعلى تقليد الزوجة مسلمة كانت أو ذمية أن حيضها قد انقطع فيباح للزوج وطؤها بالتقليد.

وبباح للولي تزويجها بالتقليد لها في انقضاء عدتها.

وعلى جواز تقليد الناس للمؤذنين في دخول أوقات الصلوات.

ولا يجب عليهم الاجتهاد ومعرفة ذلك بالدليل.

وقد قالت الأمة السوداء لعقبة بن الحرث: أرضعتك وأرضعت امرأتك، فأمره صلى الله عليه وسلم بفراقها، وتقليدها فيما أخبرته به من ذلك.

وقد صرح الأئمة بجواز التقليد، فقال حفص بن غياث: سمعت سفيان يقول: إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذي قد اختلف فيه وأنت ترى تحريمه فلا تنهه.

وقال محمد بن الحسن: يجوز للعالم تقليد من هو أعلم منه، ولا يجوز له تقليد من هو مثله.

وقد صرح الشافعي بالتقليد فقال: في الضبع بعير، قلته تقليداً لعمر.

وقال في مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، قلته تقليداً لعثمان.

وقال في مسألة الجد مع الإخوة إنه يقاسمهم ثم قال: وإنما قلت بقول زيد. وعنه قبلنا أكثر الفرائض. قال في موضع آخر من كتابه الجديد، قلته تقليداً العطاء. وهذا أبو حنيفة رحمه الله في مسائل الآبار ليس معه فيها إلا تقليد من تقدمه من التابعين فيها وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة. ويصرح في موطنه بأنه أدرك العمل على هذا، وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا.

ويقول في غير موضع: ما رأيت أحداً اقتدى به يفعله، ولو جمعنا ذلك من كلامه لطال.

وقد قال الشافعي في الصحابة: رأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا، ونحن نقول ونصدق أن رأي الشافعي والأئمة معه لنا خير من رأينا لأنفسنا. وقد جعل الله سبحانه في فطر العباد تقليد المتعلمين للأستاذين والمعلمين ولا تقوم مصالح الخلق إلا بهذا. وذلك عام في كل علم وصناعة.

وقد فاوت الله سبحانه بين قوي الأذهان، كما فاوت بين الأبدان، فلا يحسن في حكمته وعدله ورحمته أن يفرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله، والجواب عن معارضة في جميع مسائل الدين دقيقها وجليلها.

ولو كان كذلك لتساوت أقدام الخلائق في كونهم علماء، بل جعل سبحانه تعالى هذا عالماً، وهذا متعلماً وهذا متبعاً للعالم مؤتماً به بمنزلة المأموم مع الإمام والتابع مع المتبوع، وأين حرم الله تعالى على الجاهل أن يكون متبعاً للعالم مؤتماً به مقلداً له يسير بسيره وينزل بنزوله.

وقد علم الله سبحانه أن الحوادث والنوازل كل وقت نازلة بالخلق، فهل فرض على كل منهم عين، أن يأخذ حكم نازلة من الأدلة الشرعية بشروطها ولو أزمها؟

وهل ذلك في إمكان أحد فضلاً عن كونه مشروعاً؟

وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحوا البلاد، وكان الحديث العهد بالإسلام يسألهم فيفتونه.

ولا يقولون له عليك أن تطلب معرفة الحق في هذه الفتوى بالدليل ولا يعرف ذلك عن أحد منهم ألبتة.

وهل التقليد إلا من لوازم التكليف ولوازم الوجود؟ فهو من لوازم الشرع والقدر.

والمنكرون له مضطرون إليه ولا بد. وذلك فيما تقدم بيانه من الأحكام وغيرها.

ونقول لمن احتج على إبطاله: كل حجة أثرية ذكرتها فأنت مقلد لحملتها ورواتها إذ لم يقم دليل قطعي على صدقهم، فليس بيدك إلا تقليد الراوي. وليس بيد الحاكم إلا تقليد الشاهد، وكذلك ليس بيد العامي إلا تقليد العالم. فما الذي سوغ لك تقليد الراوي والشاهد ومنعنا من تقليد العالم، وهذا سمع بأذنه ما رواه.

وهذا عقل بقلبه ما سمعه فأدى هذا مسموعه، وأدى هذا معقوله.

وفرض على هذا تأدية ما سمعه، وعلى هذا تأدية ما عقله، وعلى من لم يبلغ منزلتهما القبول منهما.

ثم يقال للمانعين من التقليد أنتم منعموه خشية وقوع المقلد في الخطأ، بأن يكون مقلده مخطئاً في فتواه، ثم أوجبتم عليه النظر والاستدلال في طلب الحق.

ولا ريب أن صوابه في تقليده للعالم أقرب من صوابه في اجتهاده هو لنفسه. وهذا كمن أراد شراء سلعة لا خبرة له بها، فإنه إذا قلد عالماً بتلك السلعة خبيراً بها أميناً ناصحاً كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه، وهذا متفق عليه بين العقلاء اهـ.

هذا هو غاية ما يحتج به المقلدون، وقد ذكره ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين، وبين بطلانه من واحد وثمانين وجهاً.

وسنذكر هنا إن شاء الله جملاً مختصرة من كلامه الطويل تكفي المنصف. وتزيد المسألة إن شاء الله إيضاحاً وإقناعاً.

قال في إعلام الموقعين بعد ذكره حجج المقلدين التي ذكرناها آنفاً ما نصه: قال أصحاب الحجة:

عجباً لكم معاشر المقلدين، الشاهدين على أنفسهم مع شهادة أهل العلم بأنهم ليسوا من أهله، ولا معدودين في زمرة أهله.

كيف أبطلتم مذهبكم، بنفس دليلكم، فما للمقلد وما للاستدلال؟ وأين منصب المقلد من منصب المستدل؟

وهل ما ذكرتم من الأدلة إلا ثياباً استعرتموها، من صاحب الحجة فتجملتم بها، بين الناس، وكنتم في ذلك متشبهين بما لم تعطوه، ناطقين من العلم بما شهدتم على أنفسكم أنكم لم تؤتوه، وذلك ثوب زور لبستموه، ومنصب لستم من أهله غصبتموه.

فأخبرونا، هل صرتم إلى التقليد لدليل قادكم إليه، وبرهان دلکم عليه، فنزلتم به من الاستدلال أقرب منزل، وكنتم به عن التقليد بمعزل، أم سلكتم سبيله اتفاقاً، وتخميناً من غير دليل.

وليس إلى خروجكم عن أحد هذين القسمين، سبيل، وأيهما كان فهو بفساد مذهب التقليد حاكم، والرجوع إلى مذهب الحجة منه لازم.

ونحن إن خاطبناكم بلسان الحجة، قلتم لسنا من أهل هذه السبيل، وإن خاطبناكم بحكم التقليد، فلا معنى لما أقمتموه من الدليل.

والعجب أن كل طائفة من الطوائف، وكل أمة من الأمم، تدعي أنها على حق، حاشا فرقة التقليد، فإنهم لا يدعون ذلك، ولو ادعوه لكانوا مبطلين، فإنهم شاهدون على أنفسهم بأنهم لم يعتقدوا تلك الأقوال لدليل قادهم إليها، وبرهان دلهم عليها، وإنما سبيلهم محض التقليد.

والمقلد لا يعرف الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل.

وأعجب من هذا أن أئمتهم نهوهم عن تقليدهم فعصوهم وخالفوهم، وقالوا نحن على مذاهبهم، وقد دانوا بخلافهم في أصل المذهب الذي بنوا عليه.

فإنهم بنوا على الحجة ونهوا عن التقليد وأوصوهم إذا ظهر الدليل أن يتركوا أقوالهم ويتبعوه، فخالفوهم في ذلك كله.

وقالوا نحن من أتباعهم، تلك أمانيتهم، وما أتباعهم إلا من سلك سبيلهم،
وأقتفى آثارهم في أصولهم وفروعهم.
وأعجب من هذا أنهم مصرحون في كتبهم ببطلان التقليد، وتحريمه، وأنه لا
يحل القول به في دين الله.
ولو اشترط الإمام على الحاكم أن يحكم بمذهب معين لم يصح شرطه ولا
توليته.
ومنهم من صحح التولية وأبطل الشرط.
وكذلك المفتي عليه الإفتاء بما لا يعلم صحته باتفاق الناس.
والمقلد لا علم له بصحة القول وفساده إذ طريق ذلك مسدودة عليه.
ثم كل منهم يعرف من نفسه أنه مقلد لمتبوعه لا يفارق قوله، ويترك له كل
ما خالفه من كتاب أو سنة أو قول صاحب، أو قول من هو أعلم من متبوعه أو
نظيره.
وهذا من أعجب العجب.
وأيضاً فإننا نعلم بالضرورة، أنه لم يكن في عصر الصحابة، رجل واحد اتخذ
رجلاً منهم يقلده في جميع أقواله، فلم يسقط منها شيئاً وأسقط أقوال
غيره، فلم يأخذ منها شيئاً.
ونعلم بالضرورة، أن هذا لم يكن في عصر التابعين، ولا تابعي التابعين.
فليكن المقلدون برجل واحد، سلك سبيلهم الوخيمة، في القرون الفضيلة
على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسانه صلى الله عليه
وسلم.
فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ما قالوه، يبيحون به الفروج، والدماء
والأموال، ويحرمونها ولا يدرون ذلك صواب أم خطأ على خطر عظيم، ولهم
بين يدي الله موقف شديد يعلم فيه من قال على الله ما لا يعلم أنه لم يكن
على شيء أهـ محل الغرض منه بلفظه.
وعلى كل حال فأنتم أيها المقلدون: تقولون إنه لا يجوز العمل بالوحي إلا
بخصوص المجتهدين فلم سوغتم لأنفسكم الاستدلال على التقليد بآية:
{ وَ سَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }، وآية { فَلَوْلَا تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ
مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ }.

هل رجعتم عن قولكم بأن الاستدلال بالوحي لا يجوز لغير المجتهد، أو ارتكبتم
ما تعتقدون أنه حرم من استدلالكم بالقرآن مع شدة بعدكم عن رتبة
الاجتهاد؟

وفي هذا رد إجمالي ما استدللتم به على التقليد الذي أنتم عليه.
ثم يقال: أليست هذه الآيات التي استدللتم بها في زعمكم، من ظواهر
الكتاب، التي سن لكم الصاوي وأمثاله، أن العمل بها من أصول الكفر.
فإنه لم يستثن شيئاً من ظواهر القرآن يكون العمل به ليس من أصول
الكفر.

فلم تجرأت على شيء هو من أصول الكفر وسوغتم لأنفسكم الاستدلال بالقرآن، مع أنه لا يجوز عندكم إلا للمجتهدين. وسنذكر رد استدلال المقلدين تفصيلاً، بإيجاز إن شاء الله تعالى. أما استدلالهم بآية { وَ سَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } فهو استدلال في غير محله.

فإن الآية لا تدل على هذا النوع من التقليد الأعمى الذي هو عليه من التزام جميع أقوال رجل واحد وترك جميع ما سواها. ولا شك أن المراد بأهل الذكر أهل الوحي الذين يعلمون ما جاء من عند الله كعلماء الكتاب والسنة.

فقد أمروا أن يسألوا أهل الذكر ليفتوهم بمقتضى ذلك الذكر الذي هو الوحي. ومن سأل عن الوحي وأعلم به، وبين له كان عمله به اتباعاً للوحي لا تقليداً واتباع الوحي لا نزاع في صحته.

وإن كانت الآية تدل على نوع تقليد في الجملة، فهي لا تدل إلا على التقليد الذي قدمنا أنه لا خلاف فيه بين المسلمين، وهو تقليد العامي الذي تنزل به النازلة عالماً من العلماء، وعمله بما أفتاه به من غير التزام منه لجميع ما يقوله ذلك العالم، ولا تركه لجميع ما يقوله غيره.

وأما استدلالهم بالحديث الوارد في الرجل الذي أصابته شجة في رأسه، ثم احتلم فسأل أصحابه: هل يعلمون له رخصة في التيمم؟

فقالوا: ما نرى لك رخصة وأنت قادر على الماء، فاغتسل فمات.

فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ وإنما شفاء العيي السؤال».

فهو استدلال أيضاً في غير محله، وهو حجة أيضاً على المقلدين لا لهم. قال في إعلام الموقعين في بيان وجه ذلك ما نصه:

إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أرشد المستفتين، كصاحب الشجة بالسؤال عن حكمه، وسنته فقال:

قتلوه قتلهم الله، فدعا عليهم حين أفتوا بغير علم.

وفي هذا تحريم الإفتاء بالتقليد.

فإنه ليس علماً باتفاق الناس.

فإنما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاعله، فهو حرام وذلك أحد أدلة التحريم.

فما احتج به المقلدون هو من أكبر الحجج عليهم.

وكذلك سؤال أبي العسيف الذي زنى بامرأة مستأجرة لأهل العلم.

فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في البكر الزاني أقره على ذلك، ولم ينكره، فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذاهبهم.

وأما استدلالهم بأن عمر قال في الكلاله: إني لأستحيي من الله أن أخالف أبا بكر، وأن ذلك تقليد منه له. فلا حجة لهم فيه أيضاً.

وخلاف عمر لأبي بكر رضي الله عنهما أشهر من أن يذكر.

كما خالفه في سبي أهل الردة فسيبهم أبو بكر، وخالفه عمر.

وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلها إلا لمن ولدت لسيدها منهن.

ونقص حكمه، ومن جملتهن خولة الحنفية أم محمد بن علي.
وخالفه في أرض العنوة فقسما أبو بكر ووقفها عمر.
وخالفه في المفاضلة في العطاء، فرأى أبو بكر التسوية، ورأى عمر
المفاضلة.

وخالفه في الاستخلاف، فاستخلف أبو بكر عمر على المسلمين، ولم
يستخلف عليهم عمر أحداً إيثاراً لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم على
فعل أبي بكر رضي الله عنهم.

وخالفه في الجد والإخوة، مع أن خلاف أبي بكر الذي استحي منه عمر هو
خلافه في قوله: إن يكون صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن
الشیطان، والله منه بريء، هو ما دون الولد والوالد فاستحي عمر من
مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه، وأنه ليس كلامه كله صواباً
مأموناً عليه الخطأ.

ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقر عند موته أنه لم يقض
في الكلالة بشيء.

وقد اعترف أنه لم يفهمها، قاله في إعلام الموقعين. ومن العجب استدلال
المقلدين على تقليدهم، باستحياء عمر من مخالفة أبي بكر، مع أنهم لم
يستحيوا من مخالفة أبي بكر وعمر، وجميع الصحابة، ومخالفة الكتاب والسنة
إذا كان ذلك، لا يوافق مذهب إمامهم، كما هو معلوم من عاداتهم.

وكما أوضحه الصاوي في الكلام الذي قدمنا على قوله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}.

فقد قدمنا هناك أنه قال: إن من خرج عن المذاهب الأربعة فهو ضال مضل،
ولو وافق الصحابة، والحديث الصحيح والآية.

وربما أداه ذلك إلى الكفر، لأن الأخذ بطواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر
فمن هذا مذهبه ودينه، وكيف يستدل باستحياء عمر من مخالفة أبي بكر؟
بل كيف يستدل بنص من نصوص الوحي، أو قول أحد من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم؟

مع أن أبا بكر خليفة راشد أمر النبي بالاعتداء به في قوله: «عليكم بسنتي
وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» الحديث.

فليس الاعتداء بالخلفاء كالاقتداء بغيرهم.

وأما استدلالهم على تقليدهم بقول عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: رأينا
لرأيك تبع.

فيكفي في رده ما قدمنا قريباً، من مخالفة عمر لأبي بكر، مع القصة التي
قال له فيها: رأينا لرأيك تبع، رد فيها علي أبي بكر بعض ما قاله.

وأيد الصحابة ما قال عمر في رده على أبي بكر رضي الله عنهما.

لأن الحديث المذكور في وفد بزاحة من أسد وغطفان حين قدموا على أبي
بكر يسألونه الصلح، فخيرهم أبو بكر بين الحرب المجلية والسلم المخزية.

فقالوا هذه المجلية قد عرفناها. فما المخزية؟

قال: تنزع منكم الحلقة والكراع، ونغنم ما أصبنا لكم وتردون لنا ما أصبتم
منا؟ وتدون لنا قتلانا إلى آخر كلامه.

وفيه: فقام عمر بن الخطاب فقال: قد رأيت رأياً سنشير عليك.
 أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية فنعم ما ذكرت.
 وما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم، وتردون ما أصبتم منا، فنعم ما ذكرت.
 وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار.
 فإن قتلانا قد قاتلت فقتلت على ما أمر الله أجورها على الله، ليس لها ديات.
 فتتابع القوم على ما قال عمر رضي الله عنه.
 فهذه القصة الثابتة: هي التي في بعض ألفاظها ورأينا لرأيك تبع.
 وأنت ترى عمر رضي الله عنه لم يقلد فيها أبا بكر رضي الله عنه، إلا فيما
 يعتقد صوابه.

فإنما ظهر له أنه صواب قال له فيه: نعم ما ذكرت.
 وما ظهر له أنه ليس بصواب رده على أبي بكر، وهو قول أبي بكر بدفع ديات
 الشهداء.

لأن عمر يعتقد أن الشهيد في سبيل الله لا دية له، لأن الله يقول: {إِنَّ اللَّهَ
 يَنْتَهِىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ لَجَنَّةً يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 يَفْعَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَ لِقُرْآنٍ وَمِنْ أَوْفَىٰ
 بَعْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَ سَتَّبِشِرُوا بِبَيْعِكُمْ لِيَذَىٰ بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ لَفُؤْرٌ لِعَظِيمٍ} .
 وذلك يوضح ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لا يعدلون عن الكتاب والسنة
 إلى قول أحد.

وأما احتجاجهم بتقليد ابن مسعود لعمر فهو ظاهر السقوط، ولو وافق عمر
 في بعض المسائل فهو من قبيل موافقة بعض العلماء لبعض، لاتفاق رأيهم لا
 لتقليد بعضهم لبعض.

وقد خالف ابن مسعود عمر رضي الله عنهما في مسائل كثيرة جداً،
 كمخالفته له في أم الولد، لأن ابن مسعود يقول فيها إنها تعتق من نصيب
 ولدها، ومن ذلك أن ابن مسعود كان يطبق في ركوعه إلى أن مات، وعمر
 كان يضع يديه على ركبتيه.

وكان ابن مسعود يقول في الحرام هي يمين وعمر يقول: إنه طلقة واحدة.
 وكان ابن مسعود يحزم النكاح بين الزانيين وعمر يتوبهما، وينكح أحدهما
 الآخر.

وكان ابن مسعود يرى بيع الأمة طلاقها، وعمر يرى عدم ذلك وأمثال هذا
 كثيرة معلومة.

مع أن ابن مسعود يقول: إنه أعلم الصحابة بكتاب الله وأنه لو كان أحداً أعلم
 منه به لرحل إليه.

ولم ينكر عليه أحد من الصحابة.

وقد قدمنا عنه قوله: كن عالماً أو متعلماً ولا تكن إمعة.

فليس ابن مسعود من أهل التقليد، مع أن المقلدين المحتجين بتقليد ابن
 مسعود لعمر، لا يقلدون ابن مسعود، ولا عمر ولا غيرهما من أصحاب رسول
 الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يأخذون بقول الله ولا رسوله وإنما يفضلون على ذلك كله تقليد أحد الأئمة
 أصحاب المذاهب رحمهم الله.

وأما استدلالهم على التقليد بأن عبد الله كان يدع قوله لقول عمر.
وأبو موسى كان يدع قوله لقول علي.
وزيد يدع قوله لقول أبي بن كعب فهو ظاهر السقوط أيضاً.
لأنه من المعلوم أن الصحابة المذكورين رضي الله عنهم لا يدعون سنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول أحد، وهذا لا شك فيه.
وكان ابن عمر يدع قول عمر، إذا ظهرت له السنة.
وكان ابن عباس يقول: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر.
وأما استدلالهم على التقليد بأن معاذاً رضي الله عنه صلى مسبقاً فصلى ما
أدرك مع الإمام أولاً، ثم قضى ما فاته بعد سلام الإمام، وكانوا قبل ذلك
يصلون ما فاتهم أولاً ثم يدخلون مع الإمام في الباقي.
وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ذلك «إن معاذاً قد سن لكم سنة،
فكذلك فافعلوا» فهو ظاهر السقوط أيضاً، لأن ذلك لم يكن سنة إلا بأمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى.
فلا حجة قطعاً في قول أحد كائناً من كان، ورسول الله صلى الله عليه وسلم
موجود.

وإنما العبرة بقوله صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره.

وهذا معلوم بالضرورة من الدين.
وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ} .
قائلين إن المراد بأولي الأمر العلماء، وأن طاعتهم المأمور بها في الآية هي
تقليدهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.
لأنه لا يجوز طاعة أولي الأمر إجماعاً فيما خالف كتاباً أو سنة، ولا طاعة لهم
إلا في المعروف كما جاءت به الأحاديث الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم.
ولا نزاع بين المسلمين في أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
والتحقيق في معنى الآية الكريمة أن المراد بأولي الأمر: ما يشمل الأمراء
والعلماء.

لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولا تجوز طاعة
أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه.
لأن ما أمر به أولو الأمر لا يخلو من أحد أمرين:
أحدهما: أن يكون طاعة لله ورسوله من غير نزاع، وطاعة أولي الأمر في
مثل هذا من طاعة الله ورسوله.

والثاني: أن يحصل فيه نزاع هل هو من طاعة الله ورسوله أو لا؟
وفي هذه الحالة لا تجوز الطاعة العمياء لأولي الأمر ولا التقليد الأعمى كما
صرح الله تعالى بذلك في نفس الآية.
لأنه تعالى لما قال: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، أتبع
ذلك بقوله: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} .
فالآية صريحة في رد كل نزاع إلى الله ورسوله.

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، هو الرد إليه في حياته، والرد إلى سنته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. وقد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} بعض الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كحديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

وحديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في السرية الذين أمرهم أميرهم أن يدخلوا في النار «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً إنما الطاعة في المعروف». وفي الكتاب العزيز: {وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ}. ولا يخفى أن طاعة الله وطاعة رسوله المأمور بها في الآية لا يتحقق وجودها إلا بمعرفة أمر الله ورسوله ونهي الله ورسوله. والمقلدون مقرون على أنفسهم بأنهم لا يعلمون أمر الله ولا نهيه، ولا أمر رسوله ولا نهيه.

وغاية ما يدعون علمه هو أن الإمام الذي قلده قال كذا، مع عجزهم عن التمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب، بل أكثرهم لا يميزون بين قول الإمام وبين ما أحقه أتباعه بعده مما قاسوه على أصول مذهبه. ولا شك أن طاعة العلماء هي اقتفاء ما كانوا عليه من النظر في كتاب الله وسنة رسوله وتقديمها على كل قول وعلى كل رأي كائناً ما كان. فمن قلدهم التقليد الأعمى وترك الكتاب والسنة لأقوالهم، فهو المخالف لهم المتباعد عن طاعتهم كما تقدم، وكما سيأتي إن شاء الله. وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} لِمُهَجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ تَبِعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، قائلين: إن تقليدهم من جملة اتباعهم بإحسان، فمقلدهم ممن رضي الله عنه بنص الآية فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأن الذين اتبعوهم بإحسان هم الذين ساروا على مثل ما كانوا عليه من العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فلم يكن أحد منهم يقلد رجلاً ويترك الكتاب والسنة لقوله. فالمقلدون التقليد الأعمى ليسوا ممن اتبعوهم ألبتة، بل هم أعظم الناس مخالفة لهم، وأبعدهم عن اتباعهم، فاتبع الناس لمالك مثلاً ابن وهب ونظراؤه، ممن يعرضون أقواله على الكتاب والسنة، فيأخذون منها ما وافقهما دون غيره.

واتبع الناس لأبي حنيفة أبو يوسف ومحمد مع كثرة مخالفتها له، لأجل الدليل من كتاب أو سنة. وأتبع أصحاب أحمد بن حنبل له البخاري ومسلم وأبو داود والأثرم لتقديمهم الدليل على قوله وقول غيره، وهكذا. وأما استدلالهم على تقليدهم: بحديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» فهو ظاهر السقوط أيضاً.

اعلم أولاً أن الحديث لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حديث ضعيف لا يصح الاحتجاج به.

فجميع طرقه ليس فيها شيء قائم، قال في إعلام الموقعين: روى هذا الحديث من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر، ومن حديث سعيد بن المسيب عن ابن عمر.

ومن طريق حمزة الجري عن نافع عن ابن عمر، ولا يثبت شيء منها. قال ابن عبد البر حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد أن أبا عبد الله بن مضر حدثهم ثنا محمد بن أيوب الصموت قال: قال لنا البزار.

وأما ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» فهذا الكلام لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم. اهـ. منه.

وضعف الحديث المذكور معروف عن أهل العلم. مع أن المقلدين المحتجين به يمنعون تقليد الصحابة، ويحرمون الاهتداء بتلك النجوم.

وهو تناقض عجيب لأنهم تركوا نفس ما دل عليه الحديث واستدلوا بالحديث على ما لم يتعرض له الحديث، وهو تقديمهم تقليد أئمتهم على تقليد الصحابة.

مع أن قياسهم على الصحابة لا يصح لعظم الفارق، وبما ذكرنا تعلم سقوط استدلالهم بما ذكروا عن ابن مسعود من قوله:

«من كان مستنأ منكم فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد». والله جل وعلا يقول: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ }.

وأما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي».

وقوله صلى الله عليه وسلم «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر» فهو حجة عليهم لا لهم.

لأن سنة الخلفاء الراشدين التي حث عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرونة بسنته ليس فيها البتة تقليد أعمى، ولا التزام قول رجل بعينه.

بل سنتهم هي اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتقديمهما على كل شيء.

لأنهم هم أتباع الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأشدهم حرصاً على العمل بما جاء به.

فالذي يقدم آراء الرجال على كتاب الله وسنة رسوله ويستدل على ذلك بحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث، هو كما ترى.

وأقوال الخلفاء رضي الله عنهم وأفعالهم كلها معروفة مدونة إلى الآن ليس فيها تقليد أعمى ولا جمود على قول رجل واحد.

وإنما هي عمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومشاورة لأصحابه فيما نزل من النوازل واستنباط ما لم يكن منصوصاً من نصوص الكتاب والسنة على أحسن الوجوه وأتقنها، وأقربها لرضى الله والاحتياط في طاعته.

وكانوا إذا بلغهم شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا إليه ولو كان مخالفاً لرأيهم.

فقد رجع أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى قول المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم فرض للجدة السدس.

وكان أبو بكر يرى أنها لا ميراث لها، وقد قال لها لما جاءتة «لا أرى لك شيئاً في كتاب الله ولا أعلم لك شيئاً في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم». وقد رجع عمر إلى قول المذكورين في دية الجنين أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فيها غرة عبد أو وليدة.

ورجع عمر أيضاً إلى حديث عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر.

ورجع عمر أيضاً إلى قول الضحاك بن سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها.

ورجع عثمان بن عفان إلى حديث فريضة بنت مالك أخت أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرها بالسكنى في البيت الذي توفي عنها زوجها وهي فيه حتى تنقضي عدتها.

وكان عثمان بعد ذلك يفتي بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى تنقضي عدتها.

وأمثال هذا أكثر من أن تحصى، وفي ذلك بيان واضح، لأن سنة الخلفاء الراشدين هي المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتقديم سنته على كل شيء، فعلينا جميعاً أن نعمل بمثل ما كانوا يعملون لنكون متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنتهم.

أما المقلد المعرض عن سنتهم، وعن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مفضلاً على ذلك تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رحمهم الله، فما كان يحق له أن يستدل بحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث لأنه مقر بمقتضى تقليده، بأنه أبعد الناس عن العمل بحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين» الحديث.

وأما استدلالهم، بأن عمر كتب إلى شريح: أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فيما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن في سنة رسول الله، فيما قضى به الصالحون فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم.

لأن فيه تقديم كتاب الله، ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم العمل بما قضى به الصالحون، وخيرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولو كان المقلدون يمثلون هذا، لما أنكر عليهم أهل العلم، ولكن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون العمل بكتاب الله وسنة رسوله، والعمل بفتاوى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويوجبون الجمود على قول الإمام الذي قلده والتزموا بمذهبه.

ومن كانت هذه حاله، فلا يحق له أن يستدل بشيء من هذه الأدلة.

وأما استدلالهم بأن عمر رضي الله عنه منع بيع أمهات الأولاد فتبعه الصحابة. وألزم الطلاق الثلاث بكلمة واحدة وتبعه الصحابة.

فهو ظاهر السقوط أيضاً.
وقد قدمنا أن متابعة بعض الصحابة لبعض إنما هي لاتفاقهم فيما رأوه، لا لأن بعضهم مقلد بعضاً تقليداً أعمى.
وقد قدمنا إيضاح ذلك بما يكفي.

مع أن المقلدين المحتجين بهذا يمنعون تقليد عمر، وسائر الصحابة، فمن عجايبهم أنهم يستدلون بما يعتقدون أن العمل به ممنوع.
وأما استدلالهم بأن عمرو بن العاص قال لعمر لما احتلم: خذ ثوباً غير ثوبك، فقال لو فعلت صارت سنة. فهو ظاهر السقوط أيضاً.
لأن عمر بن الخطاب خاف أن يفعل شيئاً فيعتقد من لا علم عنده أنه إنما فعله لكونه سنة، فامتنع من فعله لأجل هذا المحذور.
مع أن المقلد يرى منع تقليد عمر رضي الله عنه.
وأما استدلالهم بما ذكروه عن أبي وغيره أنه قال:
ما استبان لك فاعمل به، وما اشتبه عليك فكله إلى عالمه، فهو حجة عليهم أيضاً لا لهم.

لأن قوله: ما استبان لك فاعمل به، صريح في أن ما استبان من كتاب الله وسنة رسوله، يجب العمل به ولا يجوز العدول عنه لقول أحد.
وهذا نقيض ما عليه المقلدون، فهم دائماً يستدلون على مذهبهم بما يناقضه.
والأظهر أن مراد أبي بن كعب بقوله: فكله إلى عالمه، أي فكل علمه إلى الله.

فمراده بما اشتبه المتشابه، ومراده بعالمه الله.
فهو يشير إلى قوله تعالى: {قَامَا الذِّهْنَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْعٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ أُتِيَغَاءَ لِفِتْنَةٍ وَ أُتِيَغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا}.

فالذين قالوا أمنا به كل من عند ربنا، فقد وكلوا ما اشتبه عليهم إلى عالمه وهو الله.

ويحتمل أن يكون مراد أبي بقوله: فكله إلى عالمه أي فكله إلى من هو أعلم به منك من العلماء.

وهذا هو الذي فهمه ابن القيم في إعلام الموقعين من كلام أبي.
وعلى هذا الاحتمال فلا حجة فيه أيضاً للمقلدين لأن من خفي عليه شيء من العلم فوكله إلى من هو أعلم به منه، فقد أصاب.

ولا يلزم من ذلك الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله بل هو عمل بالقرآن لقوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}.

وأما استدلالهم على تقليدهم بأن الصحابة كانوا يفتنون ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود بين أظهرهم، وأن ذلك تقليد لهم فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأنهم ما كانوا يفتنونهم في حالة وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم إلا بما علمهم من الكتاب والسنة كما لا يخفى.

ومن أفتى منهم وغلط في فتواه أنكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه التي ليست مطابقة للحق، وردّها عليه كإنكاره على أبي السنابل بن بعكك قوله لسبيعة الأسلمية لما مات زوجها ووضعت حملها بعد ذلك بأيام: «إنها لا تنقضي عدتها إلا بعد أربعة أشهر وعشر ليال».

وقد استدل أبو السنابل على ما أفتى به بعموم قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}.
وقد رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم فتواه مبيناً أن عموم قوله تعالى:

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا}، مخصص بقوله تعالى: {وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}.

وإنكاره صلى الله عليه وسلم على الذين أفتوا صاحب الشجة بأنهم لم يجدوا له رخصة وهو يقدر على الماء.

وقد قدمنا قصته، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيهم: «قتلوه قتلهم الله» الحديث.

والظاهر أنهم استندوا في فتواهم لما فهموه من قوله تعالى {قَلِمَ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} وغفلوا عن قوله: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ}، وأمثال هذا كثيرة.

وأما استدلالهم على التقليد بقوله تعالى {قَلَوْلًا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} قائلين إن الآية أوجبت قبول إنذارهم، وأن ذلك تقليد لهم، فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأن الإنذار في قوله {وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ} لا يكون برأي.

وإنما يكون بالوحي خاصة، وقد حصر تعالى الإنذار في الوحي بأداة الحصر التي هي إنما في قوله {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ}.

وبه تعلم أن الإنذار لا يقوم إلا بالحجة فمن لم تقم عليه الحجة، لم يكن قد أُنذر، كما أن النذير من أقام الحجة، فمن لم يأت بحجة فليس بنذير.

فما لا شك فيه أن هذا الإنذار المذكور في قوله {وَلِيُنذِرُوا}، والتحذير من مخالفته في قوله: {لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} ليس برأي ولا اجتهاد.

وإنما هو إنذار بالوحي ممن تفقه في الدين، وصار ينذر بما علمه من الدين، كما يدل عليه قوله تعالى قبله {لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ}، فهو يدل على أن قوله: {وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ} أي بما تفقهوا فيه من الدين.

وليس التفقه في الدين إلا علم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فتبين أن الآية لا دليل فيها ألبتة لطائفة التقليد، الذين يوجبون تقليد إمام بعينه، من غير أن يرد من أقواله شيء، ولا يؤخذ من أقوال غيره شيء.

ونجعل أقواله عياراً لكتاب الله وسنة رسوله فما وافق أقواله منهما قبل وما لم يوافقها منهما رد.

وهذا النوع من التقليد لا شك في بطلانه، وعدم جوازه.

فالأية الكريمة بعيدة كل البعد من الدلالة عليه، مع أن استدلال المقلدين بها على تقليدهم استدلال بشيء يعتقدون أن الاستدلال به ممنوع باتاً، لأنه استدلال بقرآن.

وأما قبول إنذارهم فهو من الاتباع لا من التقليد، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله.

وأما استدلالهم بأن ابن الزبير، قال ما يدل على تقليده لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في أن الجد يحجب الإخوة، فهو ظاهر السقوط أيضاً. وقد قدمنا مراراً في رد استدلالهم بتقليد الصحابة بعضهم بعضاً ما يكفي، فأغنى عن إعادته هنا.

وأما استدلالهم بقبول شهادة الشاهد في الحقوق. قائلين: إن قبول شهادته فيما شهد به تقليد له، فهو ظاهر السقوط لظهور الفرق بينه وبين ما استدلوا عليه به. من تقليد رجل واحد بعينه، بحيث لا يترك من أقواله شيء ولا يؤخذ مما خالفها شيء، ولو كان كتاباً أو سنة.

وذلك من وجهين.

أحدهما: أن العمل بشهادة الشاهد أخذ بكتاب الله وسنة رسوله، لأن الله يقول: {وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ} ويقول: {وَسَيُشْهِدُوكُم بِآيَاتِكُمْ إِن كُنْتُمْ مِّنْهُمْ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم القضاء بالشاهد واليمين في الأموال.

وفي الحديث «شاهدك أو يمينه» وهو حديث صحيح.

فالأخذ بشهادة الشاهد إذا من العمل بكتاب الله وسنة رسوله لا من التقليد لرجل واحد بعينه تقليداً أعمى.

الوجه الثاني: أن الشاهد إنما يخبر عما أدركه بإحدى حواسه والمدرك بالحاسة يحصل به القطع لمن أدركه بخلاف الرأي، فإن صاحبه لا يقطع بصحة ما ظهر له من الرأي.

ولذا أجمع العلماء على الفرق بين خبر التواتر المستند إلى حس، وبين خبر التواتر المستند إلى عقل.

فأجمعوا على أن الأول يوجب العلم المفيد للقطع لاستناده إلى الحس. وأن الثاني لا يوجب، ولو كان خبر التواتر يفيد العلم في المعقولات لكان قدم العالم مقطوعاً به.

لأنه تواتر عليه من الفلاسفة خلق لا يحصيهم إلا الله.

مع أن حدوث العالم أمر قطعي لا شك فيه.

فالذين تواتروا من الفلاسفة على قدم العالم الذي هو من المعقولات لا من المحسوسات لو تواتر عشرهم على أمر محسوس لأفاد العلم اليقيني فيه.

فالشاهد إن أخبر عن محسوس، وكان عدلاً، فهو عدل مخبر عما قطع به

قطعاً لا يتطرق إليه الشك، بخلاف المجتهد، فإنه عدل أخبر عما ظنه،

فوضوح الفرق بين الأمرين كما ترى.

وأما استدلالهم على تقليدهم بقبول قول القائف والخاص والمقوم والحاكمين بالمثل في جزاء الصيد. وتقليد الأعمى في القبلة. وتقليد المؤذنين في الوقب والمترجمين والمعرفين، والمعدلين، والمجرحين. وتقليده المرأة في طهرها، فهو كله ظاهر السقوط أيضاً. لأن جميع ذلك لا يقبل منه إلا ما قام عليه دليل من كتاب أو سنة. فالعمل به من العمل بالدليل الشرعي لا من التقليد الأعمى. وذلك كله من قبيل الشهادة، والإخبار بما عرفه القائف والخاص إلى آخره، لا من قبيل الفتوى في الدين.

وقد استدل العلماء على قبول قول القائف بسرور النبي صلى الله عليه وسلم من قول مجرز بن الأعور المدلجي في أسامة وزيد «هذه الأقدام بعضها من بعض».

فلو كان قول القائف: لا يقبل لما أقره النبي صلى الله عليه وسلم. ولما برقت أسارير وجهه سروراً به. فقبوله لذلك، فهو اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد قدمنا الأحاديث النبوية الدالة على قبول قول الخاص، وبيننا أن بعضها ثابت في الصحيح. ورد قول من منع ذلك في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}. فهذا مثال ما ثبت بالسنة من قبول قول المذكورين.

ومثال ما دل عليه القرآن من ذلك قبول قول الحكمين في المثل في جزاء الصيد، لأن الله نص عليه في قوله تعالى {فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ أَلْتَمِّ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ}. وهكذا كل من ذكروا، فإن قبول قولهم: إنما صح بدليل شرعي يدل على قبوله من كتاب أو سنة أو إجماع.

مع أن الإخبار عن جميع ما ذكر إخبار عن محسوس، والتقليد الذي استدلوا به عليه إخبار عن معقول مظنون.

والفرق بين الأمرين قدمناه قريباً، فليس شيء من ذلك تقليداً أعمى بدون حجة.

وأما استدلالهم على التقليد المذكور بجواز شراء اللحوم والثياب والأطعمة وغيرها من غير سؤال عن أسباب حلها اكتفاء بتقليد أربابها. فهو ظاهر السقوط أيضاً.

لأن الاكتفاء بقول الذابح والبائع ليس بتقليد أعمى في حكم ديني لهما. وإنما هو عمل بالأدلة الشرعية، لأنها دلت على أن ما في أسواق المسلمين من اللحوم والسلع محمول على الجواز والصحة، حتى يظهر ما يخالف ذلك. ومما يدل على ذلك، ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت «إن قوماً قالوا يا رسول الله: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوا، قال: وكانوا حديثي عهد بالكفر» قال المجد في المنتقى بعد أن ساق الحديث: رواه

البخاري والنسائي وابن ماجه، وهو دليل على أن التصرفات والأفعال تحمل على حال الصحة والسلامة إلى أن يقوم دليل الفساد. اهـ منه. وقد أجمع العلماء على هذا، فالعمل به عمل بالدليل الشرعي. لأن الله لو كلف الناس ألا يشتري أحد منهم شيئاً حتى يعلم حليته فوقعوا في حرج عظيم تتعطل به المعيشة ويختل به نظامها. فأجاز الله تعالى ذلك برفع الحرج كما قال تعالى { وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } فالاستدلال به على التقليد الأعمى فاسد، لأنه أخذ بالحجة والدليل، وليس من التقليد. وأما استدلالهم على التقليد بأن الله لو كلف الناس كلهم الاجتهاد، وأن يكونوا علماء ضاعت مصالح العباد، وتعطلت الصنائع والمتاجر، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدرأً. فهو ظاهر السقوط أيضاً. ومن أوضح الأدلة على سقوطه أن القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، لم يكن فيهم تقليد رجل واحد بعينه هذا التقليد الأعمى. ولم تتعطل متاجرهم ولا صنائعهم، ولم يرتكبوا ما يمنعه الشرع ولا القدر. بل كانوا كلهم لا يقدمون شيئاً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكان فيهم علماء مجتهدون يعلمون بالكتاب والسنة ويفتون بهما. وكان فيهم قوم دون رتبهم في العلم، يتعلمون من كتاب الله وسنة رسوله ما يحتاجون للعمل به في أنفسهم، وهم متبعون لا مقلدون. وفيهم طائفة أخرى، هي العوام لا قدرة لها على التعلم. وكانوا يستفتون فيما نزل من النوازل من شاءوا من العلماء وتارة يسألونه عن الدليل فيما أفتاهم به. وتارة يكتفون بفتواه ولا يسألون ولم يتقيدوا بنفس ذلك العالم الذي استفتوه. فإذا نزلت بهم نازلة أخرى، سألوا عنها غيره من العلماء إن شاءوا. ولا إشكال في هذا الذي مضت عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم، ولا يلزمه تعطيل صنائع ولا متاجر، ولا يمنعه شرع ولا قدر. فكيف يستدل منصف للتقليد الأعمى، بأن الناس لو لم ترتكبه لوقعوا في المحذور المذكور. وعلى كل حال فكل عاقل لم يعمه التعصب، يعلم أن تقليد إمام واحد بعينه، بحيث لا يترك من أقواله شيء، ولا يؤخذ من أقوال غيره شيء، وجعل أقواله عياراً لكتاب الله، وسنة رسوله فما وافق أقواله منهما جاز العمل به، وما خالفها منهما وجب اطراحه، وترك العمل به لا وجه له ألبتة. وهو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم وإجماع الأئمة الأربعة. فالواجب على المسلمين تعلم كتاب الله وسنة رسوله، والعمل بما علموا منهما. والواجب على العوام الذين لا قدرة لهم على التعلم سؤال أهل العلم، والعمل بما أفتوهم به.

وسياتي لهذا زيادة إيضاح وإقناع للمنصف في التنبيهات الآتية إن شاء الله تعالى.

وقد بينا هنا بطلان جميع الحجج التي يحتج بها المقلدون التقليد المذكور، وما لم نذكر من حججهم، قد أوضحنا رده وإبطاله فيما ذكرنا.

تنبيهات مهمة تتعلق بهذه المسألة التنبيه الأول
اعلم أن المقلدين، اغتروا بقضيتين ظنوهما صادقتين، وهما بعيدتان من الصدق. وظن صدقهما يدخل أولياً في عموم قوله تعالى {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، وقوله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

أما الأولى منهما فهي ظنهم، أن الإمام الذي قلدوه لا بد أن يكون قد اطلع على جميع معاني كتاب الله، ولم يفته منها شيء.

ولذلك فإن كل آية وكل حديث قد خالفاً قوله فلا شك عندهم أن ذلك الإمام اطلع على تلك الآية وعلم معناها، وعلى ذلك الحديث وعلم معناه.

وأنه ما ترك العمل بهما إلا لأنه اطلع على ما هو أقوى منهما وأرجح.

ولذلك يجب تقديم ذلك الأرجح الذي تخيلوه شيء من الوحي الموجود بين أيديهم.

وهذا الظن كذب باطل بلا شك.

والأئمة كلهم معترفون بأنهم ما أحاطوا بجميع نصوص الوحي، كما سياتي إيضاحه إن شاء الله.

ومن أصرح ذلك أن الإمام مالكا رحمه الله، إمام دار الهجرة المجمع على علمه وفضله وجلالته، لما أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما جمعه في موطنه لم يقبل ذلك من أبي جعفر ورده عليه.

وأخبره أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في أقطار الدنيا، كلهم عنده علم ليس عند الآخر.

ولم يجمع الحديث جمعاً تاماً بحيث أمكن جمع جميع السنة إلا بعد الأئمة الأربعة.

لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تفرقوا في أقطار الدنيا روي عنهم كثير من الأحاديث لم يكن عند غيرهم، ولم يتيسر الاطلاع عليه إلا بعد أزمان.

وكثرة علم العالم لا تستلزم اطلاعه على جميع النصوص.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو عجز عن أن يفهم معنى الكلالة حتى مات رضي الله عنه.

وقد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها كثيراً فبينها له ولم يفهم.

فقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه قال: ما سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن بإصبعه في صدري،

وقال لي «يكفيك آية الصيف في آخر سورة النساء».

فهذا من أوضح البيان، لأن مراد النبي صلى الله عليه وسلم بآية الصيف {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} والآية تبين معنى الكلالة بياناً شافياً، لأنها أوضحت أنها: ما دون الولد والوالد.

فبينت نفي الولد بدلاله المطابقة في قوله تعالى: {إِنْ مُرُّهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ
وَلَدٌ} وبينت نفي الوالد بدلالة الالتزام في قوله تعالى {وَلَهُ أَخْتُ فَلَهَا نِصْفُ
مَا تَرَكَ}، لأن ميراث الأخت يستلزم نفي الولد.
ومع هذا البيان النبوي الواضح لهذه الآية الكريمة، فإن عمر رضي الله عنه لم
يفهم.

وقد صح عنه أن الكلالة لم تنزل مشكلة عليه.
وقد خفي معنى هذا أيضاً على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال في
الكلالة: أقول فيها برأيي. فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن
الشیطان، هو ما دون الولد والوالد.
فوافق رأيه معنى الآية.
والظاهر أنه لو كان فاهماً للآية لكفته عن الرأي.
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: «تكفيك آية
الصيف».

وهو تصریح منه صلى الله عليه وسلم بأن في الآية كفاية عن كل ما سواها
في الحكم المسؤول عنه.
ومما يوضح ذلك أن عمر طلب من النبي صلى الله عليه وسلم بيان الآية.
وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في حقه صلى الله عليه وسلم.
فما أحال عمر على الآية إلا لأن فيها من البيان ما يشفي ويكفي.
وقد خفي على أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم «أعطى الجدة السدس حتى أخبره المغيرة بن شعبة ومحمد بن
مسلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطاهما السدس» فرجع إلى قولهما.
ولم يعلم عمر رضي الله عنه بأن النبي صلى الله عليه وسلم: قضى في دية
الجنين بغرة عبد أو وليدة حتى أخبره المذكوران قبل.
ولم يعلم عمر رضي الله عنه بأن المرأة تراث من دية زوجها. حتى أخبره
الضحاک بن سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه: أن يورث امرأة
أشيم الضبابي من دية زوجها.
ولم يعلم أيضاً بأخذ الجزية من المجوسي حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف.
بأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر.
ولم يعلم بحكم الاستئذان ثلاثاً حتى أخبره أبو موسى الأشعري وأبو سعيد
الخدري رضي الله عنه.

ولم يعلم عثمان رضي الله عنه بوجوب السكنى للمتوفى عنها حتى أخبرته
قريعة بنت مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم: ألزمها بالسكنى في المحل
الذي مات عنها زوجها فيه حتى تنقضي عدتها.
وأمثال هذا أكثر من أن تحصر.

فهؤلاء الخلفاء الراشدون وهم هم، خفي عليهم كثير من قضايا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأحاديثه مع ملازمته له، وشدة حرصهم على الأخذ
منه.

فتعلموه ممن هو دونهم في الفضل والعلم.

فما ظنك بغيرهم من الأئمة الذين نشأوا وتعلموا بعد تفرق الصحابة في أقطار الدنيا؟

وروي عنه الأحاديث عدول من الأقطار التي ذهبوا إليها؟
والحاصل أن ظن إحاطة الإمام بجميع نصوص الشرع ومعانيها ظن لا يغني من الحق شيئاً، وليس بصحيح قطعاً.
لأنه لا شك أنه يفوته بعض الأحاديث فلم يطلع عليها ويرويه بعض العدول عن الصحابة فيثبت عند غيره.
وهو معذور في ترك العمل به، بعدم اطلاعه عليه مع أنه بذل المجهود في البحث.

ولذا كان له أجر الاجتهاد والعذر في الخطأ.
وقد يكون الإمام اطلع على الحديث، ولكن السند الذي بلغه به ضعيف فيتركه لضعف السند.

ويكون غيره اطلع على رواية أخرى صحيحة يثبت بها الحديث فهو معذور في تركه، لأنه لم يطلع إلا على السند الضعيف ولم تبلغه الطريق الصحيحة الأخرى.

وقد يترك الحديث لشيء يظنه أرجح منه، ويكون الواقع أن الحديث أرجح من ذلك الشيء الذي ظنه لقيام أدلة أخرى على ذلك لم يطلع عليها. إلى أسباب أخر كثيرة، كترك الأئمة للعمل ببعض النصوص.
وبهذا كله تعلم أن ظن اطلاع الإمام على كل شيء من أحكام الشرع وإصابته في معانيها كلها باطل.

وكل واحد من الأئمة يصرح ببطلان هذا الظن كما ستري إيضاحه إن شاء الله. فاللازم هو ما قاله الأئمة أنفسهم رحمهم الله من أنهم قد يخطئون ونهوا عن اتباعهم في كل شيء يخالف نصاً من كتاب أو سنة.
فالمتابع لهم حقيقة، هو من لا يقدم على كتاب الله وسنة رسوله شيئاً.
أما الذي يقدم أقوال الرجال على الكتاب وصحيح السنة، فهو مخالف لهم لا متبع لهم.

ودعواه اتباعهم كذب محض.

وأما القضية الثانية:

فهي ظن المقلدين أن لهم مثل ما للإمام من العذر في الخطأ.
وإيضاحه: أنهم يظنون أن الإمام لو أخطأ في بعض الأحكام وقلدوه في ذلك الخطأ يكون لهم من العذر في الخطأ والأجر مثل ما لذلك الإمام الذي قلدوه. لأنهم متبعون له فيجري عليهم ما جرى عليه.

وهذا ظن كاذب باطل بلا شك. لأن الإمام الذي قلدوه بذل جهده في تعلم كتاب الله وسنة رسوله وأقوال أصحابه وفتاوبهم.

فقد شمر وما قصر فيما يلزم من تعلم الوحي والعمل به وطاعة الله على ضوء الوحي المنزل.

ومن كان هذا شأنه فهو جدير بالعذر في خطئه والأجر في اجتهاده.

وأما مقلدوه فقد تركوا النظر في كتاب الله وسنة رسوله وأعرضوا عن تعلمهما إعراضاً كلياً مع يسره وسهولته ونزلوا أقوال الرجال الذين يخطئون ويصيبون منزلة الوحي المنزل من الله. فأين هؤلاء من الأئمة الذين قلدوهم؟

وهذا الفرق العظيم بينهم، وبينهم، يدل دلالة واضحة، على أنهم ليسوا ماجورين في الخطأ في تقليد أعمى إذ لا اقتداء ولا أسوة في غير الحق. وليسوا معذورين لأنهم تركوا ما يلزمهم تعلمه من أمر الله ونهيه على ضوء وحيه المنزل.

والذي يجب عليهم من تعلم ذلك، هو ما تدعوهم الحاجة للعمل به، كأحكام عباداتهم ومعاملاتهم.

وأغلب ذلك تدل عليه نصوص واضحة، سهلة التناول من الكتاب والسنة. والحاصل أن المعرض عن كتاب الله، وسنة رسوله المفرط في تعلم دينه، مما أنزل الله، وما سنه رسوله، المقدم كلام الناس على كتاب الله، وسنة رسوله، لا يكون له ألبتة ما للإمام الذي لم يعرض عن كتاب الله وسنة رسوله، ولم يقدم عليهما شيئاً ولم يفرط في تعلم الأمر والنهي من الكتاب والسنة.

فأين هذا من هذا؟

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

التنبيه الثاني

اعلم أن الأئمة الأربعة رحمهم الله، متفقون على منع تقليدهم، التقليد الأعمى الذي يتعصب له من يدعون أنهم أتباعهم.

ولو كانوا أتباعهم حقاً لما خالفوهم في تقليدهم الذي منعوا منه ونهوا عنه. قال الإمام أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه:

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد القاضي المالكي، قال حدثنا موسى بن إسحاق، قال حدثنا إبراهيم بن المنذر، قال حدثنا معن بن عيسى، قال سمعت مالك بن أنس يقول: إنما أنا بشر أخطيء وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. اهـ. محل الغرض منه بلفظه. فمالك رحمه الله مع علمه وجلالته وفضله يعترف بالخطأ وينهى عن القول بما خالف الوحي من رأيه.

فمن كان مالكيًا فليمتثل قول مالك ولا يخالفه بلا مستند.

وقال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه أيضاً:

أخبرني أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي حدثني أبي حدثنا محمد بن عمر بن لبابة قال: حدثنا مالك بن علي القرشي، قال أنبأنا عبد الله بن مسلمة القعنبي قال:

دخلت على مالك فوجدته باكياً فسلمت عليه فرد علي ثم سكت عني يبكي، فقلت له:

يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟ فقال لي يا ابن قعنب إنا لله على ما فرط مني، ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط، ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي، وهذه المسائل قد كانت لي سعة فيما سبقت إليه. أه محل الغرض منه بلفظه.

ومن المعلوم بالضرورة أن مالكا رحمه الله لا يسره ولا يرضيه تقديم رأيه هذا الذي يسترجع ويبكي ندماً عليه، ويتمنى لو ضرب بالسياط ولم يكن صدر منه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فليتق الله وليستحي من الله من يقدم مثل هذا الرأي على الكتاب والسنة زاعماً أنه متبع مالكا في ذلك.

وهو مخالف فيه لمالك، ومخالف فيه لله ورسوله، ولأصحابه ولكل من يعتد به من أهل العلم.

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين:

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة.

فقال الشافعي: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة، كمثله حاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري، ذكره البيهقي.

وقال إسماعيل بن عيسى المزني في أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعي، ومن معنى قوله لأقربه على من أراد مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه إلى أن قال:

وقال أحمد بن حنبل: لا تقلدني، ولا تقلد مالكا، ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا. وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال.

وقال بشر بن الوليد: قال أبو يوسف: لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا.

وقد صرح مالك بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب، فكيف بمن ترك قول الله ورسوله لقول من هو دون إبراهيم أو مثله أه محله الغرض منه.

ومما لا شك فيه أن الأئمة الأربعة رحمهم الله نهوا عن تقليدهم في كل ما خالف كتاباً أو سنة كما نقله عنهم أصحابهم.

كما هو مقرر في كتب الحنفية عن أبي حنيفة.

وكتب الشافعية عن الشافعي القائل: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

وكتب المالكية، والحنابلة عن مالك وأحمد رحمهم الله جميعاً.

وكذلك كان غيرهم من أفاضل العلماء يمنعون من تقليدهم فيما لم يوافق الكتاب والسنة وقد يتحفظون منه ولا يرضون.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه:

وذكر محمد بن حارث في أخبار سحنون بن سعيد عن سحنون، قال كان مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبي سلمة ومحمد بن إبراهيم بن دينار وغيرهم

يختلفون إلى ابن هرمز، فكان إذا سأله مالك وعبد العزيز أجابهما.

وإذا سأله محمد بن إبراهيم بن دينار وذووه لم يجيبهما.

فقال له:

يسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما، وأسألك أنا وذوي فلا تجيبنا؟

فقال:

أوقع ذلك يا ابن أخي في قلبك؟

قال: نعم: فقال له:

إني قد كبرت سني ورق عظمي، وأنا أخاف أن يكون خالطني في عقلي مثل الذي خالطني في بدني.

ومالك وعبد العزيز عالمان فقيهان، إذا سمعا مني حقاً قبلاه، وإذا سمعا خطأ تركاه.

وأنت وذووك ما أجبتكم به قبلتموه.

قال محمد بن حارث: هذا والله هو الدين الكامل، والعقل الراجح.

لا كمن يأتي بالهذيان، ويريد أن ينزل من القلوب منزلة القرآن. اهـ منه.

التنبية الثالث

اعلم أن المقلدين للأئمة هذا التقليد الأعمى قد دل كتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع من يعتد به من أهل العلم، أنه لا يجوز لأحد منهم أن يقول: هذا حلال

وهذا حرام.

لأن الحلال ما أحله الله، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم في كتابه أو سنة رسوله، والحرام ما حرمه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم

في كتابه، أو سنة رسوله.

ولا يجوز ألبتة للمقلد أن يزيد على قوله: هذا الحكم قاله الإمام الذي قلده أو أفتى به.

أما دلالة القرآن على منع ذلك فقد قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ

مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلِلَّهُ أُذُنٌ لَّكُمْ أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَفْتَرُونَ}

وقال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا يَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ

لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن لَّيْدِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لَا يُفْلِحُونَ}.

وقال تعالى: {قُلْ هَلْ مَسَّ شُهَدَاءَكُمْ لِيُذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا}.

ومعلوم أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب كما بيناه مراراً، وأوضحنا أدلته من السنة الصحيحة.

ومما يوضح هذا أن المقلد الذي يقول: هذا حلال وهذا حرام من غير علم بأن الله حرمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، يقول على الله بغير علم قطعاً.

فهو داخل بلا شك في عموم قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَابْتِغَىٰ بَعْضُ لِحَقٍّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

فدخوله في قوله: {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} كما ترى.

وهو داخل أيضاً في عموم قوله تعالى: {إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّؤِّ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

وأما السنة، فقد قال مسلم بن الحجاج في صحيحه:

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع بن الجراح عن سفيان.

ح وحدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا يحيى بن آدم حدثنا سفيان قال: أملاه

علينا إملاء.

ح وحدثني عبد الله بن هاشم واللفظ له حدثني عبد الرحمن يعني ابن مهدي حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله» الحديث. وفيه «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري، أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

هذا لفظ مسلم في صحيحه.

وفيه النهي الصريح من النبي صلى الله عليه وسلم عن نسبة حكم إلى الله، حتى يعلم بأن هذا حكم الله الذي شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولأجل هذا كان أهل العلم لا يتجرؤون على القول بالتحريم والتحليل إلا بنص من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه:

حدثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا ابن وضاح قال حدثنا يوسف بن عدي قال حدثنا عبيدة بن حميد عن عطاء بن السائب قال: قال الربيع بن خيثم:

إياكم أن يقول الرجل في شيء وإن الله حرم هذا أو نهى عنه فيقول الله: كذبت لم أحرمه ولم أنه عنه.

قال أو يقول:

إن الله أحل هذا وأمر به، فيقول: كذبت لم أحله ولم أمر به.

وذكر ابن وهب وعتيق بن يعقوب أنهما سمعا مالك بن أنس يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحداً اقتدى به يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام.

ما كانوا يجترئون على ذلك.

وإنما كانوا يقولون: نكره هذا.

ونرى هذا حسناً.

وتتقي هذا، ولا نرى هذا.

وزاد عتيق بن يعقوب، ولا يقولون حلال وحرام. أما سمعت قول الله عز وجل: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}.

الحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله: قال أبو عمر: معنى قول مالك هذا إن ما أخذ من العلم رأياً واستحساناً لم نقل فيه حلال ولا حرام والله أعلم. اهـ. محل الغرض منه.

وقال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله في تفسيره، في الكلام على قوله

تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ لِكَذِبٍ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ}، ما

نصه:

أسند الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال: ما سمعت إبراهيم قط يقول: حلال ولا حرام ولكن كان يقول: كانوا يكرهون وكانوا يستحبون.

وقال ابن وهب:

قال مالك: لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام. ولكن يقولون: إياكم وكذا وكذا. ولم أكن لأصنع هذا. ومعنى هذا أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يكون البارئ تعالى بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول: إني أكره كذا.

وكذلك كان مالك يفعل اقتداء بمن تقدم من أهل الفتوى. اهـ. محل الغرض منه.

وإذا كان مالك وإبراهيم النخعي وغيرهما من أكابر أهل العلم لا يتجرؤون أن يقولوا في شيء من مسائل الاجتهاد والرأي: هذا حلال أو حرام. فما ظنك بغيرهم من المقلدين الذين لم يستضيئوا بنور الوحي؟ فتجرؤهم على التحريم والتحليل بلا مستند من الكتاب إنما نشأ لهم من الجهل بكتاب الله وسنة رسوله، وأثار السلف الصالح.

وأية يونس المتقدمة صريحة فيما ذكرنا صراحة تغني عن كل ما سواها. لأنه تعالى لما قال: {فَجَعَلْنَاهُ حُرَّامًا وَحَلَالًا} أتبع ذلك بقوله {قُلْ ءَاَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}.

ولم يجعل واسطة بين إذنه في ذلك وبين الافتراء عليه. فمن كان عنده إذن من الله بتحريم هذا أو تحلياً فليعتمد على إذن الله في ذلك.

ومن لم يكن عنده إذن من الله في ذلك فليحذر من الافتراء على الله. إذ لا واسطة بين الأمرين.

ومعلوم أن العبرة بعموم لفظ الآية لا بخصوص سببها. فالذين يقولون من الجهلة المقلدين: هذا حلال وهذا حرام، وهذا حكم الله، ظناً منهم أن أقوال الإمام الذي قلدوه تقوم مقام الكتاب والسنة وتغني عنهما.

وإن ترك الكتاب والسنة والاكتفاء بأقوال من قلدوه أسلم لدينه أعمتهم ظلماً الجهل المتراكمة عن الحقائق حتى صاروا يقولون هذا. فهم كما ترى، مع أن الإمام الذي قلدوه، ما كان يتجرأ على مثل الذي تجرؤوا عليه، لأن علمه يمنعه من ذلك.

والله جل وعلا يقول: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

التنبيه الرابع

اعلم أن مما لا بد منه معرفة، الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن محل الاتباع لا يجوز التقليد فيه بحال.

وإيضاح ذلك: أن كل حكم ظهر دليhle من كتاب الله، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، أو إجماع المسلمين، لا يجوز فيه التقليد بحال. لأن كل اجتهاد يخالف النص، فهو اجتهاد باطل، ولا تقليد إلا في محل الاجتهاد. لأن نصوص الكتاب والسنة، حاكمة على كل المجتهدين، فليس لأحد منهم مخالفتها كائناً من كان.

ولا يجوز التقليد فيما خالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً إذ لا أسوة في غير الحق. فليس فيما دلت عليه النصوص إلا الاتباع فقط. ولا اجتهاد، ولا تقليد فيما دل عليه نص، من كتاب أو سنة، سالم من المعارض.

والفرق بين التقليد والاتباع أمر معروف عند أهل العلم، لا يكاد ينازع في صحة معناه أحد من أهل العلم.

وقد قدمنا كلام ابن خويز منداد الذي نقله عنه ابن عبد البر في جامعه. وهو قوله: التقليد معناه في الشرع الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة. وقال في موضع آخر من كتابه:

كل من أتبع قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح.

وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه والاتباع في الدين مسوغ والتقليد ممنوع. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين:

وقد فرق الإمام أحمد رحمه الله بين التقليد والاتباع.

فقال أبو داود:

سمعتة يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير. انتهى محل الغرض منه. قال مقيده عفا الله عنه، وغفر له: أما كون العمل بالوحي اتباعاً لا تقليداً فهو أمر قطعي.

والآيات الدالة على تسميته اتباعاً كثيرة جداً:

كقوله تعالى: { اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ }.

وقوله تعالى: { وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ }.

وقوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

وقوله تعالى: { قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تَلْقَآءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ }.

وقوله تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ وَبُحُورٌ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ }.

وقوله تعالى: { اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }.

وقوله تعالى: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِّن الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.
فالعمل بالوحي، هو الاتباع كما دلت عليه الآيات.
ومن المعلوم الذي لا شك فيه، أن اتباع الوحي المأمور به في الآيات لا يصح
اجتهاد يخالفه من الوجوه، ولا يجوز التقليد في شيء يخالفه.
فاتضح من هذا الفرق بين الاتباع والتقليد، وأن مواضع الاتباع ليست محلاً
أصلاً للاجتهاد ولا للتقليد.
فنصوص الوحي الصحيحة الواضحة الدلالة السالمة من المعارض لا اجتهاد ولا
تقليد معها ألبتة.
لأن اتباعها والإذعان لها فرض على كل أحد كائناً من كان كما لا يخفى.
وبهذا تعلم أن شروط المجتهد التي يشترطها الأصوليون إنما تشترط في
الاجتهاد.
وموضع الاتباع ليس محل اجتهاد.
فجعل شروط المجتهد في المتبع مع تباين الاجتهاد والاتباع وتباين مواضعهما
خلط وخبط، كما ترى.
والتحقيق أن اتباع الوحي لا يشترط فيه إلا علمه بما يعمل به من ذلك الوحي
الذي يتبعه.
وأنه يصح علم حديث والعمل به، وعلم آية والعمل بها.
ولا يتوقف ذلك على تحصيل جميع شروط الاجتهاد.
فيلزم المكلف أن يتعلم ما يحتاج إليه من الكتاب والسنة، ويعمل بكل ما علم
من ذلك، كما كان عليه أول هذه الأمة، من القرون المشهود لها بالخير.
التنبيه الخامس
اعلم أنه لا يخفى علينا أن المقلدين التقليد الأعمى المذكور، يقولون:
هذا الذي تدعوننا إليه وتأمروننا به من العمل بالكتاب والسنة، وتقديمهما على
آراء الرجال من التكليف بما لا يطاق.
لأننا لا قدرة لنا على معرفة الكتاب والسنة حتى نعمل بهما.
ولا يمكننا معرفة شيء من الشريعة إلا عن طريق الإمام الذي نقله.
لأننا لم نتعلم نحن ولا أبائنا شيئاً غير ذلك.
فإذا لم نقلد إمامنا بقينا في حيرة لا نعلم شيئاً من أحكام عبادتنا ولا
معاملتنا، وتعطلت بيننا الأحكام إذ لا نعرف قضاء ولا فتوى ولا غير ذلك من
الأحكام إلا عن طريق مذهب إمامنا.
لأن أحكامه مدونة عندنا وهي التي نتعلمها وتندارسها دون غيرها من الكتاب
أو السنة وأقوال الصحابة ومذاهب الأئمة الآخرين.
ونحن نقول:
والله لقد ضيقتم واسعاً. وادعيتم العجز، وعدم القدرة في أمر سهل.
ولا شك أن الأحوال الراهنة للمقلدين الأعمى، للمذاهب المدونة تقتضي
صعوبة شديدة جداً في طريق التحول من التقليد الأعمى إلى الاستضاء بنور
الوحي.
وذلك إنما ينشأ من شدة التفريط في تعلم الكتاب والسنة والإعراض عنهما
إعراضاً كلياً يتوارثه الأبناء عن الآباء، والآباء عن الأجداد.

فالداء المستحكم من مئات السنين لا بد لعلاجه من زمن طويل.
ونحن لا نقول: إن الجاهل بالكتاب والسنة يعمل بهما باجتهاده.
بل نعوذ بالله من أن نقول ذلك.

ولكننا نقول: إن الكتاب والسنة يجب تعلمهما، ولا يجوز الإعراض عنهما وأن كل ما علمه المكلف منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح وجب عليه العمل به.

فالبلية العظمى إنما نشأت من توارث الإعراض عنهما إعراضاً كلياً اكتفاء عنهما بغيرهما.

وهذا من أعظم المنكر وأشنع الباطل.

فالذي ندعو إليه هو المبادرة بالرجوع إليهما بتعلمهما أولاً ثم العمل بهما والتوبة إلى الله من الإعراض عنهما.

ودعوى أن تعلمهما غير مقدور عليه، لا يشك في بطلانها عاقل، ونعيذ أنفسنا وإخواننا بالله أن يدعوا على أنفسهم أن على قلوبهم أكنة، وفي أذانهم وقراً يمنعهم من فهم كتاب الله.

لأن ذلك قول الكفار لا قول المسلمين قال الله تعالى {حَسَنُ زَيْدٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كَتَبْتُ فَضَّلْتُ ءَايَتُهُ فِرْعَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ تَبَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقُورٍ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ وَ عَمَلْنَا إِنَّا عَمِلُونَ }.

فاحذر يا أخي وارحم نفسك أن تقول مثل قول هؤلاء الكفرة وكنت تسمع ربك يقول: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّيرٍ}، ويقول: {قَائِمًا يَسِّرْتَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}.

ويقول {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ }.

فلا تخرج نفسك من عموم أولي الألباب الذين هم أصحاب العقول، لأنك إن فعلت ذلك اعترفت على نفسك أنك لست من جملة العقلاء.

وعلى كل حال فلا يخلو المقلدون، التقليد الأعمى، من أحد أمرين:
أحدهما: ألا يلتفتوا إلى نصح ناصح.

بل يستمرون على تقليدهم الأعمى، والإعراض عن نور الوحي عمداً.
وتقديم رأي الرجال عليه.

وهذا القسم منهم لا نعلم له عذراً في كتاب الله ولا سنة رسوله.

ولا في قول أحد من الصحابة، ولا أحد من القرون المشهود لهم بالخير.
لأن حقيقة ما هم عليه، هو الإعراض عما أنزل الله عمداً مع سهولة تعلم
القدر المحتاج إليه منه، والاستغناء عنه بأقوال الأئمة.

ومن كان هذا شأنه وهو تام العقل والفهم قادر على التعلم فعدم عذره كما ترى.

الأمر الثاني: هو أن يندم المقلدون على ما كانوا عليه من التفريط في تعلم
الوحي، والإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويبادروا إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ويشرعوا في ذلك بجد. تائبين مما
كانوا عليه من التفريط قبل ذلك، وهذا القسم على هدى من الله.
وهو الذي ندعو إخواننا إليه.

التنبيه السادس

لا خلاف بين أهل العلم، في أن الضرورة لها أحوال خاصة تستوجب أحكاماً غير أحكام الاختيار.

فكل مسلم أُلجأته الضرورة إلى شيء إلجاءً صحيحاً حقيقياً، فهو في سعة من أمره فيه.

وقد استثنى الله جل وعلا، حالة الاضطرار في خمس آيات من كتابه، ذكر فيها المحرمات الأربع التي هي من أغلظ المحرمات، تحريماً وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

فإن الله تعالى كلما ذكر تحريمها استثنى منها حالة الضرورة، فأخرجها من حكم التحريم.

قال تعالى في سورة الأنعام:

{قُلْ لَا أُحَدِّثُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ ظُطِرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال في الأيعة أيضاً:

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا دُكِرَ سُمُّ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ظُطِرْتُمْ إِلَيْهِ}.

وقال تعالى في النحل:

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ لِمَيْتَةً وَ لِذَمٍّ وَلَحْمٍ لِحَنْزِيرٍ وَمَا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ ظُطِرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال تعالى في البقرة:

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ لِمَيْتَةً وَالذَّمَّ وَاللَّحْمَ لِحَنْزِيرٍ وَمَا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ ظُطِرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وقال تعالى في المائدة:

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ لِمَيْتَةً وَ لِذَمٍّ وَ لَحْمٌ لِحَنْزِيرٍ وَمَا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} إلى قوله: {فَمَنْ ظُطِرَّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

وبهذا تعلم أن المضطر للتقليد الأعمى اضطراراً حقيقياً، بحيث يكون لا قدرة له البتة، على غيره مع عدم التفريط لكونه لا قدرة له أصلاً على الفهم.

أو له قدرة على الفهم وقد عاقته عوائق قاهرة عن التعلم.

أو هو في أثناء التعلم ولكنه يتعلم تدريجاً لأنه لا يقدر على تعلم كل ما يحتاجه في وقت واحد.

أو لم يجد كفتاً يتعلم منه ونحو ذلك فهو معذور في التقليد المذكور للضرورة، لأنه لا مندوحة له عنه.

أما القادر على التعلم المفرد فيه.

والمقدم آراء الرجال على ما علم من الوحي.

فهذا الذي ليس بمعذور.

التنبيه السابع

اعلم أن موقفنا من الأئمة رحمهم الله من الأربعة وغيرهم. هو موقف سائر المسلمين المنصفين منهم.

وهو موالاتهم، ومحبتهم، وتعظيمهم، وإجلالهم، والثناء عليهم، بما هم عليه من العلم والتقوى، واتباعهم في العمل بالكتاب والسنة وتقديمهما على رأيهم وتعلم أقوالهم للاستعانة بها على الحق، وترك ما خالف الكتاب والسنة منها. وأما المسائل التي لا نص فيها فالصواب النظر في اجتهادهم فيها. وقد يكون اتباع اجتهادهم أصوب من اجتهادنا لأنفسنا.

لأنهم أكثر علماً وتقوى منا. ولكن علينا أن ننظر ونحتاط لأنفسنا في أقرب الأقوال إلى رضى الله وأحوطها وأبعدها من الاشتباه.

كما قال صلى الله عليه وسلم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وقال: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه».

وحقيقة القول الفصل في الأئمة رحمهم الله أنهم من خيار علماء المسلمين، وأنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فكل ما أصابوا فيه فلهم فيه أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وما أخطأوا فيه فهم مأجورون فيه باجتهادهم معذورون في خطئهم فهم مأجورون على كل حال، لا يلحقهم ذم ولا عيب ولا نقص في ذلك.

ولكن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حاکمان عليهم وعلى أقوالهم كما لا يخفى. فلا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

فلا تك ممن يذمهم وينتقصهم ولا ممن يعتقد أقوالهم مغنية عن كتاب الله وسنة رسوله أو مقدمة عليهما.

التنبيه الثامن

اعلم أن كلاً من الأئمة أخذت عليه مسائل. قال بعض العلماء: إنه خالف فيها السنة.

وسنذكر طرفاً من ذلك هنا إن شاء الله.

أما الإمام أبو حنيفة رحمه الله فهو أكثر الأئمة في ذلك، لأنه أكثرهم رأياً. ولكثرة المسائل التي حصل فيها القيل والقال من ذلك لا نحتاج إلى بسط تفصيلها.

وبعض المسائل التي قيل فيها ذلك يظهر أنه لم تبلغه السنة فيها، وبعضها قد بلغته السنة فيها، ولكنه تركها لشيء آخر ظنه أرجح منها. كتركه العمل لحديث القضاء بالشاهد واليمين في الأموال. وحديث «تغريب الزاني البكر» لأنه ترك العمل بذلك ونحوه احتراماً للنصوص القرآنية في ظنه.

لأنه يعتقد أن الزيادة على النص نسخ وأن القضاء بالشاهد واليمين نسخ. لقوله تعالى: { وَ سُبِّحْهُدُوا شَهِيدِينَ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ مَرْأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ }.

فاحترم النص القرآني المتواتر، فلم يرض نسخه بخبر آحاد سنده دون سنده. لأن نسخ المتواتر بالآحاد عنده، رفع للأقوى بالأضعف، وذلك لا يصح.

وكذلك حديث تغريب الزاني البكر فهو عنده زيادة ناسخة لقوله تعالى: {الزانية والزاني فجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة} والمتواتر لا ينسخ بالآحاد.

فتركه العمل بهذا النوع من الأحاديث بناء على مقدمتين: إحداهما: أن الزيادة على النص نسخ. والثانية: أن المتواتر لا ينسخ بالآحاد. وخالفه في المقدمة الأولى جمهور العلماء. ووافقوه في الثانية.

والذي يظهر لنا ونعتقده اعتقاداً جازماً أن كلتا المقدمتين ليست بصحيحة. أما الزيادة فيجب فيها التفصيل. فإن كانت أثبتت حكماً نفاه النص أو نفت حكماً أثبتته النص فهي نسخ. وإن كانت لم تتعرض للنص بنفي ولا إثبات بل زادت شيئاً سكت عنه النص فلا يمكن أن تكون نسخاً لأنها إنما رفعت الإباحة العقلية التي هي البراءة الأصلية.

ورفعها ليس نسخاً إجماعاً.

وأما نسخ المتواتر بالآحاد.

فالتحقيق الذي لا شك فيه أنه لا مانع منه ولا محذور فيه، ولا وجه لمنعه ألبتة، وإن خالف في ذلك جمهور أهل الأصول. لأن أخبار الآحاد الصحيحة الثابت تأخرها عن المتواتر لا وجه لردّها، ولا تعارض ألبتة بينها وبين المتواتر إذ لا تناقض بين خبرين اختلف زمنهما، لجواز صدق كل منهما في وقته.

فلو أخبرك مثلاً عدد يستحيل تواطؤهم على الكذب، بأن أخاك الغائب لم يزل غائباً ولم يأت منزله.

لأنهم كانوا بمنزله وليس بموجود، ثم أخبرك بعد ذلك رجل واحد بأن أخاك موجود في منزله الآن.

فهل يسوغ لك أن نقول له كذبت، لأنني أخبرني عدد كثير قبلك أنه لم يأت؟ ولو قلت له ذلك لقال لك هم في وقت إخبارهم لك صادقون، ولكن أخاك جاء بعد ذلك.

فالمتواتر في وقت نزوله صادق.

وخبر الآحاد الوارد بعده صادق أيضاً.

لأنه أفاد تجدد شيء لم يكن.

فحصر المحرمات مثلاً في الأربع المذكورة في قوله تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً}. صادق في ذلك الوقت.

لا يوجد محرم على طاعم بطعمه إلا تلك المحرمات الأربع.

فلا تحرم في ذلك الوقت الحمر الأهلية ولا ذو الناب من السباع ولا الخمر ولا غير ذلك.

فإذا جاء بعد آحاد صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم: حرم لحوم الحمر الأهلية بخير، فهل يسوغ لقائل أن يقول:

هذا الخبر الصحيح مردود لأنه يعارض حصر المحرمات في الأربع المذكورة في آية: {قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا}؟ ولو قال ذلك لقليل له:

هذا الخبر الصحيح لا تناقضه الآية، لأنه إنما أفاد حكماً جديداً طارئاً لم يكن مشروعاً من قبل.

وأحكام الشريعة تتجدد شيئاً فشيئاً.

والآية لم تدل على استمرار الحصر المذكور فيها.

فتبين أن زيادة حكم طارئ لا تناقض بينها وبين ما كان قبلها.

وإيضاح هذا أن نسخ المتواتر بالآحاد إنما رفع استمرار حكم المتواتر ودلالة المتواتر على استمرار حكمه ليست قطعية حتى يمنع نسخها بأخبار الآحاد الصحيحة.

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الأنعام.

وقصدنا مطلق المثل لما يقال: إن الإمام أبا حنيفة رحمه الله خالف فيه السنة برأيه.

وغرضنا أن نبين أنه رحمه الله لم يخالف شيئاً من ذلك، إلا لشيء اعتقده مسوغاً لذلك.

وأنه لا يترك السنة إلا لشيء يراه مستوجباً لذلك شرعاً.

ومما يبين ذلك أنه كان يقدم ضعيف الحديث على الرأي.

قال ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ما نصه:

وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي.

وعلي ذلك بنى مذهبه كما قدم حديث القهقهة مع ضعفه على القياس والرأي.

وقدم حديث الوضوء بنبذ التمر في السفر مع ضعفه على الرأي والقياس.

ومنع قطع يد السارق لسرقة أقل من عشرة دراهم، والحديث فيه ضعيف.

وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعيف.

وشرط في إقامة الجمعة المصراً، والحديث فيه كذلك.

وترك القياس المحض في مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة.

فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة قوله، وقول الإمام أحمد:

وليس المراد بالحديث الضعيف في اصطلاح السلف هو الضعف في اصطلاح المتأخرين.

بل ما يسميه المتأخرون حسناً قد يسميه المتقدمون ضعيفاً اهـ. محل الغرض منه.

ومن أمثلة ما ذكر أن أبا حنيفة رحمه الله خالف فيها السنة لزوم الطمأنينة

في الصلاة وتعين تكبيرة الإحرام في الدخول فيها والسلام للخروج منها.

وقراءة الفاتحة فيها والنية في الوضوء والغسل إلى غير ذلك من مسائل

كثيرة.

ولا يتسع المقام هنا لذكر ما استدل به أبو حنيفة لذلك ومناقشة الأدلة.

بل المقصود بيان أن الأئمة لا يخلو أحد منهم من أن يؤخذ عليه شيء خالف فيه سنة وأنهم لم يخالفوها إلا لشيء سوغ لهم ذلك. وعند المناقشة الدقيقة قد يظهر أن الحق قد يكون معهم وقد يكون الأمر بخلاف ذلك.

وعلى كل حال فهم مأجورون ومعدورون كما تقدم إيضاحه. وقد أخذ بعض العلماء على مالك رحمه الله أشياء قال: إنه خالف فيها السنة قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في جامعه: وقد ذكر يحيى بن سلام قال: سمعت عبد الله بن غانم في مجلس إبراهيم بن الأغلب يحدث عن الليث بن سعد أنه قال: أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم مما قال مالك فيها برأيه، قال: ولقد كتبت إليه في ذلك. انتهى محل الغرض منه. ومعلوم أن مثل كلام الليث هذا عن مالك لا أثر له، لأنه لم يعين المسائل المذكورة ولا أدلتها.

فيجوز أن يكون الصواب فيها مع مالك لأدلة خفيت على الليث، فليس خفاؤها على مالك بأولى من خفائها على الليث.

ولا شك أن مذهب مالك المدون فيه فروع تخالف بعض نصوص الوحي.

والظاهر أن بعضها لم يبلغه رحمه الله ولو بلغه لعمل به.

وأن بعضها بلغه وترك العمل به لشيء آخر يعتقده دليلاً أقوى منه.

ومن أمثلة ما لم يبلغه النص فيه صيام ست من شوال بعد صوم رمضان. قال رحمه الله في الموطأ ما نصه: إني لم أر أحداً من أهل العلم والفقه يصومها ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف.

وإن أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته.

وأن يلحق برمضان ما ليس منه أهل الجهالة والجفاء، ولو رأوا في ذلك رخصة عند أهل العلم، ورأوهم يعلمون ذلك. اهـ منه بلفظه.

وفيه تصريح مالك رحمه الله بأنه لم يبلغه صيام ستة من شوال عن أحد من

السلف، وهو صريح في أنه لم يبلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا شك أنه لو بلغه الترغيب فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم لكان يصومها ويأمر بصومها، فضلاً عن أن يقول بكرهتها.

وهو لا يشك أن النبي صلى الله عليه وسلم أرف وأرحم بالأمة منه.

لأن الله وصفه صلى الله عليه وسلم في القرآن بأنه رؤوف رحيم.

فلو كان صوم السنة يلزمه المحذور الذي كرهها مالك من أجله لما رغب فيها النبي صلى الله عليه وسلم ولراعى المحذور الذي راعاه مالك.

ولكنه صلى الله عليه وسلم، ألغى المحذور المذكور وأهدره، لعلمه بأن شهر رمضان أشهر من أن يلتبس بشيء من شوال.

كما أن النوافل المرغب فيها قبل الصلوات المكتوبة وبعدها لم يكرهها أحد

من أهل العلم خشية أن يلحقها الجهلة بالمكتوبات لشهرة المكتوبات الخمس وعدم التباسها بغيرها.

وعلى كل حال، فإنه ليس لإمام من الأئمة أن يقول هذا الأمر الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكروه لخشية أن يظنه الجهال من جنس الواجب.

وصيام الستة المذكورة، وترغيب النبي صلى الله عليه وسلم فيه ثابت عنه. قال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه:

حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وعلي بن حجر جميعاً عن إسماعيل، قال ابن أيوب حدثنا إسماعيل بن جعفر أخبرني سعد بن سعيد بن قيس عن عمر بن ثابت بن الحارث الخزرجي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر» انتهى منه بلفظه.

وفيه التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بالترغيب في صوم الستة المذكورة فالقول بكراهتها من غير مستند من أدلة الوحي خشية إلحاق الجهال لها برمضان، لا يليق بجلالة مالك وعلمه وورعه، لكن الحديث لم يبلغه كما هو صريح كلامه نفسه رحمه الله في قوله: لم يبلغني ذلك عن أحد من السلف، ولو بلغه الحديث لعمل به.

لأنه رحمه الله من أكثر الناس اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحرصهم على العمل بسنته.

والحديث المذكور رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي، وصوم السنة المذكور رواه أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحاب منهم ثوبان وجابر وابن عباس وأبو هريرة والبراء بن عازب كما بينه صاحب نيل الأوطار.

وعلى كل حال فالحديث صحيح ويكفي في ذلك إسناد مسلم المذكور. ولا عبرة بكلام من تكلم في سعد بن سعيد لتوثيق بعض أهل العلم له واعتماد مسلم عليه في صحيحه.

ومن أمثلة ما لم تبلغ مالكا رحمه الله فيه السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفراد صوم يوم الجمعة، فقد قال رحمه الله في الموطأ ما نصه: لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه، ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن.

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه.

وأراه كان يتحراه. انتهى منه بلفظه.

وفيه تصريحه رحمه الله بأنه لم يسمع أحداً من أهل العلم ينهى عن صوم الجمعة.

وأن ذلك حسن عنده، وأنه رأى بعض أهل العلم يتحرى يوم الجمعة ليصومه. وهذا تصريح منه رحمه الله بأنه لم يبلغه نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الجمعة وحده، وأمره من صامه أن يصوم معه يوماً غيره وإلا أفطر إن ابتدأ صيامه ناوياً لإفراجه.

ولو بلغته السنة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمل بها وترك العمل بغيرها.

لأن النهي عن صوم يوم الجمعة وحده ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه:

حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير بن شيبه عن محمد بن عباد، قال سألت جابراً رضي الله عنه. أنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم الجمعة؟ قال: نعم. زاد غير أبي عاصم يعني أن ينفرد بصومه.

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا يصوم أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو بعده».

حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة ح وحدثني محمد حدثنا غندر حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة فقال: أصمت أمس؟ قالت: لا، قال: تريد أن تصومي غداً؟ قالت لا. قال: فأفطري».

وقال حماد بن الجعد سمع قتادة حدثني أبو أيوب أن جويرية حدثته فأمرها، فأفطرت. انتهى من صحيح البخاري بلفظه.

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه:

حدثنا عمرو الناقد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الحميد بن جبير عن محمد بن عباد بن جعفر «سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يطوف بالبيت أنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة؟ فقال: نعم، ورب هذا البيت».

وقال مسلم أيضاً: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبه حدثنا حفص وأبو معاوية عن الأعمش ح وحدثنا يحيى بن يحيى واللفظ له أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا يصم أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم قبله أو يصوم بعده».

وفي لفظ في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ولا تختصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم» هذا لفظ مسلم في صحيحه.

ولا شك أن هذه الأحاديث لو بلغت مالكا ما خالفها، فهو معذور في كونها لم تبلغه.

وقال النووي في شرح مسلم: وأما قول مالك في الموطأ: لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن به يقتدى نهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه حسن.

وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه.

فهذا الذي قاله هو الذي رآه.

وقد رأى غيره خلاف ما رأى هو.

والسنة مقدمة على ما رآه هو وغيره.

وقد ثبت النهي عن صوم يوم الجمعة، فيتعين القول به. ومالكٌ معذور، فإنه لم يبلغه. قال الداودي من أصحاب مالك: لم يبلغ مالكاً هذا الحديث ولو بلغه لم يخالفه. انتهى منه. وهذا هو الحق الذي لا شك فيه. لأن مالكاً من أروع العلماء وأكثر الناس اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يدعها وهو عالم بها. وقوله في هذا الحديث: «إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم». أي كأن ينذر أحد صوم اليوم الذي يشفي الله فيه مريضه، فوافق ذلك يوم الجمعة. لأن صومه له لأجل النذر، الذي لم يقصده بأصله تعيين يوم الجمعة. وإنما النهي فيمن قصد بصومه نفس يوم الجمعة دون غيره. والغرض عندنا إنما هو المثال لبعض الأحكام التي لم تبلغ مالكاً فيها السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو بلغت لعمل بها. ومعلوم أن هنالك بعضاً من النصوص ترك مالك العمل به مع أنه بلغه، لأنه يعتقد أن ما ترك النص من أجله أرجح من النص. وهذا يحتاج فيه إلى مناقشات دقيقة بين الأدلة، فقد يكون الحق في ذلك مع هذا الإمام تارة ومع غيره أخرى. فقد ترك مالك العمل بحديث خيار المجلس مع أنه حديث متفق عليه، وقد بلغ مالكاً.

وقد حلف عبد الحميد الصائغ من المالكية بالمشي إلى مكة على أنه لا يفتي بثلاث. قالها مالك. ومراده بالثلاث المذكورة عدم القول بخيار المجلس هذا مع صحة الحديث فيه.

وجنسية القمح والشعير مع صحة الأحاديث الدالة على أنهما جنسان. والتدمية البيضاء، ولا شك أن مالكاً بلغه حديث خيار المجلس هذا. فقد روي في الموطأ عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار». قال مالك: وليس لهذا عندنا حد معروف، ولا أمر معمول به فيه. انتهى منه بلفظه.

مع أن مالكاً لم يعمل بهذا الحديث الصحيح: وأشار في الموطأ إلى بعض الأسباب التي منعت من العمل به في قوله: وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به فيه، لأن خيار المجلس لم يحدد بحد معروف. فصار القول به مانعاً من انعقاد البيع إلى حد غير معروف. وقد يكون المتعاقدان في سفينة في البحر لا يمكنهم التفرق بالأبدان. وقد يكونان مسجونين في محل لا يمكنهما التفرق فيه. وقد حمل مالك التفرق المذكور في الحديث على التفرق في الكلام. وصيغة العقد قال:

وقد أطلق التفرقة على التفرقة في الكلام دون الأبدان في قوله تعالى: {وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مَن سَعَتِهِ} فالتفرقة في الآية إنما هو بالتكلم بصيغة الطلاق لا بالأبدان.

وقوله تعالى: {وَمَا تَفَرَّقَ لَّذِينَ أُوتُوا لِكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ لُبَّتُهُ} فالتفرقة في الآية تفرقة بالكلام والاعتقاد.

فلا يشترط أن يكون بالأبدان:

وحجج من احتج لمالك في عدم أخذه بحديث خيار المجلس، هذا كثيرة معروفة.

منها ما هو في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، وقوله: {أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}، وقوله: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ}، ومنها ما هو بغير ذلك.

وليس غرضنا هنا بسط الحجج ومناقشتها، وإنما غرضنا المثال.

لأن الإمام قد يترك نصاً بلغه لاعتقاد أن ما ترك من أجله النص أرجح من نفس النص، وأنه يجب على المسلم مراعاة المخرج والنجاة لنفسه فينظر في الأدلة، ويعمل بأقواها وأقربها إلى رضى الله.

كما حلف عبد الحميد الصائغ بالمشي إلى مكة، لا يفتي بقول مالك في هذا. مع أنه عالم مالكي، لأنه رأى الأدلة واضحة وضوحاً لا لبس فيه، في أن المراد بالتفرقة التفرقة بالأبدان.

وقد صرح بذلك جماعة من الصحابة منهم ابن عمر راوي الحديث، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة.

ولا شك أن المنصف إذا تأمل تأملاً صادقاً حالياً من التعصب عرف أن الحق هو ثبوت خيار المجلس.

وإن المراد بالتفرقة التفرقة في الأبدان لا بالكلام.

لأن معنى التفرقة بالكلام هو حصول الإيجاب من البائع والقبول من المشتري. وكل عاقل يعلم أن الخيار حاصل لكل من البائع والمشتري ضرورة قبل حصول الإيجاب والقبول.

فحمل كلام النبي صلى الله عليه وسلم على هذا، حمل له على تحصيل حاصل، وهو كما ترى.

مع أن حمل الكلام على هذا المعنى يستلزم أن المراد بالمتبايعين في الحديث المتساومان، لأنه لا يصدق عليهما اسم المتبايعين حقيقة إلا بعد حصول الإيجاب والقبول.

وحمل المتبايعين في كلام النبي صلى الله عليه وسلم على المتساومين اللذين لم ينعقد بينهما بيع خلاف الظاهر أيضاً كما ترى.

وأما كون القمح والشعير جنساً واحداً، فقد استدل له مالك ببعض الآثار التي ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال في الموطأ: إنه بلغه أن سليمان بن يسار قال: فني علف حمار سعد بن أبي وقاص فقال لغلامه: خذ من حنطة أهلك فاتبع بها شعيراً، ولا تأخذ إلا مثله. اهـ منه بلفظه.

وفي الموطأ أيضاً عن نافع عن سليمان بن يسار أنه أخبره أن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث فني علف دابته، فقال لغلامه: خذ من حنطة أهلك فابتع بها شعيراً ولا تأخذ إلا مثله. اهـ منه بلفظه.

وفي الموطأ أيضاً: أن مالكا بلغه عن القاسم بن محمد عن ابن معيقب الدوسي مثل ذلك. قال مالك: وهو الأمر عندنا اهـ. منه بلفظه. فهذه الآثار هي عمدة مالك رحمه الله في كون القمح والشعير جنساً واحداً. وعضد ذلك بتقارب منفعتهما، والتحقيق الذي لا شك فيه أن القمح والشعير جنسان، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولا تصح معارضتها البتة بمثل هذه الآثار المروية عن ذكر. وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه» انتهى منه بلفظه. وهو صريح بأن القمح والشعير جنسان مختلفان، كاختلافهما مع التمر والملح. وأن التفاضل جائز مع اختلاف الجنس إن كان يداً بيد، وروى مسلم في صحيحه والإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سواء بسواء يداً بيد» اهـ منه بلفظه. وللنسائي وابن ماجه وأبي داود نحوه، وفي آخره: وأمرنا أن نبيع البر بالشعير والشعير بالبر يداً بيد كيف شئنا.

قال المجد في المنتقى: لما ساق هذا الحديث ما نصه: وهو صريح في كون البر والشعير جنسين، وما قاله صحيح كما ترى. والأحاديث بمثل هذا كثيرة، وقد قدمنا طرفاً منها في سورة البقرة والمقصود هنا بيان صراحة الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في أن القمح والشعير جنسان لا جنس واحد، وأنهما لا يجوز ترك العمل بها مع صحتها ووضوحها، ولا أن يقدم عليها أثر موقوف على سعد بن أبي وقاص ولا أثر موقوف على عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، ولا أثر موقوف على ابن معيقب.

واعلم أنه لا يصح الاستدلال لكون القمح والشعير جنساً واحداً بحديث معمر بن عبد الله الثابت في صحيح مسلم وغيره، قال: كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «الطعام بالطعام مثلاً بمثل» الحديث.

وذلك لأمرين: أحدهما أن معمر المذكور قال في آخر الحديث، وكان طعامهم يومئذ الشعير.

فقد عين أن عرفهم المقارن للخطاب يخص الطعام المذكور بالشعير. والمقرر في أصول مالك: أن العرف المقارن للخطاب من المخصصات المنفصلة التي يخص بها العام قال في مراقبي السعود في ذلك: والعرف حيث قارن الخطاباً ودع ضمير البعض والأسباباً

الأمر الثاني: إن الاستدلال بالحديث المذكور على فرض اعتبار عمومه، وعدم تخصيصه بالعرف المذكور، يقتضي أن الطعام كله جنس واحد فيدخل التمر والملح لصدق الطعام عليهما.

وهذا لا قائل به كما ترى.

فالظاهر أن الإمام مالكا رحمه الله ومن وافقه من أهل العلم، لم تبلغهم هذه الأحاديث الصحيحة المصرحة، بأن القمح والشعير والتمر والملح أجناس.

وأن القمح يباع بالشعير كيف شاء المتبايعان إن كان يدا بيد.

وأما التدمية البيضاء فقول مالك فيها يظهر لنا قوته واتجاهه، وإن خالف في ذلك بعض أصحابه وأكثر أهل العلم.

وقد بين وجه قول مالك فيها ابن عبد البر وابن العربي وغيرهما.

والمسائل التي قال بعض أهل العلم إن مالكا خالف فيها السنة المعروفة منها ما ذكرنا.

ومنها مسألة سجود الشكر وسجدات التلاوة في المفصل.

وعدم الجهر بآمين، وعدم رفع اليدين عند الركوع والرفع منه، وعدم قول الإمام: ربنا ولك الحمد.

وعدم ضفر رأس المرأة الميتة ثلاث ضفائر.

وترك السجدة الثانية في الحج وغير ذلك من المسائل.

وقد قدمنا أن بعض ما ترك مالك من النصوص قد بلغته فيه السنة ولكنه رأى غيرها أرجح منها، وأن بعضها لم يبلغه، وأن الحق قد يكون معه في بعض

المسائل التي أخذت عليه.

وقد يكون مع غيره، كما قال مالك نفسه رحمه الله:

كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلام صاحب هذا القبر.

وهو تارة يقدم دليل القرآن المطلق أو العام على السنة التي هي أخبار آحاد.

لأن القرآن أقوى سنداً وإن كانت السنة أظهر دلالة، ولأجل هذا لم يبح ميتة

الجراد بدون زكاة لأنه يقدم عموم {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ لِمَيِّتَةٍ} حديث «أحلت لنا

ميتتان ودمان» الحديث، وقدم عموم قوله تعالى {لُعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

وْخُفْيَةً}. على الأحاديث الواردة بالجهر بآمين لأن التأمين دعاء، والدعاء

مأمور بإخفائه في الآية المذكورة.

فالآية أقوى سنداً وأحاديث الجهر بالتأمين أظهر دلالة في محل النزاع. ومن

المعلوم أن أكثر أهل العلم يقدمون السنة في نحو هذا.

وقد قدم مالك رحمه الله دليل القرآن فيما ذكرنا كما قدمه أيضاً في الثانية

من سجدتي الحج لأن نص الآية الكريمة فيها كالصريح في أن المراد سجود

الصلاة، لأن الله يقول فيها. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا زُكُّوا وَاغْبُدُوا

رَبَّكُمْ}.

فذكر الركوع مع السجود يدل على أن المراد سجود الصلاة.

والأمر بالصلاة في القرآن لا يستلزم سجود التلاوة كقوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ

وَاجْتَر}.

ولذلك لا يسجد عند قوله تعالى في آخر الحجر {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ

السَّاجِدِينَ}.

قالوا لأن معنى قوله: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ} أي صل لربك متلبساً بحمده، وكن من الساجدين في صلاتك.

ولا شك أن قوله تعالى في ثانية الحج {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا}. أصرح في إرادة سجود الصلاة من قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}.

ثم بعد هذا كله فإننا نكرر أن الأئمة رحمهم الله لا يلحقهم نقص ولا عيب فيما أخذ عليهم، لأنهم رحمهم الله بذلوا وسعهم في تعلم ما جاء عن الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ثم اجتهدوا بحسب طاقتهم، فالمصيب منهم له أجر اجتهاده وإصابته، والمخطيء منهم مأجور في اجتهاده معذور في خطئه، ولا يسعنا هنا مناقشة الأدلة فيما أخذ عليهم رحمهم الله، وإنما قصدنا مع الاعتراف بعظم منزلتهم أن نبين أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يجب تقديمهما على أقوالهم، لأنهم غير معصومين من الخطأ، وأن مذاهبهم المدونة لا يصح ولا يجوز الاستغناء بها عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن على كل مسلم قادر على التعليم أن يتعلم الكتاب والسنة، ومعرفة مذاهب الأئمة تعينه على ذلك، والنظر فيما استدل به كل منهم يعينه على معرفة أرجح الأقوال وأقربها إلى رضى الله. وكذلك الشافعي وأحمد رحمهما الله، فإن كل واحد منهما لا يخلو من شيء قد أخذ عليه، ومرادنا هنا التمثيل لذلك، وأن الوحي مقدم على أقوالهم جميعاً، وليس قصدنا الإكثار من ذلك.

وهذه أمثلة بالمطلوب وكان الشيخ رحمه الله أرجأ إيرادها فنذكرها على ما هو ظاهر من المذهبين ونرجو أن تكون موافقة لما أراد. وبالله التوفيق. فمما هو في مذهب أحمد رحمه الله صوم يوم الشك وهو يوم الثلاثين من الشعبان حينما يشك فيه هل هو تمام شعبان أو أول رمضان. وذلك حينما تكون السماء مغيمة خشية أن يظهر الهلال خلف الغيم أو القتر. ولا يكون يوم شك إذا كانت السماء صحواً لأنه إذا رؤي الهلال فهو من رمضان وإلا فهو من شعبان.

فمذهب أحمد هو صوم هذا اليوم المشكوك فيه احتياطاً لرمضان، وهو نص المعنى إلا أنه ذكر عن أحمد روايات أخر. ولكن صومه هو المقدم في المذهب. ولكنه مخالف لصريح بالنص في قوله صلى الله عليه وسلم في ذلك: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم» صلى الله عليه وسلم.

قال في بلوغ المرام: ذكره البخاري تعليقاً ووصله، قال في سبل السلام: واعلم أن يوم الشك هو يوم الثلاثين من شعبان إذا لم ير الهلال في ليلة بغيم سائر، أو نحوه فيجوز كونه من رمضان وكونه من شعبان.

والحديث وما في معناه يدل على تحريم صومه. اهـ. يعني بما في معناه قوله صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين». متفق عليه، ولمسلم «فإن غم عليكم فاقدروا له ثلاثين» وللبخاري «فأكملوا العدة ثلاثين».

وشبهة أحمد في قوله صلى الله عليه وسلم «فاقدروا له» بمعنى فضيقوا عليه كما في قوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ} ولكن هذا معارض للنص الصريح في معنى «فاقدروا له ثلاثين» وقوله «فأكملوا العدة ثلاثين» أي سواء في شعبان أو في تمام رمضان عند الفطر. ولم يقل بصومه من الأئمة إلا أحمد رحمه الله.

ومما هو عند الشافعي قوله بنقض الوضوء من مجرد لمس المرأة الأجنبية بدون حائل مع ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في أحاديث عائشة رضي الله عنها «كنت أنام معترضة في القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فإذا سجد غمزني رجلي فأقبضها فإذا قام مددتها». وقد أجابوا عن ذلك باحتمال سترها بحائل فجاء قولها «افتقدت رسول الله ذات ليلة فقامت أطلبه والحجرات ليس فيه أنذاك السرج حتى وقعت كفي على بطن قدمه وهو ساجد يقول: سبح قدوس رب الملائكة والروح فقلت: والله إنك لفي واد وأنا في واد».

فلما قام للركعة الثانية طنته ذهب عند بعض نسائه فاغتسل ثم جاء يصلي عندها فقامت وأدخلت يدها في شعر رأسه تتحسس هل اغتسل أم لا.. إلخ. ولهم أجوبة على كل ذلك ولكنها لا تنهض مع هذه النصوص الصريحة. وشبهة الشافعي في ذلك في معنى: لامستم النساء من قوله تعالى: {أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا}. ولم يقل بنقض الوضوء به من الأئمة إلا الشافعي رحمه الله.

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أنه لا يتأتى من أحد أئمة المسلمين أن يخالف نصاً صريحاً من كتاب أو سنة، بدون أن تكون لديه شبهة معارضة بنص آخر، أو عدم بلوغ النص إليه، أو عدم صحته عنده أو غير ذلك مما هو معروف في هذا المقام.

وإنما أوردنا هذين المثالين تنمة للبحث ولمجرد المثال. التنبيه التاسع

اعلم أن كل من يرى أنه لا بد له من تقليد الإمام في كل شيء بدعوى أنه لا يقدر على الاستدلال بكتاب ولا سنة، ولا قول أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا أحد غير ذلك الإمام.

يجب عليه أن يتنبه تنبهاً تاماً للفرق بين أقوال ذلك الإمام التي خالها حقاً، وبين ما ألحق بعده على قواعد مذهبه، وما زاده المتأخرون وقتاً بعد وقت من أنواع الاستحسان التي لا أساس لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولو علم الإمام بالحقاقهم بمذهبه، لتبرأ منها، وأنكر على ملحقها، فنسبة جميع ذلك للإمام من الباطل الواضح.

ويزيده بطلاناً نسبتته إلى الله ورسوله، بدعوى أنه شرع ذلك علي لسان رسوله، ونحو هذا كثير في المختصرات في المذاهب وكتب المتأخرين منهم. ومن أمثلته في مذهب مالك قول خليل المالكي في مختصره الذي قال فيه مبيناً لما به الفتوى: كأقل الطهر يعني أن قل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً.

والذين يعتقدون مذهب مالك يعتقدون أن مالكا يقول: بأن أقل الطهر بين الحيضتين خمسة عشر يوماً. وهذا لم يقله مالك أبداً ولم يفت به ولم يروه عنه أحد من أصحابه. والذي كان يقوله مالك: إن أقل الطهر ثمانية أيام أو عشرة أيام. وهو الذي نقله عنه أجلاء أهل مذهبه كأبي محمد بن أبي زيد في رسالته رحمه الله.

والقول بأن أقل الطهر خمسة عشر هو قول ابن مسلمة واعتمده صاحب التلقين، وجعله ابن شاش المشهور أي مشهور مذهب مالك. مع أن مالكا لم يقله ولم يعلم به، وأمثال هذا كثيرة جداً في مذهب مالك وغيره.

ومثال استحسان المتأخرين ما لم يقله الإمام مما لا شك أنه لو بلغ الإمام لم يقبله قول الحطاب في شرحه لقول خليل في مختصره في الصوم: وعاشوراء وتاسوعاء. ما نصه: قال الشيخ زروق في شرح القرطبية: صيام المولد كرهه بعض من قرب عصره ممن صلح علمه وورعه. قال إنه من أعياد المسلمين فينبغي ألا يصام فيه، وكان شيخنا أبو عبد الله القوري يذكر ذلك كثيراً ويستحسنه. انتهى.

قلت: لعله يعني ابن عباد. فقد قال في رسائله الكبرى ما نصه: وأما المولد فالذي يظهر لي أنه عيد من أعياد المسلمين وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك من إيقاد الشمع وإمتاع البصر والسمع والتزين بلبس فاخر الثياب وركوب فاره الدواب، أمر مباح لا ينكر على أحد قياساً على غيره من أوقات الفرح. والحكم بكون هذه الأشياء بدعة في هذا الوقت الذي ظهر فيه سر الوجود وارتفع فيه علم الشهود وانقشع فيه ظلام الكفر والجحود، وادعاء أن هذا الزمان ليس من المواسم المشروعة لأهل الإيمان ومقارنة ذلك بالنيروز والمهرجان أمر مستثقل تشمئز منه القلوب السليمة وتدفعه الآراء المستقيمة.

ولقد كنت فيما خلا من الزمان خرجت في يوم مولد إلى ساحل البحر، فاتفق أن وجدت هناك سيدي الحاج بن عاشر رحمه الله وجماعة من أصحابه وقد أخرج بعضهم طعاماً مختلفاً ليأكلوه هنالك. فلما قدموه لذلك أرادوا مني مشاركتهم في الأكل، وكنت إذ ذاك صائماً فقلت لهم: إني صائم.

فنظر إلى سيدي الحاج نظرة منكرة، وقال لي ما معناه: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصيام بمنزلة العيد. فتأملت كلامه فوجدته حقاً، وكأنني كنت نائماً فأيقظني. انتهى بلفظه. فهذا الكلام الذي يقتضي قبح صوم يوم المولد وجعله كيوم العيد من غير استناد إلى كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا قول أحد من أصحابه ولا من تابعيه.

ولم يقل به أحد من الأئمة الأربعة ولا من فقهاء الأمصار المعروفين الذي أدخله بعض المتأخرين في مذهب مالك، ومالك بريء منه براءة الشمس من

اللمس، ولم يجر على أصول مذهبه، لأن علة تحريم صوم يوم العيد والفطر عنده أن الله تعالى يكلف عباده في كل سنة عبادتين عظيمتين والأمر بهما عام لكل من يستطيعهما، وإحداهما تجب في العمر مرة واحدة وهي الحج. والثانية تجب كل سنة في شهر رمضان منها، وهي الصوم، فإذا انتهت عبادة الحج أو عبادة الصوم ألزم الله الناس كلهم أن يكونوا في ضيافته يوم النحر ويوم عيد الفطر.

فمن صام في أحد اليومين أعرض عن ضيافة الله، والإعراض عن ضيافته تعالى لا يجوز.

فإلحاق يوم المولد بيوم العيد إلحاق لا أساس له، لأنه إلحاق ليس بجامع بينهما ولا نفي فارق ولا إلحاق البتة إلا بجامع أو نفي فارق. وكل من لم يطمس الله بصيرته يعلم أن الحق الذي لا شك فيه هو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

ومعلوم أن جعل يوم المولد كيوم العيد في منع الصوم لم يقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا أحد من الأئمة الأربعة. فهو تشريع لاستقباح قرينة الصوم ومنعها في يوم المولد من غير استناد إلى وحي ولا قياس صحيح ولا قول أحد ممن يقتدى به.

ومما لا نزاع فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله الله رحمة للعالمين كما قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } ورسالته صلى الله عليه وسلم هي أعظم نعمة على الخلق كما بينه علماء التفسير في الكلام على قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا }، والخير كل الخير في اتباعه صلوات الله وسلامه عليه، والشر كل الشر في تشريع ما لم يشرعه والتقول عليه بما لم يقله.

فالمقلدون لمالك مثل هذا التقليد الأعمى يعتقدون أن هذا الكلام الذي ذكره الحطاب عن زروق وابن عباد وابن عاشر، أنه هو مذهب مالك وأنه من شرع الله ودينه، وأنه ما دام من مذهب مالك، فاللزام تقديمه على الكتاب والسنة لأنهما لا يجوز العمل إلا للمجتهد المطلق. وهذا مثال من بلايا التقليد الأعمى وعظائمه.

ولا يخفى أن ادعاء أن وجود نعم الله كمولد النبي صلى الله عليه وسلم يدل على استقباح طاعة الله بالصوم في أوقات وجود تلك النعم ظاهر الفساد، لأن المناسب لنعم الله هو طاعته بأنواع الطاعات كالصوم.

ولذا تجد الناس يندرون لله صوم اليوم الذي ينعم الله عليهم فيه بشفاء المريض أو إتيان الغائب، وهذا أمر معروف وهو المعقول لا عكسه.

ومما يوضح هذا أن إنزال القرآن العظيم هو أعظم نعمة على البشر.

ولأجل ذلك علمهم الله حمده تعالى على هذه النعمة العظمى في أول سورة الكهف في قوله تعالى { لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ لِكِتَابٍ }.

وقد بين تعالى أنه أنزل هذه النعمة في شهر رمضان، فكان نزول هذه النعمة في شهر رمضان مقتضياً لصومه لا لجعل أيامه أعياداً يستقبح صومها، لأن الله تعالى قال { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ }.

وهذا هو أعظم النعم، وقد رتب على هذا بالفاء قوله بعده، { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } فافهم.

والمقصود بهذا المثال النصيحة للذين لم يقدرُوا على غير هذا التقليد الأعمى لِيُبحَثُوا في كتب المذهب وأمهاته عن أقوال الإمام وكبار أصحابه لِيُفرِّقُوا بينها وبين أنواع الاستحسان التي لا مستند لها، التي يدخلها المتأخرون وقتاً بعد وقت وهي ظاهرة الفساد عند من رزقه الله علماً بكتاب الله وسنة رسوله. ومما لا شك فيه أن أقوال مالك وكبراء أصحابه مثلاً، أخرى بالصواب في الجملة من استحسان ابن عباد وابن عاشر وأمثالهما.

التنبيه العاشر

اعلم أن الدعوى التي اتفق عليها متأخرو الأصوليين التي تتضمن حكمهم على خالق السماوات والأرض جل وعلا لا يجوز لمسلم تريد الحق والإنصاف أن يعتقدها، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص، والحكم فيها على الله بلا مستند، وهو جل وعلا الذي يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وهذه الدعوى المذكورة هي المتركة مما يأتي، وهو أن الاجتهاد قد انقرض في الدنيا وانسد بابه.

وأن الله تعالى محكوم عليه بأن لا يخلق مجتهداً ولا يعلم أحداً من خلقه علماً يمكن أن يكون به مجتهداً إلى ظهور المهدي المنتظر. وأنه لا يجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولا سنة ولا أن يقلد أحداً كائناً من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة، كما نص على هذه الدعوى حاكياً إجماعهم عليها صاحب مراقي السعود في قوله: والمجمع اليوم عليه الأربعة وقفوا غيرها الجميع منعه حتى يجيء الفاطم المجدد دين الهدى لأنه مجتهد

ومراده بالفاطمي المهدي المنتظر لأنه شريف.

وقوله: حتى يجيء. حرف غاية، والمغيا به، منع تقليد أحد غير الأربعة المذكور في قوله: وقفوا غيرها الجميع منعه.

وهذا صريح في أنهم حاكمون على الله القدير العليم، بأنه لا يخلق مجتهداً قبل وجود المهدي المنتظر، وهذا الذي قاله صاحب مراقي السعود هو المقرر في كتب المتأخرين من الأصوليين من أهل المذاهب المدونة. وهذا الحكم على الله الذي كل يوم هو في شأن بأنه لا يخلق مجتهداً قبل المهدي من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخي كما ترى.

ولا شك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبي تقطع أنه لا مستند له، وهذا الذي ذكره صاحب مراقي السعود قد صرح بما يناقضه في قوله قبله: والأرض لم عن قائم مجتهد تخلو إلى تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحق.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» الحديث. وهو حديث مشهور متفق عليه لا نزاع في صحته. ولا شك في أن هذه الطائفة التي صرح النبي صلى الله عليه وسلم: بأنها لا تزال ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله أنها طائفة على كتاب الله، وسنة رسوله، وليست ألبتة من المقلدين التقليد الأعمى.

لأن الحق هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة كما قال تعالى في سورة النساء {بِأَيِّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ} وقال في الأنعام: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ}. وقال في النمل {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَمُبِينٌ} وقال في يونس: {بِأَيِّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ} والآيات بمثل ذلك كثيرة. فدعوى أن الأرض لم يبق فيها مجتهد ألبتة، وأن ذلك مستمر إلى ظهور المهدي المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتاً لا مطعن فيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم. ومما لا نزاع فيه أن كل ما يناقض الحق فهو ضلال، لأن الله جل وعلا يقول: {فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}. والعلم عند الله تعالى.

التنبيه الحادي عشر

اعلم يا أخي أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عم جل من في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسي والمصائب، والدواهي التي دعت المسلمين من مدة قرون عديدة.

ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جعلتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافي لأصل الإسلام.

لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام.

ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم.

ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم والتحصن بسنته.

ولذلك وجد الغزو الفكري طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين. ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلاً ولا شك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل، لا يمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبالجملة فمما لا شك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيان المسلمين، ووجدتهم وفصلهم عن دينهم، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحوراً في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة،

وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم.

{ إِنَّ الَّذِينَ رَاتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ لِمَلَائِكَةٍ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن نُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِوهُمُ اللَّهُ شَيْئًا وَسَخِيطُ أَعْمَالِهِمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْتُوا وَهُمْ كُفْرًا قَلْبًا يَعْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَئِن يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ * إِنَّمَا لِحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * وَإِن يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرِخَ أضعنكم * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُمْ مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ لَغَنِيٌّ وَأَنْتُمْ لَفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ }

قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ رَاتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ لِمَلَائِكَةٍ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ قَالُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ }. الظاهر أن الذين ارتدوا على أديارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، قوم كفروا بعد إيمانهم.

وقال بعض العلماء: هم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به. وعلى هذا القول فارتدادهم على أديارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته صلى الله عليه وسلم ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم.

وعلى هذا القول فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ } لأن قوله:

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا } مبين معنى قوله: { مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ }، وقوله { كَفَرُوا بِهِ } مبين معنى قوله: { رَاتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ }.

وقال بعض العلماء: نزلت الآية المذكورة في المنافقين. وقد بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن سبب ارتداد هؤلاء القوم من بعد ما تبين لهم الهدى، هو إغواء الشيطان لهم كما قال تعالى مشيراً إلى علة

ذلك {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ} أي زين لهم الكفر والارتداد عن الدين، وأملى لهم أي مد لهم في الأمل ووعدهم طول العمر. قال الزمخشري: سول سهل لهم ركوب العظام من السول، وهو الاسترخاء، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً. وأملى لهم ومد لهم في الآمال والأمانى. انتهى.

وإيضاح هذا أن هؤلاء المرتدين على أديارهم من بعد ما تبين لهم الهدى وقع لهم ذلك بسبب أن الشيطان سول لهم ذلك أي سهله لهم وزينه لهم وحسنه لهم ومناهم فصول الأعمار. لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي. وفي هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو، وأملى لهم بفتح الهمزة واللام بعدها ألف وهو فعل ماض مبني للفاعل، وفاعله ضمير يعود إلى الشيطان.

وأصل الإملاء الإمهال والمد في الأجل، ومنه قوله تعالى: {وَأْمَلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}، وقوله تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ لِيَزْدَاوُوا إِنَّمَا}.
ومعنى إملاء الشيطان لهم وعده إياهم بطول الأعمار، كما قال تعالى:

{يَعِدُّهُمْ وَيُمَتِّهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُورًا}.
وقال تعالى: {وَسَيُفْزَرُ مَن سَلَّطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ} إلى قولك {وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُورًا}.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل في قوله {وَأْمَلَى لَهُمْ} على قراءة الجمهور راجع إلى الله تعالى.

والمعنى: الشيطان {سَوَّلَ لَهُمْ} أي سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله جل وعلا أملى لهم: أي أمهلهم إمهال استدراج. وكون التسويل من الشيطان والإمهال من الله، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله كقوله تعالى في تزيين الشيطان لهم {وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}. وقوله تعالى، {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ لِيُؤَمِّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وقوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ لِْحَقٍّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخَلَّفْتَكُمْ}. إلى غير ذلك من الآيات.

وكقوله تعالى في إملاء الله لهم استدراجاً: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّن حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأْمَلَى لَهُمُ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}. وقوله تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلَّى لَهُمْ لِيَزْدَاوُوا إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} وقوله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ إِلَهُ حَمْنٌ مَّدًّا} وقوله تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} وقوله تعالى: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. وقوله تعالى {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَسُنَّارٍ لَهُمْ فِي لَحْيِرَتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقرأ هذا الحرف أبو عمرو وجده من السبعة وأملي لهم بضم الهمزة وكسر اللام بعدها ياء مفتوحة بصيغة الماضي المبني للمفعول والفاعل المحذوف فيه الوجهان المذكوران أنفاً في فاعل، وأملي لهم على قراءة الجمهور بالبناء للفاعل.

وقد ذكرنا قريباً ما يشهد لكل منهما من القرآن كقوله تعالى في إملاء الشيطان لهم {يَعِدُّهُمْ وَيُمَتِّعُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ إِلَّا الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُوراً} وقوله في إملاء الله لهم: {وَأَمَلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} كما تقدم قريباً، والإشارة في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ} راجعة إلى قوله تعالى، {الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ}.

أي ذلك التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم {قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}.

وظاهر الآية يدل على أن بعض الأمر الذي قالوا لهم سنطيعكم فيه مما نزل الله وكرهه أولئك المطاعون.

والآية الكريمة تدل على أن كل من أطاع من كره ما نزل الله في معاونته له على كراهته ومؤازرته له على ذلك الباطل، أنه كافر بالله بدليل قوله تعالى فيمن كان كذلك {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمْ لِمَلَائِكَتِهِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَبَّغُوا مَا كَسَبُوا وَاللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}.

وقد قدمنا ما يوضح ذلك من القرآن في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} وفي مواضع عديدة من هذا الكتاب المبارك.

وبينا في سورة شورى أيضاً شدة كراهة الكفار لما نزل الله، وبيننا ذلك بالآيات القرآنية في الكلام على قوله تعالى {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}.

وقد قدمنا مراراً أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة والله يعلم {إِسْرَارَهُمْ} قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم أسرارهم بفتح الهمزة جمع سر. وقرأه حمزة واليكسائي وحفص عن عاصم إسراهم بكسر الهمزة مصدر أسر كقوله: {وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}. وقد قالوا لهم ذلك سرا فأفشاه الله العالم بكل ما يسرون وما يعلنون.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمْ لِمَلَائِكَتِهِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} أي: فكيف يكون حال هؤلاء إذا توفتهم الملائكة؟ أي قبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الملائكة، يتوفون الكفار وهم يضربون وجوههم وأدبارهم جاء موضحاً في مواضع أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنفال: {وَلَوْ تَرَى إِذُ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا لِمَلَائِكَتِهِ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} وقوله في الأنعام: {وَلَوْ تَرَى إِذُ الظَّالِمُونَ فِي عَمْرَاتٍ لِمَوْتٍ وَ لِمَلَائِكَتِهِ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ لِيَوْمٍ تُجْرُونَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

فقوله: {بَاسِطًا أَيْدِيَهُمْ} أي بالضرب المذكور. والإشارة في قوله {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ تَبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهَ} راجعة إلى المصدر الكامن في الفعل الصناعي أعني قوله {يَصْرُبُونَ وُجُوهَهُمْ}. أي ذلك بضرب وقت الموت واقع بسبب {بِأَنَّهُمْ تَبِعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهَ} أي أغضبه من الكفر به، وطاعة الكفار الكارهين لما نزل. والإسقاط استجلاب السخط، وهو الغضب هنا. وقوله: وكرهوا رضوانه لأن من أطاع من كره ما نزل الله فقد كره رضوان الله.

لأن رضوانه تعالى ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل، كراهة رضوانه لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه، فهو ككارهه. وقوله: فأحبط أعمالهم أي أبطلها، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة. وقد أوضحنا المقام في ذلك إيضاحاً تاماً في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}.

وفي سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً}.

واعلم أن هذه الآية الكريمة، قد قال بعض العلماء: إنها نزلت في المنافقين. وقال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، وأن المنافقين أو اليهود قالوا للكفار الذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، وهو عداوة النبي صلى الله عليه وسلم والتعويق عن الجهاد ونحو ذلك. وبعضهم يقول: إن الذين اتبعوا ما أسخط الله، هم اليهود حين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما عرفوه وكرهوا رضوانه، وهو الإيمان به صلى الله عليه وسلم.

والتحقيق الذي لا شك فيه أن هذه الآيات عامة في كل ما يتناوله لفظها، وأن كل ما فيها من الوعيد عام لمن أطاع من كره ما نزل الله.

مسألة

اعلم أن كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد. لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو هذا القرآن وما بينه به النبي صلى الله عليه وسلم من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم: سنطيعكم في الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم. وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم.

فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا: سنطيعكم في بعض الأمر.
قوله تعالى: {وَلْتَبْلُواْ كُفْرَكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ لِمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ
أَخْبَرَكُمْ}. اللام في قوله: لتبلونكم موطئة لقسم محذوف.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة عن عاصم بالنون الدالة على
العظمة في الأفعال الثلاثة أعني لتبلونكم، ونعلم، ونبلو.
وقرأه شعبة عن عاصم بالمشناة التحتية.

وضمير الفاعل يعود إلى الله وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الله جل
وعلا يبلو الناس أي يختبرهم بالتكاليف، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد
ليتميز بذلك صادقهم من كاذبهم، ومؤمنهم من كافرهم. جاء موضحاً في
آيات آخر.

كقوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِنْ
قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمًا وَالصَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ ءَامَنُوا
مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ}.

وقوله تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنْكُمْ
وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.

وقوله تعالى {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنْكُمْ وَلَمْ
يَتَّخِذُواْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.
وقوله تعالى {أَمْ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ لَقَدْ
فْتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ}.

وقوله تعالى {مَا كَانَ لِلَّهِ لِيَدَّرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ
مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {حَتَّى تَعْلَمَ لِمُجَاهِدِينَ}.

وقد قدمنا إزالة الإشكال في نحوه في سورة البقرة في الكلام على قوله
تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِقِبْلَتِكَ لِيُكْفَرَنَّ عَنْكَ إِذِ انْتَهَى إِلَيْكَ عَنِ الْكُفْرِ مِمَّنْ
يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ}.

فقلنا في ذلك ما نصه:

ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن
يعلمه سبحانه وتعالى، عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون
قبل أن يكون.

وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا: {وَلِيَبْتَلِيَ
اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

فقوله: والله عليم بذات الصدور بعد قوله: ليبتلي، دليل قاطع على أنه لم
يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.
لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار.

وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه.
ومعنى إلا لنعلم أي علماً يترتب عليه الثواب والعقاب فلا ينافي أنه كان عالماً
به قبل ذلك، وفائدة الاختبار ظهور الأمر للناس، أما عالم السر والنجوى، فهو
عالم بكل ما سيكون، كما لا يخفى. اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: (وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة، ونبلو أخباركم نختبرها ونظهرها) انتهى محل الغرض منه.

وقال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: (ولنبونكم أيها المؤمنون بالقتل وجهاد أعداء الله حتى نعلم المجاهدين منكم يقول: حتى يعلم حزبي وأوليائي أهل الجهاد. في الله منكم وأهل الصبر على قتال أعدائه فيظهر ذلك لهم ويعرف ذوو البصائر منكم في دينه من ذوي الشك والحيرة فيه وأهل الإيمان من أهل النفاق ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم من الكاذب). انتهى محل الغرض منه بلفظه.

وما ذكره من أن المراد بقوله: حتى نعلم المجاهدين الآية، حتى يعلم حزبنا. وأولياؤنا المجاهدين منكم والصابرين له وجه، وقد يرشد له قوله تعالى: {وَتَبَلَّوْا خَبْرَكُمْ} أي نظهرها ونبرزها للناس.

وقوله تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} لأن المراد يميز الخبيث من الطيب ظهور ذلك للناس. ولذا قال {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ} فتعلموا ما ينطوي عليه الخبيث والطيب، ولكن الله عرفكم بذلك بالاختبار والابتلاء الذي تظهر بسببه طوايا الناس من خبيث وطيب.

والقول الأول وجه أيضاً، وإلعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَخِطَ أَعْمَلُهُمْ}. الظاهر أن صدوا في هذه الآية متعدية، والمفعول محذوف، أي كفروا وصدوا غيرهم عن سبيل الله فهم ضالون مضلون.

وقد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم} أن التأسيس مقدم على التوكيد كما هو مقرر في الأصول.

وصدوا هنا، إن قدرت لازمة فمعنى الصدود الكفر، فتكون كالتوكيد لقوله كفروا.

وإن قدرت متعدية كان ذلك تأسيساً.

لأن قوله: كفروا يدل على كفرهم في أنفسهم.

وقوله: وصدوا على أنه متعد يدل على أنهم حملوا غيرهم على الكفر وصدوه عن الحق، وهذا أرجح مما قبله.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَشَاقُّوا الرَّسُولَ} أي خالفوا محمداً صلى الله عليه وسلم مخالفة شديدة.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أمرين أحدهما أن الذين كفروا وصدوا غيرهم عن الحق وخالفوه صلى الله عليه وسلم لن يضروا الله بكفرهم شيئاً، لأنه غني لذاته الغنى المطلق.

والثاني أنهم إنما يضررون بذلك أنفسهم، لأن ذلك الكفر سبب لإحباط أعمالهم، كما قال تعالى: {وَسِيخِطُ أَعْمَالَهُمْ}.
وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات من كتاب الله.

فمن الآيات الدالة على الأول الذي هو غنى الله عن خلقه، وعدم تضرره بمعصيتهم، قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}.
وقوله تعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ}.
وقوله تعالى: {وَقَالَ مُوبِذٌ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}.
وقوله تعالى: {قَالُوا لَخَدَّ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ لَغَنِيٌّ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}.

وقوله تعالى: {فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَبَلَغْتَ لِي اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}.
وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ لِقُرَآءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ لَغَنِيٌّ لِحَمِيدٌ} إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الآيات الدالة على الثاني وهو إحباط أعمالهم بالكفر أي إبطالها به قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا}.
وقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَائِغًا}.

وقوله تعالى: {أُولَٰئِكَ لَئِنْ لَئْسَ لَهُمْ فِي الْأٰخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَبَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}. قد قدمنا كثيراً جداً من الآيات المماثلة له قريباً في جملة كلامنا الطويل على قوله تعالى {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانٍ}. قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن من مات على الكفر لن يغفر الله له، لأن النار وجبت له بموته على الكفر، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله.

كقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلٌّ إِلَّا رِضٌ ذَهَبًا وَلَوْ نُفِذَ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ}.
وقوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ لِمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ لِعَذَابٍ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.
وقوله تعالى {وَمَنْ يَرْزُقْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. قوله تعالى: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ بِاللَّهِ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ أَغْمَلَكُمْ}. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم إلى السلم بفتح السين.

وقرأ حمزة وشعبة إلى السلم بكسر السين.
 وقوله تعالى: { فَلَا تَهِنُوا } أي لا تضعفوا وتذلوا، ومنه قوله تعالى: { فَمَا
 وَهِنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } .
 وقوله تعالى: { ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } أي مضعف كيدهم،
 وقول زهير بن أبي سلمى: وأخلفتك ابنة البكري ما وعدت فأصبح الحبل
 منها واهناً خلقاً

وقوله تعالى: { وَأَنْتُمْ أَلْعَلُونَ } جملة حالية فلا تضعفوا عن قتال الكفار
 وتدعوا إلى السلم، أي تبدؤوا بطلب السلم أي الصلح والمهادنة وأنتم
 الأعلون. أي والحال أنكم أنتم الأعلون أي الأقهرون والأغلبون لأعدائكم،
 ولأنكم ترجون من الله من النصر والثواب ما لا يرجون.
 وهذا التفسير في قوله { وَأَنْتُمْ أَلْعَلُونَ } هو الصواب
 وتدل عليه آيات من كتاب الله كقوله تعالى بعده { وَاللَّهُ مَعَكُمْ } لأن من كان
 الله معه هو الأعلى وهو الغالب وهو القاهر المنصور الموعود بالثواب.
 فهو جدير بأن لا يضعف عن مقاومة الكفار ولا يبدأهم بطلب الصلح
 والمهادنة.

وكقوله تعالى: { وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَلِيُّونَ }، وقوله تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }، وقوله { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }
 وقوله تعالى { قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ } . ومما
 يوضح معنى آية القتال هذه قوله تعالى: { وَلَا تَهِنُوا فِي سَبِيلِ الْقَوْمِ إِنْ
 تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ }، لأن
 قوله تعالى { وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } من النصر الذي وعدكم الله به
 والغلبة وجزيل الثواب.
 وذلك كقوله هنا { وَأَنْتُمْ أَلْعَلُونَ } وقوله: { وَاللَّهُ مَعَكُمْ } أي بالنصر والإعانة
 والثواب.

واعلم أن آية القتال هذه لا تعارض بينها وبين آية الأنفال حتى يقال إن
 إحداهما ناسخة للأخرى، بل هما محكمتان وكل واحدة منهما منزلة على حال
 غير الحال التي نزلت عليه الأخرى.

فالنهي في آية القتال هذه في قوله تعالى: { فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ }
 إنما هو عن الابتداء بطلب السلم.

والأمر بالجنوح إلى السلم في آية الأنفال محله فيما إذا ابتدأ الكفار بطلب
 السلم والجنوح لها، كما هو صريح قوله تعالى: { وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَجِنَحْ لَهَا
 وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَاللَّهُ مَعَكُمْ } قد قدمنا الآيات الموضحة
 له في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } وهذا الذي ذكرنا في معنى هذه الآية أولى وأصوب مما
 فسرها به ابن كثير رحمه الله.

وهو أن المعنى: لا تدعوا إلى الصلح والمهادنة وأنتم الأعلون أي في حال
 قوتكم وقدرتكم على الجهاد.

أي، وإما إن كنتم في ضعف وعدم قوة فلا مانع من أن تدعوا إلى السلم أي الصلح والمهادنة، ومنه قول العباس بن مرداس السلمي: السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب تكفيك من أنفاسها جرع

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَنْ يَّتْرَكَمْ أَغْمَلِكُمْ} أي لن ينقصكم شيئاً من ثواب أعمالكم.

وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة من عدم نقصه تعالى شيئاً من ثواب الأعمال جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى {وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً} أي لا ينقصكم من ثوابها شيئاً. وقوله تعالى: {وَتَصَعُّ لِمُؤْزِينَ لِقِسْطٍ لِيَوْمِ لِقِيْمَةٍ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَنْ يَّتْرَكَمْ} أصله من الوتر، وهو الفرد. فأصل قوله: لن يترككم لن يفرديكم ويجردكم من أعمالكم بل يوفيكم إياها. قوله تعالى: {وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ}. هذه الأجور التي وعد الله بها من آمن واتيقى جاءت مبينة في آيات كثيرة كقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}. في هذه الآية الكريمة أوجه معلومة عند أهل التفسير منها أن المعنى: ولا يسألكم النبي صلى الله عليه وسلم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي المتضمن لخير الدنيا والآخرة.

وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ}. وقوله تعالى: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}. وقوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُنْقَلُونَ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة هود في الكلام على قوله تعالى {وَيَقُومُ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ} وذكرنا بعض ذلك في سورة الشورى في الكلام على قوله تعالى {قُلْ لَأَسْأَلَكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا لِمَوَدَّةٍ فِي لِقَابِي}. قوله تعالى: {تَفْسِيهِ وَاللَّهُ لَعَنِىُّ وَأَنْتُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له قريباً في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى}. قوله تعالى: {لِفُقَرَاءٍ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا}.

تم بحمد الله تفسير سورة محمد

تفسير سورة الفتح

{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
 نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا * هُوَ الَّذِي
 أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَاُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
 جَنَّاتٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ
 عِنْدَ اللَّهِ قُوزًا عَظِيمًا * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
 وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَلِعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ
 اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * إِنْ لِيُذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
 يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فَايْمًا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى
 بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ إِلَهُ فَيَسْئَلْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * سَيَقُولُ لِيْكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ
 الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي
 قُلُوبِهِمْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا
 بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ طَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ
 إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَطَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا *
 وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَايًّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا * وَلِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَحِيمًا *
 سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذُرُوبًا تَسْبِعُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ
 يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
 تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَاثِبُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ عَوْنٌ
 إِلَىٰ قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ تَقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا
 حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ
 حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا * لَقَدْ رَضِيَ
 اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ
 السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَائِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا
 حَكِيمًا * وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَائِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ
 عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَأَخْرَجَ لَمْ تَقْدِرُوا
 عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَتَلْتُمْ لِيُذِينَ
 كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَرُ لَمْ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا * سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ
 قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسِنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ لِيُذِيَ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ
 بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * هُمْ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوَكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَلَهْدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلَهُ
 وَلَوْلَا رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ
 مَعْرَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ لِحِمِيَّةَ حِمِيَّةَ لَجَاهِلِيَّةِ
 فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَرُّوا
 أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا

بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ لِمَسْجِدٍ حَرَامٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخَلِّقِينَ رُءُوسِكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخْفُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ يَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا

قوله تعالى:

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا}. التحقيق الذي عليه الجمهور أن المراد بهذا الفتح
صلح الحديبية، لأنه فتح عظيم.

وإيضاح ذلك أن الصلح المذكور هو السبب الذي تهيأ به للمسلمين أن يجتمعوا
بالكفار فيدعوهم إلى الإسلام وبينوا لهم محاسنه.

فدخل كثير من قبائل العرب بسبب ذلك في الإسلام.

ومما يوضح ذلك أن الذين شهدوا صلح الحديبية مع النبي صلى الله عليه

وسلم في ذي القعدة عام ست كانوا ألفاً وأربعمائة.

ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم غزو مكة حين نقض الكفار العهد، كان

خروجه إلى مكة في رمضان عام ثمان.

وكان معه عشرة آلاف مقاتل، وذلك يوضح أن الصلح المذكور من أعظم

الفتوح لكونه سبباً لقوة المسلمين وكثرة عددهم.

وليس المراد بالفتح المذكور فتح مكة، وإن قال بذلك جماعة من أهل العلم.

وإنما قلنا ذلك لأن أكثر أهل العلم على ما قلنا.

ولأن ظاهر القرآن يدل عليه لأن سورة الفتح هذه نزلت بعد صلح الحديبية

في طريقه صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة.

ولفظ الماضي في قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا} يدل على أن ذلك الفتح قد مضى،

فدعوى أنه فتح مكة ولم يقع إلا بعد ذلك بقرب سنتين خلاف الظاهر.

والآية التي في فتح مكة دلت على الاستقبال لا على الماضي، وهي قوله

تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}.

وقد أوضحنا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب معني اللام في

قوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ}. قوله تعالى: {لِيَزِدَّاؤُا إِيْمَانًا مَّعَ

إِيْمَانِهِمْ}. ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد دلت عليه آيات

آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {وَإِذَا ثَلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ رَادُّهُمْ إِيْمَانًا}.

وقوله تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادُّهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، وقوله

تعالى: {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِكِتَابِ رَبِّكَ وَيَزِيدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا} إلى غير

ذلك من الآيات. وقد أوضحناه مراراً.

والحق الذي لا شك فيه. أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة

والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة كما تقدم. قوله تعالى:

{وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن له

جنود السماوات والأرض وبين في المدثر أن جنوده هذه لا يعلمها إلا هو،

وذلك في قوله: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}. قوله تعالى: {لِيَدْخُلَ

الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبُكَرَّتْ عَنْهُمْ

سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا وَيُعَذِّبُ الْمُتَفَقِّينَ وَ الْمُتَفَقِّتِ

وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَةِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}. أظهر الأقوال وأصحها

في الآية أن اللام في قوله: {لِيُدْخِلَ} متعلقة بقوله {هُوَ} لِيُؤْتِيَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ}. وإيضاح المعنى {هُوَ} لِيُؤْتِيَ السَّكِينَةَ} أي السكون والطمأنينة إلى الحق، في قلوب المؤمنين، ليزدادوا بذلك إيماناً لأجل أن يدخلهم بالطمأنينة إلى الحق، وازدياد الإيمان جنات تجري من تحتها الأنهار، ومفهوم المخالفة في قوله: {فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ} أن قلوب غير المؤمنين ليست كذلك وهو كذلك ولذا كان جزاؤهم مخالفاً لجزاء المؤمنين كما صرح تعالى بذلك في قوله: {وَيُعَذِّبُ الْمُتَفِقِينَ وَ الْمُتَفِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السُّوءِ}. وإيضاح المعنى أنه تعالى وفق المؤمنين بإنزال السكينة، وازدياد الإيمان وأشقى غيرهم من المشركين والمنافقين فلم يوفقهم بذلك ليجازي كلا بمقتضى عمله.

وهذه الآية شبيهة في المعنى بقوله تعالى في آخر الأحزاب: {وَحَمَلَهَا} الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُتَفِقِينَ وَ الْمُتَفِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ وَ يُثَوِّبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ}. قوله تعالى: {وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}. بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات وهي غضبه، ولعنته، ونار جهنم.

وقد بين في بعض الآيات بعض نتائج هذه الأشياء الثلاثة، كقوله في الغضب: {وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ عَصِي فَقَدْ هَوَى}. وقوله في اللعنة، {وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} وقوله في نار جهنم: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ}. قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}. بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم شاهداً ومبشراً ونذيراً.

وقد بين تعالى أنه يبعثه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شاهداً على أمته، وأنه مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين. قال تعالى في شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ}.

فأية النساء وآية النحل المذكورتان الدالتان على شهادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة على أمته تبيان آية الفتح هذه.

وما ذكرنا من أنه مبشر للمؤمنين ونذير للكافرين أوضحه في قوله تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِئُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لِّدَاءٍ}.

وقد أوضحنا هذا في أول سورة الكهف، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة، ذكره وزيادة في سورة الأحزاب في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}.

وقوله هنا: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا} حال مقدره. وقوله: مبشراً ونذيراً كلاهما حال معطوف على حال. قوله تعالى: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ صَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ تَفْعًا}.

أمر الله جل وعلا نبيه أن يقول للمنافقين الذين تخلفوا عنه واعتذروا بأعذار كاذبة: {قَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ صَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} أي لا أحد يملك دفع الضر الذي أراد الله إنزاله بكم ولا منع النفع الذي أراد نفعكم به فلا نافع إلا هو ولا ضار إلا هو تعالى، ولا يقدر أحد على دفع ضره إلا هو ولا منع نفعه إلا هو.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة. ما جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأحزاب {قُلْ مَنْ دَا لِيذِي يَعْصِمُكُمْ مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ وِلِيًّا وَلَا تَصِيرُوا} وقوله تعالى في آخر يونس {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ}.

وقوله في الأنعام: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وقوله تعالى في النساء {قُلْ قَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ لِمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}.

وقوله تعالى في فاطر: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ}.

وقوله تعالى في الملك {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا قَمَن يُجِيرُ الْكٰفِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ}.

وقد ذكرنا بعض الآيات الدالة على هذا في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ} وفي سورة الأحقاف في الكلام

على قوله تعالى: {قُلْ إِنْ قُتِرْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}. قوله تعالى: {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ}. ذكر جل وعلا في

هذه الآية الكريمة أنه أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس.

وقد ذكر جل وعلا إنزاله للسكينة على رسوله وعلى المؤمنين في براءة في قوله تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ} وذكر إنزال

سكينة على رسوله في قوله في براءة: {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخَرَّنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ}.

وذكر إنزاله سكينة على المؤمنين في قوله {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}.

وهذه الآيات كلها لم يبين فيها موضع إنزال السكينة، وقد بين في هذه

السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: {هُوَ

الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ لِّحَقٍّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ}. ما ذكره جل وعلا في

هذه الآية الكريمة ذكره في سورة التوبة وسورة الصف وزاد فيهما أنه فاعل

ذلك، ولو كان المشركون يكرهونه، فقال في الموضعين {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ لِّحَقٍّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا

سُجَّدًا يُبَتِّغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ
وَسَنَّغَلُظَ وَ سَنَّغَلُظَ وَ سَنَّوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ
لِذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

قوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ لِيذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة في الكلام على قوله
تعالى { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ } . قوله تعالى: { وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ فَآزَرَهُ
وَ سَنَّغَلُظَ وَ سَنَّوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ } . قرأ هذا الحرف ابن كثير وابن
ذكوان وابن عامر شطأه بفتح الطاء، والباقون من السبعة بسكون الطاء.
وقرأ عامة السبعة غير ابن ذكوان: فأزره بألف بعد الهمزة.
وقرأه ابن ذكوان عن عامر فأزره بلا ألف بعد الهمزة مجرداً.
وقرأ عامة السبعة غير قبل على سوجه بواو ساكنة بعد السين.
وقرأه قبل عن ابن كثير بهمزة ساكنة بدلاً من الواو وعنه ضم الهمزة بعد
السين بعدها واو ساكنة.

وهذه الآية الكريمة قد بين الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي صلى
الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر في أول نباته رقيقاً ضعيفاً
متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد وتعجب
جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قلة وضعف ثم لم يزالوا يكثر
ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا.

وقوله تعالى: { كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأَهُ } أي فراخه فنبت في جوانبه. وقوله
{ فَآزَرَهُ } على قراءة الجمهور من المؤازرة، بمعنى المعاونة والتقوية، وقال
بعض العلماء: { فَآزَرَهُ } أي ساواه في الطول، وبكل واحد من المعنيين فسر
قول امرئ القيس: بمحنية قد أزر الصال نبتها مجر جيوش غانمين وخيب

وأما على قراءة ابن ذكوان { فَآزَرَهُ } بلا ألف، فالمعنى شد أزره أي قواه.
ومنه قوله تعالى عن موسى { وَ جَعَلْ لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِيهِرُونَ أَخِذْ سَلْدُكُ بِهِ
أَزْرِي } . وقوله، { وَ سَنَّغَلُظَ } أي صار ذلك الزرع غليظاً بعد أن كان رقيقاً،
وقوله: { وَ سَنَّوَى } أي استتم وتكامل على سوجه أي على قصبه.

وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي
صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قلة
وضعف، ثم بعد ذلك يكثر ويقتوون. جاء موضحاً في آيات من كتاب الله
تعالى كقوله { وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ
يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَاكُمُ وَأَيِّدْكُمْ بِنَصْرِهِ } .

وقوله تعالى { وَلَقَدْ بَصَّرَكُمُ اللَّهُ يُبْدِرُ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } وقوله تعالى { لِيَوْمَ يَأْتِي
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَ تَحْشَوْنَ } . إلى غير ذلك من الآيات.

تم بحمد الله تفسير سورة الفتح

تفسير سورة الحجرات

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَعْتُصُونَ أَصْوَابَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ مُتَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُتَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ}

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: لا تقدموا فيه لعلماء التفسير ثلاثة أوجه: الأول منها وهو أصحها وأظهرها أنه مضارع قدم اللازمة بمعنى تقدم.

ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب بكسر الدال فيهما، وهو اسم فاعل قدم بمعنى تقدم.

ويدل لهذا الوجه قراءة يعقوب من الثلاثة الذين هم تمام العشرة لا تقدموا بفتح التاء والدال المشددة وأصله لا تتقدموا فحذفت إحدى التاءين. الوجه الثاني: أنه مضارع قدم المتعدي، والمفعول محذوف لإرادة التعميم أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله ورسوله بل أمسكوا عن ذلك حتى تصدروا فيه عن أمر الله ورسوله.

الوجه الثالث: أنه مضارع قدم المتعدية ولكنها أجريت مجرى اللزوم، وقطع النظر عن وقوعها على مفعولها، لأن المراد هو أصل الفعل دون وقوعه على مفعوله.

ونظير ذلك قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي هو المتصف بالإحياء والإماتة، ولا يراد في ذلك وقوعهما على مفعول.

وكقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} لأن المراد، أن المتصفين بالعلم لا يستون مع غير المتصفين به.

ولا يراد هنا وقوع العلم على مفعول، وكذلك على هذا القول: لا تقدموا، لا تكونوا من المتصفين بالتقديم.

وقد قدمنا في كلامنا الطويل على آية: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ} أن لفظة بين يديه معناها أمامه، وذكرنا الآيات الدالة على ذلك.

والمعنى لا تتقدموا أمام الله ورسوله: فتقولوا في شيء بغير علم ولا إذن من الله، وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في ذلك دخولاً أولاً تشريع ما لم يأذن به الله وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله، لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله.

وقد أوضحنا هذه بالآيات القرآنية بكثرة في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا خُلِّفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} وفي سورة

الكهف في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَقُرْآنٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} وفي غير ذلك من المواضع. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَاتَّقُوا اللَّهَ} أي بامثال أمره واجتناب نهيه.

وقوله {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} فهو سميع لكل ما تقولون من التقديم بين يديه وغيره، عليم بكل ما تفعلون من التقديم بين يديه وغيره. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}. سبب نزول هذه الآية الكريمة، أنه لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد تميم، أشار عليه أبو بكر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس، وأشار عليه عمر أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس بن عقال. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما فأنزل الله: {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} ذكره البخاري في صحيحه وغيره.

وهذه الآية الكريمة علم الله فيها المؤمنين أن يعظموا النبي صلى الله عليه وسلم ويحترموا ويوقروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض، أي ينادونه باسمه: يا محمد، يا أحمد، كما ينادي بعضهم بعضاً.

وإنما أمروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه ليس كخطاب بعضهم لبعض، كأن يقولوا يا نبي الله أو يا رسول الله ونحو ذلك. وقوله: {أَن تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ} أي لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون أي لا تعلمون بذلك. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه واحترامه جاء مبيناً في مواضع أخر كقوله تعالى: {لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ} على القول بأن الضمير في تعزروه وتوقروه للنبي صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا} كما تقدم وقوله تعالى {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ}. وقوله هنا: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} أي لا تنادوه باسمه: يا محمد.

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}. {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}. {يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ}. {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله {وَقُلْنَا يَا آدَمُ}. وقوله: {وَتَدْبِئُهُ أَنْ يَا بُرْهِيمُ} وقوله: {قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}. قيل {يَنْوُحُ هُبْتُ بِسَلْمٍ مِّنَّا} وقوله: {قَالَ يَمْوِسِي إِنِّي طُطِقَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ} وقوله: {إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مَتَّى قَوْلِكَ} وقوله: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً}.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ}. وقوله: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}. وقوله: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ}.

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه صلى الله عليه وسلم بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَوْسُوتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ لِيُذَيَّبَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِيَتَّقُوا لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}.

وقال بعض العلماء في قوله: {وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ} أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض. قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية ما نصه: وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقاً، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أهبة النبوة، وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها. انتهى محل الغرض منه.

وظاهر هذه الآية الكريمة أن الإنسان قد يحبط عمله وهو لا يشعر، وقد قال القرطبي: إنه لا يحبط عمله بغير شعوره وظاهر الآية يرد عليه. وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية، ما نصه: وقوله عز وجل: {أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري، كما جاء في الصحيح «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض» اهـ محل الغرض منه بلفظه.

ومعلوم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمة في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره صلى الله عليه وسلم وهم في صخب ولغط. وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر. وقد شدد عمر رضي الله عنه النكير على رجلين رفعاً أصواتهما في مسجده صلى الله عليه وسلم، وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

مسألتان

الأولى: اعلم أن عدم احترام النبي صلى الله عليه وسلم المشعر بالغض منه أو تنقيصه صلى الله عليه وسلم والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله.

وقد قال تعالى في الذين استهزءوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: {وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ وَلَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}.

المسألة الثانية

وهي من أهم المسائل، اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته، التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي صلى الله عليه وسلم، ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

وإذا عرفت ذلك فاعلم: أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله. فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده، لأنه من خصائص الربوبية فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومرضاته وهو عين التوقير والتعظيم للنبي صلى الله عليه وسلم لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والافتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جل وعلا.

وقد بين جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه، أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده، في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى.

مِن أَصْرَحِ ذَلِكَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي سُورَةِ النَّمْلِ أَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ طُطِّقُوا} إِلَى قَوْلِهِ: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

فإنه جل وعلا قال في هذه الآيات الكريمات العظيمات: {قُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ طُطِّقُوا} أَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}.

ثم بين خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده فقال: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}.

فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق ذات البهجة، التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله، من خصائص ربوبية الله، ولذا قال تعالى بعدها {أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ} يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق به، والجواب لا. لأنه لا إله إلا الله وحده.

ثم قال تعالى: {أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

فهذه المذكورات أيضاً، التي هي جعل الأرض قراراً، وجعل الأنهار خلالها، وجعل الجبال الرواسي فيها، وجعل الحاجز بين البحرين من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعد ذكرها إله مع الله؟ والجواب لا.

فلاعتراف لله جل وعلا بأن خلق السماوات والأرض وإنزال الماء وإنبات النبات ونحو ذلك مما ذكر في الآيات من خصائص ربوبيته جل وعلا هو الحق، وهو من طاعة الله ورسوله، ومن تعظيم الله وتعظيم رسوله بالافتداء به صلى الله عليه وسلم في تعظيم الله.

ثم قال تعالى وهو محل المشاهد {أَمَّنْ يُجِيبُ لِمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ
 أَلْسُرَهُ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ أَلْأَرْضِ أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}.
 فهذه المذكورات التي هي إجابة المضطر إذا دعا، وكشف السوء وجعل
 الناس خلفاء في الأرض من خصائص ربوبيته جل وعلا، ولذا قال بعدها أله مع
 الله قليلاً ما تذكرون.

فتأمل قوله تعالى: {أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ} مع قوله: {أَمَّنْ يُجِيبُ لِمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ
 وَيَكْشِفُ أَلْسُرَهُ} تعلم أن إجابة المضطرين إذا التجؤوا ودعوا وكشف السوء
 عن المكروبين، لا فرق في كونه من خصائص الربوبية، بينه وبين خلق
 السماوات والأرض، وإنزال الماء وإنبات النبات، ونصب الجبال وإجراء الأنهار،
 لأنه جل وعلا ذكر الجميع بنسق واحد في سياق واحد، وأتبع جميعه بقوله:
 {أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ}.

فمن صرف شيئاً من ذلك لغير الله توجه إليه الإنكار السماوي الذي هو في
 ضمن قوله: {أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ} فلا فرق البتة بين تلك المذكورات في كونها
 كلها من خصائص الربوبية.

ثم قال تعالى: {أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَبِيٍّ وَ لِبَحْرٍ وَمَنْ يُرْسِلُ أَلرِّيَّاحَ
 بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ تَعَالَى أَللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

فهذه المذكورات التي هي هدي الناس في ظلمات البر والبحر، وإرسال
 الرياح بشراً، أي مبشرات، بين يدي رحمته التي هي المطر، من خصائص
 ربوبيته جل وعلا.

ولذا قال تعالى: {أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ}، ثم نزه جل وعلا نفسه عن أن يكون معه
 إله يستحق شيئاً مما ذكر فقال جل وعلا: {تَعَالَى أَللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}.
 ثم قال تعالى: {أَمَّنْ يَبْدَأُ أَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ أَلسَّمَآءِ وَأَلْأَرْضِ
 أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

فهذه المذكورات التي هي بدء خلق الناس وإعادته يوم البعث، ورزقه للناس
 من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإنبات النبات، من خصائص ربوبيته
 جل وعلا ولذا قال بعدها {أَعَلَهُ مَعَ أَللَّهِ}.

ثم عجز جل وعلا كل من يدعي شيئاً من ذلك كله لغير الله، فقال آمراً نبيه
 صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بصيغة التعجيز: {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وقد اتضح من هذه الآيات القرآنية، أن إجابة المضطرين الداعين، وكشف
 السوء عن المكروبين، من خصائص الربوبية كخلق السماوات والأرض وإنزال
 الماء، وإنبات النبات، والحجز بين البحرين إلى آخر ما ذكر.

وكون إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين من خصائص الربوبية،
 كما أوضحه تعالى في هذه الآيات من سورة النمل جاء موضعاً في آيات آخر،
 كقوله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ أَللَّهُ بِصُرٍّ فَلَا
 كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ}.

وقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ أَللَّهُ بِصُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ
 بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وقوله تعالى: { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ }.

فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ما تضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم معظمين لله ولرسوله، لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو اتباعه والافتداء به، في إخلاص العبادة لله جل وعلا وحده. فأخلاص العبادة له جل وعلا وحده، هو الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويأمر به وقد قال تعالى: { وَمَا أُمُورٌ إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } وقال تعالى: { قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْبُدُكَ اللَّهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } إلى قوله: { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ عِبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ }.

واعلم أن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، من خصائص الربوبية وكانوا إذا دهمتهم الكروب، كإحاطة الأمواج بهم في البحر، في وقت العواصف يخلصون الدعاء لله وحده، لعلمهم أن كشف ذلك من خصائصه فإذا أنجاهم من الكرب رجعوا إلى الإشرار.

وقد بين الله جل وعلا هذا في آيات من كتابه كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبِئَةٍ وَقَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ غَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ لَمَوْجٌ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ }.

وقوله تعالى: { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَنَهَارٍ وَنَجْوَاتِ الْفُلِّ وَمَنْ أَنْجَاكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الدُّنْيَا فَذَكِّرُوا أَنَّهُمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فِي مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ } وقال تعالى: { قُلْ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ لَكُمْ وَيُجَارِيكُمْ فِي النِّجَالِ وَإِنَّكُمْ لَعِندَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحْسَبُونَ } وقال تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا السَّمَاءَ مَاءً مَّوْجًا فَجَاءَتْكُمْ بِهِ سَائِبَاتٌ مِنْ سَائِبَاتٍ وَتَوَلَّوْا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ عُزُوفًا وَقُدُورًا وَإِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمْ لَكَاذِبُونَ } وقال تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا السَّمَاءَ مَاءً مَّوْجًا فَجَاءَتْكُمْ بِهِ سَائِبَاتٌ مِنْ سَائِبَاتٍ وَتَوَلَّوْا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ عُزُوفًا وَقُدُورًا وَإِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمْ لَكَاذِبُونَ } وقال تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا السَّمَاءَ مَاءً مَّوْجًا فَجَاءَتْكُمْ بِهِ سَائِبَاتٌ مِنْ سَائِبَاتٍ وَتَوَلَّوْا بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ عُزُوفًا وَقُدُورًا وَإِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمْ لَكَاذِبُونَ }.

وقوله تعالى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَقَامِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلَآءَ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا }.

وقوله تعالى: { فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ }.

وقوله تعالى: { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ }.

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ } أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه أنه لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فاراً

منه إلى بلاد الحبشة فركب في البحر متوجهاً إلى الحبشة فجاءتهم ريح عاصف.

فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره. اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد صلى الله عليه وسلم فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه. انتهى.

وقد قدمنا هناك أن بعض المتسمين باسم الإسلام أسوأ حالاً من هؤلاء الكفار المذكورين لأنهم في وقت الشدائد يلجؤون لغير الله طالبين منه ما يطلب المؤمنون من الله، وبما ذكر تعلم أن ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكروب والشدائد إلى غير الله جل وعلا كما يفعلون ذلك قرب قبر النبي صلى الله عليه وسلم وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح زاعمين أن ذلك من دين الله ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ومحبة الصالحين كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة الله وحرمة رسوله. لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره ممن يعتقد فيهم الصلاح مستوجب سخط الله وسخط النبي صلى الله عليه وسلم وسخط كل متبع له بالحق.

ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يأمر بذلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبي من الأنبياء، والله جل وعلا يقول: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنِي بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ يَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِمَلَكَةٍ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}.

بل الذي كان يأمر به صلى الله عليه وسلم هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متديناً في زعمه مدعياً حب النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وهو يعظم النبي صلى الله عليه وسلم ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من السماء وأنبت به الحقائق ذات البهجة، وأنه صلى الله عليه وسلم هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة، فإن ذلك العاقل لا يشك في أن ذلك المادح المعظم في زعمه من أعداء الله ورسوله المتعدين لحدود الله.

وقد علمت من الآيات المحكمات أنه لا فرق بين ذلك وبين إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبيين.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل وأن نعظم ربنا بامثال أمره واجتناب نهيه، وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا صلى الله عليه وسلم باتباعه والافتداء به في تعظيم الله والإخلاص له والافتداء به في كل ما جاء به. وألا نخالفه صلى الله عليه وسلم ولا نعصيه، وألا نفعل شيئاً يشعر بعدم التعظيم والاحترام، كرفع الأصوات قرب قبره صلى الله عليه وسلم، وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين ليعملوا بكتاب الله، ويعظموا نبيه صلى الله عليه وسلم تعظيم الموافق لما جاء به صلى الله عليه وسلم ويتركوا ما يسميه الجهلة محبة وتعظيماً وهو في الحقيقة إحتقار وإزدراء وانتهاك لحرمة الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلٍ لِكِتَابٍ مَّنْ يَعْمَلُ سُوًّا يُجْزِي بِهِ وَلَا يَحْدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا تَصِيرُوا مَن يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ قَاوُلِيكَ يَدْخُلُونَ لِحَنَّتِهِ وَلَا يُظْلَمُونَ تَقِيْرًا}.

واعلم أيضاً رحمك الله: أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب، وبين تحصيل المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله، كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير.

فإن التجاء العبد إلى ربه في ذلك أيضاً من خصائص ربوبيته جل وعلا كما قال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} وقال تعالى: {وَالْتَعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَغُيُودَهُ وَشَاكُرُوا لَهُ}. وقال تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَوْرَ}. وقال تعالى: {وَجَعَلَ لِكُمْ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيْبَاتِ} وقال تعالى: {وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث «إذا سألت فاسأل الله».

وقد أثنى الله جل وعلا على نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالتجائهم إليه وقت الكرب يوم بدر في قوله: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}. فنبينا صلى الله عليه وسلم كان هو وأصحابه إذا أصابهم أمر أو كرب التجؤوا إلى الله وأخلصوا له الدعاء. فعلينا أن نتبع ولا نبتدع.

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمل في معنى العبادة، وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يتقرب إليه به من جميع القربات فيخلص تقربه بذلك إلى الله ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان.

والظاهر أن ذلك يشمل هيئات العبادة فلا ينبغي للمسلم عليه صلى الله عليه وسلم أن يضع يده اليمنى على اليسرى كهياة المصلي، لأن هياة الصلاة داخله في جملتها فينبغي أن تكون خالصة لله، كما كان صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ قَاسِقٌ بَنِيًا فَبَيِّبُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنَ وَرَبُّهُ فِي قُلُوبِكُمْ * وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ * فَضَلَّ مَنَ اللَّهُ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِن طَائِفَتَانِ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَقَاتُلَا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا

فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقْتِلُوا لِي تَبْغَى حَتَّى تَفِءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ
فَإِنْ قَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا
لِلْمُؤْمِنِينَ إِجْرَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرِ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً
مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ
بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا جُتِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا
يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *
قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُنَا لَمَّا نُؤْمِنُ وَلَكِن قَوْمًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ
فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ
أَنْتَعَلِمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ يَكُلُّ
شَيْءًا عَلِيمٌ * يَمْشُونَ عَلَيْكَ أُنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما
بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين}. نزلت هذه الآية الكريمة في الوليد
بن عقبة بن أبي معيط، وقد أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني
المصطلق

من خزاعة ليأتيهم بصدقات أموالهم فلما سمعوا به تلقوه فرحاً به، فخاف
منهم وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى نبي صلى الله عليه وسلم وزعم له
أنهم منعوا الصدقة وأرادوا قتله، فقدم وفد منهم إلى النبي صلى الله عليه
وسلم فأخبروه بكذب الوليد فأنزل الله هذه الآية.
وهي تدل على عدم تصديق الفاسق في خبره.

وصرح تعالى في موضع آخر بالنهي عن قبول شهادة الفاسق، وذلك في
قوله: {وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} ولا خلاف بين
العلماء في رد شهادة الفاسق وعدم قبول خبره.

وقد دلت هذه الآية من سورة الحجرات على أمرين:

الأول منهما: أن الفاسق إن جاء نبياً ممكن معرفة حقيقته، وهل ما قاله فيه
الفاسق حق أو كذب فإنه يجب فيه التثبت.

والثاني: هو ما استدل عليه بها أهل الأصول من قبول خبر العدل لأن قوله
تعالى: {إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا} يدل بدليل خطابه، أعني مفهوم
مخالفته أن الجائي نبياً إن كان غير فاسق بل عدلاً لا يلزم التبين في نبئه على
قراءة: فتبينوا. ولا التثبت على قراءة: فتثبتوا، وهو كذلك.

وأما شهادة الفاسق فهي مردودة كما دلت عليه آية النور المذكورة آنفاً.

وقد قدمنا معنى الفسق وأنواعه في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك.

وقوله { أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا } أي لئلا تصيبوا قوماً، أو كراهة أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي لظنكم النبا الذي جاء به الفاسق حقاً فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم للقوم المذكورين نادمين لظهور كذب الفاسق فيما أنبا به عنهم، لأنهم لو لم يتبينوا في نيا الوليد عن بني المصطلق لعاملوهم معاملة المرتدين؟ ولو فعلوا ذلك لندموا.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: فتبينوا بالباء التحتية الموحدة بعدها مثناة تحتية مشددة ثم نون. وقرأه حمزه والكسائي: فتثبتوا بالثاء المثناة بعدها ياء تحتية موحدة مشددة ثم تاء مثناة فوقية. والأول من التبين، والثاني من التثبت.

ومعنى القراءتين واحد، وهو الأمر بالتأني وعدم العجلة حتى تظهر الحقيقة فيما أنبا به الفاسق. قوله تعالى: { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ لِأَلَيْمَنِ وَرَيْبُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ } . وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من أنه هو الذي حب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، جاء موضحاً في آيات كثيرة مصريح فيها بأنه تعالى يهدي من يشاء وبضل من يشاء، كقوله تعالى: { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا } . وقوله تعالى: { وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ } .

وقوله تعالى: { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } .

وقوله تعالى: { وَتَنفَسَ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، نرجو الله الرحيم الكريم أن يهدينا وألا يضلنا. قوله تعالى: { إِنَّمَا لِمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } . هذه الأخوة التي أثبت الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة للمؤمنين بعضهم لبعض هي أخوة الدين لا النسب. وقد بين تعالى أن الأخوة تكون في الدين في قوله تعالى { فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ } .

وقد قدمنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ هَذَا لَفُضْوَانٌ لِيَهْدِي لِئَلَيْهِ هِيَ آفُومٌ } ، أن الأخوة الدينية أعظم وأقوى من الأخوة النسبية، وبيننا أدلة ذلك من الكتاب والسنة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ } . قوله: { لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ } أي لا يستخفوا ولا يستهزؤوا بهم، والعرب تقول: سخر منه بكسر الخاء، يسخر بفتح الخاء على القياس، إذا استهزأ به واستخف. وقد نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن السخرية من الناس، مبيناً أن المسخور منه قد يكون خيراً من الساخر.

ومن أقبح القبيح استخفاف الدنيء الأردل بالأكرم الأفضل، واستهزأؤه به. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي عن السخرية جاء ذم فاعله وعقوبته عند الله في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: { لِّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِّنَ

الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ
اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

وقد بين تعالى أن الكفار المترفين في الدنيا كانوا يسخرون من ضعف
المؤمنين في دار الدنيا، وأن أولئك يسخرون من الكفار يوم القيامة، كما قال
تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِحْيَتُهُمُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} إلى قوله تعالى: {وَالْيَوْمَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ تُؤْتَوْنَ لِكُفَّارٍ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ}.

فلا ينبغي لمن رأى مسلماً في حالة رثة تظهر بها عليه آثار الفقر والضعف أن
يسخر منه لهذه الآيات التي ذكرنا. قوله تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} أي لا
يلمز أحدكم أخاه كما تقدم إيضاحه في سورة بني إسرائيل في الكلام على
قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَقُرْءَانٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

وقد أوعد الله جل وعلا الذين يلمزون الناس في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ
هُمَزَةٍ لَمْرَةٍ}، والهمزة كثير الهمز للناس، واللمزة كثير اللمز.
قال بعض العلماء: الهمز يكون بالفعل كالغمز بالعين احتقاراً وازدراء، واللمز
باللسان، وتدخل فيه الغيبة.

وقد صرح الله تعالى بالنهي عن ذلك في قوله: {وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا} و
نفر عنه غاية التنفير في قوله تعالى: {أَيُّجِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرَهُتُمُوهُ} فيجب على المسلم أن يتباعد كل التباعد من الوقوع في عرض
أخيه. قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى} ذكر جل وعلا
في هذه الآية الكريمة أنه خلق الناس من ذكر وأنثى، ولم يبين هنا كيفية خلقه
للذكر والأنثى المذكورين ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتاب الله.
فبين أنه خلق ذلك الذكر الذي هو آدم من تراب، وقد بين الأطوار التي مر بها
ذلك التراب، كصيرورته طيناً لازباً وحمأ مسنوناً وصلصالاً كالفخار. وبين أنه
خلق تلك الأنثى التي هي حواء من ذلك الذكر الذي هو آدم فقال في سورة
النساء: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
رَوْحَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} وقال تعالى في الأعراف {هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا رِجْلَيْهَا لِيَسْكَنَ إِلَيْهَا} وقال تعالى: في
الزمر {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا رِجْلَيْهَا}.

وقد قدمنا أنه خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة:
الأول منها: خلقه لا من أنثى ولا من ذكر وهو آدم عليه السلام.

والثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى وهو حواء.

والثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة
والسلام.

الرابع: خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر آدميين، وهذا يدل على كمال قدرته
جل وعلا.

مسألة

قد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستنداً إلى وجود الرجل وفرعاً عنه.

وهذا أمر كوني قدرني من الله، أنشأ المرأة في إيجادها الأول عليه. وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به في أرضه، بمراعاة هذا الأمر الكوني القدري في حياة المرأة في جميع النواحي.

فجعل الرجل قائماً عليها وجعلها مستندة إليه في جميع شؤونها كما قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ}.

فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تتحقق لأن الفوارق بين النوعين كوناً وقدرًا أولاً، وشرعاً منزلاً ثانياً، تمنع من ذلك منعاً باتاً.

ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر.

ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر، لتحطيم هذه الفوارق التي لا يمكن أن تتحطم.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء

والمتشبهات من النساء بالرجال».

وقد قدمنا هذا الحديث بسنده في سورة بني إسرائيل، وبيننا هناك أن من لعنه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله، فلو كانت

الفوارق بين الذكر والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها لم يستوجب من أراد ذلك اللعن من الله ورسوله.

ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية القدرية بين الذكر والأنثى، فرق الله جل

وعلا بينهما في الطلاق، فجعله بيد الرجل دون المرأة، وفي الميراث، وفي

نسبة الأولاد إليه.

وفي تعدد الزوجات دون الأزواج: صرح بأن شهادة امرأتين بمنزلة شهادة

رجل واحد في قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ مَرْأَتَانِ}، فالله

الذي خلقهما لا شك أنه أعلم بحقيقتهما، وقد صرح في كتابه بقيام الرجل

مقام امرأتين في الشهادة.

وقد قال تعالى: {الْكُفْرُ أَذْكَرٌ وَلَهُ الْأَنْثَتَانِ إِذَا قِسْمَةٌ صِيرَى} أي غير عادلة

لعدم استواء النصيبين لفضل الذكر على الأنثى.

ولذلك: وقعت امرأة عمران في مشكلة لما ولدت مريم، كما قال تعالى

عنها: {فَلَمَّا وَصَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَعْتُهَا أَنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَعَتْ وَلَيْسَ

الدُّكْرُ كَالْأُنثَىٰ}.

فامرأة عمران تقول: {وَلَيْسَ الدُّكْرُ كَالْأُنثَىٰ}، وهي صادقة في ذلك بلا شك.

والكفرة وأتباعهم يقولون: إن الذكر والأنثى سواء.

ولا شك عند كل عاقل في صدق هذه السالبة وكذب هذه الموجبة.

وقد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا

لِقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} وجه الحكمة في جعل الطلاق بيد الرجل

وتفضيل الذكر على الأنثى في الميراث وتعدد الزوجات، وكون الولد ينسب

إلى الرجل، وذكرنا طرفاً من ذلك في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى {وَلِلرَّجَالِ عَلَيْنَهُنَّ دَرَجَةٌ} وبيننا أن الفوارق الطبيعية بينهما كون الذكورة شرفاً وكمالاً وقوة طبيعية خلقية، وكون الأنوثة بعكس ذلك. وبيننا أن العقلاء جميعاً مطبقون على الاعتراف بذلك، وأن من أوضح الأدلة التي بينها القرآن على ذلك اتفاق العقلاء على أن الأنثى من حين نشأتها تجلى بأنواع الزينة من حلي وحلل، وذلك لجبر النقص الجبلي الخلقى الذي هو الأنوثة كما قال الشاعر: وما الحلي إلا زينة من نقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصراً

وقد بينا أن الله تعالى أوضح هذا بقوله: {أَوَمَنْ يُنثَىٰ فِي لِحْيَةٍ وَهُوَ فِي إِخْصَامٍ غَيْرٍ مُّبِينٍ}، فأنكر على الكفار أنهم مع ادعاء الولد له تعالى جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما خلقة وجبلة وهو الأنثى. ولذلك نشأت في الحلية من صغرها، لتغطية النقص الذي هو الأنوثة وجبره بالزينة، فهو في الخصام غير مبين.

لأن الأنثى لضعفها الخلقى الطبيعي لا تقدر أن تبين في الخصام إبانة الفحول الذكور، إذا اهتضمت وظلمت لضعفها الطبيعي.

وإنكار الله تعالى على الكفار أنهم مع ادعائهم له الولد جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما كثير في القرآن كقوله تعالى: {أَصْطَفَىٰ لِبَنَاتٍ عَلَىٰ لِبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} وقوله: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِبَنِينَ وَاتَّخَذَ لِمَلَائِكَةٍ إِنَّا نَاكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا} وقوله تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. وأما الذكر فإنه لا ينشأ في الحلية، لأن كمال ذكوره وشرفها وقوتها الطبيعية التي لا تحتاج معه إلى التزين بالحلية التي تحتاج إليه الأنثى، لكماله بذكورته ونقصها بأنوثتها.

ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرا المعاشرة البشرية الطبيعية التي لا بقاء للبشر دونها، فإن المرأة تتأثر بذلك تأثراً طبعياً كونياً قدرياً مانعاً لها من مزاولة الأعمال كالحمل والنفاس وما ينشأ عن ذلك من الضعف والمرض والألم.

بخلاف الرجل فإنه لا يتأثر بشيء من ذلك، ومع هذه الفوارق لا يتجرأ على القول بمساواتهما في جميع الميادين إلا مكابر في المحسوس، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من أعمى الله بصيرته.

وقد قدمنا في الموضوعين اللذين أشرنا لهما من هذا الكتاب المبارك ما يكفي المنصف، فأغنى عن إعادته هنا. قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْرِفُوا}. لما كان قوله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ} يدل على استواء الناس في الأصل، لأن أباهم واحد وأمهم واحدة وكان في ذلك أكبر زاجر عن التفاخر بالأنساب وتطاول بعض الناس على بعض، بين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا أي يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه.

وذلك يدل على أن كون بعضهم أفضل من بعض وأكرم منه إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب.

وقد بين الله ذلك هنا بقوله: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ} فاتضح من هذا أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، ولقد صدق من قال: فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وقد ذكروا أن سلمان رضي الله عنه كان يقول: أباي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذه الآيات القرآنية، تدل على أن دين الإسلام سماوي صحيح، لا نظر فيه إلى الألوان ولا إلى العناصر، ولا إلى الجهات، وإنما المعتبر فيه تقوى الله جل وعلا وطاعته، فأكرم الناس وأفضلهم أتقاهم لله، ولا كرم ولا فضل لغير المتقي، ولو كان رفيع النسب.

والشعوب جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ والفخذ يجمع الفصائل.

خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة.

وسميت الشعوب، لأن القبائل تتشعب منها. اهـ. ولم يذكر من هذه الست في القرآن إلا ثلاث الشعوب، والقبائل كما في هذه الآية، والفصيلة في المعارج في قوله: {وَقَصِيلَتِهِ لِيَأْتِي تَأْوِيهِ} وقد قدمنا ما دلت عليه هذه الآيات موضحاً في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفُرْعَانٌ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}.

واعلم أن العرب قد تطلق بعض هذه الست على بعض كإطلاق البطن على القبيلة في قول الشاعر:

وإن كلاباً هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر

كما قدمناه في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}. قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُرُوءًا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الأعراب وهم أهل البادية من العرب قالوا آمنا، وأن الله جل وعلا أمر نبيه أن يقول لهم: {لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُرُوءًا أَسْلَمْنَا}، وهذا يدل على نفي الإيمان عنهم وثبوت الإسلام لهم.

وذلك يستلزم أن الإيمان أخص من الإسلام لأن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم.

وقد قدمنا مراراً أن مسمى الإيمان الشرعي الصحيح، والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل،

فمؤداهما واحد كما يدل له قوله تعالى: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَجَدَّاتٍ فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ}.
وإذا كان ذلك فإنه يحتاج إلى بيان وجه الفرق بين الإيمان والإسلام في هذه الآية الكريمة، لأن الله نفى عنهم الإيمان دون الإسلام، ولذلك وجهان معروفان عند العلماء أظهرهما عندي أن الإيمان المنفى عنهم في هذه الآية هو مسماه الشرعي الصحيح، والإسلام المثبت لهم فيها هو الإسلام اللغوي الذي هو الاستسلام والانقياد بالجوارح دون القلب.
وإنما ساغ إطلاق الحقيقة اللغوية هنا على الإسلام مع أن الحقيقة الشرعية مقدمة على اللغوية على الصحيح، لأن الشرع الكريم جاء باعتبار الظاهر. وأن تواكل كل السرائر إلى الله.
فانقياد الجوارح في الظاهر بالعمل واللسان بالإقرار يكتفي به شرعاً، وإن كان القلب منطوياً على الكفر.
ولهذا ساغ إرادة الحقيقة اللغوية في قوله: {وَلَكِن قَوْلًا أَسْلَمْنَا}، لأن انقياد اللسان والجوارح في الظاهر إسلام لغوي مكتفى به شرعاً عن التنقيب عن القلب.
وكل انقياد واستسلام وإذعان يسمى إسلاماً لغة. ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل العدوي مسلم الجاهلية:
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقلاً
دحاها فلما استوت شدتها جميعاً وأرسي عليها الجبالاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالاً
إذا هي سقيت إلى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالاتاً
وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الريح تصرف حالاً فحالاتاً
فالمراد بالإسلام في هذه الآيات: الاستسلام والانقياد، وإذا حمل الإسلام في قوله: {وَلَكِن قَوْلًا أَسْلَمْنَا} أنقذنا واستسلمنا بالألسنة والجوارح. فلا إشكال في الآية.
وعلى هذا القول فالأعراب المذكورون منافقون، لأنهم مسلمون في الظاهر، وهم كفار في الباطن.
الوجه الثاني: أن المراد بنفي الإيمان في قوله: {لَمْ تُؤْمِنُوا} نفي كمال الإيمان، لا نفيه من أصله.
وعليه فلا إشكال أيضاً، لأنهم مسلمون مع أن إيمانهم غير تام، وهذا لا إشكال فيه عند أهل السنة والجماعة القائلين بأن الإيمان يزيد وينقص.
وإنما استظهرنا الوجه الأول، وهو أن المراد بالإسلام معناه اللغوي دون الشرعي، وأن الأعراب المذكورين كفار في الباطن وإن أسلموا في الظاهر، لأن قوله جل وعلا: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأَيْمَنُ فِي قُلُوبِكُمْ} يدل على ذلك دلالة كما ترى، لأن قوله: {يَدْخُلُ} فعل في سياق النفي وهو من صيغ العموم كما أوضحناه مراراً، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقبي السعود: ونحو لا شربت أو إن شرباً واتفقوا إن مصدر قد جلباً

فقوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْآيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}: في معنى لا دخول للإيمان في قلوبكم.

والذين قالوا بالثاني. قالوا: إن المراد بنفي دخوله نفي كماله، والأول أظهر كما ترى.

وقوله تعالى: في هذه الآية الكريمة: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ}: المراد به بعض الأعراب، وقد استظهرنا أنهم منافقون لدلالة القرآن على ذلك، وهم من جنس الأعراب الذين قال الله فيهم: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ}، وإنما قلنا إن المراد بعض الأعراب في هذه الآية، لأن الله بين في موضع آخر أن منهم من ليس كذلك، وذلك في قوله تعالى {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلُّوا إِلَى الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ}. قوله تعالى: {قُلْ أُنْعَلْمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. لما قال هؤلاء الأعراب: آمنا، وأمر الله نبيه أن يكذبهم في قوله: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} وقوله: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْآيْمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ} أمر نبيه أن يقول لهم بصيغة الإنكار: {أُنْعَلْمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ} وذلك بادعائكم أنكم مؤمنون والله لا يخفى عليه شيء من حالكم، وهو عالم بأنكم لم تؤمنوا وعالم بكل ما في السموات والأرض وعالم بكل شيء.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تقبيح تزكية النفس بالكذب جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمُ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن يُقَى} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نَبَاتَهُمْ يُعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

تم بحمد الله تفسير سورة الحجرات

تفسير سورة ق

ق وَالْقُرْآنِ لَمَجِيدٍ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أءَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٌ * أَقَلِّمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيَتْهَا وَرَبِّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْتَهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَؤُسَى وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَذَكَرْتُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَتَرَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُّهِرًا قَابِئَاتٍ بِهِ جَبَّتْ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَاللَّخْلَ بَسَقَتِ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ

وَعِيدٍ * أَفَعَيْنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَتَحَنُّنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ {
 وقوله تعالى: { وَ لَقُرْءَانَ لَمَجِيدٍ } . المقسم عليه في الآية محذوف،
 والظاهر أنه كالمقسم عليه المحذوف في سورة حر، وقد أوضحناه في الكلام
 عليها. وقوله تعالى هنا: { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ لَكِفِرُونَ
 هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ } . قد قدمنا في سورة حر أن
 من المقسم عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق وأن رسالته حق، كما
 دل عليه قوله في حر: { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ } وقد دل على ذلك
 قوله هنا: { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ }، وقد قدمنا في حر أنه يدخل في
 المقسم عليه تكذيب الكفار في إنكارهم البعث، وبدل عليه قوله هنا: { فَقَالَ
 لَكِفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا }، والحاصل أن المقسم عليه
 في حر، بقوله: { وَ لَقُرْءَانَ ذِي الذِّكْرِ }، وفي بقوله: { وَ لَقُرْءَانَ لَمَجِيدٍ }
 محذوف وهو تكذيب الكفار في إنكارهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم
 وإنكارهم البعث، وإنكارهم كون المعبود واحداً، وقد بينا الآيات الدالة على
 ذلك في سورة حر، وذكرنا هناك أن كون المقسم عليه في سورة وَ هذه
 المحذوف يدخل فيه إنكارهم لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله:
 { بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ } وتكذيبهم في إنكارهم للبعث بدليل قوله:
 { فَقَالَ لَكِفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ } وبيننا وجه إيضاح ذلك بالآيات المذكورة
 هناك وغيرها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: { أَقْلَمٌ يَنْظُرُوا إِلَى
 السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } .
 الهمزة في قوله: { أَقْلَمٌ } تتعلق بمحذوف، والفاء عاطفة عليه، كما قدمنا
 مراراً أنه أظهر الوجهين، وأنه أشار إليه في الخلاصة بقوله: * وحذف متبوع
 بدا هنا استيح *

والتقدير: أعرضوا عن آيات الله فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها
 وزيناها ومالها من فروج. أي ليس فيها من شقوق ولا تصدع ولا تفتقر، وما
 تضمنته هذه الآية الكريمة من تعظيم شأن كيفية بنائه تعالى للسماء وتزيينه
 لها وكونها لا تصدع ولا شقوق فيها جاء كإيضاح في آيات أخر كقوله جل
 وعلا في بنائه للسماء: { أَعَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا فَتَرَى سَمَكَهَا
 فَسَوَّاهَا }، وقوله تعالى: { وَالسَّمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }، وقوله تعالى:
 { وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا سِدَادًا }، وقوله تعالى: { لِيَذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا
 مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ }، وقوله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ
 سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ خَلْقِ غَافِلِينَ }، وقوله تعالى في أول الرعد: { اللَّهُ
 لِيَذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ سَبَّوْهُ عَلَى الْعَرْشِ }، وقوله تعالى
 في لقمان: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } . إلى غير ذلك من الآيات.
 وكقوله تعالى في تزيينه للسماء { وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا
 رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ }، وقوله تعالى: { وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا }،
 وقوله تعالى: { إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكُوكِبِ }، وقوله تعالى: { وَلَقَدْ
 جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ } . وكقوله تعالى في حفظه للسماء
 من أن يكون فيها فروج أي شقوق: { وَوَجِعَ لِبَصَرِ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ }،

والفطور والفروج بمعنى واحد، وهو الشقوق والصدوع. وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ}، أما إذا كان يوم القيامة فإن السماء تتشقق وتتفطر، وتكون فيها الفروج كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِغَمِّمْ}. وقال تعالى: {فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً}. وقال تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ}. وقال تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ وَأُنشِقُوا زَيْتَ لَبَنَها وَجُفَّتْ}، وقال تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ أَنْقَطَرَتْ}، وقال تعالى: {يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِ}. وقال تعالى: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}. قوله تعالى: {وَإِلَّا لَرِضًا مَدَدْتَهَا وَالْقِيَامَةَ فِيهَا رُؤْسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه مد الأرض وألقى فيها الجبال الرواسي وأنبت فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، وهذا الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجَالًا لِيَتَنَبَّهُوا إِلَى آيَاتِهِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، وكقوله: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {كُلُّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي من كل صنف حسن من أصناف النبات، وقوله: {تَبْصِرَةً} أي قدرنا الأرض وألقينا فيها الرواسي وأنبتنا فيها أصناف النبات الحسنة لأجل أن نبصر عبادنا كمال قدرتنا على البعث وعلى كل شيء وعلى استحقاقنا للعبادة دون غيرنا. قوله تعالى: {وَأَخْبَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْمَنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}. قوله: كذلك الخروج، معناه أن الله تبارك وتعالى: يبين أن إحياء الأرض بعد موتها بإنبات النبات فيها يعد انعدامه واضمحلاله، دليل على بعث الناس بعد الموت بعد كونهم تراباً وعظاماً. فقوله: كذلك الخروج يعني أن خروج الناس أحياء من قبورهم بعد الموت كخروج النبات من الأرض بعد عدمه، بجامع استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم، وهذا أحد براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في صدر سورة البقرة وأول النحل وأول الجاثية، وغير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {كُلُّ كَذِّبٍ أَلْرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ}. هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل يحق عليه العذاب، أي يتحتم ويشت في حقه ثبوتاً لا يصح معه تخلفه عنه، وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله يصح أن يخلف وعيده، لأنه قال: إنه لا يخلف وعده ولم يقل إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتَهُ أَوْ وَعَدْتَهُ لِمَخْلَفِ إِعَادِي وَمَنْجَزِ مَوْعِدِي

لا يصح بحال، لأن وعيده تعالى للكفار حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل كما دل عليه قوله هنا: {كُلُّ كَذِّبٍ أَلْرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ}. وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة كقوله: سها فسجد. أي لعله سهوه وسرق فقطعت

يده أي لعله سرقة، ومنه قوله تعالى {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}، فتكذيبهم الرسل علة صحيحة لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخرى، كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ لِقَوْلٍ لَدَيَّ}، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم. وقوله تعالى في سورة حَر {إِنْ كَلَّ إِلَّا كَذَّبَ} {الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٍ}. وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع أخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كباير الذنوب، لأن الله تعالى أوضح ذلك في قوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {قَالَ الْبَنَاتُ مَنَوَاكُمُ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}. قوله تعالى: {أَفَعَيَّبْنَا بِلَحْلَقِ الْوَلَدِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لُبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}. هذه الآية الكريمة من براهين البعث، لأن من لم يعي بخلق الناس ولم يعجز عن إيجادهم الأول لا شك في قدرته على إعادتهم وخلقهم مرة أخرى، لأن الإعادة لا يمكن أن تكون أصعب من البدء. والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ لِحَلْقِ تَمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}. وقوله تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} وقوله: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد أوضحنا الآيات الدالة على براهين البعث التي يكثر الاستدلال عليه بها في القرآن، كخلق الناس أولاً، وخلق السماوات والأرض وما فيهما وإحياء الأرض بعد موتها، وغير ذلك في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك، في البقرة والنحل والحج والجمعة وغير ذلك، وأحلنا على ذلك مراراً كثيرة. قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَتَعَلَّمَ مَا تُوسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ تَبَاتَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}.

{إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَيْشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لِيَوْمٍ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِيبُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَتَّعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِيبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ لِقَوْلٍ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ * وَأَزَلَّتْ رَجْمَتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا نُوعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَن حَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * رُحِلُوهَا بِسَلْمٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}

قوله تعالى: {إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَن لِّمِينٍ وَعَن الشَّامِلِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}. قوله إذ: منصوب بقوله: أقرب، أي نحن أقرب إليه من حبل الوريد في الوقت الذي يتلقى فيه الملكان جميع ما يصدر منه، والمراد أن الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، في وقت كتابة الحفظة أعماله لا حاجة له لكتب الأعمال، لأنه عالم بها لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أمر بكتابة الحفظة للأعمال لحكم أخرى كإقامة الحجة على العبد يوم القيامة، كما أوضحه بقوله: {وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا فَرَأَى كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا}، ومفعول التلقي في الفعل الذي هو يتلقى، والوصف الذي هو المتلقيان محذوف تقديره، إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه.

قال الزمخشري: والتلقي التلقن بالحفظ والكتابة اهـ منه، والمعنى واضح لأن الملك يتلقى عمل الإنسان عند صدوره منه فيكتبه عليه، والمتلقيان هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان، وقد دلت الآية الكريمة على أن مقعد أحدهما عن يمينه ومقعد الآخر عن شماله. والقعيد: قال بعضهم: معناه القاعد، والأظهر أن معناه المقاعد، وقد يكثر في العربية إطلاق الفعل وإرادة المفاعل، كالجلس بمعنى المجالس، والأكيل بمعنى المآكل، والنديم بمعنى المنادم، وقال بعضهم: القعيد هنا هو الملازم، وكل ملازم دائماً أو غالباً يقال له قعيد، ومنه قول متمم بن نويرة التميمي: قعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئي قرح الفؤاد فيجعا

والمعنى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهو أسلوب عربي معروف، وأنشد له سيبويه في كتابه قول عمرو بن أحمر الباهلي:

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطوى رمان

وقول قيس بن الخطيم الأنصاري:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

وقول ضبائي بن الحارث البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

فقول ابن أحمر: كنت منه ووالدي بريئاً أي كنت بريئاً منه وكان والدي بريئاً منه.

وقول ابن الخطيم: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض: أي نحن راضون وأنت راض.

وقول ضبائي بن الحارث: فإني وقيار بها لغريب: يعني إني لغريب وقيار غريب، وهذا أسلوب عربي معروف، ودعوى أن قوله في الآية: {قَعِيدٌ} هي

الأولى أخرجت وحذفت الثانية لدلالاتها عليها لا دليل عليه، ولا حاجة إليه كما ترى، لأن المحذوف إذا صحت الدلالة عليه بالأخير فلا حاجة إلى أن هذا الأخير أصله هو الأول، ولا دليل عليه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ} أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا لديه، أي إلا والحال أن عنده رقيباً. أي ملكاً مراقباً لأعماله حافظاً لها شاهداً عليها لا يفوته منها شيء. عتيد: أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإنسان عليه حفظة من الملائكة يكتبون أعماله، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله. كقوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَتَبَتْ عَلَيْهِمْ مَا تَفْعَلُونَ}. وقوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}. وقوله تعالى: {وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا لِيَوْمٍ تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا لِيَوْمٍ تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ}.

وفي سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {سَتَكُنُّبُ سَهْدُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}، وقد ذكر جماعة من أهل العلم أن القعيد الذي هو عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات، وأن صاحب الحسنات أمين على صاحب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشراً، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: أمهله ولا تكتبها عليه لعله يتوب أو يستغفر؟ وبعضهم يقول: يمهله سبع ساعات. والعلم عند الله تعالى. تنبيه

اعلم أن العلماء اختلفوا في عمل العبد الجائر الذي لا ثواب ولا عقاب عليه، هل تكتبه الحفظة عليه أولاً؟ فقال بعضهم: يكتب عليه كل شيء حتى الأنين في المرض، وهذا هو ظاهر قوله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}. لأن قوله: من قول نكرة في سياق النفي زيدت قبلها لفظة من، فهي نص صريح في العموم.

وقال بعض العلماء: لا يكتب من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وكلهم مجمعون على أنه لا جزاء إلا فيما فيه ثواب أو عقاب فالذين يقولون: لا يكتب إلا ما فيه ثواب أو عقاب، والذين يقولون يكتب الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحي. وزعم بعضهم أن محو ذلك، وإثبات ما فيه ثواب أو عقاب هو معنى قوله تعالى: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ}. والذين قالوا: لا يكتب ما لا جزاء فيه. قالوا: إن في الآية نعتاً محذوفاً سوغ حذفه العلم به، لأن كل الناس يعلمون أن الجائر لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف، ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء، وقد قدمنا أن حذف النعت إذا دل عليه أسلوب عربي معروف، وقدما أن منه قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ عَصَبًا} أي كل سفينة صحيحة لا عيب فيها بدليل قوله {فَارَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا} وقوله تعالى: {تَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمٍ لِقِيَمَةٍ}: أي قرية ظالمة بدليل قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي لِقَرَىٰ إِلَّا

وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}، وأن من شواهدة قول المرقش الأكبر: ورب أسيلة الخدين
بكر مهفهفة لها فرع وجيد

أي لها فرع فاحم وجيد طويل. وقول عبيد بن الأبرص: من قوله قول ومن
فعله فعل ومن نائله نائل

أي قول فصل، وفعل جميل، ونائل جزل، قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي عَفْلَةٍ
مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ لِيَوْمٍ حَدِيدٍ}. قد قدمنا الآيات
الموضحة له في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {بَلِ لَّارِكَ عِلْمُهُمْ
فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ}. قوله تعالى: {يَوْمَ تَقُولُ
لِجَهَنَّمَ هَلِ مِثْلَاتٍ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ}. قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير
نافع وشعبة عن عاصم {يَوْمَ تَقُولُ} بالنون الدالة على العظمة. وقرأه نافع
وشعبة {يَوْمَ يَقُولُ} بالياء، وعلى قراءتهما فالفاعل ضمير يعود إلى الله،
واعلم أن الاستفهام في قوله {هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ} فيه للعلماء قولان معروفان.
الأول: أن الاستفهام إنكاري كقوله تعالى: {هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا لِقَوْمٍ أَلْظَلِمُونَ}
أي ما يهلك إلا القوم الظالمون، وعلى هذا، فمعنى {هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ} لا محل
للزيادة لشدة امتلاء النار، وإستدل بعضهم لهذا الوجه بآيات من كتاب الله
كقوله تعالى: {وَلَا يَكُنْ حَقًّا لِّقَوْلِي مَنِي} وقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} قال: فالحق والحق أقول لأملأن
جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في
سورة س، في الكلام على قوله تعالى: {لَقَدْ حَقَّ لِقَوْلِي عَلَى أَكْثَرِهِمْ}، لأن
إقسامه تعالى في هذه الآية المدلول عليه بلام التوطئة في لأملأن على أنه
يملاً جهنم من الجنة والناس، دليل على أنها لا بد أن تمتلىء، ولذا قالوا: إن
معنى هل من مزيد، لا مزيد، لأنني قد امتلأت فليس في محل للمزيد، وأما
القول الآخر، فهو أن المراد بالاستفهام في قول النار: هل من مزيد؟ هو
طلبها للزيادة، وأنها لا تزال كذلك حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي
بعضها إلى بعض وتقول: قط قط أي كفاني قد امتلأت، وهذا الأخير هو الأصح،
ولما ثبت في الصحيحين، وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «أن جهنم
لا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى
بعض وتقول قط قط»، لأن في هذا الحديث المتفق عليه التصريح بقولها قط
قط، أي كفاني قد امتلأت، وأن قولها قبل ذلك هل من مزيد لطلب الزيادة،
وهذا الحديث الصحيح من أحاديث الصفات، وقد قدمنا الكلام عليها مستوفى
في سورة الأعراف والقتال. واعلم أن قول النار في هذه الآية: هل من مزيد،
قول حقيقي ينطقها الله به، فزعم بعض أهل العلم أنه كقول الحوض:
امتلاً الحوض فقال قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

وأن المراد بقولها ذلك هو ما يفهم من حالها خلاف التحقيق وقد أوضحنا ذلك
بأدلتها في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ
بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى:

{ وَأَزْلَقَتْ لُجْنَتَهُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ }. قوله: أزلفت أي قربت. وقوله غير بعيد: فيه معنى التوكيد لقوله: أزلفت سواء أعربت غير بعيد بأنها حال أو ظرف، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إزلاف الجنة للمتقين جاء في مواضع آخر من كتاب الله كقوله تعالى: { وَإِذَا لَجَجِمُ سُعِّرُوا إِذَا لُجْنَتُهُ أُزْلِقَتْ }، وقوله تعالى: { وَأَزْلَقَتْ لُجْنَتَهُ لِلْمُتَّقِينَ بَرَزَتْ لَجَجِيمٌ لِلْعَاوِينَ }.

قال البغوي رحمه الله في تفسير هذه الآية: غير بعيد ينظرون إليها قبل أن يدخلوها. قوله تعالى: { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }. قوله: { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا } قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ }.

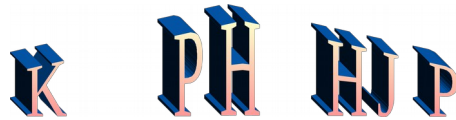
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: { وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ }. قال بعض العلماء: المزيد النظر إلى وجه الله الكريم، ويستانس لذلك بقوله تعالى: { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ }، لأن الحسنى الجنة، والزيادة النظر، والعلم عند الله تعالى.

{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي بِلْدٍ هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * }
 { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * }
 { وَطِيرَ عَلَيْنَا مَن لُّغُوبٍ * }
 { وَمِن لَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ * }
 { وَبِتَمِيمِ يَوْمِ تَبَادُرُ ثِيَابٍ لِّمُنَادٍ مِّن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * }
 { يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمٌ لِّخُرُوجِ * }
 { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَمَصِيرُ * }
 { يَوْمَ تَشْفَقُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ * }
 { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَيَعْبُدُ }

قوله تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى { فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَصَىٰ مَثَلِ الْأَوَّلِينَ }. قوله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ }. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } وبيننا هناك أن الله أوضح ذلك في فصلت في قوله تعالى: { قُلْ أَتُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ - { فَقَصَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ }. وأوضحنا ذلك في سورة فصلت

واللغوب: التعب والإعياء من العمل. قوله تعالى: { وَطِيرَ عَلَيْنَا مَن لُّغُوبٍ }
 { وَسَبَّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ }. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أمره تعالى لنبه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله الكفار والتسبيح بحمده جل وعلا أطراف النهار، قد ذكره الله في غير هذا الموضع كقوله تعالى في أخريات طه: { وَطِيرَ عَلَيْنَا مَن لُّغُوبٍ }
 { وَسَبَّحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ لَيْلٍ فَسَبَّحْ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ }، وأمره له بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر بالمأمور به، والصلاة داخلة في التسبيح المذكور كما قدمنا إيضاح ذلك، وذكرنا فيه حديث نعيم بن همار في آخر الحجر في الكلام على قوله تعالى: { وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنتَ لَوْلَا صَدْرُكَ بِمَا

يَقُولُونَ تَسْبَحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ}، وبيننا هنالك أن الله أمر بالاستعانة بالصبر وبالصلاة كما قال تعالى: {وَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}. قوله تعالى: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمٌ لِّخُرُوجٍ}.
 قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة سِرِّ في الكلام على قوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}. قوله تعالى: {يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنَّهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}. قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: تشقق بتشديد الشين بإدغام إحدى التاءين فيها، وقرأ الباقون بتخفيف الشين لحذف إحدى التاءين، وقوله تعالى: {سِرَاعًا}: جمع سريع، وهو حال من الضمير المجرور في قوله: {عَنْهُمْ} أي تشقق الأرض عنهم في حال كونهم مسرعين إلى الداعي وهو الملك الذي ينفخ في الصور، ويدعو الناس إلى الحساب والجزاء، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الناس يوم البعث يخرجون من قبورهم مسرعين إلى المحشر قاصدين نحو الداعي، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفِصُونَ}، وقوله تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}. وقوله: {يَنسِلُونَ} أي يسرعون، وقوله تعالى: {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرَةٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}، فقوله {مُهْطِعِينَ}: أي مسرعين مادي أعناقهم على الأصح، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة سِرِّ في الكلام على قوله: {وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ}، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة يونس في الكلام على قوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}. قوله تعالى: {فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِيدٌ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}.
 تم بحمد الله تفسير سورة ق



{وَالذَّرِيَّتِ دَرُوءًا * وَالْحَمِلَتِ وَقْرًا * وَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا * وَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا *
 إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَدِيقٍ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَن أُوْفِكَ * قَتِلَ لِحَرْصُونَ * لِيَذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُّحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّن لَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *
 وَبِالْأَسْحْرِ هُمْ يَسْتَعْجِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}
 قوله تعالى: {وَالذَّرِيَّتِ دَرُوءًا وَالْحَمِلَتِ وَقْرًا وَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا وَالْمُقَسَّمَتِ أَمْرًا} أمرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَدِيقٍ}، أكثر أهل العلم، على أن المراد

بالذاريات الرياح. وهو الحق إن شاء الله، ويدل عليه أن الذرو صفة مشهورة من صفات الرياح.
ومنه قوله تعالى {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ [الرِّيحُ]}، ومعنى تذروه: ترفعه وتفرقه، فهي تذرو التراب والمطر وغيرهما، ومنه قول ذي الرمة: ومنهل أجن قفر محاضره تذرو الرياح على جماته البعرا

ولا يخفى سقوط قول من قال: إن الذاريات النساء.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {وَلَحِمَلَتْ وَقُرًا} أكثر أهل العلم على أن المراد بالحاملات وقرأ: السحاب. أي المزن تحمل وقرأ ثقلاً من الماء. ويدل لهذا القول تصريح الله جل وعلا بوصف السحاب بالثقال، وهو جمع ثقيلة، وذلك لثقل السحابة بوقر الماء الذي تحمله كقوله تعالى: {وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}، وهو جمع سحابة ثقيلة، وقوله تعالى {حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ}.
وقال بعضهم: المراد بالحاملات وقرأ: السفن تحمل الأثقال من الناس وأمتعتهم، ولو قال قائل: إن الحاملات وقرأ الرياح أيضاً كان وجهه ظاهراً. ودلالة بعض الآيات عليه واضحة، لأن الله تعالى صرح بأن الرياح تحمل السحاب الثقال بالماء، وإذا كانت الرياح هي التي تحمل السحاب إلى حيث شاء الله، فنسبة حمل ذلك الوقر إليها أظهر من نسبته إلى السحاب التي هي محمولة للرياح، وذلك في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرَىٰ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ}.
فقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا}: أي حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً، فالإقلال الحمل، وهو مسند إلى الريح. ودلالة هذا على أن الحاملات وقرأ هي الرياح ظاهرة كما ترى، ويصح شمول الآية لجميع ذلك. وقد قدمنا مراراً أنه هو الأجود في مثل ذلك، وبيننا كلام أهل الأصول فيه، وكلامهم في حمل المشترك على معنیه أو معانيه، في أول سورة النور وغيرها.

والقول بأن الحاملات وقرأ: هي حوامل الأجنة من الإناث، ظاهر السقوط، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَلَجَرِيَّتٍ يُسْرًا} أكثر أهل العلم على أن المراد بالجاريات يسراً: السفن تجري في البحر يسراً أي جرياً ذا يسر أي سهولة.

والأظهر أن هذا المصدر المنكر حال كما قدمنا نحوه مراراً: أي فالجاريات في حال كونها ميسرة مسخراً لها البحر، ويدل لهذا القول كثرة إطلاق الوصف بالجري على السفن كقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ لَجَوَارٍ فِي بَيْتِهِ}، وقوله: {إِنَّا لَمَّا طَغَا لَمَاءٌ حَمَلْنَاكُمْ فِي لِحَابَةٍ}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ تَجَرَّيْنَا فِي لِبْحَرٍ بِأَمْرِهِ} وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِنَجْرِي لِقَلِكُمْ فِيهِ بِأَمْرِهِ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل الجاريات الرياح. وقيل غير ذلك.
وقوله تعالى: {وَلَمُقَسَّمَاتٍ أَمْرًا}: هي الملائكة يرسلها الله في شؤون وأمور مختلفة، ولذا عبر عنها بالمقسمات، ويدل لهذا قوله تعالى:

{ فَوَلَّمَدَّبَّرَتْ أَمْرًا }، فمنهم من يرسل لتسخير المطر والريح، ومنهم من يرسل لكتابة الأعمال، ومنهم من يرسل لقبض الأرواح، ومنهم من يرسل لإهلاك الأمم، كما وقع لقوم صالح. والتحقيق أن قوله: أمرًا مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع.

وقد أوضحنا أمثلة ذلك في القرآن العظيم، وفي كلام العرب مع تنكير المفرد كما هنا، وتعريفه وإضافته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}، والمقسم عليه بهذه الأقسام هو قوله: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَدِيقُونَ} الذين لواقع، والموجب لهذا التوكيد هو شدة إنكار الكفار للبعث والجزاء.

وقوله: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ} ما، فيه موصولة والعائد إلى الصلة محذوف، والوصف بمعنى المصدر أي إن الذي توعدونه من الجزاء والحساب لصدق لا كذب فيه.

وقال بعض العلماء: ما، مصدرية، أي إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق.

وقال بعضهم: إن صيغة اسم الفاعل في لصادق بمعنى اسم المفعول. أي إن الوعد أو الموعود به لمصدق فيه لا مكذوب به، ونظير ذلك قوله تعالى: {فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ} أي مرضية. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من صدق ما يوعدونه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}. وقوله: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ}. وقوله تعالى: {لَيْسَ لَوْفِعَتِهَا كَاذِبَةٌ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

والمراد بالدين هنا الجزاء، أي وإن الجزاء يوم القيامة لواقع لا محالة كما قال تعالى {يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ لِحَقِّ} أي جزاءهم بالعدل والإنصاف، وكقوله تعالى: {وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرْتَمَىٰ جَزَاءَهُ لِحَزَاءِ الْأَوْقَى}. وقد نزه الله نفسه عن كونه خلق الخلق لا لبعث وجزاء، وبين أن ذلك ظن الكفار، وهددهم على ذلك الظن السيء بالويل من النار، قال تعالى منكراً على من ظن عدم البعث والجزاء، ومنزهاً نفسه عن أنه خلقهم عبثاً لا لبعث وجزاء: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ لَمَلِكٌ لِحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ عَرْشِ الْكَرِيمِ}.

وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}، في قوله في آية في حر هذه: بطلاً أي عبثاً لا لبعث وجزاء. قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكَاتِ} لفي قول مُحْتَلِفِيؤُوكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكَ}. قوله تعالى: {ذَاتِ الْحُبُكِ} فيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً، فذهب بعض أهل العلم، إلى أن الحبك جمع حبيكة أو حباك، وعليه فالمعنى ذات الحبك أي ذات الطرائق، فما يبدو على سطح الماء الساكن أو الرمل من الطرائق إذا ضربته الريح هو الحبك، وهو جمع حبيكة أو حباك، قالوا: ولبعد السماء لا ترى طرائقها المعبر عنها بالحبك، ومن هذا المعنى قول زهير:

مككل بأصول النجم تنسجه ريح خريق بضاحي مائة حبك

وقول الراجز: كأنما جللها الحواك طنفسه في وشيها حباك

وممن نقل عنه هذا القول الكلبي والضحاك.

وقال بعض أهل العلم: ذات الحبك أي ذات الخلق الحسن المحكم، وممن قال به ابن عباس وعكرمة وقتادة.

وهذا الوجه يدل عليه قوله تعالى: { لِذِي خَلْقٍ سَعَى سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ وَرَاجِعٍ لِّبَصَرٍ هَل تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ } إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول فالحبك مصدر، لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، تقول فيه العرب: حبكه حبكا بالفتح على القياس. والحبك بضمين بمعناه. وقال بعض العلماء: ذات الحبك: أي الزينة.

وممن روي عنه هذا سعيد بن جبير والحسن، وعلى هذا القول، فالآية كقوله: { وَلَقَدْ رَبَّنَا السَّمَاءَ الَّتِي بَمَصْبِيحٍ }، وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في وَ في الكلام على قوله: { أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا }.

وقال بعض العلماء: ذات الحبك أي ذات الشدة، وهذا القول يدل له قوله تعالى: { وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا }.

والعرب تسمى شدة الخلق حبكا، ومنه قيل للفرس الشديد الخلق: محبوبك. ومنه قول امرئ القيس.

قد غدا يحملني في أنفه لاحق الأطلين محبوبك ممر

والآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق والمقسم عليه في هذه الآية هو قوله تعالى { إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ } أي إنكم أيها الكفار لفي قول مختلف في شأن النبي صلى الله عليه وسلم وشأن القرآن، لأن بعضهم يقول: هو شعر، وبعضهم يقول: سحر، وبعضهم يقول: كهانة، وبعضهم يقول: أساطير الأولين، وقول من قال في قول مختلف أي لأن بعضهم مصدق، وبعضهم مكذب خلاف التحقيق.

ويدل على أن الاختلاف إنما هو بين المكذبين دون المصدقين. قوله تعالى في { بَلْ كَذَّبُوا بِلِحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ بِأَمْرٍ مَّريحٍ } أي مختلط. وقال بعضهم: مختلف، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: { يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنَ أَفَكَ } أظهر الأقوال فيه عندي ولا ينبغي العدول عنه في نظري، أن لفظة عن في الآية سببية كقوله تعالى: { وَمَا تَخُنُّ بِتَارِكِ ءَالِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ } أي بسبب قولك، ومن أجله، والضمير المجرور بعن راجع إلى القول المختلف، والمعنى يؤفك أي يصرف عن الإيمان بالله ورسوله عنه، أي عن ذلك القول المختلف أي بسببه من أفك أي من سبقت له الشقاوة في الأزل، فحرم الهدى وأفك عنه، لأن هذا القول المختلف يكذب بعضه بعضا ويناقضه.

ومن أوضح الأدلة على كذب القول وبطلانه اختلافه وتناقضه كما لا يخفى، فهذا القول المختلف الذي يحاول كفار مكة أن يصدوا به الناس عن الإسلام، الذي يقول فيه بعضهم: إن الرسول ساحر، وبعضهم يقول شاعر، وبعضهم يقول: كذاب. ظاهر البطلان لتناقضه وتكذيب بعضه لبعض، فلا يصرف عن الإسلام بسببه إلا من صرف، أي صرفه الله عن الحق لشقاوته في الأزل فمن لم يكتب عليه في سابق علم الله الشقاوة والكفر لا يصرفه عن الحق قول ظاهر الكذب والبطلان لتناقضه.

وهذا المعنى جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفِتْنَيْنِ أَلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ لِحَجِيمٍ}. ومعنى هذه الآية أن دين الكفار، الذي هو الشرك بالله وعبادة الأوثان، مع حرصهم على صد الناس عن دين الإسلام إليه ما هم بفاتنين، أي ليسوا بمضلين عليه أحداً لظهور فساده وبطلانه إلا من هو صال الحجيم، أي إلا من قدر الله عليه الشقاوة وأنه من أهل النار في سابق علمه، هذا هو الظاهر لنا في معنى هذه الآية الكريمة.

وأكثر المفسرين على أن الضمير في قوله: {يُؤْفَكُ عَنْهُ} راجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو القرآن، أي يصرف عن الإيمان بالنبي أو القرآن، من أفك أي صرف عن الحق، وحرمة الهدى لشدة ظهور الحق في صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن منزل من الله، وهذا خلاف ظاهر السياق كما ترى.

وقول من قال: يؤفك عنه. أي يصرف عن القول المختلف الباطل من أفك، أي من صرف عن الباطل إلى الحق لا يخفى بعده وسقوطه. والذين قالوا: هذا القول يزعمون أن الإفك يطلق على الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الباطل إلى الحق، ويبعد هذا أن القرآن لم يرد فيه الإفك مراد به إلا الصرف عن الخير إلى الشر دون عكسه. قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}. لا يخفى على من عنده علم بأصول الفقه أن هذه الآية الكريمة فيها الدلالة المعروفة عند أهل الأصول بدلالة الإيماء والتنبيه على أن سبب نيل هذه الجنات والعيون هو تقوى الله والسبب الشرعي هو العلة الشرعية على الأصح، وكون التقوى سبب دخول الجنات الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: {تِلْكَ لَجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا} وقد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ}

{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَقْلًا يُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * قَوْرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ صِفِ إبْرَاهِيمَ لِمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلِمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ مُرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ لِحَكِيمٍ لَعَلِمٌ * قَالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا لِمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى

قَوْمٌ مُّجْرِمِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ
مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ وَعَذَابَ الْآلِيمِ * وَفِي مُوسَى
إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ
* فَأَخَذْتُهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ
قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنَ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ
يَنْظُرُونَ * فَمَا سَلِطْنَا عَلَيْهِمُ مِنَ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمِ نُوحٍ مِّن قَبْلُ
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَا يَافِيَ وَيَأَيُّهَا لَمُوسَىٰ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ لِمَهْدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَوْحِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *
فَفُؤُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ
لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ * فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَمُ
وَذَكَرَ فَإِنَّ الدَّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ لِجَنَّةٍ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ {
قوله تعالى: { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَانفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } . قد
قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الجاثية. قوله تعالى: { وَفِي السَّمَاءِ
رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ } . اختلف العلماء في المراد بكون رزق الناس في
السماء، فذهبت جماعة من أهل العلم، أن المراد أن جميع أرزاقهم منشؤها
من المطر وهو نازل من السماء، ويكثر في القرآن إطلاق اسم الرزق على
المطر، لهذا المعنى كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ
السَّمَاءِ رِزْقًا } .

وقوله تعالى: { وَخُتِلَفَ لَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَتَزَلَّ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَن رَّزَقٍ } .
وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة المؤمن .
وإنزاله تعالى الرزق من السماء بإنزال المطر من أعظم آياته الدالة على
عظمته وأنه المعبود وحده، ومن أعظم نعمه على خلقه في الدنيا، ولذلك كثر
الامتنان به في القرآن على الخلق .

وقال بعض أهل العلم: معنى قوله: { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ } أن أرزاقكم
مقدرة مكتوبة، والله جل وعلا يدبر أمر الأرض من السماء، كما قال تعالى:
{ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ } : قوله تعالى: { وَمَا
تُوعَدُونَ } ، ما، في محل رفع عطف على قوله: { رِزْقُكُمْ } ، والمراد بما
يُوعَدُونَ، قال بعض أهل العلم: الجنة، لأن الجنة فوق السماوات، فأطلاق
كونها في السماء إطلاق عربي صحيح، لأن العرب تطلق السماء على كل ما
علا كما قيل:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

ولما حكى النابغة الجعدي شعره المشهور، قال فيه: بلغنا السماء مجدنا
وسناؤنا وإنما لندرجو فوق ذلك مظهرًا

قال له صلى الله عليه وسلم «إلى أين يا أبي ليلى: قال: إلى الجنة، قال: نعم إن شاء الله».

وقال بعض أهل العلم: وما توعدون من الخير والشر كله مقدر في السماء، كما بيناه في القول الثاني في المراد بالرزق في الآية، وهذا المعنى فيما يوعدون به أنسب لهذا القول الثاني في معنى الرزق.

وقد وردت قصص تدل على أنه هو الذي يتبادر إلى ذهن السامع، فمن ذلك ما ذكره غير واحد عن سفيان الثوري أنه قال: قرأ واصل الأحدب هذه الآية {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض، فدخل خربة يمكث ثلاثاً لا يصيب شيئاً، فلما أن كان في اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب، وكان له أخ أحسن منه نية، فدخل معه فصارتا دوختين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت.

ومن ذلك أيضاً: ما ذكره الزمخشري في تفسير هذه الآية قال: وعن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع. قال: من أين قبلت؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال: اتل علي فتلوت: والذاريات فلما بلغت قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} قال: حسبك فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل أصغر فسلم علي واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت {قَوْرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مَثَلٍ مَّا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ} فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى الجؤوه إلى اليمين، قائلاً ثلاثاً، وخرجت معها نفسه. انتهى. قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ بَرَاهِيمَ لِمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا}. إلى آخر القصة. قد قدمنا إيضاحه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {وَبَنِيهِمْ عَن صَيْفِ بَرَاهِيمَ}.

وفي سورة هود في القصة المذكورة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ لَعْدَابَ الْآلِيمِ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَأَنَّهَا لَيَسْبِيلٌ مُّقِيمٌ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحاً صَرْصَراً}: قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ وَاسْتَجَبُوا لِعَمَلِي عَلَى الْهُدَى فَأَخَذْتَهُمُ صَاعِقَةً لَعْدَابَ لُحُونَ}. قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة ق في الكلام على قوله تعالى: {أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا}.

تنبيه

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة {بَيَّنَّهَا بِأَيْدٍ}، ليس من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم، لأن قوله {بِأَيْدٍ} ليس جمع يد: وإنما الأيد القوة، فوزن قوله هنا بأيد فعل، ووزن الأيدي أفعَل، فالهمزة في قوله: {بِأَيْدٍ} في مكان الفاء والياء في مكان العين، والدال في مكان اللام. ولو كان قوله تعالى: {بِأَيْدٍ} جمع يد لكان وزنه أفعلاً، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والدال في مكان العين والياء المحذوفة لكونه منقوصاً هي اللام. والأيد، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، ورجل أيد قوي، ومنه قوله تعالى {وَأَيَّدْتُهُ بِرُوحٍ يُقْدُسُ} أي قويناه به، فمن ظن أنها جمع يد في هذه الآية فقد غلط فاحشاً، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة. قوله تعالى: {كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما أتى نبي قومًا إلا قالوا ساحر أو مجنون، ثم قال: {أَتَوَاصَوْا بِهِ}، ثم أضرب عن توأصيتهم بذلك إضراب إبطال، لأنهم لم يجمعوا في زمن حتى يتواصوا فقال: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ} أي الموجب الذي جمعهم على اتفاقهم جميعاً على تكذيب الرسل ونسبتهم للسحر والجنون، واتحاد في الطغيان الذي هو مجاوزة الحد في الكفر.

وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا لأن قلوب بعضهم تشبه قلوب بعض في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسول لأجل تشابه قلوبهم. وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة البقرة: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}. قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ}. نفيه جل وعلا في هذه الآية الكريمة للوم عن نبيه صلى الله عليه وسلم، يدل على أنه أدى الأمانة ونصح للأمة.

وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع كقوله تعالى {لِيَوْمٍ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}. وقوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ لُبُغٌ وَعَلَيْنَا لِحِسَابٌ}، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة معلومة. قوله تعالى: {وَدَكَّرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يجعل الله شيئاً لحكم متعددة، فيذكر بعض حكمه في بعض المواضع، فإننا نذكر بقية حكمه، والآيات الدالة عليها، وقد قدمنا أمثلة ذلك. ومن ذلك القبيل هذه الآية الكريمة، فإنها تضمنت واحدة من حكم التذكير وهي رجاء انتفاع المذكر به، لأن تعالى قال هنا: {وَدَكَّرْ}، ورتب عليه قوله: {فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}.

ومن حكم ذلك أيضاً خروج المذكر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد جمع الله هاتين الحكمتين في قوله {قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}.

ومن حكم ذلك أيضاً النيابة عن الرسل في إقامة حجة الله على خلقه في أرضه لأن الله تعالى يقول {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}.

وقد بين هذه الحجة في آخر طه في قوله {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَّبِعَ آيَاتِكَ}. وأشار لها في القصص في قوله {وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}. وقد قدمنا هذه الحكم في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى {عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّن ضَلَّ إِذَا هْتَدَيْتُمْ}. قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ لِجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}. اختلف العلماء في معنى قوله {لِيَعْبُدُونِ}، فقال بعضهم المعنى ما خلقتهم إلا ليعبدني السعداء منهم وبعضهم الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم كما يدل عليه قوله تعالى: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ}، وهذا القول نقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان.

وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق فيها المجموع وأراد بعضهم. وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، ومن أوضحها قراءة حمزة والكسائي: فإن قتلوكم فاقتلوهم، من القتل لا من القتال، وقد بينا هذا في مواضع متعددة، وذكرنا أن من شواهد العربية قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا من يدِّي ورقاء عن رأس خالد

فتراه نسب الضرب لبني عبس مع تصريحه أن الضارب الذي نبا بيده السيف عن رأس خالد يعني ابن جعفر الكلابي، هو ورقاء يعني ابن زهير العبسي. وقد قدمنا في الحجرات أن من ذلك قوله تعالى {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا} بدليل قوله: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُّؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} - إلى قوله - {سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. وقال بعض العلماء: معنى قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: أي «إلا ليقروا لي بالعبودية طوعاً أو كرهاً»، لأن المؤمن يطيع باختياره والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه، وهذا القول رواه ابن جرير عن ابن عباس واختاره، ويدل له قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا}، والسجود والعبادة كلاهما خضوع وتذلل لله جل وعلا، وقد دلت الآية على أن بعضهم يفعل ذلك طوعاً وبعضهم يفعله كرهاً.

وعن مجاهد أنه قال: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: أي إلا ليعرفوني. واستدل بعضهم لهذا القول بقوله: {وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ} ونحو ذلك من الآيات. وهو كثير في القرآن، وقد أوضحنا كثيره فيه في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى {إِنَّ هَذَا لِقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}. وقال بعض أهل العلم: وهو مروى عن مجاهد أيضاً معنى قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: أي إلا لأمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى هذا القول: فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: {لِيَعْبُدُونِ} إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبده

جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى { قُلْ يَا أَيُّهَا
 الْكَافِرُونَ مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا أَنْتُمْ عَٰبُدُونَ مَا أُعْبُدُ } إلى آخر السورة.
 قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية
 الكريمة {إِلَّا لِيَعْبُدُونَ}، أي إلا لأميرهم بعبادتي وأتيلهم أي اختبرهم بالتكاليف
 ثم أجازهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا إن هذا هو
 التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد
 صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتلهم أيهم أحسن عملاً، وأنه
 خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال تعالى في أول سورة هود: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ }، ثم بين الحكمة في ذلك فقال: { لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
 أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ لَمَوْتٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
 هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ }.

وقال تعالى في أول سورة الملك: { الَّذِي خَلَقَ لَمَوْتٍ وَ لِحَيَاةٍ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
 أَحْسَنُ عَمَلًا }.

وقال تعالى في أول سورة الكهف: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ رِبَّةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ
 أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }.

فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي
 ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله {لِيَعْبُدُونَ}، وخير ما يفسر به القرآن
 القرآن.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه
 والمسيء بإساءته، ولذا صرح تعالى بأن حكمة خلقهم أولاً وبعثهم ثانياً، هو
 جزاء المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وذلك في قوله تعالى في أول
 يونس: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ
 بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
 يَكْفُرُونَ}، وقوله في النجم: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ
 الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}.

وقد أنكر تعالى على الإنسان حسبانه وطنه أنه يترك سدى، أي مهملاً، لم
 يؤمر ولم ينه، وبين أنه ما نقله من طور إلى طور حتى أوجده إلا لبيعته بعد
 الموت أي ويجازيه على عمله، قال تعالى: {أَيُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ
 سُدًّا لِّمَنْ يَكُ نُطْقَةً مِّنْ مَّنَىٰ يُمْتَنَىٰ} - إلى قوله - {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ
 يُحْيِيَ لَمَوْتِي}.

والبراهين على البعث دالة على الجزاء، وقد نزه تعالى نفسه عن هذا الظن
 الذي ظنه الكفار به تعالى، وهو أنه لا يبعث الخلق ولا يجازيهم منكرًا ذلك
 عليهم في قوله: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى
 اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الأحقاف في الكلام على قوله
 تعالى: { مَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى }.

تنبيه

اعلم أن الآيات الدالة على حكمة خلق الله للسموات والأرض وأهلها وما بينهما قد يظن غير المتأمل أن بينهما اختلافاً، والواقع خلاف ذلك. لأن كلام الله لا يخالف بعضه بعضاً، وإيضاح ذلك أن الله تبارك وتعالى ذكر في بعض الآيات أن حكمة خلقه للسموات والأرض هي إعلام خلقه بأنه قادر على كل شيء، وأنه محيط بكل شيء علماً، وذلك في قوله تعالى في آخر الطلاق: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.

وذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنه خلق الخلق ليبين للناس كونه هو المعبود وحده، كقوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}، ثم أقام البرهان على أنه إله واحد بقوله بعده: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} - إلى قوله - {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، ولما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} بين أن خلقهم برهان على أنه المعبود وحده بقوله بعده: {لِذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

والاستدلال على أن المعبود واحد بكونه هو الخالق كثير جداً في القرآن، وقد أوضحنا الآيات الدالة عليه في أول سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا وَنَحْنُ نَعْلَمُ غَيْبَهُمْ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}، وفي سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ لَخَلْقِ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، وفي غير ذلك من المواضع.

وذكر في بعض الآيات أنه خلق السموات والأرض ليبين للناس، وذلك في قوله: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.

وذكر في بعض الآيات أنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم وذلك في قوله: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ}، وذكر في آية الذاريات هذه أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبده، فقد يظن غير العالم أن بين هذه الآيات اختلافاً مع أنها لا اختلاف بينها، لأن الحكم المذكور فيها كلها راجع إلى شيء واحد، وهو معرفة الله وطاعته ومعرفة وعده ووعده، فقوله: {لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وقوله: {عُذُّوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ} راجع إلى شيء واحد هو العلم بالله، لأن من عرف الله أطاعه ووحده.

وهذا العلم يعلمهم الله إياه ويرسل لهم الرسل بمقتضاه ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة، فالتكليف بعد العلم، والجزاء بعد التكليف، فظهر بهذا اتفاق الآيات لأن الجزاء لا بد له من تكليف، وهو الابتلاء المذكور في الآيات والتكليف لا بد له من علم، ولذا دل بعض الآيات على أن حكمة الخلق للمخلوقات هي العلم بالخالق، ودل بعضها على أنها الابتلاء، ودل بعضها على أنها الجزاء، وكل ذلك حق لا اختلاف فيه، وبعضه مرتب على بعض.

وقد بينا معنى {إِلَّا لِيُعْبُدُونَ} في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة هود في الكلام على قوله تعالى: {وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} وبيننا

هناك أن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: {وَلِذَلِكَ جَلَقَهُمْ} أي ولأجل الاختلاف إلى شقي وسعيد خلقهم، وفي قوله: {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} إرادة كونية قدرية، وأن الإرادة المدلول عليها باللام في قوله: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، إرادة دينية شرعية.

وبينا هناك أيضاً الأحاديث الدالة على أن الله خلق الخلق منقسماً إلى شقي وسعيد، وأنه كتب ذلك وقدره قبل أن يخلقهم. وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ} وقال: {قَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَقَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}.

والحاصل: أن الله دعا جميع الناس على السنة رسله إلى الإيمان به وعبادته وحده وأمرهم بذلك، وأمره بذلك مستلزم للإرادة الدينية الشرعية، ثم إن الله جل وعلا يهدي من يشاء منهم ويضل من يشاء بإرادته الكونية القدرية، فيصرون إلى ما سبق به العلم من شقاوة وسعادة، وبهذا تعلم وجه الجمع بين قوله: {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}، وقوله: {وَلِذَلِكَ جَلَقَهُمْ}، وبين قوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وإنما ذكرنا أن الإرادة قد تكون دينية شرعية، وهي ملازمة للأمر والرضا، وقد تكون كونية قدرية وليست ملازمة لهما، لأن الله يأمر الجميع بالأفعال المرادة منهم ديناً، ويريد ذلك كوناً وقدرًا من بعضهم دون بعض، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، فقوله: إلا ليُطَاع: أي فيما جاء به من عندنا، لأنه مطلوب مراد من المكلفين شريعاً ودينياً، وقوله: بإذن الله: يدل على أنه لا يقع من ذلك إلا ما أراده الله كوناً وقدرًا، والله جل وعلا يقول: {وَاللَّهُ يَدْعُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كل ميسر لما خلق له». والعلم عند الله تعالى.

{مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا} * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْكَمِينِ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ * قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}

قوله تعالى: {مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ}. قوله تعالى: {فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ}. أصل الذنوب في لغة العرب الدلو، وعادة العرب أنهم يقتسمون ماء الآبار والقلب بالدلو، فيأخذ هذا منه ملء دلو، ويأخذ الآخر كذلك، ومن هنا أطلقوا اسم الذنوب، التي هي الدلو على النصيب. قال الراجز في اقتسامهم الماء بالدلو:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

ويروى: إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب * فإن أبي كان لنا القليب *

ومن إطلاق الذنوب على مطلق النصيب قول علقمة بن عبدة التميمي. وقيل عبدة:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نذاك ذنوب

وقول أبي ذؤيب:

لعمر ك والمنايا طارقات لكل بني أب منها ذنوب
فالذنوب في البيتين النصيب، ومعنى الآية الكريمة، فإن للذين ظلموا بتكذيب
النبي صلى الله عليه وسلم ذنوباً، أي نصيباً من عذاب الله مثل ذنوب
أصحابهم من الأمم الماضية من العذاب لما كذبوا رسلاًهم.
وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات كثيرة من
كتاب الله كقوله تعالى: {قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ
مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ} قد قدمنا الآيات
الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ لِحْسَنِهَا وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَثَلَةٌ} وفي سورة مريم في
الكلام على قوله: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا} وغير ذلك من
المواضع. قوله تعالى: {قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ لِيَذَى يُوعَدُونَ} ما
تضمنته هذه الآية الكريمة من تهديد الكفار بالويل من يوم القيامة لما ينالهم
فيه من عذاب النار، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى في حر {قَوْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}. وقوله في إبراهيم {وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ
شَدِيدٍ}. وقوله في المرسلات: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}، والآيات بمثل ذلك
كثيرة معلومة.

وقد قدمنا أن كلمة {وَوَيْلٌ}، قال فيها بعض أهل العلم: إنها مصدر لا فعل له
من لفظه، ومعناه الهلاك الشديد، وقيل: هو واد في جهنم تستعيز من حره،
والذي سوغ الابتداء بهذه النكرة أن فيها معنى الدعاء.

تم بحمد الله تفسير سورة الذاريات

تفسير سورة الطور

{وَالطُّورِ * وَكَيْتٍ مُسْتَوِرٍ * فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَ لَبِيتَ لِمَعْمُورٍ * وَالسَّقْفِ
لِمَرْفُوعٍ * وَ لَبْحَرٍ لِمَسْجُورٍ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ
هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى تَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ
بِهَا تُكذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * طَلَوْهَا وَ هَبُوا أَوْ لَا تُبْصِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ لِمُتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ *
فَكَهَيْنَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَ شَرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحْتَهُمْ بِحُورٍ عَيْنٍ * وَ لَّذِينَ
آمَنُوا وَ لَبَعَثَهُمْ دَرَبَتُهُمْ يَأْمِنُ الْحَقْنَا بِهِمْ دَرَبَتُهُمْ وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ
شَيْءٍ كُلِّ فُرَى بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَآمَدَدْتَهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ *
يَتَّبِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ * وَبَطُوفٌ عَلَيْهِمْ عِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ
لَوْلُؤُ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}

قوله تعالى: {وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مُّسْتُورٍ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ وَ لَبِيتَ لَمَعْمُورٍ وَالسَّقْفِ لَمَرْفُوعٍ وَ لَبْحَرٍ لَمَسْجُورٍ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ لَهُ مِنْ دَافِعٍ}. هذه الأقسام التي أقسم الله بها تعالى في أول هذه السورة الكريمة أقسم ببعضها بخصوصه، وأقسم بجمعها في آية عامة لها ولغيرها. أما الذي أقسم منها إقساماً خاصاً فهو الطور، والكتاب المسطور، والسقف المرفوع، والأظهر أن الطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى، وقد أقسم الله تعالى بالطور في قوله: {وَالتَّيْنِ وَ الرِّثْيُونِ وَ الطُّورِ سِينِينَ}. والأظهر أن الكتاب المسطور هو القرآن العظيم، وقد أكثر الله من الإقسام به في كتابه كقوله تعالى: {حَوْ لِكِتَابٍ لَمُيِّنٍ}. وقوله تعالى {يَوْمَ لَقُرْآنٍ لِحَكِيمٍ} وقيل هو كتاب الأعمال، وقيل غير ذلك، {وَالسَّقْفِ لَمَرْفُوعٍ}: هو السماء، وقد أقسم بالله بها في كتابه في آيات متعددة كقوله: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} وقوله: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} وقوله تعالى {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}، والرق بفتح الراء كل ما يكتب فيه من صحيفة وغيرها، وقيل هو الجلد المرقق يكتب فيه. وقوله: {مَّنشُورٍ} أي مبسوط، ومنه قوله: {كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا}. وقوله: {بَلْ يُرِيدُ كُلُّ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشُورَةً}. {وَ لَبِيتَ لَمَعْمُورٍ}:

«هو البيت المعروف في السماء المسمى بالضرّاح بضم الضاد، وقيل فيه معمور، لكثرة ما يغشاه من الملائكة المتعبدين، فقد جاء الحديث أنه يزوره كل يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه بعدها». وقوله: {وَ لَبْحَرٍ لَمَسْجُورٍ} فيه وجهان من التفسير للعلماء. أحدهما أن المسجور هو الموقد ناراً، قالوا: وسيضطرم البحر يوم القيامة ناراً، من هذا المعنى قوله تعالى: {ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}. الوجه الثاني: هو أن المسجور بمعنى المملوء، لأنه مملوء ماء، ومن إطلاق المسجور على المملوء قول لبيد بن ربيعة في معلقته: فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاوراً قلامها

فقوله: مسجورة أي عيناً مملوءة ماء، وقول النمر بن تولب العكلي: إذا شاء طالع مسجورة ترى حولها النبع والساسما

وهذان الوجهان المذكوران في معنى المسجور هما أيضاً في قوله {وَإِذَا لَبِحَارٌ سُجِّرَتْ}، وأما الآية العامة التي أقسم فيها تعالى بما يشمل جميع هذه الأقسام وغيرها، فهي قوله تعالى: {فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}، لأن الإقسام في هذه الآية عام في كل شيء. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ}، قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول الذاريات، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ لِتَأْتِيَ كُنُفُومَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الدع في لغة العرب: الدفع بقوة وعنف، ومنه قوله تعالى {فَدَلَّكَ لِذِي يَدْعُ لَبِيتِمْ} أي يدفعه عن حقه بقوة وعنف، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين: أحدهما: أن الكفار يدفعون إلى النار بقوة وعنف يوم القيامة.

والثاني: أنهم يقال لهم يوم القيامة توبيخاً وتقريعاً: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ}.

وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة جاءا موضحين في آيات آخر، أما الأخير منهما، وهو كونهم يقال لهم {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ}، وقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله في السجدة {كَلِمًا أَرَاؤُا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أَعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ لِذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ}؛ وقوله في سبأ {وَأَلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ} وقوله تعالى في المرسلات: {إِن نَّطَلِقُوا إِلَيْهَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ} نَطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبًا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهَا تَرْمَى بِشَرِّ كَلْقَصِرٍ، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأول منهما وهو كونهم يدفعون إلى النار بقوة فقد ذكره الله جل وعلأ في آيات من كتابه كقوله تعالى: {حُدُودُهُ وَغُلُقُوهُ إِلَى سَوَاءٍ لِحَجِيمٍ} أي جروه بقوة وعنق إلى وسط النار. والعتل في لغة العرب: الجر بعنف وقوة، ومنه قول الفرزدق: ليس الكرام بناحليك أباهم حتى ترد إلى عطية تعتل

وقوله تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ} أي تجمع الزبانية بين ناصية الواحد منهم، أي مقدم شعر رأسه وقدمه، ثم تدفعه في النار بقوة وشدة.

وقد بين جل وعلأ أنهم أيضاً يسحبون في النار على وجوههم في آيات من كتابه كقوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}، وقوله تعالى: {لِذِينَ كذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} {أَلَعَلَّ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}، وقوله: في هذه الآية الكريمة: يوم يدعون، بدل من قوله: يومئذ، في قوله تعالى قبله {قَوْلٍ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكذِّبِينَ}، قوله تعالى: {طَلَوْهَا وَهَبُوا أَوْ لَا تُصِيرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. ذكر جل وعلأ في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءً عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ}. قوله تعالى: {كُلُّ مِرْيَةٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ}. ظاهر هذه الآية الكريمة العموم في جميع الناس، وقد بين تعالى في آيات آخر أن أصحاب اليمين خارجون من هذا العموم، وذلك في قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الِّيمينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ}.

ومني المعلوم أن التخصيص بيان، كما تقرر في الأصول. قوله تعالى: {وَأَمَدَدْتُهُمْ بِفَكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. لم يذكر هنا شيء من صفات هذه الفاكهة ولا هذا اللحم إلا أنه مما يشتهون. وقد بين صفات هذه الفاكهة في مواضع آخر كقوله تعالى: {وَفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} وبين أنها

أنواع في مواضع آخر كقوله: {وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} وقوله تعالى {كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ تَمَرَةٍ رُزِقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤَا بِهِ مُتَشَابِهًا}. وقوله تعالى {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ قَوَّكِهِ وَهُمْ مُكْرَمُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف اللحم المذكور بأنه من الطير، والفاكهة بأنها مما يتخبرونه على غيره، وذلك في قوله {وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ}. قرأه ابن كثير وأبو عمرو: {لَا لَعْوُ} بالبناء على الفتح، {وَلَا تَأْتِيمٌ} كذلك لأنها، لا، التي لنفي الجنس فبنيت معها، وهي إن كانت كذلك نص في العموم، وقرأه الباقون من السبعة {لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ} بالرفع والتنوين. لأن لا النافية للجنس إذا تكررت كما هنا جاز أعمالها وإهمالها، والقراءتان في الآية فيهما المثال للوجهين: وإعمالها كثير، ومن شواهد إهمالها قراءة الجمهور في هذه الآية، وقول الشاعر: وما هجرتك حتى قلت معلنة لا ناقة لي في هذا ولا جمل

وقوله: {يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا}: أي يتعاطون، ويتناول بعضهم من بعض كأساً أي خمرًا، فالتنازع يطلق لغة على كل تعاط وتناول، فكل قوم يعطي بعضهم بعضاً شيئاً ويناوله إياه، فهم يتنازعونه كتنازع كؤوس الشراب والكلام، وهذا المعنى معروف في كلام العرب.

ومنه في الشراب قول الأخطل:
وشارب مريح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار
نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة السار

فقوله: نازعته طيب الراح: أي ناولته كؤوس الخمر وناولنيها، ومنه في الكلام قول امرئ القيس:
ولما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

والكأس تطلق على إناء الخمر، ولا تكاد العرب تطلق الكأس إلا على الإناء المملوء، وهي مؤنثة، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ} يعني أن خمر الجنة التي يتعاطاها المؤمنون، فيها مخالفة في جميع الصفات لخم الدنيا، فخم الآخرة لا لغو فيها، واللغو كل كلام ساقط لا خير فيه، فخم الآخرة لا تحمل شاربها على الكلام الخبيث والهديان، لأنها لا تؤثر في عقولهم بخلاف خم الدنيا، فإنهم إن يشربوها سكروا وطاشت عقولهم، فتكلموا بالكلام الخبيث والهديان، وكل ذلك من اللغو.

والتأيم: هو ما ينسب به فاعله إلى الإثم، فخم الآخرة لا يأثم شاربها بشربها، لأنها مباحة له، فنعم بلذتها كما قال تعالى: {وَأَنهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ} ولا تحمل شاربها على أن يفعل إثماً بخلاف خم الدنيا، فشاربها يأثم بشربها ويحمله السكر على الوقوع في المحرمات كالقتل والزنا والقذف.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من مخالفة خمر الآخرة لخمير الدنيا، جاء
 موضحاً في آياتٍ أخر من كتاب الله كقوله تعالى {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ
 مَّعِينِيَّصَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبَتَا فِيهَا عَوَلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ} وقوله {لَا فِيهَا
 عَوَلٌ}: أي ليس فيها عول يغتال العقول، فيذهبها كخمير الدنيا. {وَلَا هُمْ عَنْهَا
 يُنَزَّفُونَ}: أي لا يسكرون، وكقوله تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
 مُّخَلَّدُونَ تَبَاكُؤًا وَآبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينِيَّ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَّفُونَ}: وقوله
 {لَا يُصَدَّعُونَ} أي لا يصيبهم الصداع الذي هو وجع الرأس بسببها.
 وقد أوضحنا معنى هذه الآيات في صفة خمر الآخرة، وبيننا أنها مخالفة في
 جميع الصفات لخمير الدنيا. وذكرنا الشواهد العربية في ذلك في سورة
 المائدة في الكلام على قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا لِحَمْرُ
 وَ لِمَيْسِرٌ}:

قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ}. ذكر جل وعلا
 في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة يطوف عليهم غلمان جمع غلام، أي خدم
 لهم، وقد قدمنا إطلاقات الغلام وشواهدا العربية في سورة الحجر في
 الكلام على قوله تعالى {قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}.
 ولم يبين هنا ما يطوفون عليهم به، وذكر هنا حسنهم بقوله {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ
 مَّكْنُونٌ} في أصدافه، لأن ذلك أبلغ في صفائه وحسنه، وقيل: مكنون أي
 مخزون لنفاسته، لأن النفيس هو الذي يحزن ويكن.

وبين تعالى في الواقعة بعض ما يطوفون عليهم به في قوله {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ
 وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ تَبَاكُؤًا وَآبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ}. وزاد في هذه الآية كونهم
 مخلدين، وذكر بعض ما يطاف عليهم به في قوله: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ
 مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ}، وقوله تعالى: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنبِيَّةٍ مِّنْ فِصَّةٍ وَأَكْوَابٍ
 كَانَتْ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِّنْ فِصَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}.
 والظاهر أن الفاعل المحذوف في قوله: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ} في آية الزخرف
 والإنسان المذكورتين هو الغلمان المذكورون في الطور والواقعة، وذكر بعض
 صفات هؤلاء الغلمان في الإنسيان في قوله تعالى: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
 مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّشْهُورًا}.

{قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ مِنْ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ
 * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَهِنٍ
 وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبَ لَمِينُونَ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي
 مَعَكُمْ مِّنْ لِّمْتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ * أَمْ
 يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * قَلِيَاتُوا بِحَدِيثِ مَثَلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ
 خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ لِحَالِفُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا
 يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ لِمُسْتَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ
 فِيهِ قَلِيَاتٍ مُّسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ * أَمْ لَهُ لَبَتٌ وَلَكُمُ لَبْتُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ
 أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّعْرَمٍ مَّنْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ لَعَيْبٌ فَهُمْ يَكْتُمُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ
 كَيْدًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لِمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ *
 فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمْ لِيَذَى فِيهِ يُصَعَّقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَطَهِّرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ اللَّيْلِ {النَّحْم}

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّاتًا عَذَابَ السَّمُومِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً، وأن المسؤول عنهم يقول للسائل: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ}، أي في دار الدنيا {فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} أي خائفين من عذاب الله، ونحن بين أهلنا أحياء فمَنْ الله علينا أي أكرمنا، وتفضل علينا بسبب الخوف منه في دار الدنيا فهدانا، ووقفنا في الدنيا ووقانا في الآخرة عذاب السموم، والسموم النار ولفحها ووهجها، وأصله الريح الحارة التي تدخل المسام، والجمع سمائم. ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي: أنامل لم تضرب على البهم بالضحي بهن ووجه لم تلحه السمائم

وقد يطلق السموم على الريح الشديدة البرد، ومنه قول الراجز:
اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه

الفاء في قوله: {فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا}، تدل على أن علة ذلك هي الخوف من الله في دار الدنيا، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الإشفاق الذي هو الخوف الشديد من عذاب الله في دار الدنيا، سبب للسلامة منه في الآخرة، يفهم من دليل خطابه، أعني مفهوم مخالفته أن من لم يخف من عذاب الله في الدنيا لم ينج منه في الآخرة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة بمنطوقها ومفهومها جاء موضحاً في غير هذا الموضوع. فذكر تعالى أن السرور في الدنيا وعدم الخوف من الله سبب العذاب يوم القيامة، وذلك في قوله {وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَإِرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}. وقد تقرر في مسلك الإيماء والتنبية أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله: {إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}، علة لقوله: {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا}.

والمسرور في أهله في دار الدنيا ليس بمشفق ولا خائف، ويؤيد ذلك قوله بعده: {إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}، لأن معناه، ظن أن يرجع إلى الله حياً يوم القيامة، ولا شك أن من ظن أنه لا يبعث بعد الموت لا يكون مشفقاً في أهله خوفاً من العذاب، لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء، وكون لن يحور، بمعنى لن يرجع معروف في كلام العرب، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي:
أيلتنا بذي حسم أنيري إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقوله: فلا تحوري، أي فلا ترجعي.

وقول لبيد بن ربيعة العامري:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد ما هو ساطع

أي يرجع رماًداً، وقيل: بصير، والمعنى واحد. وقوله تعالى: {وَأَصْحَابُ
السَّمَاءِ مَا أَصْحَابُ السَّمَاوَاتِ سَمُومٌ وَخَمِيمٌ وَظِلٌّ مِّنْ يَّخْمُومٍ بَارِدٌ وَلَا
كَرِيمًا إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِحْنَتِ لَعَظِيمٍ وَكَانُوا
يَقُولُونَ أَدَاً مِنَّا وَكَانُوا تَرَاباً وَعِظْماً أَدَاً لِّمَبْعُوثُونَ}، لأن تنعمهم في الدنيا
المذكور في قوله {مُتْرَفِينَ}، وإنكارهم للبعث المذكور في قوله {أَدَاً مِنَّا
وَكَانُوا تَرَاباً} الآية. دليل على عدم إشفاقهم في الدنيا، وهو علة كونهم في
سموم وحميم.

وقد قدمنا قريباً أن إن المكسورة المشددة من حروف التعليل، فقوله تعالى:
{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}. علة لقوله {فِي سَمُومٍ وَخَمِيمٍ}.
وقد ذكر جل وعلا أن الإشفاق من عذاب الله من أسباب دخول الجنة والنجاة
من العذاب يوم القيامة، كما دل عليه منطوق آية الطور هذه، قال تعالى في
المعارج {وَ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} -
إلى قوله - {أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مَّكْرَمُونَ}، وذكر ذلك من صفات أهل الجنة
في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ حَسْبِي رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ} - إلى قوله -
{أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي لِحْنَتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ}، وقد قال تعالى:
{وَالسَّاقُونَ السَّاقُونَ * أُولَئِكَ لَمُفْرَبُونَ * فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ}.

وقوله في آية الواقعة المذكورة:
{وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِحْنَتِ لَعَظِيمٍ}، أي يديمون ويعزمون على الذنب
الكبير، كالشرك وإنكار البعث، وقيل المراد بالحنث: حنثهم في اليمين
الفاجرة كما في قوله تعالى: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن
يَمُوتُ}. قوله تعالى: {فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَهِنٍ وَلَا مَجْنُونًا يَقُولُونَ
شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ لَمْتُونٍ}. نفى الله جل وعلا عن نبيه صلى الله عليه
وسلم في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن نبيه صلى الله عليه
وسلم رماه بها الكفار، وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنه كاهن
أو مجنون، فقد نفاها صريحاً بحرف النفي الذي هو ما في قوله: {فَمَا أَنْتَ
وَأَكَّدَ النفي بالباء في قوله: {بِكَهِنٍ} وأما كونه شاعراً فقد نفاها ضمناً بأم
المنقطعة في قوله: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ}، لأنها تدل على الإضراب والإنكار
المتضمن معنى النفي.

وقد جاءت آيات أخر بنفي هذه الصفات عنه صلى الله عليه وسلم كقوله
تعالى في نفي الجنون عنه في أول القلم: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}
وقوله في التكويد {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ} وكقوله في نفي الصفتين
الأخيرتين أعني الكهانة والشعر: {وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلَا
يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة
الشعراء وغيرها.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ لَمْتُونٍ} أي تنتظر به
حوادث الدهر، حتى يحدث له منها الموت، فالمنون: الدهر، وربيه: حوادثه
التي يطرأ فيها الهلاك والتغيير، والتحقيق أن الدهر هو المراد في قول أبي
ذؤيب الهذلي:

أمن المنون وربيه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

لأن الضمير في قوله: وريبه يدل على أن المنون الدهر، ومن ذلك أيضاً قول الآخر: تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

وقال بعض العلماء: المنون في الآية الموت، وإطلاق المنون على الموت معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي الغول الطهوي: هم منعوا حمى الوقبي بضرب يؤلف بين أشتات المنون

لأن الذين ماتوا عند ذلك الماء المسمى بالوقبا، جاءوا من جهات مختلفة، فجمع الموت بينهم في مجله وإحد، ولو ماتوا في بلادهم لكانت منابهم في بلاد شتى. قوله تعالى: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}. قد قدمنا أن الله تحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله: {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَاجْعَلْ لَّهُمْ آيَاتٍ مِّن دُونِ اللَّهِ}. وفي سورة يونس في قوله تعالى {قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَاجْعَلْ لَّهُمْ آيَاتٍ مِّن دُونِ اللَّهِ}. وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله: {قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاجْعَلْ لَّهُمْ آيَاتٍ مِّن دُونِ اللَّهِ}. وتحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ}. وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرين على شيء من ذلك في قوله {قُلْ لَئِن جِئْتُم بِالْإِنسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ}.

وقد أطلق جل وعلا اسم الحديث على القرآن في قوله هنا: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ} كما أطلق عليه ذلك في قوله {اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ لِحَدِيثٍ كِتَابًا مِّثْلَهَا}، وقوله تعالى {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}. قوله تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ لَخَلْقُون}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ لَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}. قوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ}. قد قدمنا الكلام عليه وعلى الآيات المشابهة له في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبَّتْهَا لِلنَّظِيرِينَ وَخَفِضْنَاهَا}. قوله تعالى: {أَمْ لَهُ لُبٌّ لَّكُمُ اللَّيْلُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِّهِ لُبًّا لَّيْلًا لَّيْلًا سُبْحَانَهُ وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ}، وفي مواضع أخر متعددة. قوله تعالى: {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِّن مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له وما يتعلق بها من الأحكام في سورة هود في الكلام على قوله تعالى {وَيَقُومِ لَآئِن سَأَلْتُمُوهُ عَلَيْهِ مَا لَآئِن سَأَلْتُمُوهُ}. قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}. بين جل وعلا في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم

شيئاً في الآخرة في غير هذا الموضع، كقوله تعالى { هَذَا يَوْمٌ لِّفَصْلِ جَمْعَتِكُمْ وَالْأُولِيَيْنَانِ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ }.

وبين أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضاً كقوله تعالى في هذه السورة الكريمة { أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ لِمَكِيدُونَ } وقوله { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا }، وقوله { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: { وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }. الظاهر أن قوله { عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ } هو ما عذبوا به في دار الدنيا من القتل وغيره،

كما دل على ذلك قوله { وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلْوَنِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ }. وقوله تعالى { قَتَلُوهُمْ يَعَذَّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ } إلى غير ذلك من الآيات، ولا مانع من دخول عذاب القبر في ذلك، لأنه قد يدخل في ظاهر الآية، وما قيل في معنى الآية غير هذا لا يتجه عندي. والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الطور

تفسير سورة النجم

{ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا صَلَّ صَلْبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدٌ لِّقْوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتَمُرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ لِمَا وَحَىٰ * إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا رَآعَ لَبِئْسَ مَا طَعَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ * أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَتَوَةَ الْيَأْتَىٰ الْأُخْرَىٰ * أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنشَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُعْنَى سَفْعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْدَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمَعُونَ لِمَلَكَةٍ تَسْمِيَةٌ لِأَنْشَىٰ * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مَنِ اعْلَمَ إِنْ رَبُّكَ هُوَ اعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ اعْلَمُ بِمَنْ هْتَدَىٰ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ }

قوله تعالى: { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا صَلَّ صَلْبِكُمْ وَمَا عَوَىٰ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ } هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ }. اختلف العلماء في المراد بهذا النجم الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة، فقال بعضهم: المراد به النجم إذا رجعت به الشياطين، وقال بعضهم: إن المراد به الثريا، وهو مروى عن ابن عباس وغيره، ولفظة النجم علم للثريا بالغلبة، فلا تكاد العرب تطلق لفظ النجم

مجرداً إلا عليها، ومنه قول نابغة ذبيان: أقول والنجم قد مالت أواخره إلى
المغيب تثبت نظرة حار

فقوله: {وَالنَّجْمِ}: يعني الثريا. وقوله تعالى {إِذَا هَوَىٰ}: أي أسقط مع
الصبح، وهذا اختيار ابن جرير. وقيل النجم: الزهرة، وقيل المراد بالنجم نجوم
السماء، وعليه فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كقوله: {وَيُبُولُونَ اللَّذْبِرَ}
يعني الأدبار. وقوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَ لَمَلَكٌ صَفًّا صَفًّا} أي والملائكة. وقوله:
{أُولَئِكَ يُجْرُونَ لِعُرْقَةٍ يَمَا صَبَرُوا} أي الغرف.
وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذا في القرآن، وفي كلام العرب في سورة الحج في
الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}، وإطلاق النجم مراداً به النجوم
معروف في اللغة، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة: ثم قالوا تحبها قلت بهرا
عدد النجم والحصى والتراب

وقول الراعي: فباتت تعد النجم في مستحيرة سريعة بأيدي الأكلين جمودها

وعلى هذا القول، فمعنى هوى النجوم سقوطها إذا غربت أو انتشارها يوم
القيامة. وقيل: النجم النبات الذي لا ساق له. وقال بعض أهل العلم: المراد
بالنجم الجملة النازلة من القرآن، فإنه نزل على النبي صلى الله عليه وسلم
أنجماً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، وكل جملة منه وقت نزولها يصدق
عليها اسم النجم صدقاً عربياً صحيحاً كما يطلق على ما حان وقته من الدية
المنجمة على العاقلة، والكتابة المنجمة على العبد المكاتب.
وعلى هذا فقوله: {إِذَا هَوَىٰ}، أي نزل به الملك من السماء إلى النبي صلى
الله عليه وسلم. وقوله {هَوَىٰ} يهوي هُويًا إذا اخترق الهوى نازلاً من أعلا
إلى أسفل.

أعلم أولاً أن القول بأنه الثريا وأن المراد بالنجم خصوصها، وإن اختاره ابن
جرير وروي عن ابن عباس وغير واحد، ليس بوجيه عندي.

والأظهر أن النجم يراد به النجوم. وإن قال ابن جرير بأنه لا يصح، والدليل
على ذلك جمعه تعالى للنجوم في القسم في قوله تعالى: {قَلَّا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ
النُّجُومِ}، لأن الظاهر أن المراد بالنجم إذا هوى هنا، كالمراد بمواقع النجوم
في الواقعة.

وقد اختلف العلماء أيضاً في المراد بمواقع النجوم فقال بعضهم: هي
مساقتها إذا غابت. وقال بعضهم: انتشارها يوم القيامة. وقال بعضهم: منازلها
في السماء، لأن النازل في محل واقع فيه. وقال بعضهم: هي مواقع نجوم
القرآن النازل بها الملك إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: أظهر الأقوال عندي وأقربها للصواب في
نظري، أن المراد بالنجم إذا هوى هنا في هذه السورة، وبمواقع النجوم في
الواقعة هو نجوم القرآن التي نزل بها الملك نجماً فنجماً، وذلك لأمرين
أحدهما أن هذا الذي أقسم الله عليه بالنجم إذا هوى الذي هو أن النبي صلى
الله عليه وسلم على حق وأنه ما ضل وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا

وحي يوحى موافق في المعنى لما أقسم عليه بمواقع النجوم، وهو قوله: {إِنَّهُ لَفُرْعَانٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} - إلى قوله - {تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}.

والإقسام بالقرآن على صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى صدق القرآن العظيم وأنه منزل من الله جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {هُرِّ وَ لَفُرْعَانٌ لِّحَكِيمٍ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ لِّعَزِيزٍ الرَّحِيمِ}. وقوله تعالى: {حَمٍ وَ لِكِتَابٍ لِّمُبِينٍ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ بِرُءُوفٍ أَمٍّ لِّكِتَابٍ لَّدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ} وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والثاني: أن كون المقسم به المعبر بالنجوم، هو القرآن العظيم أنسب لقوله بعده:

{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}، لأن هذا التعظيم من الله يدل على أن هذا المقسم به في غاية العظمة.

ولا شك أن القرآن الذي هو كلام الله أنسب لذلك من نجوم السماء ونجم الأرض. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}، قال بعض العلماء: الضلال يقع من الجهل بالحق، والغبي هو العدول عن الحق مع معرفته، أي ما جهل الحق وما عدل عنه، بل هو عالم بالحق متبع له. وقد قدمنا إطلاقات الضلال في القرآن بشواهدها العربية في سورة الشعراء في الكلام على قوله تعالى: {قَالَ فَعَلَّيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه صلى الله عليه وسلم على هدى مستقيم، جاء موضحاً في آيات كثيرة، من كتاب الله كقوله تعالى: {فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ حَقٍّ لِّمُبِينٍ} وقوله تعالى {فَلَا يَتَزَعَّنِكَ فِي الْأَمْرِ وَدُعًا إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ} وقوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَ سَلِّمْ سَبِيحًا بِأَلْفٍ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرْطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} استدلل به علماء الأصول على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يجتهد، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد، استدلوا بقوله تعالى: {عَقَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ}. وقوله تعالى: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَبْخِرَ فِي الْأَرْضِ}. وقوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ}. قالوا: فلو لم يكن هذا عن اجتهاد، لما قال {عَقَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ}. ولما قال: {مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ}، ولا منافاة بين الآيات، لأن قوله: {إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عن الله إلا شيئاً أوحى الله إليه أن يبلغه، فمن يقول: إنه شعر أو سحر أو

كهانة، أو أساطير الأولين هو أكذب خلق الله وأكفرهم، ولا ينافي ذلك أنه أذن للمتخلفين عن غزوة تبوك، وأسر الأسارى يوم بدر، واستغفر لعمه أبي طالب من غير أن ينزل عليه وحي خاص في ذلك، وقد أوضحنا هذا في غير هذا الموضوع. قوله تعالى: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}. المراد بشديد القوى في هذه الآية: هو جبريل عليه السلام، والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم علمه هذا الوحي. ملك شديد القوى هو جبريل. وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين: أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بأمر من الله. والثاني: أن جبريل شديد القوة.

وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضوع. أما الأول منهما وهو كون جبريل نزل عليه بهذا الوحي وعلمه إياه، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلِيلًا بِإِذْنِ اللَّهِ}. وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ لَعَلِّمِينَ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَيَّ قَلِيلًا لِيَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}. وقوله تعالى: {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}. وقوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَارْتَعْظُ فَإِنْ تَرَاهُ عَنكُ الْمَلِكِ الْمُرْسَلِ بِهِ إِلَيْكَ مَنَّا مَبْلُغًا لَهُ عَنَّا فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، أَيِ اقْرَأْ كَمَا سَمِعْتَهُ يَقْرَأُ. وأما الأمر الثاني، وهو شدة قوة جبريل النازل بهذا الوحي، فقد ذكره في قوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}. وقوله في آية التكوير هذه: {لَقَوْلُ رَسُولٍ} أي لقوله المبلغ له عن الله، فقريئة ذكر الرسول تدل على أنه إنما يبلغ شيئاً أرسل به، فالكلام كلام الله بالفاظه ومعانيه، وجبريل مبلغ عن الله، وبهذا الاعتبار نسب القول له. لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما سمعه إلا منه، فهو القول الذي أرسله الله به. وأمره بتبليغه، كما تدل عليه قريئة ذكر الرسول، وسيأتي إيضاح هذه المسألة إن شاء الله في سورة التكوير. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}. قد قدمنا بعض الكلام عليه في أول سورة الإسراء. قوله تعالى: {أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأَنْتِلَاجُ إِذَا قَسَمْتَ لِيِ صِدْقٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ لَهِيبَاتٍ}، وفي مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. قوله تعالى: {قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى}. بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن له الآخرة والأولى وهي الدنيا، وبين هذا في غير هذا الموضوع كقوله {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدْيُونَ لَنَا بِالْآخِرَةِ وَالْأُولَى} وبين في موضع آخر أن له كل شيء، وذلك في قوله: {إِنَّمَا أَمِزْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ لِيُذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ}، وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة. قوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْمُرَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَأَقْبُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُم مِّنَ الْأَرْضِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَكُم مِّنْهَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ آخَرَ لَّيْسَ لَكُم مِّنْهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُعْطَىٰ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ مَا كُنَّا نَدْرِكُهُ بِالْحَقِّ فَنُؤْتِي السَّمْعَ وَأُبِينُ الْبَصَرَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَأَقْبُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُم مِّنَ الْأَرْضِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَكُم مِّنْهَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ آخَرَ لَّيْسَ لَكُم مِّنْهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُعْطَىٰ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ مَا كُنَّا نَدْرِكُهُ بِالْحَقِّ فَنُؤْتِي السَّمْعَ وَأُبِينُ الْبَصَرَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَأَقْبُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُم مِّنَ الْأَرْضِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَكُم مِّنْهَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ آخَرَ لَّيْسَ لَكُم مِّنْهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُعْطَىٰ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ مَا كُنَّا نَدْرِكُهُ بِالْحَقِّ فَنُؤْتِي السَّمْعَ وَأُبِينُ الْبَصَرَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}. وقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى: {وَأَقْبُوا بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الَّذِي يُخْرِجُكُم مِّنَ الْأَرْضِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَكُم مِّنْهَا إِلَىٰ مَوْضِعٍ آخَرَ لَّيْسَ لَكُم مِّنْهُ عِلْمٌ إِلَّا الَّذِي يُعْطَىٰ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ مَا كُنَّا نَدْرِكُهُ بِالْحَقِّ فَنُؤْتِي السَّمْعَ وَأُبِينُ الْبَصَرَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {إِنَّ لِي لِنُذِيرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْآخِرَةِ لِيُسَمُّونَ لِمَلِكِكَ}

تَسْمِيَةَ [الْأَشْيَاءِ]. وقد قدمنا الآيات الموضحة في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِمَلَائِكَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِتْنَا، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى {مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}، وفي سورة الذاريات في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقُوحِشٍ إِلَّا لَلْمَمَ إِنْ رَبِّكَ يُسَبِّحُ لِمَغْفِرَةٍ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكَّا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يُقَى * أَفَرَأَيْتَ لِيذَى تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِيُعْجِبَ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ لِيذَى وَفَى * أَلَا تُزْرَى وَزْرَهُ وَزَرَ أَخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ لِحِزَاهُ الْأَوْفَى * وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ لِمُنْتَهَى * وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِنْ نَاطِقَةٍ إِذَا تُمْنَى * وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ لِأَخْرَى * وَأَنْهُ هُوَ أَعْتَى وَأَفْتَى * وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى * وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا لِأُولَى * وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَى * وَ لِمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا عَشَى * قَبَائِلَ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى * هَذَا تَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى * أَرَقِبِ إِلَّا رَقَةً * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَقِمْنَ هَذَا لِحَدِيثٍ تَعَجَّبُونَ * وَتَصْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ * فَ سَلِّجُوا لِلَّهِ وَ عُبِدُوا }

قوله تعالى: { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقُوحِشٍ إِلَّا لَلْمَمَ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقُوحِشٍ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ }. قوله تعالى: { إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكَّا أَنْفُسَكُمْ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النباء في الكلام على قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ لِلَّهِ يَرْكَبُونَ مِن يَشَاءُ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذَى تَوَلَّى }، وأكدياً عنده علم ليعيب فهو يرياً لم ينبا بما في صحف موسى وإبراهيم لذي وفياً وزراً أخربوا أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنه سعيه سوف يري، ثم يجزاه لجزاه الأوفى، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من ناطقة إذا تمنى، وأنه عليه النشأة لأخرى، وأنه هو أعتى وأفتى، وأنه هو رب السعري، وأنه أهلك عاداً لأولى، وتمود فماً أبقي، وقوم نوح من قبل أنهم كانوا هم أظلم وأطى، ولمؤتفكة أهوى، فغشها ما عسى، قبايل آلاء ربك تتمارى، هذا تذيير من النذر الأولى، أرقب إلا رقة، ليس لها من دون الله كاشفة، أقمن هذا لحديث تعجبون، وتصحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون، فسلجوا لله وعبدوا.

الآيات الموضحة له في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: { وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَ لِقُوحِشٍ وَإِذَا مَا عَصَبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ }. قوله تعالى: { إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكَّا أَنْفُسَكُمْ }. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النباء في الكلام على قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ لِلَّهِ يَرْكَبُونَ مِن يَشَاءُ }، وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ لِيذَى تَوَلَّى }، وأكدياً عنده علم ليعيب فهو يرياً لم ينبا بما في صحف موسى وإبراهيم لذي وفياً وزراً أخربوا أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنه سعيه سوف يري، ثم يجزاه لجزاه الأوفى، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من ناطقة إذا تمنى، وأنه عليه النشأة لأخرى، وأنه هو أعتى وأفتى، وأنه هو رب السعري، وأنه أهلك عاداً لأولى، وتمود فماً أبقي، وقوم نوح من قبل أنهم كانوا هم أظلم وأطى، ولمؤتفكة أهوى، فغشها ما عسى، قبايل آلاء ربك تتمارى، هذا تذيير من النذر الأولى، أرقب إلا رقة، ليس لها من دون الله كاشفة، أقمن هذا لحديث تعجبون، وتصحكون ولا تبكون، وأنتم سامدون، فسلجوا لله وعبدوا.

قال بعضهم قليلاً من المال. وقال بعضهم: أعطى قليلاً من الكلام الطيب. وقوله: { وَأَكْدَى } أي قطع ذلك العطاء ولم يتمه، وأصله من أكدي صاحب الحفر. إذا انتهى في حفره إلى صخرة لا يقدر على الحفر فيها، وأصله من الكدية وهي الحجارة تعترض حافر البئر ونحوه فتمنعه الحفر، وهذا الذي أعطى قليلاً وأكدي، اختلف فيه العلماء، فقيل هو الوليد بن المغيرة قارب أن يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين، فقال: أتركت دين الأشياخ وضللتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه ثمامة.

فأنزل الله عز وجل الآية. وعلى هذا فقوله: {تَوَلَّى}: أي الوليد عن الإسلام بعد أن قارب، وأعطى قليلاً من المال للذي ضمن له أن يتحمل عنه ذنوبه. {وَأَكْدَى}: أي بخل عليه بالباقي، وقيل أعطى قليلاً من الكلام الطيب كمدحه للقرآن، واعتراه بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وأكدى أي انقطع عن ذلك ورجع عنه. وقيل: هو العاص بن وائل السهمي، كان ربما وافق النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور، وذلك هو معنى إعطائه القليل ثم انقطع عن ذلك، وهو معنى إكدائه، وهذا قول السدي ولم ينسجم مع قوله بعده: {أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِّغَيْبٍ}.

وعن محمد بن كعب القرظي أنه أبو جهل، قال: والله ما يأمرنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا بمكارم الأخلاق، وذلك معنى إعطائه قليلاً، وقطعه لذلك معروف.

واقصر الزمخشري على أنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: روي أن عثمان بن عفان كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإنني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى، وأرجو عفوهُ، فقال عبد الله: أعطني ناقتك برحلتها، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن العطاء فنزلت الآية.

ومعنى تولى ترك المركز يوم أحد، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل. انتهى منه.

ولا يخفى سقوط هذا القول وبطلانه، وأنه غير لائق بمنصب أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة سبعة أمور:

الأول: إنكار علم الغيب المدلول عليه بالهمزة في قوله: {أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِّغَيْبٍ} والمراد نفي علمه للغيب.

الثاني: أن لكل من إبراهيم وموسى صحفاً لم ينبا بما فيها هذا الكافر.

الثالث: أن إبراهيم وفى أي أتم القيام بالتكاليف التي كلفه ربه بها.

الرابع: أن في تلك الصحف، أنه لا تزر وازرة وزر أخرى.

الخامس: أن فيها أيضاً أنه ليس للإنسان إلا ما سعى.

السادس: أن سعيه سوف يرى.

السابع: أنه يجزاه جزاء الأوفى، أي الأكمل الأتم.

وهذه الأمور السبعة قد جاءت كلها موضحة في غير هذا الموضع.

أما الأول منها، وهو عدم علمهم الغيب، فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة

كقوله تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ لَٰغِبٌ فَهَمْ يَكْتُوبُونَ} وقوله: {أَطَّلَعَ لَغَيْبٍ أَمْ

لَّحَدَّ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}. وقوله: {وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى لَغَيْبٍ}

{عَلِمُ لَغَيْبٍ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَن رَّزَقْنَاهُ مِن رَّبِّنَا} الآية.

وقوله تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَغَيْبٍ إِلَّا اللَّهُ}

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مراراً.

والثاني: الذي هو أن لإبراهيم وموسى صحفاً لم يكن هذا المتولي المعطي قليلاً المكدي عالماً بها، ذكره تعالى في قوله: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى الصُّحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}.

والثالث: منها وهو إبراهيم وفي تكاليفه، فقد ذكره تعالى في قوله: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}، وقد قدمنا أن الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف.

وأما الرابع منها: وهو أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، فقد ذكره تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى: {وَقَالَ لَّذِينَ ظَلَمُوا بِإِثْمِهِمْ سَبِيلًا مِّنْكُمْ لِيَأْتِيَنَّكُمْ رَبُّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ السَّمَاءِ يَظُنُّوْنَ أَنَّهُمْ مُّجْرِبُونَ} وقوله تعالى {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلَتِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا، والجواب عما يرد عليها من الإشكال في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا} وذكرنا وجه الجمع بين الآيات الواردة في ذلك في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَمِنْ أَوْزَارٍ لِّلَّذِينَ يَصِلُونَ}.

وأما الخامس منها: وهو أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، فقد جاء موضحاً في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا}. وقوله: {مَنْ عَمَلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} وقوله: {وَمَنْ عَمَلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ} والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ} يدل على أن الإنسان لا يستحق أجراً إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرض هذه الآية لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات، لأن قوله: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ} قد دلت اللام فيه على أنه لا يستحق ولا يملك شيئاً إلا بسعيه، ولم تتعرض لنفي الانتفاع بما ليس ملكاً له ولا مستحقاً له.

وقد جاءت آية من كتاب الله تدل على أن الإنسان قد ينتفع بسعي غيره وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا دَرِيئَهُمْ يَأْتِيهِمُ الْخَيْرَاتُ بِهِمْ دَرِيئَهُمْ وَمَا أَلْتَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ}.

وقد أوضحنا وجه الجمع بين قوله تعالى: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ} وبين قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا دَرِيئَهُمْ يَأْتِيهِمُ الْخَيْرَاتُ بِهِمْ دَرِيئَهُمْ وَمَا أَلْتَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ}، في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في سورة النجم، وقلنا فيه ما نصه: والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه. ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره، لأنه لم يقل: وأن لن ينتفع الإنسان إلا بما سعى، وإنما قال وأن ليس للإنسان، وبين الأمرين فرق ظاهر، لأن سعي الغير ملك لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه. وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفاراً لما حصل لهم ذلك. فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في الصلاة في الجماعة، فإن صلاة بعضهم مع بعض يتضاعف بها الأجر زيادة على صلته منفرداً، وتلك المضاعفة انتفاع بعمل الغير سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، وهذا الوجه يشير إليه قوله تعالى: { وَتَبِعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ }.

الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: { وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى } ولكن من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برؤيتهم.

فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها، لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء لا الأولاد، فانتفاع الأولاد تبع فهو بالنسبة إليهم تفضل من الله عليهم بما ليس لهم، كما تفضل بذلك على الولدان والحدود العيون، والخلق الذين ينشؤون للجنة. والعلم عند الله تعالى. اهـ منه.

والأمر السادس والسابع: وهما أن عمله سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى، فقد جاء موضعين في آيات كثيرة كقوله تعالى: { وَ لَوْ زُنِيَ يَوْمَئِذٍ لَحَقُّ قَمَنٍ } تَقُلْتُ مَوْزِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ حَفَّتْ مَوْزِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ }.

وقوله تعالى: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ }.

وقوله تعالى: { وَتَصْعُقُ الْمُؤْمِنِينَ لِقِسْطٍ لِيَوْمٍ لِقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ }.

وقوله تعالى: { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ لِقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا فَرَأَىٰ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ لِيَوْمٍ عَلَيْكَ حَسِيبًا } والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فَهَوَّ يَرَى } أي يعلم ذلك الغيب، والآية تدل على أن سبب النزول لا يخلو من إعطاء شيء في مقابلة تحمل الذنوب عن أعطى لأن فاعل ذلك ليس عنده علم الغيب، فيعلم به أن الذي ضمن له تحمل ذنوبه بفعل ذلك، ولم ينبا بما في الصحف الأولى، من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى أي لا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى.

وقد قدمنا تفسيره موضحاً في سورة بني إسرائيل، وأنه لا يملك الإنسان ولا يستحق إلا سعي نفسه، وقد اتضح بذلك أنه لا يمكن أن يتحمل إنسان ذنوب غيره، وقد دلت على ذلك آيات كثيرة معلومة.

وقال أبو حيان في البحر: أفرايت بمعنى أخبرني، والمفعول الأول هو الموصول وصلته. والمفعول الثاني هو جملة { أَعِنْدَهُ عِلْمٌ لِّغَيْبِ فَهَوَّ يَرَى }.

قوله تعالى: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ نَطْفَةً إِذَا تُمْنَى } ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه خلق الزوجين أي النوعين الذكر والأنثى من نطفة، وهي نطفة المنى إذا تمنى أي تصب وتراق في الرحم، على أصح القولين.

ويدل قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ تَحْنُ لِحَالِقُونَ} وقوله تعالى: {أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى}.

والعرب تقول: أمني الرجل ومني إذا أراق المني وصبه.
وقال بعض العلماء: {مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} أي تقدر بأن يكون الله قدر أن ينشأ منها حمل، من قول العرب: مني الماني إذا قدر. ومن هذا المعنى قول أبي قلابة الهذلي، وقيل سويد بن عامر المصطلق: لا تأمن الموت في حل وفي حرم إن المنايا توافي كل إنسان
واسلك سبيلك فيها غير محتشم حتى تلاقي ما يمني لك الماني

وقد قدمنا الكلام على النطفة مستوفى من جهات في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ}. وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبَعْثِ}، وفي كل من الموضوعين زيادة ليست في الآخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين، أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضعاً في غير هذا الموضوع، وأنه يستدل به على أمرين: هما قدرة الله على البعث، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه، وقد جمع الأمرين قوله تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَّيَا لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ لَمَوْتَى} فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله: {أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ لَمَوْتَى}، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء، منكرأ على من ظن ذلك بقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَى} أي مهملاً من التكليف والجزاء.

وقد قدمنا بعض الكلام على هذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ لَمَاءٍ يَنْسَاءً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً}. قوله تعالى: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وأحلنا عليها مراراً كثيرة. قوله تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى وَثَمُودَ قَمَاً أَبْقَى}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لما أهلك به عاداً، والآيات الموضحة لما أهلك به ثمود في سورة فصلت في قوله تعالى في الكلام في شأن عاد: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصراً}. وقوله في شأن ثمود: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لِّعَذَابِ لَّهُونَ}. قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى}. قوله: {وَقَوْمَ نُوحٍ} معطوف على قوله: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى} أي وأهلك قوم نوح ولم يبين هنا كيفية إهلاكهم، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر من كتابه كقوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا لِرَّسُلٍ أَعْرَفْتَهُمْ}. وقوله تعالى: {قَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}.

وقوله تعالى: {وَنَصَرْتَهُ مِنَ لِّقَوْمٍ لِّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرَفْتَهُمْ أَجْمَعِينَ}.
وقوله تعالى: {مَّمَّا حَطَّيْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا تَاراً}.

وقوله تعالى: {وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَفُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون قوم نوح أظلم وأطغى، أي أشد ظلماً وطغياناً من غيرهم، قد بينه تعالى في آيات أخر كقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سِتْكَبَارًا}.

وقوله تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا} - إلى قوله - {وَقَدْ أَصَلُوا كَثِيرًا}.
وقوله تعالى: {إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلُؤُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا}.
وقوله: {وَيَصْنَعُ لِفُوكَ وَكَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مَن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} ومن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: {قَلْبَتْ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا} لأن قوماً لم يثأثروا بدعوة نبي كريم ناصح في هذا الزمن الطويل، لا شك أنهم أظلم الناس وأطغاهم. قوله تعالى: {وَ لِمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}.

المؤتفكة، مفتعلة من الإفك، وهو القلب والصرف، والمراد بها قري قوم لوط بدليل قوله في غير هذا الموضع: {وَ لِمُؤْتَفِكَتٍ} بالجمع. فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع كما أوضحناه مراراً، وأكثرنا من أمثلته في القرآن وفي كلام العرب وأحلنا عليه مراراً، وإنما قيل لها: مؤتفكة، لأن جبريل أفكها، فأتفكت، ومعنى أفكها أنه رفعها نحو السماء ثم قلبها جاعلاً أعلاها أسفلها، وجعل عاليها أسفلها، هو اتفكها وإفكها.

وقد أوضح تعالى هذا المعنى في سورة هود في قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً}.

وقوله تعالى في سورة الحجر: {فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ فَجَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}.

وقد بينا قصة قوم لوط في هود والحجر، وقوله في هذه الآية الكريمة: {أَهْوَى}. تقول العرب: هوى الشيء إذا انحدر من عال إلى أسفل. وأهواه: غيره إذا ألقاه من العلو إلى السفلى، لأن الملك رفع قراهم ثم أهواها أي ألقاها تهوى إلى الأرض، منقلبة أعلاها أسفلها. قوله تعالى: {أَزَقَّتِ الْأَرْقَةَ}.
قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة النحل في الكلام على قوله تعالى {أَتَى أَمْرٌ لِلَّهِ}، وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: {وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْقَةِ}. قوله تعالى: {أَقِمْنِ هَذَا لِحَدِيثٍ تَعْجَبُونَ}. قد قدمنا الآيات التي فيها إطلاق لاسم الحديث على القرآن في سورة الطور. في الكلام على قوله تعالى: {قَلِيَاتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ}.

تم بحمد الله تفسير سورة النجم

تفسير سورة القمر

{ فُتْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّأْنَا أَمْوَالَهُمْ مِّنْ أَلْبَابٍ }

مَا فِيهِ مُزْدَجَّرٌ * حِكْمَةٌ يَلِغَةُ فَمَا تُغْنِي النَّذْرُ * قَيَّوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعَ
إِلَى شَيْءٍ تَكْرُ * حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ *
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَرُدُّوا * قَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرُ * فَفَتَحْنَا
أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ
قُدِرَ * وَحَمَلْنَا عَلَى دَاتِ الْأُوحِ وَدُسِرَ * تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ *
وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرَ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرَ * إِنَّا

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَتْرَعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي
وَنُذِرَ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ *
فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وُجِدَ * تَبِعُهُ إِيَّا إِذَا لَفِيَ الصَّوْءِ وَسِعُرٍ * أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ
بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ * سَيَعْلَمُونَ عَدَاؤَنَا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشِرِّ {

قوله تعالى: { فُتِّرَبَتِ السَّاعَةُ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة
النحل في الكلام على قوله تعالى { أَمْرٌ إِلَهٍ } وفي غير ذلك من
المواضع. قوله تعالى: { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا } . قد قدمنا الآيات الموضحة
له في سورة الأنعام، في الكلام على قوله تعالى { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي
قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ } . قوله تعالى: { يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ
مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة عسرا في
الكلام على قوله تعالى { فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ } وفي
سورة و في الكلام على قوله تعالى { يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا } . قوله
تعالى: { يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في
سورة الفرقان، في الكلام على قوله تعالى { أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ
مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا } وفي سورة الحج في الكلام على قوله تعالى { وَإِنْ
يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ } . قوله تعالى: { قَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَأَنْتَصِرُ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ } .

قرأ هذا الحرف هذا عامر، { فَفَتَحْنَا } بتشديد التاء للتكثير، وباقي السبعة
بتخفيفها.

وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه نوحاً دعاه قائلاً: إن قومه
غلبوه سائلاً ربه أن ينتصر له منهم، وأن الله انتصر له منهم، فأهلكهم بالغرق،
لأنه تعالى فتح أبواب السماء بماء منهمر أي متدفق منصب بكثرة وأنه تعالى
فجر الأرض عيوناً.

وقوله: { عُيُونًا } ، تمييز محول عن المفعول، والأصل فجزنا عيون الأرض.
والتفجير: إخراج الماء منها بكثرة، وأل، في قوله: { فَالْتَقَى الْمَاءُ } للجنس،
ومعناه التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر، أي قدره الله وقضاه.
وقيل: إن معناه أن الماء النازل من السماء والمتفجر من الأرض جعلهما الله
بمقدار ليس أحدهما أكثر من الآخر، والأول أظهر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من دعاء نوح ربه جل وعلا، أن ينتصر له، من قومه فينتقم منهم، وأن الله أجابه فانتصر له منهم فأهلكهم جميعاً بالغرق في هذا الماء المتلقى من السماء والأرض، جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في الأنبياء: {وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلِ وَ سَلَّجْنَا لَهُ فَجَاجِيَّتَهُ وَأَهْلَهُ مِن لِّكْرِبٍ لِّعَظِيمٍ وَتَصَرَّنَهُ مِن لِّقَوْمٍ لِّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوِيءٌ فَأَعْرَفْنَاهُم أَجْمَعِينَ}.

وقوله تعالى في الصافات {وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ لِمُجِيبُو تَوَجَّجِيَّتِهِ وَأَهْلَهُ مِن لِّكْرِبٍ لِّعَظِيمٍ - إِلَى قَوْلِهِ - {ثُمَّ أَعْرَفْنَا لِّلْآخِرِينَ}.

وقد بين جل وعلا أن دعاء نوح فيه سؤاله الله أن يهلكهم إهلاكاً مستأصلاً، وتلك الآيات فيها بيان لقوله هنا: فانتصر وذلك كقوله تعالى {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِن لِّكْفِيرِينَ دِيَارَآئِكَ إِن تَذَرْنِي يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلُؤْا إِلَّا قَاجِرًا كَفَّارًا} وما دعا نوح على قومه إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لا يؤمن منهم أحد غير القليل الذي آمن، وذلك في قوله تعالى {وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ}، وقد قال تعالى {وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}.

وقوله تعالى {عِيُونًا} قرأه ابن كثير وابن عامر في رواية ابن ذكوان وعاصم، في رواية شعبة وحمزة والكسائي: {عِيُونًا} بكسر العين لمجانسة الياء وقرأه نافع وأبو عمرو وابن عامر في رواية هشام وعاصم في رواية حفص عيوناً بضم العين على الأصل. قوله تعالى: {وَحَمَلْنَا عَلَىٰ ذَاتِ الْأُوْحِ وَدُسْرٍ}. لم يبين هنا ذات الألواح والدسر، ولكنه بين في مواضع أخر أن المراد وحملناه على سفينة ذات ألواح، أي من الخشب ودسر: أي مسامير تربط بعض الخشب ببعض، وواحد الدسر دسار ككتاب وكتب، وعلى هذا القول أكثر المفسرين.

وقال بعض العلماء وبعض أهل اللغة: الدسور الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة.

وقال بعض العلماء: الدسور جَوْجُو السفينة أي صدرها ومقدمها الذي تدسر به الماء أي تدفعه وتمخره به، قالوا: هو من الدسر وهو الدفع. فمن الآيات الدالة على أن ذات الألواح والدسر السفينة. قوله تعالى {إِنَّا لَمَّا طَغَا لِمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي لِحَارِيَّةٍ} أي السفينة كما أوضحناه في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى {وَمِنَ ءَايَاتِهِ لِحَوَارِ فِي لِبْحَرِ كَالْأَعْلَمِ}. وقوله تعالى: {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ} وقوله تعالى {وَوَآيَةٌ لَهُم أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُم فِي لِفْلِكٍ لِّمَشْحُونٍ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْتَهَا ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ}. الضمير في قوله تعالى: {تَرَكْتَهَا}، قال بعض العلماء إنه عائد إلى هذه الفعلة العظيمة التي فعل بقوم نوح.

والمعنى، ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح وإهلاكنا لهم آية لمن بعدهم، لينزجروا ويكفوا عن تكذيب الرسل، لئلا نفعل بهم مثل ما فعلنا بقوم نوح. وكون هذه الفعلة آية نص عليه تعالى بقوله {وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً} وقوله تعالى {فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي لِفْلِكٍ لِّمَشْحُونٍ} أَعْرَفْنَا بَعْدُ لِبُقِيَانٍ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُم مُّؤْمِنِينَ}.

وقال بعض العلماء: الضمير في تركناها عائد إلى السفينة، وكون سفينة نوح آية بينه الله تعالى في آيات من كتابه كقوله تعالى {فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {وَأَيُّ لَّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي لُفْلُكٍ لِّمَشْخُونٍ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}. قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا لِقُرْءَانَ لِلذَّكَرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ}. قد قدمنا إيضاحه في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالِهَاتُ}. قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له، وكلام أهل العلم في يوم النحس المستمر، في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى {فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّجِسَاتٍ}. قوله تعالى: {فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّثَّا وَجِدًا نَّبِيُّهُ}. قوله تعالى: {أَأَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا}. وقد قدمنا الآيات الموضحة لهما في الكلام على قوله تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ} (ج: 4)، وقوله تعالى: {أَنزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي}.

{إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ وَ لِيَتَقَبَّلَهُمْ وَ طَطِيرَ * وَبَيِّنَهُمْ أَنَّ لِمَاءَ قِسْمَهُ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ * فَتَادُوا صَحْبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ لِّمُحْتَطِرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا لِقُرْءَانَ لِلذَّكَرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ * كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطَلشَّتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا لِقُرْءَانَ لِلذَّكَرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ * وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْتَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ * أَكْفَرُكُمْ حَبِيرٌ مِّنْ أَوْلِيائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ * سَيَهَرُّمُ لَجْمَعٌ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ * إِنَّا لَمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ}

قوله تعالى: {إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ}. قوله: {مُرْسِلُوا النَّاقَةَ}: أي مخرجوها من الهضبة، {فِتْنَةً لَهُمْ} أي ابتلاء واختباراً، وهو مفعول من أجله، لأنهم اقترحوا على صالح إخراج ناقه من صخرة، وأنها إن خرجت لهم منها آمنوا به واتبعوه، فأخرج الله الناقة من تلك الصخرة معجزة لصالح، وفتنة لهم أي ابتلاء واختباراً، وذلك أن تلك الناقة معجزة عاينوها، وأن الله حذرهم على لسان نبيه صالح من أن يمسوها بسوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أخذهم الله بعذابه.

والمفسرون يقولون: إنهم قالوا له: إن أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقه وبراء عشراء اتبعناك.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختباراً، وأنهم إن تعرضوا لآية الله هذه، التي هي الناقة بسوء أهلكتهم، جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الأعراف: {قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا

تَمَسُّوْهَا بِسُوِّ قِيَاْخُذِكُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ}، وقوله تعالى في سورة هود عن صالح {وَيَقُوْمُ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِيْ اَرْضِ اَللّٰهِ وَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوِّ قِيَاْخُذِكُمْ عَذَابٌ قَرِيْبٌفَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوْا فِيْ دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ اَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعَذَابُ غَيْرِكُمْ مَّكْذُوْبٌ}، وقوله تعالى في الشعراء: {قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَّعْلُوْمٍوَلَا تَمَسُّوْهَا بِسُوِّ قِيَاْخُذِكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيْمٍ}.

وقد بين تعالى: أنهم عقروا الناقة فجاءهم العذاب المستأصل في آيات من كتابه كقوله تعالى في الأعراف: {فَعَقَرُوْا اَلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ اَمْرِ رَبِّهِمْ} - إلى قوله - {فَأَخَذْتَهُمُ اَلرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوْا فِيْ دَارِهِمْ جَثِيْمِيْنَ}، وقوله تعالى: {فَعَقَرُوْهَا فَاَصْبَحُوْا تَدْمِيْنًاخَذَهُمْ لِعَذَابٍ}، وقوله {فَكَذَّبُوْهُ فَعَقَرُوْهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ}.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: {فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً لِّعَذَابٍ لِّهُونٍ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ}، قوله تعالى: {وَبَيَّنَّاهُمْ اَنْ لِّمَاءٍ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مَّحْتَضَرٌ}، قوله تعالى {وَبَيَّنَّاهُمْ اَنْ لِّمَاءِ اَلْبُرِّ اَلَّتِيْ كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ - قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ، فيوم للناقة - ويوم لثمود، فقوله: {بَيْنَهُمْ}: أي بين الناقة وثمود، وغلب العقلاء على الناقة {كُلُّ شِرْبٍ مَّحْتَضَرٌ} أي يحضره صاحبه، فتحضر الناقة شرب يومها وتحضر ثمود شرب يومها.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آية أخرى وهي قوله تعالى في الشعراء {قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَّعْلُوْمٍ} وشرب الناقة هو الذي جذرهم منه صالح لئلا يتعرضوا له في قوله تعالى: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُوْلُ اَللّٰهِ نَاقَةٌ اَللّٰهِ وَسُقْيَاهَا}، قوله تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}، قوله: {فَتَعَاطَى}، قال أبو حيان في البحر: فتعاطى هو مطاوع عاطا، وكان هذه الفعلة تدافعها الناس وعاطاها بعضهم بعضاً، فتعاطاها قدار وتناول العقرب بيده. انتهى محل الغرض منه.

والعرب تقول: تعاطى كذا إذا فعله أو تناوله، وعاطاه إذا تناوله، ومنه قول حسان رضي الله عنه: كلتاها حلب العصير فعاطني بزجاجة أرخاهما للمفصل

وقوله: {فَعَقَرَ} أي تعاطى عقر الناقة فعقرها، فمفعولا الفعلين محذوفان تقديرهما كما ذكرنا، وعبر عن عاقر الناقة هنا بأنه صاحبهم، وعبر عنه في الشمس بأنه أشقاها وذلك في قوله {إِذِ اُنْبَعَثَ اَشْقَاهَا}.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى إزالة إشكال معروف في الآية، وإيضاح ذلك أن الله تعالى فيها نسب العقر لواحد لا لجماعة، لأنه نال: فتعاطى فعقر، بالإفراد مع أنه أسند عقر الناقة في آيات أخرى إلى ثمود كلهم كقوله في سورة الأعراف: {فَعَقَرُوْا اَلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ اَمْرِ رَبِّهِمْ}، وقوله تعالى في هود {فَعَقَرُوْهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوْا فِيْ دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ اَيَّامٍ} وقوله في الشعراء: {فَعَقَرُوْهَا فَاَصْبَحُوْا تَدْمِيْنِيْنَ}، وقوله في الشمس: {فَكَذَّبُوْهُ فَعَقَرُوْهَا}.

ووجه إشارة الآية إلى إزالة هذا الإشكال هو أن قوله تعالى {فَتَادُوا صَحْبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} يدل على أن ثمود اتفقوا كلهم على عقر الناقة، فنادوا واحداً منهم لينفذ ما اتفقوا عليه، أصالة عن نفسه ونيابه عن غيره. ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون، وصحت نسبة العقر إلى المنفذ المباشر للعقر، وصحت نسبته أيضاً إلى الجميع، لأنهم متماثلون كما دل عليه ترتيب تعاطي العقر بالفاء في قوله: فتعاطا فعقر على نداءهم صاحبهم لينوب عنهم في مباشرة العقر في قوله تعالى: {فَتَادُوا صَحْبَهُمْ} أي نادوه ليعقرها. وجمع بعض العلماء بين هذه الآيات بوجه آخر، وهو أن إطلاق المجموع مراداً به بعضه أسلوب عربي مشهور، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب. وقد قدمنا في سورة الحجرات أن منه قراءة حمزة في قوله تعالى: {فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} بصيغة المجرد في الفعلين، لأن من قتل ومات لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله، بل المراد في إن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، ونظيره قول ابن مطيع: فإن تقتلونا عند حرة واقم فإننا على الإسلام أول من قتل

أي فإن تقتلوا بعضنا، وأن منه أيضاً: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا} لأن هذا في بعضهم دون بعض. بدليل قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} - إلى قوله - {سَيَدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ أَلَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ}.

وقد قدمنا في الحجرات وغيرها، أن من أصرح الشواهد العربية في ذلك قول الشاعر:

فسيف بني عبس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

وقوله تعالى: {فَعَقَرَ}: أي قتلها. والعرب تطلق العقر على القتل والنحر والجرح ومنه قول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيري يامراً القيس فانزل

ومن إطلاق العقر على نحر الإبل لقري الضيف قول جرير: تعدون عقر الذيب أفضل مجدكم بني ضوطرا لولا الكمي المقنعا
قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَجِدَّةً}. قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة فصلت، في الكلام على قوله تعالى {فَأَجَدْتُهُمْ صَاعِقَةً لِغَدَابٍ لَّهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ}. قوله: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا}: قد قدمنا الآيات الموضحة لهم في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَوْا عَلَى لُقْمَانَ آلَ لُوطٍ مَطَرًا سَوْءًا}، وقوله: {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} قد قدمنا الآيات الموضحة له إيضاحاً شافياً بكثرة.

وقد تضمنت إيضاح قصة لوط وقومه في سورة هود وسورة الحجر في الكلام على القصة المذكورة في السورتين. قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ

فِرْعَوْنَ أَلْتُنذِرْكَ ذَبُوبًا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْتَهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ}. تضمنت هاتان الآيتان ثلاثة أمور:

الأول: أن آل فرعون جاءتهم النذر.

الثاني: أنهم كذبوا بآيات الله.

الثالث: أن الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه الأمور الثلاثة المذكورة هنا جاءت موضحة في آيات آخر من كتاب الله، أما الأول منها وهو أن آل فرعون وقومه جاءهم النذر، فقد أوضحه تعالى في آيات كثيرة من كتابه.

اعلم أولاً أن قوله {جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ أَلْتُنذِرُ}، قيل: هو جمع نذير وهو الرسول. وقيل هو مصدر بمعنى الإنذار فعلي أنه مصدر.

فقد بينت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون، وعلى أنه جمع نذير أي منذر، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله تعالى في طه {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِازِلٍ وَسِرِّيلٍ وَلَا تَعْذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ}.

ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ لِعَذَابِ عَلِيِّ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى} ونحوها من الآيات، وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أن الله تبارك وتعالى أرسل لفرعون نبيين هما موسى وهارون، كما قال تعالى: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ لَعَلَّيْنَا نَكْفِيكَ} وهنا جمع النذر في قوله {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ أَلْتُنذِرُ}، وللعلماء عن هذا أجوبة. أحدها أن أقل الجمع اثنان كما هو المقرر في أصول مالك بن أنس رحمه الله، وعقده صاحب مراقبي السعود بقوله:

أقل معنى الجمع في المشتهر لاثنان في رأي الإمام الحمير قالوا، ومنه قوله تعالى: {فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا} ولهما قلبان فقط وقوله: {فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَا مَهْ أَلْسُدُسُ} والمراد بالإخوة اثنان فصاعداً كما عليه الصحابة فمن بعدهم خلافاً لابن عباس، وقوله {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ} وله طرفان. ومنها ما ذكره الزمخشري وغيره من أن المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون. ومنها أن النذر مصدر بمعنى الإنذار.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق في الجواب، أن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيراً واحداً فقد كذب جميع النذر، لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدة، وهي مضمون لا إله إلا الله كما أوضحه تعالى بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَجُنَّبُوا لِطُغُوتِ} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَاعْبُدُونِ}. وقوله تعالى: {وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولِنَا أَلَعَلَّنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِلهَةً يُعْبُدُونَ}.

وأوضح تعالى أن من كذب بعضهم فقد كذب جميع في قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا}، وأشار إلى ذلك في قوله: {لَا تُفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ

رُسُلِهِ}. وقوله {لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}. وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ}.

وقد أوضح تعالى في سورة الشعراء أن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، وذلك في قوله: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ لِّمُرْسَلِينَ} ثم بين أن تكذيبهم للمرسلين إنما وقع بتكذيبهم نوحاً وحده، حيث فرد ذلك بقوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} - إلى قوله - {قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ} وقوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ لِّمُرْسَلِينَ}، ثم بين أن ذلك بتكذيب هود وحده، حيث فرد به بقوله: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ونحو ذلك. في قوله تعالى في قصة صالح وقومه، ولوط وقومه، وشعيب وأصحاب الأيكة، كما هو معلوم، وهو واضح لا خفاء فيه، ويزيده إيضاحاً قوله صلى الله عليه وسلم «إنا معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» يعني أنهم كلهم متفقون في الأصول وإن اختلفت شرائعهم في بعض الفروع.

وأما الأمر الثاني: وهو كون فرعون وقومه يكذبوا بآيات الله، فقد جاء موضحاً في آيات آخر كقوله تعالى: {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِيَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَتَا بِهَا فَمَا تَخُنْ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا كَلِمًا فَكَذَّبَ وَإِنِّي} وقوله تعالى: {فَأَرَاهُ الْكَبِيرَ نَفَكَذَّبَ وَعَصَى} وقوله تعالى: {وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تَسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ فَجَدُّوا بِهَا وَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}.
 وأما الأمر الثالث وهو قوله تعالى {فَأَخَذْتَهُمْ أَحَدًا عِزِيرٍ مُّقْتَدِرٍ}، فقد جاء موضحاً في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} - إلى قوله - {فَأَخَذَتْهُ وَجُنُودَهُ فَبَدَّتْهُمْ فِي لَيْمٍ وَهَوٍّ مَّليَمٍ} وقوله تعالى: {فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَعَشِيَهُمْ مِّنَ لَيْمٍ مَا عَشِيَهُمْ} وقوله تعالى: {وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنَّهُمْ تَنْظُرُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: {أَخَذَ عِزِيرٍ مُّقْتَدِرٍ} يوضحه قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ لِقَرِيٍّ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ لَيْمٌ شَدِيدٌ}.

وقد روى الشيخان في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم تلى قوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ لِقَرِيٍّ}»، والعزير الغالب، والمقتدر: شديد القدرة عظيمها. قوله تعالى: {أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف، في الكلام على قوله تعالى {فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا}، وفي صدر سورة الروم، وغير ذلك من المواضع.

{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ دُوفُوا مَسَّ سَقَرٍ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وُجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ * وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطِرٍّ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}

قوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى {يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ تَارِجَهُمْ دَعَاً}. قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزخرف في بعض المناقشات التي ذكرناها في الكلام على قوله تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ}. قوله تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ}. الصحيح في معنى الآية أن كل شيء فعله الناس مكتوب عليهم في الزبر، التي هي صحف الأعمال، {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ}، أي مكتوب عليهم لا يترك منه شيء. وهذا المعنى جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ يُوبَلَّتْنَا مَا لِهَذَا لِكِتَابٍ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} وقوله تعالى {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ حَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا}.

والزبر: جمع زبور، وهو الكتاب. والمستطر معناه المسطور، أي المكتوب، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة. قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}. أي في جنات وأنهار كما أوضح تعالى ذلك في قوله {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وقوله تعالى {فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}. وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة إطلاق المفرد، وإرادة الجمع كما هنا في القرآن العظيم، مع تنكير المفرد وتعريفه، وإضافته، وأكثرنا أيضاً من الشواهد العربية على ذلك في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً}، وفي غير ذلك من المواضع. والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة القمر

H J P

{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَحْسِبَانِ * وَاللَّجُمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ}

قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}. قال بعض أهل العلم: نزلت هذه الآية لما تجاهل الكفار الرحمن جل وعلا، كما ذكره الله عنهم في قوله تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ سَجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟} كما تقدم في الفرقان. وقد قدمنا معنى الرحمن وأدلته من الآيات في أول سورة الفاتحة. قوله تعالى: {عَلَّمَ الْقُرْآنَ}. أي علم نبيه صلى الله عليه وسلم القرآن فتلقته أمته عنه، وهذه الآية الكريمة تتضمن رد الله على الكفار في قولهم إنه تعلم هذا القرآن من بشر كما تقدم في قوله: {وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}، وقوله تعالى {فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ} أي يرويه محمد عن غيره.

وقوله تعالى {وَقَالَ لِذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَدْ آتَيْنَا الْأَوَّلِينَ كُتِبَ عَلَيْهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}.

فقوله تعالى هنا {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ لُقُرْآنًا} أي ليس الأمر كما ذكرتم من أنه تعلم القرآن من بشر، بل الرحمن جل وعلا هو الذي علمه إياه، والآيات الدالة على هذا كثيرة جداً، كقوله تعالى {قُلْ أَنْزَلَهُ لِذِي يَعْلَمُ السِّرِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وقوله تعالى {لَرِ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ حَبِيرٍ}، وقوله تعالى {حَمَّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ فُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وقوله تعالى {وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ فُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا}، وقوله تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} وقوله تعالى {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَتَلَّعْنَاهُ مِنْ دُونِ أَلْسِنَاتِنَا لِقَوْمٍ يُعَذِّبُهُمْ وَأَسْفَهْنَاهُ} وقوله تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا لِكِتَابٍ وَلَا الْإِيمَانِ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقوله تعالى {تَحْنُ تَقْصُّ عَّلَيْكَ أَحْسَنَ لِقْصَصٍ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا لُقُرْءَانٌ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَافِينَ}.

وقوله تعالى {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} ومن أعظم ذلك هذا القرآن العظيم وقوله تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَ الْفُرْقَانِ}.

وتعليمه جل وعلا هذا القرآن العظيم، قد بين في مواضع أخر أنه من أعظم نعمه كما قال تعالى {ثُمَّ أَوْرثْنَا لِكِتَابِ الَّذِي آتَيْنَاكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَّا وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّاءَ الْقُرْءَانَ إِذْ بَدَأْنَا مِنْ حَقِّهَا إِذْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّاءَ الْقُرْءَانَ إِذْ بَدَأْنَا مِنْ حَقِّهَا إِذْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّاءَ الْقُرْءَانَ إِذْ بَدَأْنَا مِنْ حَقِّهَا} - إلى قوله تعالى - {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}.

وقد علم الله تعالى الناس أن يحمده على هذه النعمة العظمى التي هي إنزال القرآن، وذلك في قوله تعالى {لِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}، وبين أن إنزاله رحمة منه لخلقه جل وعلا في آيات من كتابه كقوله تعالى {وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} وقوله {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} وقد بينا الآيات الموضحة لذلك في الكهف والزخرف.

{عَلَّمَ لُقُرْءَانًا} حذف في أحد المفعولين، والتحقيق أن المحذوف هو الأول لا الثاني، كما ظنه الفخر الرازي، وقد رده عليه أبو حيان، والصواب هو ما ذكره، من أن المحذوف الأول، وتقديره: علم النبي صلى الله عليه وسلم وقيل جبريل، وقيل الإنسان. قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}. اعلم أولاً أن خلق الإنسان وتعليمه البيان من أعظم آيات الله الباهرة، كما أشار تعالى لذلك بقوله، في أول النحل: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّبِينٌ}، وقوله: في آخر سورة: {أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّبِينٌ}.

فالإنسان بالأمس نطفة واليوم هو في غاية البيان وشدة الخصام يجادل في ربه وينكر قدرته على البعث، فالمنافاة العظيمة التي بين النطفة وبين الإبانة في الخصام، مع أن خلقه من نطفة وجعله خصيماً مبيناً آية من آياته جل وعلا دالة على أن المعبود وحده، وأن البعث من القبور حق.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة { خَلَقَ الْإِنْسَانَ } لم يبين هنا أطوار خلقه للإنسان، ولكنه بينها في آيات أخر كقوله تعالى في الفلاح { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا لِعَلَقَةٍ مُّضْغَةً فَخَلَقْنَا لِمُضْغَةٍ عِظْماً فَكَسَوْنَا لِعِظْمٍ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } .

والآيات المبينة أطوار خلق الإنسان كثيرة معلومة. وقد بينا ما يتعلق بالإنسان من الأحكام في جميع أطواره قبل ولادته في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبَعْثِ قَائِمًا خَلَقْتُمْ مِّن تُرَابٍ }، وبيننا هناك معنى النطفة والعلقة والمضغة في اللغة.

وقوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة { عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } التحقيق فيه أن المراد بالبيان الإفصاح عما في الضمير.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أنه علم الإنسان البيان قد جاء موضحاً في قوله تعالى { فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ } في سورة النحل ويس، وقوله { مُّبِينٌ } على أنه اسم فاعل أبان المتعدية، والمفعول محذوف للتعميم، أي مبين كل ما يريد بيانه، وإظهاره بلسانه مما في ضميره، وذلك لأنه ربه علمه البيان، وعلى أنه صفة مشبهة من أبان اللازمة، وأن المعنى فإذا هو خصيم مبين أي بين الخصومة ظاهرها، فكذلك أيضاً، لأنه ما كان بين الخصومة إلا لأن الله علمه البيان.

وقد امتن الله جل وعلا على الإنسان بأنه جعل له آلة البيان التي هي اللسان والشفتان، وذلك في قوله تعالى { أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ } . قوله تعالى: { أَلِشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ } . الحسبان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في الطغيان والرجحان والكفران، فمعنى بحسبان أي بحساب وتقدير من العزيز العليم وذلك من آيات الله ونعمه أيضاً على بني آدم، لأنهم يعرفون به الشهور والسنين والأيام، ويعرفون شهر الصوم وأشهر الحج ويوم الجمعة وعدد النساء اللاتي تعدد بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لِّلشَّمْسِ ضِيَاءً وَ لِّلْقَمَرِ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ لِحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَقِّ يَفْضَلٍ } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى: { فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ لِحِسَابِ } . قوله تعالى: { وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } . اختلف العلماء في المراد بالنجم في هذه الآية، فقال بعض

العلماء: النجم هو ما لا ساق له من النبات كالبقول، والشجر هو ما له ساق، وقال بعض أهل العلم: المراد بالنجم نجوم السماء. قال مقيد عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه. ونعني بآية الحج قوله تعالى { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ }. فدللت هذه الآية أن الساجد من الشجر في آية الرحمن هو النجوم السماوية المذكورة مع الشمس والقمر في سورة الحج، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وعلى هذا الذي اخترناه، فالمراد بالنجم النجوم، وقد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم وأول سورة الحج، وذكرنا أن من الشواهد العربية لإطلاق النجم وإرادة النجم قول الراعي: فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الأكلين جمودها

وقول عمرو بن أبي ربيعة المخزومي:
أبرزها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها قلت بهرا عدد النجم والحصا والتراب

وقوله في هذه الآية الكريمة: { يَسْجُدَانِ } قد قدمنا الكلام عليه مستوفى في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ }. قوله تعالى: { وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِمِيزَانَ }. قوله: والسماء رفعها قد بينا الآيات الموضحة له في سورة وَ في الكلام على قوله تعالى: { أَقْلَمٌ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّهَا }.
وقوله: { وَوَضَعَ لِمِيزَانَ }، قد قدمنا الكلام عليه في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى: { اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ لِكِتَابٍ بِالْحَقِّ وَ لِمِيزَانَ }.

{ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * كُلِّ مَن عَلِيهَا قَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * يَمْعَسِرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِي إِنْ سِتَّطَعْتُمْ أَنْ تَنْفَعُوا مِنْ أَقْطَرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفَعُوا لَا تَنْفَعُونَ إِلَّا بِسُلْطَنٍ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئُ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ * قِيَاءٌ آءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ * فَإِذَا أَنْشَقَتِ السَّمَاءُ

فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * قِيَاءِ آيَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ * قَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ
 إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * قِيَاءِ آيَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ * يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ قِيَوْمَئِذٍ
 بِالتَّوَصُّي وَالْأَقْدَامِ * قِيَاءِ آيَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ {

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا لُوزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا لِمِيزَانَ}. قد قدمنا
 الآيات الموضحة له في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى: {وَأَوْفُوا
 الْكَيْلَ وَ لِمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، وذكرنا بعضه في سورة
 شورى. قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ
 الْأَكْمَامِ وَحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية أنه وضع
 الأرض للأنام وهو الخلق، لأن وضع الأرض لهم على هذا الشكل العظيم،
 القابل لجميع أنواع الانتفاع من إجراء الأنهار وحفر الآبار ووزع الحبوب
 والثمار، ودفن الأموات وغير ذلك من أنواع المنافع. من أعظم الآيات وأكبر
 الآلاء التي هي النعم، ولذا قال تعالى بعده: {قِيَاءِ آيَاءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ}.
 وما تضمنته هذه الآية الكريمة من امتنانه جل وعلا على خلقه بوضع الأرض
 لهم بما فيها من المنافع، وجعلها آية لهم، دالة على كمال قدرة ربهم
 واستحقاقه للعبادة وخدمه، جاء موضحاً في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله
 تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
 جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ تُنْبِتِينَ}،
 وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولاً وَمَنْشُوراً فِي مَتَابِعِهَا وَكُلُوا
 مِنْ رِزْقِهِ}.

وقوله تعالى {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَ الْجِبَالَ
 أَرْسَاهَا مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ} وقوله تعالى {وَالْأَرْضَ قَرَشْتَهَا فَنِعْمَ
 لِمَهْدُونَ} وقوله تعالى { الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً}.
 وقوله تعالى {وَالْأَرْضَ مَدَدْتَهَا وَالْقَيْتَا فِيهَا رُؤُوسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ
 بَهيجَ بَصِيرَةً وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكاً}.
 وقوله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} والآيات بمثل ذلك
 كثيرة معلومة.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فِيهَا فَكِهَةٌ} أي فواكه كثيرة، وقد
 قدمنا أن هذا أسلوب عربي معروف، وأوضحنا ذلك بالآيات وكلام العرب.
 وقوله: {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} ذات أي صاحبة، والأكمام جمع كم بكسر
 الكاف، وهو ما يظهر من النخلة في ابتداء إثمارها، شبه اللسان ثم ينفخ عن
 النور، وقيل: هو ليفها، واختار ابن جرير شموله للأميرين.
 وقوله: {وَالْحَبُّ} كالقمح ونحوه.

وقوله: {ذُو الْعَصْفِ}، قال أكثر العلماء: العصف ورق الزرع، ومنه قوله
 تعالى {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} وقيل العصف: التبن.
 وقوله: {وَالرَّيْحَانُ}؛ اختلف العلماء في معناه، فقال بعض أهل العلم: هو
 كل ما طاب ريحه من النبات وصار يشتم للتمتع بريحه. وقال بعض العلماء
 الريحان: الرزق، ومنه قول النجم بن تولب العكلي:

فروح الإله وريحانه ورجمته وسماء درر
 غمام ينزل رزق العباد فأحيا البلاد وطاب الشجر

ويتعين كون الريحان بمعنى الرزق على قراءة حمزة والكسائي، وأما على قراءة غيرهما فهو محتمل الأمرين المذكورين.
 وإيضاح ذلك أن هذه الآية قرأها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم: { وَ لِحَبُّ دُو لِعَصْفٍ وَالرَّيْحَانُ } بضم الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وهو عطوف على فاكهة أي فيها فاكهة، وفيها الحب إلخ، وقرأه ابن عامر: { وَ لِحَبُّ دُو لِعَصْفٍ وَالرَّيْحَانُ }، بفتح الباء والذال والنون من الكلمات الثلاث، وفي رسم المصحف الشامي ذا العصف بألف بعد الذال، مكان الواو، والمعنى على قراءته: وخلق الحب ذا العصف والريحان، وعلى هاتين القراءتين، فالريحان محتمل لكلا المعنيين المذكورين.
 وقراءة حمزة والكسائي يضم الباء في الحب وضم الذال في ذو العصف وكسر نون الريحان عطفاً على العصف، وعلى هذا فالريحان لا يحتمل المشموم لأن الحب الذي هو القمح ونحوه صاحب عصف وهو الورق أو التبن وليس صاحب مشموم طيب ريح.

فيتعين على هذه القراءة أن المراد بالعصف ما تأكله الأنعام من ورق وتبن، والمراد بالريحان ما يأكله الناس من نفس الحب، فالآية على هذا المعنى كقوله { مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } وقوله تعالى { فَخَرَجْ بِهِ زُرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ }.
 وقوله تعالى { فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّكُلُواْ وَرِءَا أَنْعَامِكُمْ } وقوله تعالى { لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ تَبِيْتُ لَكُمْ بِهِ الرِّزْقَ وَالرَّيْثُونَ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فِيهَا فَكِيهَةٌ } ما ذكره تعالى فيه من الامتنان بالفاكهة التي هي أنواع جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في سورة الفلاح { لَكُمْ فِيهَا فَوْكُهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ } وقوله تعالى: { وَفَكِيهَةٌ وَأَبَا } إلى غير ذلك من الآيات.
 وما ذكره هنا من الامتنان بالحب جاء موضحاً في آيات أخر، كقوله تعالى: { فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ لِحَصِيدٍ } وقوله تعالى { فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً } وقوله تعالى: { وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ }، وقوله تعالى { تُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً }، وقوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ قَالِقٌ لِحَبِّ وَالنَّوَى } إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره تعالى هنا من الامتنان بالنحل، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: { وَالنَّحْلَ بَسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ رِّزْقاً لِلْعِبَادِ }، وقوله تعالى { فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.
 وما ذكره هنا من الامتنان بالريحان، على أنه الرزق كما في قراءة حمزة والكسائي، جاء موضحاً في آيات كثيرة أيضاً كقوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُم مِّن آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً } وقوله تعالى: { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }، وقوله تعالى: { أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ }، وقوله تعالى: { وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ }، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

مسألة

أخذ بعض علماء الأصول من هذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات كقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} أن الأصل فيما على الأرض الإباحة، حتى يرد دليل خاص بالمنع، لأن الله امتن على الأنام بأنه وضع لهم الأرض، وجعل لهم فيها أرزاقهم من القوت والتفكه في آية الرحمن هذه، وامتن عليهم بأنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً في قوله {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}.

ومعلوم أنه جل وعلا لا يمتن بحرام إذ لا منة في شيء محرم، واستدلوا لذلك أيضاً بحصر المحرمات في أشياء معينة في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى {قُلْ لَا أُحَدِّثُ فِي مَّا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ}. وقوله تعالى {قُلْ تَعَالَوْا أَنبَأْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ}. وفي هذه المسألة قولان آخران.

أحدهما: أن الأصل فيما على الأرض التحريم حتى يدل دليل على الإباحة، واحتجوا لهذا بأن جميع الأشياء مملوكة لله جل وعلا، والأصل في ملك الغير منع التصرف فيه إلا بإذنه، وفي هذا مناقشات معروفة في الأصول، ليس هذا محل بسطها.

القول الثاني: هو الوقف وعدم الحكم فيها بمنع ولا إباحة حتى يقوم الدليل، فتحصل أن في المسألة ثلاثة مذاهب: المنع، والإباحة، والوقف. قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: الذي يظهر لي صوابه في هذه المسألة هو التفصيل، لأن الأعيان التي خلقها الله في الأرض للناس بها ثلاث حالات: الأولى: أن يكون فيها نفع لا يشوبه ضرر كأنواع الفواكه وغيرها. الثانية: أن يكون فيها ضرر لا يشوبه نفع كأكل الأعشاب السامة القاتلة. الثالثة: أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى، فإن كان فيها نفع لا يشوبه ضرر، فالتحقيق حملها على الإباحة حتى يقوم دليل على خلاف ذلك لعموم قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}. وقوله {وَالْأَرْضَ وَصَعَهَا لِلْأَنَامِ}.

وإن كان فيها ضرر لا يشوبه نفع فهي على التحريم لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار».

وإن كان فيها نفع من جهة وضرر من جهة أخرى فلها ثلاث حالات: الأولى: أن يكون النفع أرجح من الضرر.

والثانية: عكس هذا.

والثالثة: أن يتساوى الأمران.

فإن كان الضرر أرجح من النفع أو مساوياً له فالمنع لحديث «لا ضرر ولا ضرار» ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن كان النفع أرجح، فالأظهر الجواز، لأن المقرر في الأصول أن المصلحة الراجحة تقدم على المفسدة المرجوحة، كما أشار له في مراقبي السعود بقوله: * وألغ إن يك الفساد أبعداً * أو رجح الإصلاح كأسارا تفدى بما ينفع للنصارا وانظر تدلي دولي العنب في كل مشرق وكل مغرب

ومراداه: تقديم المصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة، أو البعيدة ممثلاً له بمثالين:

الأول منهما: أن تخلص أسارى المسلمين من أيدي العدو بالفداء مصلحة راجحة قدمت على المفسدة المرجوحة، التي هي انتفاع العدو بالمال المدفوع لهم فداء للأسارى.

الثاني: أن انتفاع الناس بالعنب والزبيب، مصلحة راجحة على مفسدة عصر الخمر من العنب، فلم يقل أحد بإزالة العنب من الدنيا لدفع ضرر عصر الخمر منه، لأن الانتفاع بالعنب والزبيب مصلحة راجحة على تلك المفسدة، وهذا التفصيل الذي اخترنا، قد أشار له صاحب مراقبي السعود بقوله: والحكم ما به يجيء الشرع وأصل كل ما يضر المنع

تنبيه

اعلم أن علماء الأصول يقولون: إن الإنسان لا يحرم عليه فعل شيء إلا بدليل من الشرع، ويقولون إن الدليل على ذلك عقلي، وهو البراءة الأصلية المعروفة بالإباحة العقلية، وهي استصحاب العدم الأصلي حتى يرد دليل ناقل عنه.

ونحن نقول: إنه قد دلت آيات من كتاب الله على أن استصحاب العدم الأصلي قبل ورود الدليل الناقل عنه حجة في الإباحة، ومن ذلك أن الله لما أنزل تشديده في تحريم الربا في قوله تعالى { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ }، وكانت وقت نزولها عندهم أموال مكتسبة من الربا، اكتسبوها قبل نزول التحريم، بين الله تعالى لهم أن ما فعلوه من الربا، على البراءة الأصلية قبل نزول التحريم لا حرج عليهم فيه، إذ لا تحريم إلا ببيان، وذلك في قوله تعالى: { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ } وقوله: ما سلف أي ما مضى قبل نزول التحريم، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: { وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } وقوله تعالى { وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ } والأظهر أن الاستثناء فيهما في قوله: { إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ }. منقطع أي لكن ما سلف من ذلك قبل نزول التحريم، فهو عفو، لأنه على البراءة الأصلية.

ومن أصرح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى { وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ } لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما استغفر لعمه أبي طالب بعد موته على الشرك، واستغفر المسيلمون لموتهم المشركين عاتبهم الله في قوله { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ } . ندموا على الاستغفار لهم، فبين الله لهم أن استغفارهم لهم لا مؤاخذه به، لأنه وقع قبل بيان منعه، وهذا صريح فيما ذكرنا.

وقد قدمنا أن الأخذ بالبراءة الأصلية يعذر به في الأصول أيضاً في الكلام على قوله تعالى { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا } وبيننا هناك كلام أهل العلم في ذلك، وأوضحنا ما جاء في ذلك من الآيات القرآنية. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ لِبَّانٍ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ تَارٍ } . الصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي صوت إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال المنتن، والفخار الطين المطبوخ، وهذه الآية بين الله فيها طوراً من أطوار التراب الذي خلق منه آدم، فبين في آيات أنه خلقه من تراب كقوله تعالى { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ } وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ لِّبَعْتِ فَاِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ } وقوله تعالى { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } وقوله تعالى { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ } وقوله تعالى { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } .

وقد بينا في قوله تعالى { فَاِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ } وقوله { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ } أن المراد بخلقهم منها هو خلق أبيهم آدم منها، لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن الله تعالى عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ولذا قال { أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا } وقال { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ } وقال تعالى { وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ } . وقال { أَمْ مَن خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ } وقال تعالى: { إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ } ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنوناً، أي طيناً أسود متغير الريح، كما قال تعالى { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } .

قال تعالى { إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } وقال عن إبليس { قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } والمسنون قيل المتغير وقيل المصور وقيل الأملس، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً. كما قال هنا: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ } وقال { لِبَّانٍ } أي وخلق الجان وهو أبو الجن، وقيل هو إبليس. وقيل: هو الواحد من الجن. وعليه فالآلف واللام للجنس، والمارج: اللهب الذي لا دخان فيه، وقوله { مِّنْ تَارٍ } بيان لمارج. أي من لهب صاف كائن من النار.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى خلق الجان من النار، جاء موضعاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى في الحجر { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَآ مَّسْنُونٍ } و { لِبَّانٍ } خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ تَارٍ أَلَسْمُومِ } وقوله تعالى { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } .

وقد أوضحنا الكلام على هذا في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى { إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَ سَبَّكَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ } . قوله تعالى: { رَبِّ لِمَ شَرَقْتَنِي } وقد أوضحنا الكلام عليه في أول الصافات في الكلام على قوله تعالى { رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبِّ لِمَ شَرَقْتَنِي } . قوله تعالى: { مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَّخْجُورًا } . قوله تعالى: { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ } . قرأ هذا الحرف نافع وأبو عمرو، { يَخْرُجُ } بضم الياء وفتح الراء مبنياً للمفعول، وعليه فاللؤلؤ نائب فاعل يخرج وقرأه باقي السبعة: { يَخْرُجُ } بفتح الياء وضم الراء مبنياً للفاعل، وعليه فاللؤلؤ فاعل يخرج.

اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية يخرج منهما أي من مجموعها الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شك في بطلانه، لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا يشك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله تعالى {رَوْمًا يَسْتَوِي لِيَخْرَانَ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِعٌ شِرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاخٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا} فالتنوين في قوله: {مِنْ كُلِّ} تنوين عوض أي من كل واحد من العذب والملح تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا مما لا نزاع فيه.

وقد أوضحنا هذا في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى {يَمْعَشِرَ لِحِنَّةٍ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ} واللؤلؤ الدر، والمرجان الخرز الأحمر. وقال بعضهم: المرجان صغار الدر واللؤلؤ كباره. قوله تعالى: {وَلَهُ لِحْوَارٍ لُّمُنَسَّاتٌ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة شوري في الكلام على قوله تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ لِحْوَارٍ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ}. قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}. ما تضمنته هذه الآية الكريمة من فناء كل من على الأرض وبقاء وجهه جل وعلا المتصف بالجلال والإكرام، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، وقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ لِحَىٰ لَيْذِي لَا يَمُوتُ}. وقوله تعالى {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ لِمُوتٍ} إلى غير ذلك من الآيات.

والوجه صفة من صفات الله العلي وصف بها نفسه، فعلياً أن نصدق ربنا ونؤمن بما وصف به نفسه مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق. وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة الأعراف، وفي سورة القتال. والعلم عند الله تعالى. قوله تعالى: {يَمْعَشِرَ لِحِنَّةٍ وَالْإِنْسِ إِن سَلِطَعْتُمْ أَن تَتَفَدُّوا مِنْ أَقْطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْقُدُوا لَا تَتَفَدُّونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَخَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ} وتكلمنا أيضاً هناك على غيرها من الآيات التي يفسرها الجاهلون بكتاب الله بغير معانيها، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَاثَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن السماء ستنشق يوم القيامة، وأنها إذا انشقت صارت وردة كالدهان، وقوله: {وَرْدَةً}: أي حمراء كلون الورد، وقوله {كَالدِّهَانِ}: فيه قولان معروفان للعلماء.

الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابهة للجلد الأحمر في لونه. والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به، وعليه، فالدهان، قيل: هو جمع دهن، وقيل: هو مفرد، لأن العرب تسمى ما يدهن به دهاناً، وهو مفرد، ومنه قول امرئ القيس: كأنهما مزادتا متعجل فريان لما تدهني بدهان

وحقيقة الفرق بين القولين أنه على القول بأن الدهان هو الجلد الأحمر، يكون الله وصف السماء عند انشقاقها يوم القيامة بوصف واحد وهو الحمرة فشبها بحمرة الورد. وحمرة الأديم الأحمر. قال بعض أهل العلم: إنها يصل إليها حر النار فتحمر من شدة الحرارة. وقال بعض أهل العلم: أصل السماء حمراء إلا أنها لشدة بعدها وما دونها من الحواجز لم تصل العيون إلى إدراك لونها الأحمر على حقيقته، وأنها يوم القيامة ترى على حقيقة لونها. وأما على القول بأن الدهان هو ما يدهن به، فإن الله وقد وصف السماء عند انشقاقها بوصفين أحدهما حمرة لونها، والثاني أنها تذوب وتصير مائعة كالدهن.

أما على القول الأول، فلم نعلم آية من كتاب الله تبين هذه الآية، بأن السماء ستحمر يوم القيامة حتى تكون كلون الجلد الأحمر. وأما على القول الثاني الذي هو أنها تذوب وتصير مائعة، فقد أوضحه الله في غير هذا الموضع وذلك في قوله تعالى في المعارج {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ قَرِيبًا يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}، والمهل شيء ذائب على كلا القولين سواء قلنا: إنه دردي الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما.

وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء شديد الحرارة، وذلك في قوله تعالى: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي لُجُودَهُ يَتْسَوْنَ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}.

والقول بأن الورد تشبیه الفرس الكميت وهو الأحمر لأن حمرة تتلون باختلاف الفصول، فتشتد حمرتها في فصل، وتميل إلى الصفرة في فصل، وإلى الغبرة في فصل.

وأن المراد بالتشبيه كون السماء عند انشقاقها تتلون بألوان مختلفة واضح البعد عن ظاهر الآية، وقول من قال: إنها تذهب وتجيء معناه له شاهد في كتاب الله، وذلك في قوله تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا}، ولكنه لا يخلو عندي من بعد.

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة، جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} وقوله تعالى {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ} وقوله: {وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ}. وقوله: {إِذَا السَّمَاءُ انقَطَرَتْ}، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الواقعة في الكلام على قوله تعالى: {وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}. قوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه يوم القيامة لا يسأل إنساناً ولا جانا عن ذنبه، وبين هذا المعنى في قوله تعالى في القصص: {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَمُجْرِمُونَ}.

وقد ذكر جل وعلا في آيات أخر أنه يسأل جميع الناس يوم القيامة الرسل والمرسل إليهم، وذلك في قوله تعالى {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}، وقوله {قَوْرَبِكَ لِنَسْأَلَنَّاهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وقد جاءت آيات من كتاب الله مبينة لوجه الجمع بين هذه الآيات، التي قد يظن غير العالم أن بينها اختلافاً، اعلم أولاً أن للسؤال المنفي في قوله هنا

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ}، وقوله {وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لَمُجْرِمُونَ} أخص من السؤال المثبت في قوله {قَوْرَبِكَ لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأن هذه فيها تعميم السؤال في كل عمل، والآيتان قبلها ليس فيهما نفي السؤال إلا عن الذنوب خاصة، وللجمع بين هذه الآيات أوجه معروفة عند العلماء.

الأول منها: وهو الذي دل عليه القرآن، وهو محل الشاهد عندنا من بيان القرآن بالقرآن هنا، هو أن السؤال نوعان: أحدهما سؤال التوبيخ والتقريع وهو من أنواع العذاب، والثاني هو سؤال الاستخبار والاستعلام. فالسؤال المنفي في بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام، لأن الله أعلم بأفعالهم منهم أنفسهم كما قال تعالى: {أَخْصَهُ اللَّهُ وَتَسْوَهُ}، وعليه فالمعنى لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، سؤال استخبار واستعلام لأن الله أعلم بذنبه منه.

والسؤال المثبت في الآيات الأخرى هو سؤال التوبيخ والتقريع، سواء كان عن ذنب أو غير ذنب، ومثال سؤالهم عن الذنوب سؤال توبيخ وتقريع قوله تعالى: {قَالَمَا لِيذِينَ سَوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}، ومثاله عن غير ذنب قوله تعالى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ بَلْ هُمْ لَيَوْمٍ مُسْتَسْلِمُونَ} وقوله تعالى {يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى تَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ لِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ فَاسِحِرْ هَذَا}، وقوله {الْمَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ}.

أما سؤال الموءودة في قوله: {وَإِذَا لُْمَوْءُودَةٌ سُئِلَتْ} فلا يعارض الآيات النافية السؤال عن الذنب، لأنها سئلت عن أي ذنب قتلت وهذا ليس من ذنبها، والمراد بسؤالها توبيخ قاتلها وتقريعه، لأنها هي تقول لا ذنب لي، فيرجع اللوم على من قتلها ظلماً.

وكذلك سؤال الرسل، فإن المراد به توبيخ من كذبهم وتقريعه، مع إقامة الحجة عليه بأن الرسل قد بلغته، وباقي أوجه الجمع بين الآيات لا يدل عليه قرآن، وموضوع هذا الكتاب بيان القرآن بالقرآن، وقد بينا بقيتها في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب في أول سورة الأعراف.

وقد قدمنا طرفاً من هذا الكتاب المبارك في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: {فَلَيْسَ أَلَّنَّ لِيذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ وَلَيْسَ أَلَّنَّ لِمُرْسَلِينَ} . قوله تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} . قوله: {بِسِيمَاهُمْ} : أي بعلامتهم المميزة لهم، وقد دل القرآن على أنها هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم، كما قال تعالى {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَسَوْدٌ وُجُوهٌُ قَالَمَا لِيذِينَ سَوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ} ، وقال تعالى: {وَيَوْمَ لَقِيْمَةَ يَتْرَى لِيذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مَّسْوَدَّةٌ} ، وقال تعالى: {وَتَرَاهُمْ ذُلُهُمْ مَّا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ، وقال تعالى {وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمْ لِكُفْرَةٍ لَقِجَرَةٍ} ، لأن معنى قوله {تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} أي يعلوها ويغشاها سواد كالدخان الأسود، وقال تعالى في زرقة عيونهم: {وَتَخْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} ولا شيء أقيح وأشوه من سواد الوجوه وزرقة العيون، وكذا لما

أراد الشاعر أن يقبح علل البخيل بأسوا الأوصاف وأقبحها، فوصفها بسواد
الوجوه وزرقة العيون حيث قال:
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

ولا سيما إذا اجتمع مع سواد الوجه اغبراره، كما في قوله: {عَلَيْهَا
عَبْرَةٌ تَرْهَفُهَا قَتْرَةٌ} فإن ذلك يزيد قبحا على قبح.
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَيُؤَخِّدُ بِاللَّوْاصِي وَالْأُقْدَامِ}، وقد قدمنا
تفسيره والآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى:
{يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى تَارِجَهُمْ دَعَاً} .

{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ *
قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا
تُكذَّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْتَانٍ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * فِيهِمَا عَيْتَانِ تَخْرِيَانِ * قِيَاءٍ
ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فِكْهَةٍ رَوْجَانِ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ
* مُتَكَيِّبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى لَجَنَّتَيْنِ دَانَ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ
رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * فِيهِنَّ قَصِيْرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ *
قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * كَانَهُنَّ لِيَابِقُوتٌ وَلَمْرُجَانٌ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا
تُكذَّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * وَمِنْ
دُونِهِمَا جَنَّاتٍ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * مُدْهَامَاتٍ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا
تُكذَّبَانِ * فِيهِمَا عَيْتَانِ تَصَآخَتَانِ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * فِيهِمَا فِكْهَةٌ
وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ
رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي لِحْيَامٍ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * لَمْ
يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * مُتَكَيِّبِينَ عَلَى
رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَقْقَرٍ حِسَانٍ * قِيَاءٍ ءَالَاءٍ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * تَبْرَكَ سَلْمٌ رَبِّكَ
ذِي لَجَلِّ وَالْإِكْرَامِ}

قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانَ}. أما قوله: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ} فقد قدمنا
الآيات الموضحة له في سورة الطور أيضا في الكلام على قوله تعالى:
{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ} .

وأما قوله تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ} فقد قدمنا الآيات
الموضحة له في سورة الحج في الكلام على قوله: {يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ
لِحْمِيمٌ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ} . قوله تعالى: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّاتٍ} . وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك، أن الآية قد يكون فيها
وجهان صحيحان كلاهما يشهد له قرآن، فنذكر ذلك كله مبينين أنه كله حق،
وذكرنا لذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك، ومن ذلك هذه الآية
الكريمة.

وإيضاح ذلك أن هذه الآية الكريمة فيها وجهان معروفان عند العلماء، كلاهما
يشهد له قرآن:

أحدهما: أن المراد بقوله: {مَقَامَ رَبِّهِ}: أي قيامه بين يدي ربه، فالمقام اسم
مصدر بمعنى القيام، وفاعله على هذا الوجه هو العبد الخائف، وإنما أضيف

إلى الرب لوقوعه بين يديه، وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ}، فإن قوله: {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ}: قرينة دالة على أنه خاف عاقبة الذنب حين يقوم بين يدي ربه، فنهى نفسه عن هواها.

والوجه الثاني: أن فاعل المصدر الميمي الذي هو المقام، هو الله تعالى: أي خاف هذا العبد قيام العبد قيام الله عليه ومراقبته لأعماله وإحصائها عليه، ويدل لهذا الوجه الآيات الدالة على قيام الله على جميع خلقه وإحصائه عليهم أعمالهم كقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِحَىٰ لِقَائِهِ}، وقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، وقوله تعالى: {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}. إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا في سورة الأحقاف في الكلام على قوله تعالى في شأن الجن: {يَقُومُونَ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}، أن قوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ}، وتصريحه بالامتنان بذلك على الإنس والجن في قوله {قِيَاءٌ أَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، نص قرآني على أن المؤمنين الخائفين مقام ربهم من الجن يدخلون الجنة. قوله تعالى: {مُنْكَيِّنَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} قد بينا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا} جميع الآيات القرآنية الدالة على تنعم أهل الجنة بالسندس والإستبرق، والحلية بالذهب والفضة، وبيننا أن جميع ذلك يحرم على ذكور هذه الأمة في دار الدنيا. قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}. قد قدمنا الكلام عليه مستوفي في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}. قوله تعالى: {حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}. قد قدمنا معنى القصر في الخيام، وقصر الطرف على الأزواج في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}، وقد دلت الآيات الدالة على صفات نساء أهل الجنة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب في سورة البقرة والصافات. وغير ذلك.

تم بحمد الله تفسير سورة الرحمن

تفسير سورة الواقعة

{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * قَاصِحَاتٌ لَمِيمَاتٌ مَا أَصْحَابُ لَمِيمَةٍ * وَأَصْحَابُ لَمِيمَةٍ مَا أَصْحَابُ لَمِيمَةٍ * وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ} قوله تعالى: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ}. الذي يظهر لي صوابه أن إذا هنا هي الظرفية المضمنة معنى الشرط، وأن قوله الآتي: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا} بدل من قوله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} وأن جواب إذا هو قوله: {قَاصِحَاتٌ لَمِيمَاتٌ}، وهذا هو اختيار أبي حيان خلافاً لمن زعم أنها مسلوبة

معنى الشرط هنا، وأنها منصوبة بأذكر مقدره أو أنها مبتدأ، وخلافاً لمن زعم أنها منصوبة بليس المذكورة بعدها.

والمعروف عند جمهور النحويين أن إذا ظرف مضمن معنى الشرط منصوب بجزائه، وعليه فالمعنى: إذا قامت القيامة وحصلت هذه الأحوال العظيمة ظهرت منزلة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} أي قامت القيامة، فالواقعة من أسماء القيامة كالطامة والصاخة والأزفة والقارعة.

وقد بين جل وعلا أن الواقعة هي القيامة في قوله: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَجِدَّةً وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ} فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء كلها حق، وبعضها يشهد له قرآن.

الوجه الأول: أن قوله كاذبة مصدر جاء بصفة اسم الفاعل، فالكاذبة بمعنى الكذب كالعافية بمعنى المعافاة، والعاقبة بمعنى العقبي، ومنه قوله تعالى عند جماعات من العلماء {لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً} قالوا معناه لا تسمع فيها لغواً، وعلى هذا القول، فالمعنى ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هو أمر واقع يقيناً لا محالة.

ومن هذا المعنى، قولهم: حمل الفارس على قرنه فما كذب، أي ما تأخر ولا تخلف ولا جبن.

ومنه قول زهير: ليث يعثر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ}، وقوله تعالى: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا}، وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة شورى في الكلام على قوله تعالى: {وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ}.

الوجه الثاني: أن اللام في قوله: {لَوْفَعَتِهَا} ظرفية، و{كَاذِبَةٌ} اسم فاعل صفة لمحذوف أي ليس في وقعة الواقعة نفس كاذبة بل جميع الناس يوم القيامة صادقون بالاعتراف بالقيامه مصدقون بها ليس فيهم نفس كاذبة بإنكارها ولا مكذبة بها.

وهذا المعنى تشهد له في الجملة آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْهُ لِعَذَابِ الْأَلِيمِ}، وقوله تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله تعالى: {بَلْ لَرَّكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ}، وباقى الأوجه قد يدل على معناه قرآن ولكنه لا يخلو من بعد عندي، ولذا لم أذكره، وأقربها عندي الأول. قوله تعالى: {خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ}. خبر مبتدأ محذوف أي هي خافضة رافعة، ومفعول كل من الوصفين محذوف.

قال بعض العلماء: تقديره هي خافضة أقواماً في دركات النار، رافعة أقواماً إلى الدرجات العلى إلى الجنة، وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة كقوله: {إِنَّ الْمُتَفِقِينَ فِي الذِّكْرِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}، وقوله تعالى {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} وقوله تعالى: {وَلَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} وآيات بمثل هذا كثيرة معلومة.

وقال بعض العلماء: تقديره خافضة أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا رافعة أقواماً كانوا منخفضين في الدنيا، وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: {إِنَّ لِدِينَ آجِرْمُوا كَانُوا مِنْ لِيذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ} - إلى قوله - {فَلْيَوْمَ لِيذِينَ ءَامَنُوا مِنْ لِكْفَارٍ يَصْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: تقديره، خافضة بعض الأجرام التي كانت مرتفعة كالنجوم التي تسقط وتتناثر يوم القيامة، وذلك خفض لها بعد أن كانت مرتفعة، كما قال تعالى: {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ} وقال تعالى: {وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}.

رافعة: أي رافعة بعض الأجرام التي كانت منخفضة كالجبال التي ترفع من أماكنها وتسير بين السماء والأرض كما قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}، فقوله: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً}، لأنها لم يبق على ظهرها شيء من الجبال، وقال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}.

وقد قدمنا أن التحقيق الذي دل عليه القرآن، أن ذلك يوم القيامة، وأنها تسير بين السماء والأرض كسير السحاب الذي هو المزن.

وقد صرح بأن الجبال تحمل هي والأرض أيضاً يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَجُدَّةُ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ}.

وعلى هذا القول، فالمراد تعظيم شأن يوم القيامة، وأنه يختل فيه نظام العالم، وعلى القولين الأولين، فالمراد الترغيب والترهيب، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضاً، وقد قدمنا مراراً أن الصواب في مثل هذا حمل الآية على شمولها للجميع. قوله تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}، قد قدمنا أن الأظهر عندنا أن قوله {إِذَا رُجَّتِ} بدل من قوله {إِذَا وَقَعَتِ لُؤَاقِعُهُ}، والرج: التحريك الشديد، وما دلت عليه هذه الآية من أن الأرض يوم القيامة تحرك تحريكاً شديداً جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}، وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في أول سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّ زِلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} وقوله تعالى: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} في معناه لأهل العلم أوجه متقاربة، لا يكذب بعضها بعضاً وكلها حق، وكلها يشهد له قرآن.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها أوجه كلها حق وكلها يشهد له قرآن، فنذكر جميع الأوجه وأدلتها القرآنية.

قال أكثر المفسرين {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} أي فتت تفتيتاً حتى صارت كالبيسة، وهي دقيق ملتوت بسمن، ومنه قول لص من غطفان أراد أن يخبز دقيقاً عنده فخاف أن يعجل عنه، فأمر صاحبه أن يلتاه ليأكلوه دقيقاً ملتوتاً، وهو البيسة.
لا تخبزاً خبزاً وبسابسا ولا تطيلاً بمناخ حبسا

وهذا الوجه يشهد له قرآن كقوله تعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا}، فقوله: {كَثِيبًا مَّهِيلًا} أي رملاً متهايلاً، ومنه قول امرئ القيس:

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت علي وآلت حلفة لم تحلل

ومشابهة الدقيق المبسوس بالرمل المتهايل واضحة، فقوله: {وَكَاثِبِ الْجِبَالِ كَثِيبًا مَّهِيلًا} مطابق في المعنى لتفسير {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} بأن بسها هو تفتيتها وطحنها كما ترى.

وما دلت عليه هذه الآيات من أنها تسلب عنها قوة الحجرية وتتصف بعد الصلابة والقوة باللين الشديد الذي هو كلين الدقيق، والرمل المتهايل يشهد له في الجملة تشبيهها في بعض الآيات بالصوف المنفوش الذي هو العهن، كقوله تعالى {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}، وقوله تعالى: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} وأصل العهن أخص من مطلق الصوف لأنه الصوف المصبوغ خاصة. ومنه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

كأن فتاة العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

وقال بعضهم: الجبال منها جدد بيض وحمرة ومختلف ألوانها وغرايب سود، فإذا بست وفتت يوم القيامة وطيرت في الجو أشبهت العهن إذا طيرته الريح في الهوى، وهذا الوجه يدل عليه ترتيب كينونتها هباءً منبثاً بالفاء على قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} لأن الهباء هو ما ينزل من الكوة من شعاع الشمس إذا قابلتها:

{مُنْبَثًّا} أي متفرقاً، ووصفها بالهباء المنبث أنسب لتكون البس بمعنى التفتيت والطحن.

الوجه الثاني: أن معنى قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} أي سيرت بين السماء والأرض، وعلى هذا فالمراد ببسها سوقها وتسييرها من قول العرب: بسست الإبل أبسها، بضم الباء وأبستها أبسها بضم الهمزة وكسر الباء، لغتان بمعنى سقتها، ومنه حديث: «يخرج أقوام من المدينة إلى اليمن والشام، والعراق يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ}، وقوله {وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}.

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة النمل في الكلام على قوله: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}.

الوجه الثالث: أن معنى قوله: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} نزعت من أماكنها وقلعت، وقد أوضحنا أن هذا الوجه راجع للوجه الأول مع الإيضاح التام لأحوال الجبال يوم القيامة، وأطوارها، بالآيات القرآنية، وفي سورة طه في الكلام على قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا} كقوله تعالى: {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، والهباء إذا انبث، أي تفرق، واضمحل وصار لا شيء، والسراب قد قال الله تعالى فيه: {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}. قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}. أي صرتم أزواجاً ثلاثة، والعرب تطلق كان بمعنى صار، ومنه {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} أي فتصيرا من الظالمين.

ومنه قول الشاعر: بتيهاء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

وقوله: {أَزْوَاجًا}: أي أصنافاً ثلاثة، ثم بين هذه الأزواج الثلاثة بقوله: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّيْفُونا وَالسَّيْفُونا وَلِئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ} أما أصحاب الميمنة فهم أصحاب اليمين، كما أوضحه تعالى بقوله: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ}، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال كما أوضحه تعالى: بقوله {وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ}.

قال بعض العلماء: قيل لهم أصحاب اليمين لأنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم. وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة. وقيل: لأنهم عن يمين أبيهم آدم، كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ليلة الإسراء.

وقيل سموا أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة لأنهم ميامين، أي مباركون على أنفسهم، لأنهم أطاعوا ربهم فدخلوا الجنة، واليمن البركة. وسمي الآخرون أصحاب الشمال، وقيل: لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم. وقيل: لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تسمي الشمال شؤماً، كما تسمي اليمين يمينا، ومن هنا قيل لهم أصحاب المشأمة أو لأنهم مشائيم على أنفسهم: فعصوا الله فأدخلهم النار، والمشائيم ضد الميامين، ومنه قول الشاعر: مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بين غرابها

وبين جل وعلا أن السابقين هم المقربون، وذلك في قوله: {وَالسَّيْفُونا} أول هذه السورة الكريمة جاءت هي وجزاؤها أيضاً في آخرها، وذلك في قوله: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتِ نَعِيمٌ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ أَصْحَابِ النَّارِ فَسَلْمٌ لِّكَ مِنَ الْأَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ} والمكذبون هم أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال.

وذكر تعالى بعض صفات أصحاب الميمنة والمشامة في البلد في قوله تعالى: {فَكَرَقِبَةً أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعِيَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ} - إلى قوله تعالى - {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}، وقوله: {مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}

استفهام أريد به التعجب من شأن هؤلاء في السعادة، وشأن هؤلاء في الشقاوة، والجملة فيهما مبتدأ وخبر، وهي خبر المبتدأ قبله، وهو أصحاب الميمنة في الأول وأصحاب المشامة في الثاني. وهذا الأسلوب يكثر في القرآن نحو {لِحَاقَةَ مَا لِحَاقَةُ}، {لِقَارِعَةُ مَا لِقَارِعَةُ}، والرابط في جملة الخبر في جميع الآيات المذكورة هو إعادة لفظ المبتدأ في جملة الخبر كما لا يخفى، وقوله: {وَالسَّابِقُونَ} لم يذكر فيه استفهام تعجب كما ذكره فيما قبله، ولكنه ذكر في مقابلة تكرير لفظ السابقين.

والأظهر في إعرابه أنه مبتدأ وخبر على عادة العرب في تكريرهم اللفظ وقصدهم الإخبار بالثاني عن الأول، يعنون أن اللفظ المخبر عنه هو المعروف خبره الذي لا يحتاج إلى تعريف ومنه قول أبي النجم: أنا أبو النجم وشعري شعري لله دري ما أجن صدري

فقوله: وشعري شعري يعني شعري هو الذي بلغك خبره، وانتهى إليك وصفه.

{ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * عَلَيَّ سُرْرٍ مَّوْصُوتَةٍ * مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا * مُتَّقِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَا يَصُدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ * وَفِيهَا مِمَّا يَتَّخِذُونَ * وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَخُورٍ عَيْنٍ * كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ لِمَكْنُونٍ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفِيهَا كَثِيرٌ مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ * فَجَعَلْنَهُمْ أَكْبَرًا * غُرَبَاءَ أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ * مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ آلِحْنِثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَدَا لِمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ مَعْلُومٍ}

قوله تعالى: {ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}، وقوله: ثلة: خبر مبتدأ محذوف، والتقدير، هم ثلة، والثلة الجماعة من الناس، وأصلها القطعة من الشيء وهي الثل، وهو الكسر.

وقال الزمخشري: والثلة من الثل، وهو الكسر، كما أن الأمة من الأم وهو الشبح، كأنها جماعة كسرت من الناس، وقطعت منهم. اهـ. منه.

واعلم أن التلة تشمل الجماعة الكثيرة، ومنه قول الشاعر: فجاءت إليهم تلة خندفية بجيش كتيار من السيل مزيد

لأن قوله: تيار من السيل: يدل على كثرة هذا الجيش المعبر عنه بالتلة. وقد اختلف أهل العلم في المراد بهذه التلة من الأولين، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا، كما اختلفوا في الثلثين المذكورتين في قوله: {ثَلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}. فقال بعض أهل العلم: كل هؤلاء المذكورين من هذه الأمة، وأن المراد بالأولين منهم الصحابة.

وبعض العلماء يذكر معهم القرون المشهود لهم بالخير في قوله صلى الله عليه وسلم «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم» الحديث. والذين قالوا: هم كلهم من هذه الأمة، قالوا: إنما المراد بالقليل، وثلة من الآخرين، وهم من بعد ذلك إلى قيام الساعة.

وقال بعض العلماء: المراد بالأولين في الموضوعين الأمم الماضية قبل هذه الأمة، فالمراد بالآخرين فيهما هو هذه الأمة.

قال مقيد عفا الله عنه، وغفر له: ظاهر القرآن في هذا المقام: أن الأولين في الموضوعين من الأمم الماضية، والآخرين فيهما من هذه الأمة، وأن قوله تعالى: {ثَلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ} في السابقين خاصة، وأن قوله: {ثَلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثَلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ} في أصحاب اليمين خاصة.

وإنما قلنا: إن هذا هو ظاهر القرآن في الأمور الثلاثة، التي هي شمول الآيات لجميع الأمم، وكون قليل من الآخرين في خصوص السابقين، وكون تلة من الآخرين في خصوص أصحاب اليمين لأنه واضح من سياق الآيات.

أما شمول الآيات لجميع الأمم فقد دل عليه أول السورة، لأن قوله: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} - إلى قوله - {فَكَاتَتْ هَبَاءً مُّنبِتًا} لا شك أنه لا يخص أمة دون أمة، وأن الجميع مستوون في الأهوال والحساب والجزاء.

فدل ذلك على أن قوله: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} عام في جميع أهل المحشر، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين منهم من هو من الأمم السابقة، ومنهم من هو من هذه الأمة.

وعلى هذا، فظاهر القرآن، أن السابقين من الأمم الماضية أكثر من السابقين من هذه الأمة، وأن أصحاب اليمين من الأمم السابقة ليست أكثر من أصحاب اليمين من هذه الأمة، لأنه عبر في السابقين من هذه الأمة بقوله: {وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ} وعبر عن أصحاب اليمين من هذه الأمة {وَتَلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}.

ولا غرابة في هذا، لأن الأمم الماضية أمم كثيرة. وفيها أنبياء كثيرة ورسول، فلا مانع من أن يجتمع من سابقها من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من سابقها هذه الأمة وحدها.

أما أصحاب اليمين من هذه الأمة فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم، لأن التلة تتناول العدد الكثير، وقد يكون أحد العديدين الكثيرين أكثر من الآخر، مع أنهما كلاهما كثير.

ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن واختاره ابن جرير، لا ينافي ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة.

فأما كون قوله {وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخْرِينَ} دل ظاهر القرآن على أنه في خصوص السابقين، فلأن الله قال {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} ثم قال تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين {ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْأَخْرِينَ}.

وأما كون قوله: {وَتِلْكَ مِنَ الْأَخْرِينَ} في خصوص أصحاب اليمين، فلأن الله تعالى قال {فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَرًا عُزْبًا أُنثَرًا بِالْأَصْحَابِ لِيَمِينَنَّهُ مِّنَ الْأُولِينَ وَتِلْكَ مِنَ الْأَخْرِينَ}، والمعنى هم أي أصحاب اليمين: ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين، وهذا واضح كما ترى. قوله تعالى: {عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُوعَةٍ مُّتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ}. السرر جمع سرير، وقد بين تعالى: أن سررهم مرفوعة في قوله: في الغاشية {فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ} وقوله تعالى {مَّوْضُوعَةٍ} منسوجة بالذهب، وبعضهم يقول بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت، وكل نسج أحكم ودوخل بعضه في بعض، تسمية العرب وضنا، وتسمى المنسوج به موضونا ووضينا، ومنه الدرع الموضونة إذا أحكم نسجها ودوخل بعض حلقاتها في بعض.

ومنه قول الأعشى:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرا فعيرا

وقوله أيضاً:

وبيضاء كالنهي موضونة لها قونس فوق جيب البدن

ومن هذا القبيل تسمية البطان الذي ينسج من السيور، مع إدخال بعضها في بعض وضينا.

ومنه قول الراجز:

ليك تعدو قلقا وضينها معترضا في بطنها جنينها

* مخالفاً دين النصارى دينها *

وهذه السرر المزينة، هي المعبر عنها بالأرائك في قوله {مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} وقوله: {هُمُ وَأَرْوُجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِنُونَ} وقوله في هذه الآية الكريمة {مُتَّكِنِينَ} حال من الضمير في قوله {عَلَى سُرُرٍ} والتقدير: استقروا على سرر في حال كونهم متكئين عليها.

وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من كونهم على سرر متقابلين، أي ينظر بعضهم إلى وجه بعض، كلهم يقابل الآخر بوجهه، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في الحجر {وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَّقِلِينَ} وقوله في الصافات {أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ قَوَّكُهُ وَهُمْ فِيهَا مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُّتَّقِلِينَ}. قوله تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وَلَدُنُّ مَّحَلَّدُونَ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام

على قوله تعالى {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ}. قوله

تعالى: {وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ}. قد قدمنا الآيات

الموضحة له في سورة الطور في الكلام على

قوله تعالى {يَتَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ} وفي المائدة في الكلام على قوله تعالى {إِنَّمَا لِحَمْرٍ وَ لَمَيْسِرٌ}. قوله تعالى: {وَفَكِهَةٌ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى {وَأَمْدَدْتَهُمْ بِفَكِهَةٍ وَلَحْمِ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ لِمَكْنُونٍ}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى {وَلَهُمْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُّطَهَّرَةٌ}، وفي الصافات في الكلام على قوله تعالى {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ عَيْنٌ} وفي غير ذلك من المواضع. قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} قد قدمنا الكلام عليه بإيضاح في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} وتكلمنا هناك على الاستثناء المنقطع وذكرنا شواهد من القرآن وكلام العرب، وبيننا كلام أهل العلم في حكمه شرعاً. قوله تعالى: {وَوَظِلٌّ مِّمْدُودٍ وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ وَفَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ}.

أما قوله {وَوَظِلٌّ مِّمْدُودٍ} فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى {وَوَدَّخِلْهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} وأما قوله {وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ} فقد دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى {فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} وقوله {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} وقوله {وَتَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ}. إلى غير ذلك من الآيات.

والمسكوب اسم مفعول سكب الماء ونحوه إذا صبه بكثرة، والمفسرون يقولون: إن أنهار الجنة تجري في غير أخدود، وأن الماء يصل إليهم أينما كانوا كيف شاءوا، كما قال تعالى {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} وأما قوله {وَفَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ}: فقد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى {وَأَمْدَدْتَهُمْ بِفَكِهَةٍ وَلَحْمِ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. قوله تعالى: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَرًا عُرْبًا أَنْثَرَابًا لِأَصْحَابِ لَيْمِينَ}. الضمير في أنشأناهن: قال بعض أهل العلم: هو راجع إلى المذكور، وقال بعض العلماء. هو راجع إلى غير المذكور، إلا أنه دل عليه المقام.

فمن قال إنه راجع إلى المذكور، قال هو راجع إلى قوله {وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ} قال: لأن المراد بالفرش النساء، والعرب تسمي المرأة لباساً وإزاراً وفراشاً ونعلًا، وعلى هذا فالمراد بالرفع في قوله {مَّرْفُوعَةٍ} رفع المنزلة والمكانة. ومن قال: إنه راجع إلى غير المذكور، قال: إنه راجع إلى نساء لم يذكرن، ولكن ذكر الفرش دل عليهن. لأنهن يتكئن عليها مع أزواجهن.

وقال بعض العلماء: المراد بهن الحور العين، واستدل من قال ذلك بقوله {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْسَاءً} لأن الإنشاء هو الاختراع والابتداع.

وقالت جماعة من أهل العلم: أن المراد بهن بنات آدم التي كن في الدنيا عجائز شمطاً رمصاً، وجاءت في ذلك آثار مرفوعة عنه صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا القول: فمعنى أنشأناهن إنشاء أي خلقناهن خلقاً جديداً. وقوله تعالى {فَجَعَلْنَاهُنَّ} أي فصيرناهن أبقاراً، وهو جمع بكر، وهو ضد الثيب.

وقوله {عُرْبًا} قرأه عامة القراء السبعة غير حمزة وشعبة عن عاصم {عُرْبًا} بضم العين والراء، وقرأ حمزة وشعبة {عُرْبًا} بسكون الراء، وهي لغة تميم، ومعنى القراءتين واحد، وهو جمع عروب، وهي المتحبة إلى زوجها الحسنة التبعل، وهذا هو قول الجمهور. وهو الصواب إن شاء الله. ومنه قول لبيد:

وفي الخباء عروب غير فاحشة ربا الروادف يعشى دونها البصر

وقوله تعالى: {أَثْرَابًا} جمع ترب بكسر التاء، والترب اللذة. وإيضاحه أن ترب الإنسان ما ولد معه في وقت واحد، ومعناه في الآية: أن نساء أهل الجنة على سن واحدة ليس فيهن شابة وعجوز، ولكنهن كلهن على سن واحدة في غاية الشباب.

وبعض العلماء يقول: إنهن ينشأن مستويات في السن على قدر بنات ثلاثة وثلاثين سنة، وجاءت بذلك آثار مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكون الأثراب بمعنى المستويات في السن مشهور في كلام العرب. ومنه قول عمر بن أبي ربيعة: أبرزوها مثل المهاة تهادي بين خمس كواعب أتراب

وهذه الأوصاف الثلاثة التي تضمنتها هذه الآية الكريمة من صفات نساء أهل الجنة، جاءت موضحة في آيات أخرى. أما كونهن يوم القيامة أبقارا، فقد أوضحه في سورة الرحمن في قوله تعالى: {لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} في الموضوعين لأن قوله: {لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} نص في عدم زوال بكارتهن، وأما كونهن عربا أي متحبات إلى أزواجهن، فقد دل عليه قوله في الصافات: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} لأن معناه أنهن قاصرات العيون على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم لشدة محبتهم لهم واقتناعهم بهم، كما قدمنا إيضاحه، ولا شك أن المرأة التي لا ينظر إلى غير زوجها متحبة إليه حسنة التبعل معه. وقوله في حر: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابٌ}، وقوله في الرحمن: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، وأما كونهن أترابا فقد بينه تعالى في قوله في آية حر هذه: {وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابٌ}، وفي سورة النبا في قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَثْرَابًا}.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ} يتعلق بقوله: {إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ}، وقوله {فَجَعَلْنَهُنَّ} أي: أنشأناهن وصيرناهن أبقارا لأصحاب اليمين. قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ}. قد قدمنا معنى أصحاب الشمال في هذه السورة الكريمة، وأوضحنا معنى السموم في الآيات القرآنية التي يذكر فيها في سورة الطور، في الكلام على قوله تعالى {فَمَنْ لَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُومِ}.

وقد قدمنا صفات ظل أهل النار وظل أهل الجنة في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى { وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } وبيننا هناك أن صفات ظل أهل النار هي المذكورة في قوله هنا { وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ } وقوله في المرسلات { أَمْ نَطَّلِقُهَا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي تَلْتٍ شَعْبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ } . وقوله: { مِّنْ يَحْمُومٍ } أي من دخان أسود شديد السواد ووزن اليعقوم يفعول، وأصله من الحمم وهو الفحم، وقيل: من الحم، وهو الشحم المسود لاحتراقه بالنار. قوله تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِحْنِ لِعَظِيمٍ } . قد قدمنا الكلام عليه في سورة الطور في الكلام على قوله تعالى: { قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ مِنَّا أَهْلًا مُّشْفِقِينَ فَمَنْ لَّهُ عَلَيْنَا } . قوله تعالى: { وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ } . لما ذكر جل وعلا ما أعد لأصحاب الشمال من العذاب، بين بعض أسبابه، فذكر منها أنهم كانوا قبل ذلك في دار الدنيا مترفين أي متنعمين، وقد قدمنا أن القرآن دل على أن الإتراف والتنعيم والسرور في الدنيا من أسباب العذاب يوم القيامة، لأن صاحبه معرض عن الله لا يؤمن به ولا برسله، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: { فَسَوْفَ يَدْعُونَ ثُبُورًا وَيَصَلُّوْنَ سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا } ، وقد أوضحنا هذا في الكلام على آية الطور المذكورة آنفاً. وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من كون إنكار البعث سبباً لدخول النار، لأن قوله تعالى لما ذكر أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم، بين أن من أسباب ذلك أنهم قالوا { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا } جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى { وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَقَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا إِيَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْبَهُمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ } . وَأَعْتَقَهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى: { وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا } ، وما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة من إنكارهم بعث آبائهم الأولين في قوله { أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ } وأنه تعالى بين لهم أنه يبعث الأولين والآخرين في قوله، { قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } جاء موضحاً في غير هذا الموضوع، فبيننا فيه أن البعث الذي أنكروا، سيتحقق في حال كونهم أذلاء صاغرين، وذلك في قوله تعالى في الصافات { وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ قُلْ تَعْمَ وَأَنْتُمْ دُخْرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ رَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ } . وقوله: { أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ } ، قرأه عامة القراء السبعة، غير ابن عامر وقالون عن نافع: { أَوْ ءَابَاؤُنَا } بفتح الواو على الاستفهام والعطف، وقد قدمنا مراراً أن همزة الإستفهام إذا جاءت بعدها أداة عطف كالواو والفاء، وثم نحو { أَوْ ءَابَاؤُنَا } أقام أهل لغوي { } { } { أُنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ } ، أن في ذلك وجهين لعلماء العربية والمفسرين الأول، منهما أن أداة العطف عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها، وهمزة الاستفهام متأخرة رتبة عن حرف العطف، ولكنها قدمت عليه لفظاً لا معنى لأن الأصل في الاستفهام التصدير به كما هو معلوم في محله.

والمعنى على هذا واضح وهو أنهم أنكروا بعثهم بأنفسهم بأداة الإنكار التي هي الهمزة، وعطفوا على ذلك بالواو إنكارهم بعث آبائهم الأولين، بأداة الإنكار التي هي الهمزة المقدمة عن محلها لفظاً لا رتبة، وهذا القول هو قول الأقدمين من علماء العربية، واختاره أبو حيان في البحر المحيط وابن هشام في مغني اللبيب،

وهو الذي صرنا نميل إليه أخيراً بعد أن كنا نميل إلى غيره. الوجه الثاني: هو أن همزة الاستفهام في محلها الأصلي، وأنها متعلقة بحملة محذوفة، والجملة المصدرية بالاستفهام معطوفة على المحذوفة بحرف العطف الذي بعد الهمزة، وهذا الوجه يميل إليه الزمخشري في أكثر المواضع من كشفه، وربما مال إلى غيره.

وعلى هذا القول، فالتقدير: أمبعوثون نحن وآباؤنا الأولون؟ وما ذكره الزمخشري هنا من أن قوله: {ءَابَاؤُنَا} معطوف على واو الرفع في قوله: {لَمَبْعُوثُونَ}، وأنه ساغ العطف على ضمير رفع متصل من غير توكيد بالضمير المنفصل لأجل الفصل بالهمزة لا يصح، وقد رده عليه أبو حيان وابن هشام وغيرهما.

وهذا الوجه الأخير مال إليه ابن مالك في الخلاصة في قوله: وحذف متبوع بدهنا استبح وعطفك الفعل على الفعل يصح

وقرأ هذا الحرف قالون وابن عامر أو آباؤنا بسكون الواو، والذي يظهر لي على قراءتهما أو بمعنى الواو العاطفة، وأن قوله: {ءَابَاؤُنَا}، معطوف على محل المنصوب الذي هو اسم إن، لأن عطف المرفوع على منصوب إن بعد ذكر خبرها جائز بلا نزاع، لأن اسمها وإن كان منصوباً فأصله الرفع لأنه مبتدأ في الأصل، كما قال ابن مالك في الخلاصة: وجائز رفعك معطوفاً على منصوب إن بعد أن تستكملا

وإنما قلنا إن أو بمعنى الواو، لأن إتيانها بمعنى الواو معروف في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن: {وَلَمُلْقِيَتِ ذِكْرًا عُدْرًا أَوْ نُذْرًا} لأن الذكر الملقى للعدر، والنذر معاً لا لأحدهما، لأن المعنى أنها أتت الذكر إعداراً وإنذاراً، وقوله تعالى: {وَلَا تُطْعَمُ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا} أي ولا كفوراً، وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب: قوم إذا سمعوا الصريخ رأيتهم ما بين ملجم مهرة أو سافع

فالمعنى ما بين الملجم مهرة وسافع: أي آخذ بناصيته ليلجمه، وقول نابغة ذبيان: قالت ألا ليت ما هذا الحمام لنا لي حمامتنا أو نصفه فقد فحسبوه فألفوه كما زعمت ستا وستين لم تنقص ولم تزد

فقوله: أو نصفه بمعنى ونصفه كما هو ظاهر من معنى البيتين المذكورين، لأن مرادها أنها تمت أن يكون الحمام المار بها هو ونصفه مع لها مع حمامتها التي معها، ليكون الجميع مائة حمامة، فوجدوه ستا وستين ونصفها

ثلاث وثلاثون، فيكون المجموع تسعاً وتسعين، والمروي في ذلك عنها أنها
قالت:

ليت الحمام ليه إلى حماميه
ونصفه قديه تم الحمام مايه

وقول توبة بن الحمير:

قد زعمت ليلي بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وقوله تعالى: {أَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَدَا لَمَبْعُوثُونَ} جمع عامة القراء
على ثبات همزة الاستفهام في قوله: {أَدَا مِنَّا} وأثبتها أيضاً عامة السبعة
غير نافع والكسائي في قوله:
{أَدَا} وقرأه نافع والكسائي {أَدَا لَمَبْعُوثُونَ}، بهمزة واحدة مكسورة على
الخبر، كما عقده صاحب الدرر اللوامع في أصل مقراً الإمام نافع بقوله:
فصل واستفهام إن تكرراً فصير الثاني منه خبراً
واعكسه في النمل وفوق الروم إلخ

والقراءات في الهمزتين في {أَدَا} و {أَدَا} معروفة، فنافع يسهل الهمزة
الثانية بين بين. ورواية قالون عنه هي إدخال ألف بين الهمزتين الأولى
المحققة والثانية المسهلة.

ورواية قالون هذه عن نافع بالتسهيل والإدخال مطابقة لقراءة أبي عمرو،
فأبو عمرو وقالون عن نافع يسهلان وبدخلان، ورواية ورش عن نافع هي
تسهيل الأخيرة منهما بين بين من غير إدخال ألف. وهذه هي قراءة ابن كثير
وورش فابن كثير وورش يسهلان ولا يدخلان.
وقرأ هشام عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين، وبينهما ألف الإدخال.
وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر بتحقيق الهمزتين
من غير ألف الإدخال، هذه هي القراءات الصحيحة، في مثل {أَدَا} و {أَدَا}
ونحو ذلك في القرآن.

تنبيه

اعلم وفقني الله وإياك أن ما جرى في الأقطار الأفريقية من إبدال الأخيرة
من هذه الهمزة المذكورة وأمثالها في القرآن هاء خالصة من أشنع المنكر
وأعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمة القرآن العظيم، وتعد لحدود الله، ولا يعذر
فيه إلا الجاهل الذي لا يدري، الذي يظن أن القراءة بالهاء الخالصة صحيحة،
وإنما قلنا هذا لأن إبدال الهمزة فيما ذكر هاء خالصة لم يروه أحد عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينزل عليه به جبريل ألبتة، ولم يروه عن
صحابي ولم يقرأ به أحد من القراء، ولا يجوز بحال من الأحوال، فالتجرؤ على
الله بزيادة حرف في كتابه، وهو هذه الهاء التي لم ينزل بها الملك من السماء
ألبتة، هو كما ترى، وكون اللغة العربية قد سمع فيها إبدال الهمزة هاء لا
يسوغ التجرؤ على الله بإدخال حرف في كتابه. لم يأذن بإدخاله الله ولا
رسوله.

ودعوى أن العمل جرى بالقراءة بالهاء لا يعول عليها، لأن جريان العمل بالباطل باطل، ولا أسوة في الباطل بإجماع المسلمين، وإنما الأسوة في الحق، والقراءة سنة متبعة مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لا خلاف فيه.

وقوله تعالى: {مِثْنَا}، وقرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وشعبة عن عاصم مثنا بضم الميم وقرأه نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم {مِثْنَا} بكسر الميم، وقد قدمنا مسوغ كسر الميم لغة في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {يَلِيْنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا}. قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}. لما أنكر الكفار بعثهم وآباءهم الأولين في الآية المتقدمة، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم خبراً مؤكداً بأن الأولين والآخرين كلهم مجموعون يوم القيامة للحساب والجزاء بعد بعثهم.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من بعث الأولين والآخرين وجمعهم يوم القيامة جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّلَافِينِ}، وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ} وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ}، وقوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ} وقوله تعالى: {هَذَا يَوْمُ الْقِيَامِ وَالْأَوَّلِينَ}، وقوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}.

وقد قدمنا هذا موضحاً في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى: {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَأَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ * فَمَا لَأَوْنَ مِنْهَا لَبُطُونَ * فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ لَحْمِيمٍ * فَشَرِبُونَ شُرَبَ لَهِيمٍ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * تَخُنْ خَلْقَتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ لَمُوتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ أُمَّمِلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَاءَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَجْرُتُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُعَرِّمُونَ * بَلْ تَخُنْ مَّخْرُومُونَ}

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَأَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ فَمَا لَأَوْنَ مِنْهَا لَبُطُونَ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ لَحْمِيمٍ فَشَرِبُونَ شُرَبَ لَهِيمٍ}. قد قدمنا إيضاح هذا وتفسير في سورة الصافات في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّن حَمِيمٍ}. قوله تعالى: {هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ}. النزل بضمين: هو رزق الضيف الذي يقدم له عند نزوله إكراماً له، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا}، وربما استعملت العرب النزول في ضد ذلك على سبيل التهكم والاحتقار، وجاء القرآن باستعمال النزول فيما يقدم لأهل النار من العذاب كقوله هنا: في عذابهم المذكور في قولهم: {لَأَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّن رَّقُومٍ} - إلى قوله - {شَرِبَ لَهِيمٍ هَذَا نُزُلُهُمْ} أي هذا العذاب المذكور هو ضيافتهم

ورزقهم المقدم لهم عند نزولهم في دارهم التي هي النار، كقوله تعالى للكافر الحقير الذليل: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ لَعَزِيزٌ لَكْرِيمٌ}. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من إطلاق النزول على عذاب أهل النار، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله في آخر هذه السورة الكريمة: {فَنُزِّلُ مِنَ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَازِمَةٌ}، وقوله تعالى في آخر الكهف: {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا}، ونظير ذلك من كلام العرب قول أبي السعد الضبي: وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلاً

وقوله: {يَوْمَ الدِّينِ} أي يوم الجزاء كما تقدم مراراً. قوله تعالى: {تَحْنُ خَلَقْتَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}. لما أنكر الكفار بعثهم وأبأهم الأولين، وأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخريين، وذكر جزاء منكري البعث بأكل الزقوم وشرب الحميم، أتبع ذلك بالبراهين القاطعة الدالة على البعث فقال: نحن خلقناكم هذا الخلق الأول فلولا تصدقون. أي فهل لا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني، لأن إعادة الخلق لا يمكن أن تكون أصعب من ابتدائه كما لا يخفى.

وهذا البرهان على البعث بدلالة الخلق الأول على الخلق الثاني، جاء موضحاً في آيات كثيرة جداً كقوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ خَلْقَ تَمِّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}، وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعُدْنَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبَعْثِ فِئَا خَلَقْتُمْ مِّن تُّرَابٍ} وقوله تعالى: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}، وقوله تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد ذكرناها بإيضاح وكثرة في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبارك في سورة البقرة والنحل والحج والجمعة، وغير ذلك من المواضع وأحلنا عليها كثيراً. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}، لولا حرف تحضيض، ومعناه الطلب بحث وشدة، فالآية تدل على شدة حث الله للكفار وحضه لهم على التصديق بالبعث لظهور برهانه القاطع الذي هو خلقه لهم أولاً. قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ تَخُنُّ لَخَلْفُون}. قد قدمنا قريباً كلام أهل العلم في همزة الاستفهام المتبوعة بأداة عطف، وذكرنا قبل هذا مراراً، وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} يعني أفرايتم ما تصبونه من المني في أرحام النساء، فلفظة ما موصولة، والجملة الفعلية صلة الموصول، والعائد إلى الصفة محذوف، لأنه منصوب بفعل، والتقدير: أفرايتم ما تمنونه، والعرب تقول: أمني النطفة بصيغة الرباعي، يمنيها بضم حرف المضارعة، إذا أراقها في رحم المرأة، ومنه قوله تعالى: {مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} ومنى يمني بصيغة الثلاثي لغة صحيحة. إلا أن القراءة بها شاذة.

وممن قرأ تمنون بفتح التاء مضارع في الثلاثي المجرد، أبو السمال وابن السميعة، وقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ لَخَلْفُون} استفهام تقرير، فإنهم لا بد أن يقولوا: أنتم الخالقون، فيقال لهم: إذا كنا خلقنا هذا الإنسان الخصيم المبين من تلك النطفة التي تمنى في الرحم، فكيف تكذبون بقدرتنا على خلقه مرة أخرى، وأنتم تعلمون أن إعادة الخلق لا يمكن أن تكون أصعب من

الابتداء، والضمير المنصوب في تخلقونه عائد إلى الموصول أي تخلقون ما تمنونه من النطف علقاً، ثم مضغاً إلى آخر أطواره. وهذا الذي تضمنته هذه الآية من البراهين القاطعة على كمال قدرة الله على البعث وغيره، وعلى أنه المعبود وحده، ببيان أطوار خلق الإنسان، جاء موضحاً في آيات أخر، وقد قدمنا الكلام على ذلك مستوفى بالآيات القرآنية، وبينما ما يتعلق بكل طور من أطواره من الأحكام الشرعية في سورة الحج في الكلام على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن لِّبْعِثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ}.

وذكرنا أطوار خلق الإنسان في سورة الرحمن أيضاً في الكلام على قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} وفي غير ذلك من المواضع. وبينما الآيات الدالة على أطوار خلقه جملة وتفصيلاً في الحج.

تنبيه

هذا البرهان الدال على البعث الذي هو خلق الإنسان من نطفة مني تمنى، يجب على كل إنسان النظر فيه، لأن الله جل وعلا وجه صفة الأمر بالنظر فيه إلى مني الإنسان، والأصل في صيغة الأمر على التحقيق الوجوب إلا لدليل صارف عنه، وذلك في قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ}، وقد قدمنا شرحها في أول سورة النحل، وقرأ هذا الحرف نافع، {أَفَرَأَيْتُمْ} بتسهيل الهمزة بعد الراء بين بين.

والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عنه إبدال الهمزة ألفاً وإشباعها لسكون الياء بعدها.

وقرأ الكسائي: {أَفَرَأَيْتُمْ} بحذف الهمزة، وقرأه باقي السبعة بتحقيق الهمزة.

وقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ} قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر في إحدى الروايتين بتسهيل الهمزة الثانية، والرواية المشهورة التي بها الأداء عن ورش عن نافع إبدال الثانية ألفاً مشبعاً مدها لسكون النون بعدها، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وهشام عن ابن عامر في الرواية الأخرى بتحقيق الهمزتين، وقالون، وأبو عمرو وهشام بألف الإدخال بين الهمزتين والباقيون يدونها. قوله تعالى: {تَحْنُ قَدَرْتَا بَيْنَكُمُ لِمُوتٍ وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَىٰ أَن تَبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن كثير

{قَدَرْتَا} بتشديد الدال، وقرأه ابن كثير بتخفيفها، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة قد يكون فيها وجهان أو أكثر من التفسير، ويكون كل ذلك صحيحاً، وكله يشهد له قرآن، فنذكر الجميع وأدلته من القرآن، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

وإيضاح ذلك أن قوله {قَدَرْتَا} وجهين من التفسير وفيما يتعلق به {عَلَىٰ أَن تَبَدَّلَ} وجهان أيضاً، فقال بعض العلماء: وهو اختيار ابن جرير أن قوله {قَدَرْتَا بَيْنَكُمُ لِمُوتٍ} أي قدرنا لموتكم أجلاً مختلفة وأعماراً متفاوتة فمنكم من يموت صغيراً ومنكم من يموت شاباً، ومنكم من يموت شيخاً.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
 طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يَتَّوَفَىٰ وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلٍ لِّعَمْرٍ{
 وقوله تعالى {ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَن يَتَّوَفَىٰ مِن قَبْلِ وَلِيَبْلُغُوا أَجْلاً
 مَّسْمُومًا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} وقوله تعالى {وَمَا يَعْمُرُ مِنَ مَّعْمَرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ
 عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} وقوله تعالى {وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا}
 وقوله {وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أي ما نحن بمغلوبين، والعرب تقول: سبقه
 على كذا أي غلبه عليه وأعجزه عن إدراكه أي وما نحن بمغلوبين على ما
 قدرنا من أجالكم وحددناه من أعماركم فلا يقدر أحد أن يقدم أجلاً أخرناه ولا
 يؤخر أجلاً قدمناه.

وهذا المعنى دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا
 يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} وقوله تعالى {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا
 يُؤَخَّرُ}، وقوله تعالى {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوَجَّلًا}
 إلى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا القول، فقوله تعالى: {عَلَىٰ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلَكُمْ} ليس متعلقاً
 بمسبوقين بل بقوله تعالى: {تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ لَمَوْتٍ} والمعنى: نحن قدرنا
 بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي نبدل من الذين ماتوا أمثالاً لهم
 نوجدهم.

وعلى هذا، فمعنى تبديل أمثالهم إيجاد آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا
 وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ
 وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءآخِرِينَ} إلى غير
 ذلك من الآيات.

وهذا التفسير هو اختيار ابن جرير، وقراءة قدرنا بالتشديد مناسبة لهذا الوجه،
 وكذلك لفظة بينكم.

الوجه الثاني: أن قدرنا بمعنى قضينا وكتبنا أي كتبنا الموت وقدرناه على
 جميع الخلق، وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {كُلُّ
 شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، وقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ لَمَوْتٍ}، وقوله
 تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ لِحَىٰ لِيَذَىٰ لَا يَمُوتُ}، وعلى هذا القول فقوله: {عَلَىٰ
 أَنْ تُبَدَّلَ}: متعلق بمسبوقين أي ما نحن مغلوبين والمعنى وما نحن بمغلوبين
 على أن نبدل أمثالكم إن أهلكناكم لو شئنا فنحن قادرون على إهلاككم، ولا
 يوجد أحد يغلبننا ويمنعنا من خلق أمثالكم بدلاً منكم.

وهذا المعنى تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: {إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ أَيُّهَا
 النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا} وقوله تعالى: {إِنْ يَشَاءُ
 يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ}، وقوله تعالى: {إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
 بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ}. وقوله تعالى: {لِفُقَرَاءٍ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
 يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا}، وقد قدمنا هذا في سورة النساء في
 الكلام على قوله تعالى: {إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ}. وقوله تعالى في هذه
 الآية الكريمة: {وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}، فيه للعلماء أقوال متقاربة.
 قال بعضهم: ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور والهيئات، كأن
 ننشئكم قردة وخنازير، كما فعلنا ببعض المجرمين قبلكم.

وقال بعضهم: ننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات، فنغير صفاتكم ونجمل المؤمنين ببياض الوجوه، ونقبح الكافرين بسواد الوجوه وزرقة العيون. إلى غير ذلك من الأقوال. قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَحْنُ أَلْزَرُّونَ لَكُمْ نَبَأٌ لَجَعَلْنَا حُطَمًا فَظَلُّمًا فَمَا تَعْلَمُونَ}. تضمنت هذه الآية الكريمة برهاناً قاطعاً ثانياً على البعث وامتناناً عظيماً على الخلق بخلق أرزاقهم لهم، فقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}، يعني أفرأيتم البذر الذي تجعلونه في الأرض بعد حرثها أي تحريكها وتسويتها أنتم تزرعون، أي تجعلونه زرعاً، ثم تنمونهم إلى أن يصير مدركاً صالحاً للأكل أم نحن الزارعون له، ولا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره هو أن يقال: أنت يا ربنا هو الزارع المنبت، ونحن لا قدرة لنا على ذلك، فيقال لهم: كل عاقل يعلم أن من أنبت هذا السنبل من هذا البذر الذي تعفن في باطن الأرض قادر على أن يبعثكم بعد موتكم، وكون إنبات النبات بعد عدمه من براهين البعث، جاء موضحاً في آيات كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى فِي الْأَرْضِ خَشْيَةً فَإِنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْهَا مَاءً فَهَبَّتْ وَرَبَّتْ وَإِنَّا لَلْأَخْيَارُ لَمُحِي لِمَوْتِي} وقوله تعالى: {فَأَنْظِرْ إِلَى آتِرِ رَحْمَةٍ إِلَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمُحِي لِمَوْتِي وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِجَالًا فَظَنُّوا أَنَّهُ مَاءٌ مَّيِّتٌ فَانزَلْنَا بِهِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ لِمَوْتِي لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، وقد قدمناها مستوفاة مع سائر آيات براهين البعث في مواضع كثيرة في سورة البقرة والنحل والجمعة، وغير ذلك من المواضع، وأحلنا عليها مراراً.

تنبيه

اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة، لأن الله جل وعلا وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان، لأعظم النعم على الخلق، وللدلالة على عظم الله وقدرته على البعث وغيره، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم، وذلك قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَاقًا نَبْتًا فِيهَا حَبًّا وَعَيْبًا وَقَضْيًا وَزَيْتُونًا وَخَلًّا وَحَدَائِقَ غَلِيًّا وَفَكِهَةً وَأَنْمَاتًا لَكُمْ وَلَآئِمًا لَكُمْ}. والمعنى: انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير الله على خلق الماء؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود. ثم هب أن الماء خلق، هل يقدر أحد غير الله أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع؟ ثم هب أن الزرع طلع، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه؟ ثم هب أن السنبل خرج منه، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل؟ {أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، والمعنى: انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل، وانظروا إلى ينعه، أي انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدركاً صالحاً للأكل، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار

كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الأنعام، ولذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، فالإلزام أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى: {ثُمَّ سَقَفْنَا الْأَرْضَ} أي عن النبات شقاً إلي آخر ما بيناه. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً، أي فتاتاً وهشيماً، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزء الشرط، وتقديره كما ذكرنا، وقوله: {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}.

قال بعض العلماء: المعنى فظلمتم تعجبون من تحطيم زرعكم. وقال بعض العلماء: تفكّهون بمعنى تندمون على ما خسرتم من الإنفاق عليه كقوله تعالى: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا}. وقال بعض العلماء: تندمون على معصية الله التي كانت سبباً لتحطيم زرعكم، والأول من الوجهين في سبب الندم هو الأظهر.

{أَفْرَأَيْتُمْ لِمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ لُؤْمُرٍ أَمْ نَحْنُ لُمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفْرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ لُمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمْتًا لِّلْمُفْؤِينَ * فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}

قوله تعالى: {أَفْرَأَيْتُمْ لِمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ لُؤْمُرٍ أَمْ نَحْنُ لُمُنْزِلُونَ}.

تضمنت هذه الآية الكريمة امتناناً عظيماً على خلقه بالماء الذي يشربونه، وذلك أيضاً آية من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته وشدة حاجة خلقه إليه، والمعنى: أفرأيتم الماء الذين تشربون الذي لا غنى لكم عنه لحظة ولو أعدمناه لهلكتم جميعاً في أقرب وقت: {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ لُؤْمُرٍ أَمْ نَحْنُ لُمُنْزِلُونَ}.

والجواب الذي لا جواب غيره هو أنت يا ربنا هو منزله من المزن، ونحن لا قدرة لنا على ذلك. فيقال لهم: إذا كنتم في هذا القدر من شدة الحاجة إليه تعالى فلم تكفرون به وتشربون ماءه وتأكلون رزقه وتعبدون غيره، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الامتنان على الخلق بالماء وأنهم يلزمهم الإيمان بالله وطاعته شكراً لنعمة هذا الماء، كما أشار له هنا بقوله: {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} جاء في آيات آخر من كتاب الله كقوله تعالى: {فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَقَيْنَاكُمْ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَهِيَ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}، وقوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّيُخَيِّبَ بِهِ بَلَدَةَ مِثْيَا وَنُسَقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِيَّ كَثِيرًا}. وقوله تعالى: {وَأَسْقِيكُمْ مَاءً فُرَاتًا} إلى غير ذلك من الآيات. وقوله هنا: {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا} أي لو نشاء جعله أجاجاً لفعلنا، ولكن جعلناه عذباً فراتاً سائغاً شرابه، وقد قدمنا في سورة الفرقان أن الماء الأجاج هو الجامع بين الملوحة والمرارة الشديتين.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كونه تعالى. لو شاء لجعل الماء غير صالح للشرب، جاء معناه في آيات آخر كقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ} وقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ

فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَيَّ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ { لأن الذهب بالماء وجعله غوراً لم يصل إليه وجعله أجاباً، كل ذلك في المعنى سواء بجامع عدم تأتي شرب الماء، وهذه الآيات المذكورة تدل على شدة حاجة الخلق إلي خالقهم كما ترى. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {أَءَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ لَمْرِنٍ} يدل على أن جميع الماء الساكن في الأرض النابع من العيون والآبار ونحو ذلك، أن أصله كله نازل من المزن، وأن الله أسكنه في الأرض وخزنه فيها لخلقه.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ} وقوله تعالى {الْم تَرَأَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ} وقد قدمنا هذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى {فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} وفي سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} فلولا بمعنى هلا، وهي حرف تحضيض، وهو الطلب بحث وحض والمعنى أنهم يطلب منهم شكر هذا المنعم العظيم بحث وحض.

واعلم أن الشكر يطلق من العبد لربه ومن الرب لعبده. فشكر العبد لربه، ينحصر معناه في استعماله جميع نعمه فيما يرضيه تعالى، فشكر نعمة العين ألا ينظر بها إلا ما يرضي من خلقها، وهكذا في جميع الجوارح، وشكر نعمة المال أن يقيم فيه أوامر ربه ويكون مع ذلك شاكر القلب واللسان، وشكر العبد لربه جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى هنا: {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} وقوله تعالى {وَسُبِّحُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ} والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

وأما شكر الرب لعبده فهو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومنه قوله تعالى {وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} وقوله تعالى {إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ} إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه لغوي
اعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة، وإلى المنعم أخرى، فإن عدت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر كقوله تعالى {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ}، وإن عدت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذي هو اللام كقولك: نحمد الله ونشكر له، ولم تأت في القرآن معداة إلا باللام، كقوله {وَسُبِّحُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ} وقوله {أَنْ سُبِّحُوا لِي وَلِوَالِدَيْكَ} وقوله {وَسُبِّحُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} وقوله {فَلْيَتَّعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَ يُبْذَوْهُ وَ سُبِّحُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} إلى غير ذلك من الآيات.

وهذه هي اللغة الفصحى، وتعديتها للمفعول بدون اللام لغة لا لحن، ومن ذلك قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر حبل من اتقى وما كل من أوليته نعمة يقضى

وقول جميل بن معمر:

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما على عذبة الأنياب طيبة النشر
فإنكما إن عجتما لي ساعة شكرتكما حتى أغيب في قبري

وهذه الآيات من سورة الواقعة قد دلت على أن اقتران جواب لو باللام،
وعدم اقترانه بها كلاهما سائغ، لأنه تعالى قال {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا}
بِاللَّامِ ثُمَّ قَالَ {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا} بدونها. قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ
الَّتِي تُورُونَ أَنشَأْتُمُ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ لِمُنشِئُونِ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَعًا
لِّلْمُقْوِينَ}.

قوله تعالى: {لَّتِي تُورُونَ} أي توقدونها من قولهم: أورى النار إذا قدحها
وأوقدها، والمعنى: أفرأيتم النار التي توقدونها من الشجر أأنتم أنشأتم
شجرتها التي توقد منها، أي أوجدتموها من العدم؟

والجواب الذي لا جواب غيره: أنت يا ربنا هو الذي أنشأت شجرتها، ونحن لا
قدرة لنا بذلك فيقال: كيف تنكرون البعث وأنتم تعلمون أن من أنشأ شجرة
النار وأخرجها منها قادر على كل شيء؟ وما تضمنته هذه الآية الكريمة من
كون خلق النار من أدلة البعث، وجاء موضحاً في آية أخرى في قوله تعالى {قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ لِّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ} فقوله في آية أخرى {تُوقَدُونَ} هو معنى
قوله في الواقعة: {تُورُونَ} وقوله في آية أخرى {لِّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرِ نَارًا} بعد قوله {يُحْيِيهَا} لِّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ} دليل واضح على أن
خلق النار من أدلة البعث. وقوله هنا {أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمُ شَجَرَتَهَا} أي الشجرة
التي توقد منها كالمخ والعفار، ومن أمثال العرب في كل شجر نار، واستنجد
المخ والعفار، لأن المخ والعفار هما أكثر الشجر نصيباً في استخراج النار
منهما، يأخذون قضيباً من المخ ويحكمون به عوداً من العفار فتخرج من
بينهما النار. ويقال كل شجر فيه نار إلا العناب.

وقوله: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً} أي نذكر الناس بها في دار الدنيا إذا أحسوا
شدة حرارتها. نار الآخرة التي هي أشد منها حراً لينزجروا عن الأعمال
المقتضية لدخول النار، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم: أن حرارة نار
الآخرة مضاعفة على حرارة نار الدنيا سبعين مرة. فهي تفوقها بتسع وستين
ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا سبعين مرة. فهي تفوقها بتسع
وستين ضعفاً كل واحد منها مثل حرارة نار الدنيا.

وقوله تعالى {وَمَتَعًا لِّلْمُقْوِينَ} أي منفعة للنازلين بالقواء من الأرض، وهو
الخلاء والفلاة التي ليس بها أحد، وهم المسافرون، لأنهم ينتفعون بالنار
انتفاعاً عظيماً في الاستدفاء بها والاستضاءة وإصلاح الزاد.

وقد تقرر في الأصول أن من موانع اعتبار مفهوم المخالفة كون اللفظ وارداً
للامتنان. وبه تعلم أنه لا يعتبر مفهوماً للمقوين، لأنه جيء به للامتنان أي وهي
متاع أيضاً لغير المقوين من الحاضرين بالعمران، وكل شيء خلا من الناس
يقال له أقوى، فالرجال إذا كان في الخلا قيل له: أقوى. والدار إذا خلت من
أهلها قيل لها أقوت.

ومنه قول نابغة ذبيان:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقول عنتره:

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقيل للمقوبين: أي للجائعين، وقيل غير ذلك، والذي عليه الجمهور هو ما

ذكرنا

{ فَلَا أُفْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ * قُلُوا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * قُلُوا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ لَيْمِينَ * فَسَلْمٌ لِّكَ مِنْ أَصْحَابِ لَيْمِينَ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِّبِينَ الصَّالِينَ * فَنَزْلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَضْلِيَةٌ جَعِيمٍ * إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }

قوله تعالى: { فَلَا أُفْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } . قد قدمنا الكلام عليه في أول سورة النجم. قوله تعالى: { إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } . أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، وأكد إخباره بأن هذا القرآن العظيم هو حق اليقين، وأمر نبيه بعد ذلك بأن يسبح باسم ربه العظيم.

وهذا الذي تضمنته هذه الآية ذكره الله جل وعلا في آخر سورة الحاقة في قوله في وصفه للقرآن { وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } ، والحق هو اليقين.

وقد قدمنا أن إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين أسلوب عربي، وذكرنا كثرة وروده في القرآن وفي كلام العرب، ومنه في القرآن قوله تعالى { وَلَدَائِرِ الْآخِرَةِ } ولدار هي الآخرة وقوله { وَمَكْرُ السَّيِّئِ } ، والمكر هو السيء دليل قوله بعده: { وَلَا يَحِيقُ لِمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ } . وقوله: { مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } والحبل هو الوريد، وقوله: { شَهْرُ رَمَضَانَ } والشهر هو رمضان.

ونظير ذلك من كلام العرب قول امرئ القيس.

كبكر المقانات البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المخلل
والبكر هي المقانات.

وقول عنتره:

ومشك سابعة هتكت فزوجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

لأن مراده بالمشك هنا الدرع نفسها بدليل قوله: هتكت فزوجها، يعني الدرع، وإن كان أصل المشك لغة السير الذي تشد به الدرع، لأن السير لا تمكن إرادته في بيت عنتره هذا خلافاً لما ظنه صاحب تاج العروس، بل مراد عنتره

بالمشك الدرع، وأضافه إلى السابغة التي هي الدرع كما ذكرنا، وإلى هذا يشير ما ذكره في باب العلم: وعقده في الخلاصة بقوله: وإن يكونا مفردين فأضف حتماً وإلا أتبع الذي ردف

لأن الإضافة المذكورة من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، وقد بينا في كتابنا دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب أن قوله في الخلاصة: ولا يضاف اسم لما به اتحد معنى وأول موهما إذا ورد

أن الذي يظهر لنا من استقراء القرآن والعربية أن ذلك أسلوب عربي، وأن الاختلاف بين اللفظين كاف في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، وأنه لا حاجة إلى التأويل مع كثرة ورود ذلك في القرآن والعربية. ويدل له تصريحهم بلزوم إضافة الاسم إلى اللقب إن كانا مفردين نحو سعيد كرز، لأن ما لا بد له من تأويل لا يمكن أن يكون هو اللازم كما ترى، فكونه أسلوباً أظهر.

وقوله { فَسَبِّحْ بِسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } التسييح: أصله الإبعاد عن السوء، وتسييح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وذلك التنزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والظاهر أن الباء في قوله { بِسْمِ رَبِّكَ } داخلة على المفعول، وقد قدمنا في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى { وَهَرَّ إِلَىٰ إِيَّاكَ يَجِدُكَ } أدلة كثيرة من القرآن وغيره على دخول الباء على المفعول الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه، كقوله { وَهَرَّ إِلَىٰ إِيَّاكَ يَجِدُكَ } والمعنى: وهزي جذع النخلة.

وقوله: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ } أي إلحاداً إلى آخر ما قدمنا من الأدلة الكثيرة، وعليه، فالمعنى: سبح اسم ربك العظيم كما يوضحه قوله في الأعلى { سَبِّحْ سَمَّ رَبِّكَ الْأَعْلَى }.

وقال القرطبي: الاسم هنا بمعنى المسمى، أي سبح ربك، وإطلاق الاسم بمعنى المسمى معروف في كلام العرب، ومنه قول لبيد: إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ولا يلزم في نظري أن الاسم بمعنى المسمى هنا لإمكان كون المراد نفس الاسم، لأن أسماء الله أهد فيها قوم ونزهها آخرون عن كل ما لا يليق، ووصفها الله بأنها بالغة غاية الحسن، وفي ذلك أكمل تنزيه لها لأنها مشتملة على صفاته الكريمة، وذلك في قوله { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَدُعَاؤُهَا } وقوله تعالى: { أَيُّهَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ }.

ولسنا نريد أن نذكر كلام المتكلمين في الاسم والمسمى، هل الاسم هو المسمى أو لا؟ لأن مرادنا هنا بيان معنى الآية، والعلم عند الله تعالى.

تم بحمد الله تفسير سورة الواقعة

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ سَوَّاهُ عَلَى عَرْشٍ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ
مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * ءَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا
جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ وَالَّذِينَ ءَأَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَحَدًا مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ
مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَّلَ
أُولِيئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَن دَا لِدَىٰ يُفْرِضْ أَللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ لِيَوْمَ جَبَّتْ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ
الْقَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفَقِّهُونَ وَالْمُتَفَقِّتُ لِلَّذِينَ ءَأَمَنُوا أَنْظَرُونَا
تَقْتِيسَ مِن نُورِكُمْ قِيلَ رُجِعُوا وَرَاءَكُمْ وَالْتِمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ
بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُتَدَوَّنَهُمْ أَلَمٌ تَكُن مَعَكُمْ
قَالُوا يَا لَيْلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ
أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * فَالْيَوْمَ لَا يُؤَخِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

قوله تعالى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }. قد
قدمنا مراراً أن التسييح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وأصله
في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم سبح. إذا صار بعيداً، ومنه قيل
للفرس: سابح، لأنه إذا جرى يبعد بسرعة، ومن ذلك قول عنترة في معلقته:
إذ لا أزال على رحالة سابح نهر تعاوره الكماة مكلّم

وقول عباس بن مرداس السلمى:

لا يغرسون فسيل النخل حولهم ولا تخاور في مشتاهم البقر
إلا سواج كالعقبان مقربة في دارة حولها الأخطار والفكر

وهذا الفعل الذي هو سبّح قد يتعدى بنفسه بدون اللام كقوله تعالى:
{ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً }، وقوله تعالى { وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا }، وقد يتعدى باللام كقوله هنا: { سَبَّحَ لِلَّهِ }، وعلى هذا فسبحه وسبّح له
لغتان كنصحه ونصح له. وشكره وشكر له، وذكر بعضهم في الآية وجهاً آخر،
وهو أن المعنى: { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }، أي أحدث التسييح

لأجل الله أي ابتغاء وجهه تعالى. ذكره الزمخشري وأبو حيان، وقيل: {سَبَّحَ لِلَّهِ} أي صلى له.

وقد قدمنا أن التسبيح يطلق على الصلاة، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أهل السماوات والأرض يسبحون لله، أي ينزهونه عما لا يليق، بينه الله جل وعلا في آيات أخر من كتابه كقوله تعالى في سورة الحشر {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقوله في الصف {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} وقوله في الجمعة {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِمَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، وقوله في التغابن {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وزاد في سورة بني إسرائيل أن السماوات السبع والأرض يسبحن لله مع ما فيهما من الخلق وأن تسبيح السماوات ونحوها من الجمادات يعلمه الله ونحن لا نفقهه أي لا نفهمه، وذلك في قوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن تسبيح الجمادات المذكور فيها وفي قوله تعالى: {وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ} ونحو ذلك تسبيح حقيقي يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

والآية الكريمة فيها الرد الصريح، على من زعم من أهل العلم، أن تسبيح الجمادات هو دلالة إيجادها على قدرة خالقها، لأن دلالة الكائنات على عظمة خالقها، يفهمها كل العقلاء، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخُلُوفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَ لِقُلُوبِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ} - إلى قوله - {لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وأمثال ذلك من الآيات كثيرة في القرآن.

وقد قدمنا إيضاح هذا في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَّهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْإِصْحَالِ} وفي سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ}، وفي سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} وفي غير ذلك من المواضع.

وقد عبر تعالى هنا في أول الحديد بصيغة الماضي في قوله: {سَبَّحَ لِلَّهِ}، وكذلك هو الحشر، والصف، وعبر في الجمعة والتغابن، وغيرهما بقوله: {يُسَبِّحُ} بصيغة المضارع.

قال بعض أهل العلم: إنما عبر بالماضي تارة وبالمضارع أخرى ليبين أن ذلك التسبيح لله، هو شأن أهل السماوات وأهل الأرض، ودأبهم في الماضي والمستقبل ذكر معناه الزمخشري وأبو حيان.

وقوله: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} قد قدمنا معناه مراراً وذكرنا أن العزيز، هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، وأن العزة هي الغلبة، ومنه قوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

وَلِرَسُولِهِ { وقوله: وعزني في الخطاب: أي غلبي في الخصام، ومن أمثال العرب من عز بز، يعنون من غلب استلب، ومنه قول الخنساء: كأن لم يكونوا حمى يختشى إذ الناس إذ ذاك من عز بز

والحكيم، هو من يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها. وقوله: { مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ }. غلب فيه غير العاقل وقد قدمنا في غير هذا الموضع، أنه تعالى تارة يغلب غير العاقل. في نحو ما في السموات وما في الأرض لكثرتة، وتارة يغلب العاقل لأهميته، وقد جمع المثل للأمين قوله تعالى في البقرة: { بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ }. فغلب غير العاقل في قوله: { مَا فِي السَّمَوَاتِ }، وغلب العاقل في قوله: { قَانِتُونَ }. قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ }. قوله: { فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }. قد قدمنا إيضاحه في سورة فصلت في الكلام على قوله تعالى: { قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ } - إلى قوله تعالى - { فَصَاحَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ }، وفي سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ }.

وقوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } قد قدمنا الآيات الموضحة له بكثرة في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى { ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ لَيْلَ النَّهَارِ }. وذكرنا طرفاً صالحاً من ذلك في سورة القتال في كلامنا الطويل على قوله تعالى: { أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ لِقُرْآنٍ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا }. قوله تعالى: { يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا }. قد قدمنا إيضاحه في أول سورة سبأ في الكلام على قوله تعالى: { يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ }. قوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ }. قد قدمنا إيضاحه وبيننا الآيات القرآنية الدالة على المعية العامة. والمعية الخاصة، مع بيان معنى المعية في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }.

قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ }. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي ينزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم آيات بينات، أي واضحات، وهي هذا القرآن العظيم، ليخرج الناس بهذا القرآن العظيم المعبر عنه بالآيات البينات من الظلمات، أي من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور التوحيد والهدى، وهذا المعنى الذي تضمنته هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في قوله تعالى في الطلاق: { وَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ } وآية الطلاق هذه بينت أن آية الحديد من العام المخصوص، وأنه لا يخرج بهذا القرآن العظيم من الظلمات إلى النور إلا من وفقهم الله للإيمان والعمل الصالح، فقوله في الحديد: { لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ

الظلمتِ { أي بشرط الإيمان والعمل الصالح بدليل قوله: {لِيُخْرِجَ لِدِينٍ
ءَامِنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ} .،

فالدعوة إلى الإيمان بالقرآن والخروج بنوره من ظلمات الكفر عامة، ولكن
التوفيق إلى الخروج به من الظلمات إلى النور خاص بمن وفقهم الله، كما
دلت عليه آيات الطلاق المذكورة والله جل وعلا يقول: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ
السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون القرآن نوراً يخرج الله به المؤمنين
من الظلمات إلى النور، جاء موضحاً في آيات من كتاب الله كقوله تعالى:
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ نُورٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً} وقوله
تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ
سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ} وقوله تعالى: {فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا} وقوله
تعالى: {فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} وقوله تعالى: {وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً تَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ
مِنْ عِبَادِنَا} . قوله تعالى: {وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} . قد قدمنا الآيات
الموضحة له في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى: {وَإِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا} . قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى
نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ لِيَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ لَقْوَرٌ عَظِيمٌ} . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن
المؤمنين يوم القيامة، يسعون نورهم بين أيديهم وبأيمنهم وهو جمع يمين،
وأنهم يقال لهم: {بُشْرَاكُمُ لِيَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ هُوَ لَقْوَرٌ عَظِيمٌ} .

وما تضمنته هذه الآية الكريمة مما ذكرنا، جاء موضحاً في آيات آخر، أما سعي
نورهم بين أيديهم وبأيمنهم، فقد بينه تعالى في سورة التحريم، وزاد فيها
بيان دعائهم الذين يدعون به في ذلك الوقت وذلك في قوله تعالى: {يَوْمَ لَا
يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} .

وأما تبشيرهم بالجنات، فقد جاء موضحاً في مواضع آخر، وبين الله فيها أن
الملائكة تبشرونهم وأن ربهم أيضاً يبشرونهم كقوله تعالى: {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ
بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ} وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ
عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا لِحُجَّتِ إِلَيْكُمْ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} -
إلى قوله - {تُزَلَّ مِنْ عَفْوٍ رَجِيمٍ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى:
{يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَرَبَّبْتُمْ
وَعَزَّيْتُمْ أَلَمْ آتَيْنِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ لَعْرُورٌ} . الضمير المرفوع
في ينادونهم راجع إلى المنافقين والمنافقات، والضمير المنصوب راجع إلى
المؤمنين والمؤمنات، وقد ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن
المنافقين والمنافقات إذا رأوا نور المؤمنين يوم القيامة يسعون بين أيديهم
وبأيمنهم، قالوا لهم: انظروا نقتبس من نوركم، وقيل لهم جواباً لذلك:

ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا، وضرب بينهم بالسور المذكور أنهم ينادون المؤمنين: ألم نكن معكم، أي في دار الدنيا، كنا نشهد معكم الصلوات ونسير معكم في الغزوات وندين بدينكم؟ قالوا: بلى، أي كنتم معنا في دار الدنيا، ولكنكم فتنتم أنفسكم.

وقد قدمنا مراراً معاني الفتنة وإطلاقاتها في القرآن، وبيننا أن من معاني إطلاقاتها في القرآن الضلال كالكفر والمعاصي، وهو المراد هنا أي فتنتم أنفسكم: أي أضللتموها بالنفاق الذي هو كفر باطن، ومن هذا المعنى قوله تعالى: {وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ} أي لا يبقى شرك كما تقدم إيضاحه، وقوله: {وَتَرَبَّصْتُمْ} التربص: الانتظار، والأظهر أن المراد به هنا تربص المنافقين بالمؤمنين الدوائر أي انتظارهم بهم نوائب الدهر أن تهلكهم، كقوله تعالى: في منافقي الأعراب المذكورين في قوله: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مَنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ}، {وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ} وقوله تعالى: {وَ زُتِبْتُمْ} أي شككتم في دين الإسلام، وشكهم المذكور هنا وكفرهم بسببه بينه الله تعالى في قوله عنهم: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ زُتِبْتُمْ فَكُلُّهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}.

وقوله تعالى: {وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ} الأمانى جمع أمانة، وهي ما يمنون به أنفسهم من الباطل، كزعمهم أنهم مصلحون في نفاقهم، وأن المؤمنين حقاً سفهاء في صدقهم، أي في إيمانهم، كما بين تعالى ذلك في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} {وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ لِمُفْسِدُونَ}، وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ}، وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الأمانى المذكورة من الغرور الذي اغتروا به جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ} - إلي قوله - {وَلَا يُظْلَمُونَ تَقْبِيرًا}.

وقوله: {حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}، الأظهر أنه الموت لأنه ينقطع به العمل. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ لِعُرْوَرُ} هو الشيطان وعبر عنه بصيغة المبالغة، التي هي المفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوَرًا}.

وما ذكره جل وعلا وفي هذه الآية الكريمة، من أن الشيطان الكثير بالغرور غرهم بالله، جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى في آخر لقمان: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الْآخِرَةُ}، وقوله في أول فاطر {بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ لِعُرْوَرَانِ الشَّيْطَانِ لَكُمْ عَدُوٌّ فَخُذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} وقوله تعالى في آية لقمان وآية فاطر المذكورتين {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}.

وترتيبه على ذلك النهي عن أن يغرهم بالله الغرور، دليل واضح على أن مما يغرهم به الشيطان أن وعد الله بالبعث ليس بحق، وأنه غير واقع، والغرور بالضم الخديعة. قوله تعالى: {وَلْيَوْمَ لَا يُؤَخِّدُ مِنْكُمْ فِدْيَةَ وَلَا مِنَ الَّذِينَ

كَفَرُوا}. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: {قَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ قُدَّتْ بِهٖ} وفي غير ذلك من المواضع.

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ لِحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} * أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يُصَغَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ * أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُمْ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ تَبَاءَهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ لَّغُورٍ * سَابِقًا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنَ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلٍ أَنْ نَبَرَّاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لَكَيْلًا تَأْسَبُوا عَلَى مَا قَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ لِحَمِيدٍ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا لِحَدِيدٍ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آتَائِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}

قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ لِحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}. قد قدمنا مراراً أن كل فعل مضارع في القرآن مجزوم بلم، إذا تقدمتها همزة الاستفهام كما هنا فيه وجهان من التفسير معروفان.

الأول منهما: هو أن تقلب مضارعتة ماضوية، ونفيه إثباتاً، فيكون بمعنى الماضي المثبت، لأن لم حرف تقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهمزة الاستفهام إنكارية فيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في لم فينفيه. ونفي النفي إثبات، فيرجع المعنى إلى الماضي المثبت. وعليه فالمعنى، {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا}. أي أن للذين آمنوا.

والوجه الثاني: أن الاستفهام في جميع ذلك للتقرير، وهو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وقوله: يأن: هو مضارع أنى يأنى إذا جاء إناه أي وقته، ومنه قول كعب بن مالك رضي الله عنه:
ولقد أنى لك أن تناهي طائعا أو تستفيق إذا نهاك المرشد

فقوله: أنى لك أن تناهي طائعا، أي جاء الإناء الذي هو الوقت الذي تناهي فيه طائعا، أي حضر وقت تناهيك، ويقال في العربية: أن يئين كباع يبيع، وأنى يأنى كرمى يرمى، وقد جمع اللغتين قول الشاعر:
ألمأ يئن لي أن تجلى عمايتي وأقصر عن ليلي بلى قد أنى ليا

والمعنى على كلا القولين أنه حان للمؤمنين، وأنى لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي جاء الحين والأوان لذلك، لكثرة ما تردد عليهم من زواجر القرآن ومواعظه.

وقوله تعالى: {أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ} المصدر المنسبك من أن وصلتها من أن وصلتها في محل رفع فاعل بأن، والخشوع أصله في اللغة السكون والطمأنينة والانخفاض، ومنه قول نابغة ذبيان:
رماد ككحل العين لأيا أبينه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

فقوله: خاشع أي منخفض مطمئن، والخشوع في الشرع خشية من الله تداخل القلوب، فتظهر آثارها على الجوارح بالانخفاض والسكون، كما هو شأن الخائف.

وقوله: {لِيَذْكُرَ اللَّهُ}، الأظهر منه أن المراد خشوع قلوبهم لأجل ذكر الله، وهذا المعنى دل عليه قوله تعالى: {إِنَّمَا لِمُؤْمِنُونَ لِيَذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} أي خافت عند ذكر الله، فالوجل المذكور في آية الأنفال هذه، والخشية المذكورة هنا معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: المراد بذكر الله القرآن، وعليه فقوله: {وَمَا نَزَلَ مِنْ حَقٍّ} من عطف الشيء على نفسه مع اختلاف اللفظين، كقوله تعالى: {سَبِّحْ سُبْحَانَ رَبِّكَ أَلْعَلَّ لِيذِي خَلْقٍ فَسَوَّوْا لِيذِي قَدَرٍ فَهَدَى}، كما أوضحناه مرارا.

وعلى هذا القول، فالآية كقوله تعالى: {اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ حَدِيثٍ كِتَابًا مِّثْلَهَا مَثَانِي تَفْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ لِيذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، فالاقشعرار المذكور، ولين الجلود والقلوب عند سماع هذا القرآن العظيم المعبر عنه بأحسن الحديث، يفسر معنى الخشوع لذكر الله، وما نزل من الحق هنا كما ذكر، وقوله تعالى: {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} قد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ} بعض أسباب قسوة قلوبهم، فذكرنا منها طول الأمد المذكور هنا في آية الحديد هذه، وغير ذلك في بعض الآيات الأخر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كثرة الفاسقين، من أهل الكتاب جاء موضحاً في آيات أخر كقوله تعالى: {وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ لِمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} وقوله تعالى: {فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} إلى غير ذلك من الآيات. قوله تعالى: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَبَائِهِ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة الزمر في الكلام على قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا}، وبيننا هناك الآية الدالة على سبب اصفاره. قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن كل ما أصاب من المصائب في الأرض كالقحط والجذب والجوائح في الزراعة والثمار وفي الأنفس، من الأمراض والموت كله مكتوب في كتاب قبل خلق الناس، وقبل وجود المصائب، فقوله: {مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، الضمير فيه عائد على الخليفة المفهومة في ضمن قوله: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ} أو إلى المصيبة، واختار بعضهم رجوعه لذلك كله. وقوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي سهل هين لإحاطة علمه وكمال قدرته.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، أوضحه الله تعالى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} وقوله تعالى {مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} وقوله تعالى: {وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصِ الْمَالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَ بَشِيرِ الصَّابِرِينَ}، لأن قوله: {وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ} قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له جل وعلا قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم، لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: {وَالْأَنْفُسِ}، مما أصاب من مصيبة في الأنفس، وقوله في آية الحديد هذه {لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} أي بينا لكم أن الأشياء مقدره مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم، لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما آتاكم، لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتيكم قل فرحكم به، وقوله: {تأسوا} مضارع أسى بكسر السين يأسى بفتحها أسى بفتحتين على القياس، بمعنى حزن ومنه قوله تعالى: {فَلَا تَأْسَ عَلَىٰ لِقَوْمٍ يُكْفِرِينَ} وقوله: من مصيبة مجرور في محل رفع لأنه فاعل أصاب جر بمن المزيده لتوكيد النفي، وما نافية. قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}. قد قدمنا الكلام عليه في سورة شورى هذا الكلام على قوله: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزَانَ}، وقدما هناك كلام أهل العلم في معناه. قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا لِحَدِيدٍ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ}. بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة والتي قبلها، أن إقامة دين الإسلام تنبني على

أمرين: أحدهما هو ما ذكره بقوله { وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ } لأن في ذلك إقامة البراهين على الحق وبين الحجة وإيضاح الأمر والنهي والثواب والعقاب، فإذا أصر الكفار على الكفر وتكذيب الرسل مع ذلك البيان والإيضاح، فإن الله تبارك وتعالى أنزل الحديد أي خلقه لبني آدم ليردع به المؤمنون الكافرين المعاندين، وهو قتلهم إياهم بالسيوف والرماح والسهام، وعلى هذا فقوله هنا: { وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ } توضحه آيات كثيرة، كقوله تعالى: { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزَّهُمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ }، وقوله تعالى { وَطَرِبُوا فَوْقَ أَعْنَاقِهِمْ وَطَرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَتَانٍ }، والآيات في مثل ذلك كثيرة معلومة، وقوله: { وَمَتَّعْنَا لِلنَّاسِ }، لا يخفى ما في الحديد من المنافع للناس، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ مَتَاعٍ } لأن مما يوقد عليه في النار ابتغاء المتاع الحديد. قوله تعالى: { فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }، قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الزخرف في الكلام على قوله تعالى: { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ } بل مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ. قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَيَجْعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَبَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }، قد قدمنا أن التحقيق أن هذه الآية الكريمة من سورة الحديد في المؤمنين من هذه الأمة، وأن سياقها واضح في ذلك، وأن من زعم من أهل العلم أنها في أهل الكتاب فقد غلط، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة أعظم مما وعد به مؤمني أهل الكتاب وإتيانهم أجرهم مرتين كما قال تعالى فيهم: { لَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ } أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ. وكون ما وعد به المؤمنين من هذه الأمة أعظم أن إتياء أهل الكتاب أجرهم مرتين أعطى المؤمنين من هذه الأمة مثله كما بينه بقوله: { يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنَ الرَّحْمَةِ }، وزادهم بقوله: { وَيَجْعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَبَغْفِرْ لَكُمْ }، قوله تعالى: { وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }، ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أن الفضل بيد الله وحده وأنه يؤتيه من يشاء جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى { وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ }.

وقد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة فاطر في الكلام على قوله تعالى: { مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ }.

تم بحمد الله تفسير سورة الحديد

تفسير سورة المجادلة

{ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ لَتِي تُجَادِلِكِ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَائِرًا لِمَا إِنْ أَلْفَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * لَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنْ لِّقَوْلِ وَرُورًا

وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامٌ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمْ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَتَسْوَأَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَبِقَوْلُونِ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ أَنَّهُمْ لَيَضَلَّوْنَهَا قَيْسًا لِمَصِيرٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَتَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاللَّفْوَ وَاللُّغْوَى وَتَقُوا اللَّهَ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ قُمْ فَأَقِمُوا قَامُوا وَاللَّهُ يُرَفِّعُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَسْخَفْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَيْدِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَوْا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ {

قوله تعالى: { الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ } إلى قوله: { فَاطْعَامٌ سِتِّينَ مِسْكِينًا }. قد قدمنا الكلام عليه موضحاً في سورة الأحزاب في الكلام على قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ إِلَّا لِيُظَاهِرُوا مِنْهُمْ أُمَّهَاتِكُمْ } وبيننا هناك كلام أهل العلم، وأدلتهم ومناقشتها في مسائل الظهار، ومسائل أحكام الكفارة بالعتق، والصيام، والإطعام، وأوجه القراءة في الآية. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ } إلى قوله { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }. قد قدمنا الكلام عليه في آخر سورة النحل في الكلام على قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }، وذكرنا هناك معنى المعية الخاصة، والمعية العامة، والآيات القرآنية الدالة على كل واحدة منهما. قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ }. قد قدمنا الكلام عليه مع بيان الفرق بين النجوى بالخير، والنجوى بالإثم والعدوان في سورة النساء في الكلام على قوله تعالى { لَا خَيْرَ فِي

كثير من يخوهم إلا من أمر يصدق أو معروفي أو إصلاح بين الناس}. قوله تعالى: {ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم}. قال بعض أهل العلم: معنى {ألم تر إلى الذين تولوا}: ألم ينته علمك إلى الذين تولوا.

وقد قدمنا الرد على من قال: إن لفظه {ألم تر} لا تعدى إلا بحرف الجر الذي هو إلى، ولا تتعدى بنفسها إلى المفعول، وبيننا أن ذلك وإن كان هو الذي في القرآن في جميع المواضع فإن تعديتها إلى المفعول بنفسها صحيحة. ومن شواهد ذلك قول امرئ القيس:
ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

والمراد إنكار الله على المنافقين توليهم القوم الذين غضب الله عليهم، وهم اليهود والكفار. وهذا الإنكار يدل على شدة منع ذلك التولي، وقد صرح الله بالنهاي عن ذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون المنافقين ليسوا من المؤمنين، ولا من القوم الذين تولوهم وهم الذين غضب الله عليهم من اليهود، جاء موضحاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} - إلى قوله - مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لِأَيِّ هَؤُلَاءِ وَلَا لِأَيِّ هَؤُلَاءِ}. قوله تعالى: { } . قوله تعالى: { أَتَخَوُّوا أَيْمَنَهُمْ جِنَّةً فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة والأيمان جمع يمين، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح،

والمعنى أنهم جعلوا الإيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين أنهم معهم وأنهم مخلصون في باطن الأمر، ترسباً لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم، وقوله تعالى {فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِ اللَّهِ} الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف أي فصدوا غيرهم ممن أطاعهم لأن صدودهم في أنفسهم دل عليه قوله { أَتَخَوُّوا أَيْمَنَهُمْ جِنَّةً} والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد، كما أوضحناه مراراً.

وهذان الأمران اللذان تضمنتهما هذه الآية الكريمة وهما كون المنافقين يحلفون الإيمان الكاذبة لتكون لهم جنة، وأنهم يصدون غيرهم عن سبيل الله جاء موضحين في آيات أخر من كتاب الله، أما أيمانهم الكاذبة فقد بينها الله جل وعلا في آيات كثيرة، كقوله تعالى في هذه السورة {وَبَخِلْفُونَ عَلَىٰ لَكُذِبٍ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، وقوله تعالى {يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ}، وقوله تعالى: {سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا نُقِلْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأُغَرِّضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ}. وقوله تعالى {وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ سَلَّطْنَا لِحَرَجِنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} وقوله تعالى { أَتَخَوُّوا أَيْمَنَهُمْ جِنَّةً فَصَدَّوْا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وأما صدهم من أطاعهم عن سبيل الله فقد بينه الله في آيات من كتابه كقوله تعالى { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا }، وقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا صَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا }، وقوله تعالى: { لِذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا }، وقوله تعالى: { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ }.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }، أي لأجل نفاقهم، كما قال تعالى { إِنَّ لِمُتَفِقِينَ فِي الذَّرِكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }.

{ لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * سَتَجِدُنَا عَلَيْهِمُ اللَّيْطِينَ فَانْسَلْهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ جَزَبَ الشَّيْطَانُ أَلَا إِنَّ جَزَبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَرَسُولِهِ أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَبَدَّلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ جِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ جِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }

قوله تعالى: { لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً } . قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } - إلى قوله - { خَيْرٌ مِّنْهَا مُنْقَلَباً } . قوله تعالى: { سَتَجِدُنَا عَلَيْهِمُ اللَّيْطِينَ فَانْسَلْهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ } . ما تضمنته هذه الآية الكريمة من إسناد إنساء ذكر الله إلى الشيطان، ذكره تعالى في غير هذا الموضوع كقوله تعالى: { وَإِنَّمَا يُنِيسُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }، وقوله تعالى { فَانْسَأهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ }، وفي معناه قول فتى موسى: { وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ إِنَّ أَدْرَهُ } . قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ } . ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الذين يخادون الله ورسوله داخلون في جملة الأذلين، لا يوجد أحد أذل منهم وقوله: { يُخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } أي يعادون ويحالفون ويشاقون، وأصله مخالفة جهود الله التي حدها.

وقوله: { فِي الْأَذَلِّينَ } أي الذين هم أعظم الناس ذلاً. والذل: الصغار والهوان والحقارة. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون الذين يخادون الله ورسوله هم أذل خلق الله، بينه جل وعلا في غير هذا الموضوع، وذلك بذكره أنواع عقوبتهم المفضية إلى الذل والخزي والهوان، كقوله تعالى: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُخَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَانَ لَهُ تَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ لِحِزْيٍ لَّعَظِيمٍ } وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُخَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثَبُوا وَكَبُتُوا لِيُذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ }، وقوله تعالى { وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لَجَلَاءً لَّعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ } . قوله تعالى { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } وقوله تعالى { وَ طَرِبُوا فَوْقَ الْأَعْتَقِ وَ طَرِبُوا مِنْهُمْ }

كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ { إِلَى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا } وَرُسُلًا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}. قد دلت هذه الآية الكريمة على أن رسل الله غالبون لكل من غالبهم، والغلبة نوعان: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل، وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لمن أمر بالقتال منهم دون من لم يؤمر به.

وقد دلت هذه الآية الكريمة، وأمثالها من الآية كقوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } أنه لن يقتل نبي في جهاد قط، لأن المقتول ليس بغالب، لأن الإقتل قسم مقابل للغلبة، كما بينه تعالى في قوله: { وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقتَلْ أَوْ يَغْلِبْ }. وقال تعالى: { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا } وقد نفى عن المنصور كونه مغلوباً نفيًا باتاً في قوله تعالى: { إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ }.

وبهذا تعلم أن الرسل الذين جاء في القرآن أنهم قتلوا كقوله تعالى: { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ سَلَّكْتُمْ كَدِّيبًا كَذِّبْتُمْ وَقَرِيبًا تَقْتُلُونَ } وقوله تعالى: { قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ لِيذِي قُلْتُمْ قَلِمًا قَتَلْتُمُوهُمْ } ليسوا مقتولين في جهاد، وأن نائب الفاعل في قوله تعالى: { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ }، على قراءة قتل بالبناء للمفعول، هو ربيون لا ضمير النبي.

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح بالآيات القرآنية في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى: { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ } وذكرنا بعضه في الصفات في الكلام على قوله تعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا لِمُرْسَلِينَ }. قوله تعالى: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ }. وردت هذه الآية الكريمة بلفظ الخبر، والمراد بها الإنشاء، وهذا النهي البليد، والزجر العظيم عن موالة أعداء الله، وإيراد الإنشاء بلفظ الخبر أقوى وأوكد، من إيراد الإنشاء، كما هو معلوم في محله، ومعنى قوله: { يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ }، أي يحبون ويوالون أعداء الله ورسوله.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من النهي والزجر العظيم عن موالة أعداء الله جاء موضعاً في آيات أخر كقوله تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ }. وقوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ }، وقوله تعالى: { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ }.

وقوله تعالى: { وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً }. وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَغِلْظَ عَلَيْهِمْ } إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة { وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ } زعم بعضهم أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قائلًا: إنه قتل أباه كافراً يوم بدر أو يوم أحد،

وقيل: نزلت في ابن عبد الله بن عبد الله بن أبي المنافق المشهور، وزعم من قال: إن عبد الله استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه عبد الله بن أبي فنهاه، وقيل: نزلت في أبي بكر، وزعم من قال إن أباه أبا قحافة سب النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه فضربه ابنه أبو بكر حتى سقط. وقوله: {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ}، زعم بعضهم أنها نزلت في أبي بكر حين طلب مبارزة ابنه عبد الرحمن يوم بدر.

وقوله: {أَوْ إِخْوَتَهُمْ} زعم بعضهم أنها نزلت في مصعب بن عمير قالوا: قتل أخاه عبيد بن عمير. وقال بعضهم: مر بأخيه يوم بدر يأسره رجل من المسلمين، فقال: شدد عليه الأسر، علم أن أمه ملية وستفديه.

وقوله: {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} قال بعضهم: نزلت في عبيدة بن الحارث بن المطلب، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، لما قتلوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، في المبارزة يوم بدر، وهم بنو عمهم، لأنهم أولاد ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس أخو هاشم كما لا يخفى، وقوله تعالى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} أي ثبته في قلوبهم بتوفيقه.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تثبيت الإيمان في قلوبهم جاء موضحاً في قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمَنَّ وَرَبُّنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ لُفْسُوقَ وَ لِعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ فَضَلَّ مَن آلَى وَنِعْمَةً}.

تم بحمد الله تفسير سورة المجادلة وهي آخر سورة فسرّها الشيخ رحمه الله تعالى
وغفرله واسكنه فسيح جناته

لاتنسوا الناسخ من دعوه بظهر الغيب ولا تنسوه من خالص الدعاء
وارجوا ان ينفع الله بهذا العمل وان يكون خالصا لوجه الكريم